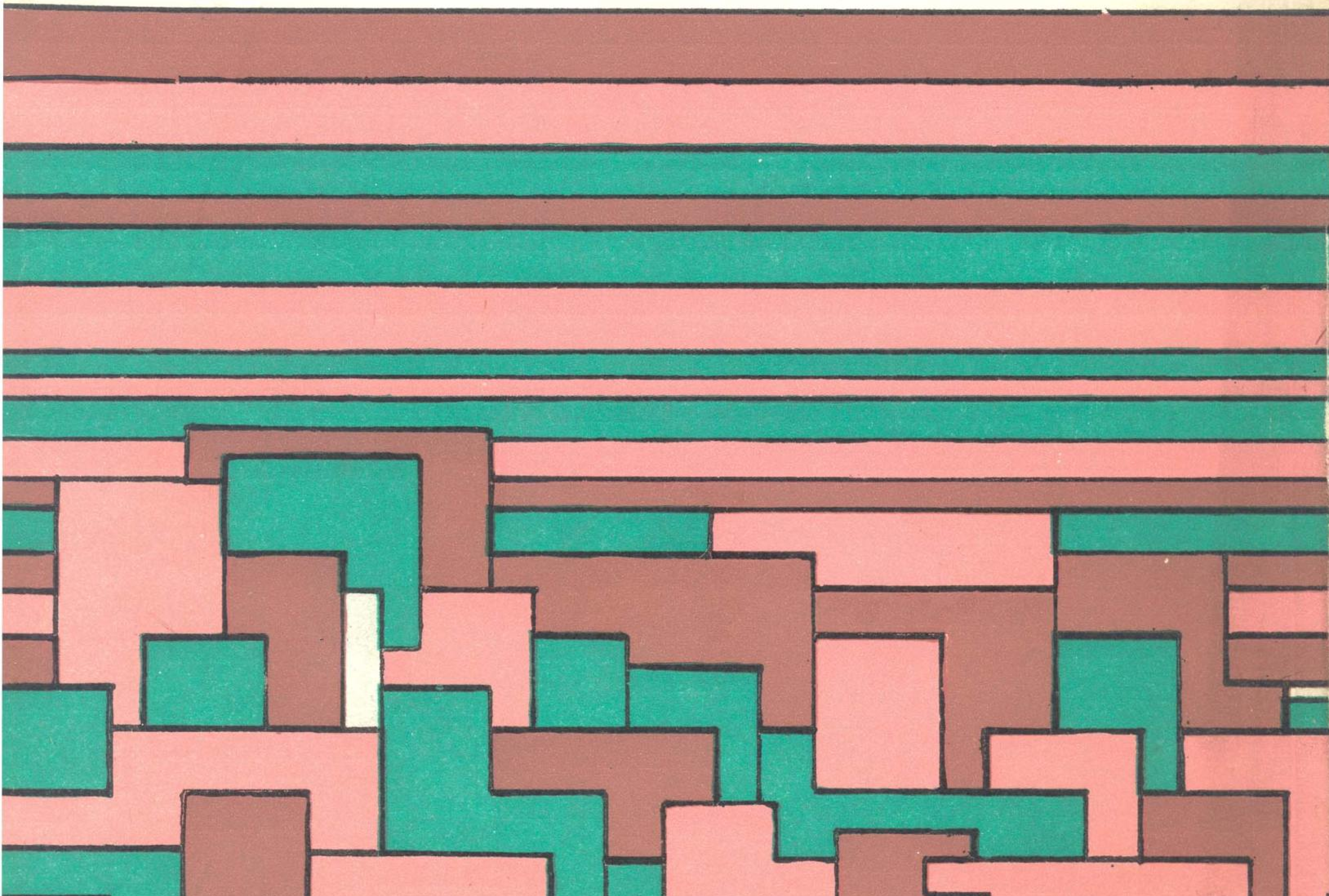
الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق



العدد ٣ السنة الثانية

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة الثانية ـ العدد الثالث ـ كانون الثاني ١٩٧٦

رئيس التحرير

د. أحمد سليمان الأحمد

دكتور في علم الاجتماع الأدبي. السوربون ـ باريس

الدكتوراه العليا في العلوم اللغوية والأدبية ـ موسكو

الادارة: اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ شارع مرشد الخاطر

هاتف ٤٤٦٧٠ ـ المراسلات باسم رئاسة التحرير ص.ب ٣٢٣٠ دمشق

تنويـــه

- جميع المراسلات تكون باسم رئيس التحرير •
- تتوجه رئاسة التحرير الى الأدباء والمترجمين في الوطن العربي لتزويدها بمواد مترجمة من الأدب العالمي في مجـالات القصة والشعر والمسرحية والنقد والبحث الأدبي ، وتقديم أو تلخيص الكتب ذات الشهرة والفائدة الفنية والفكريـة • ويرجى من الأساتذة الذين يرسلون المواد المترجمة أن يرفقوها بالأصل ، من أية لغة كانت ، أو الاشارة الى مرجعها اذا كان مشهوراً • وتعتذر الادارة عن اعادة هذه المواد سواء نشرت او لم تنشر •

كلمة المجلة

ماذا أعطت هذه المجلة ، وماهي خطتها ؟

لا شكَّ في أنَّ الجوابَ الصحيحَ مرتهَنٌ بأعدادِها السابقة ، التي هي ، بدورها ، إشارة إلى المستقبل ، فلا خير في إبداع لا يَمُدُّ يديه الممتلئتين الى الغد ، ولا يلقي ببذرة خصيبةٍ في حقلِ الآتي ٠

ولكنَّ القصص العربي المأثور ، حكاية وشعراً ، يُلِحُّ علينا كلما وقفْنا على مَشارفِ تساؤل يحمل قضية ٠ أليس حقاً إذَنْ أنَّ التراث الانساني متواصل العطاء ولا بُدَّ أن نغدو من دونه ، في فقر مدقع ٠

وهل نذكر ، والحالة هذه ، قصة أبي حمزة الذي غضب لأنَّ زوجته لم تلد له الاّ البنات ، وكأنها ـ وحدها ـ تتحمل وزر هذه الخطيئة ـ اذا اصطلحنا مع أبي حمزة على أنها كذلك،وما هي بالطبع كذلك خاصة ونحن على تخوم عام المرأة ـ ؟

وهل نذكر أنَّ أمَّ البنات قد اهتدت ـ بعفويتها وصدقها ومعاناتها الانسانية ـ الى قانون طبيعي علمي اجتهد ؛ ويجتهد العلماء في إثباته ، وإثبات أمثاله ، عندما فاجأها أبو حمزة وهي ترقص وليدتها وتردد بصفاء شجوها ويسر فلسفتها :

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا
غضبانَ أنْ لا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نعطي الذين أعطينا

وفي الروايات أنّ قلب أبي حمزة رقّ بعد تحجر ، وأنّ أساريره تهللت بعد عبوس ، فماذا نقول « للآداب الأجنبية » وأي شيء يجبهنا به جوابُها ، وهل تسكت حبيةً على بعض المتّهِمين (بكسر الهاء) ام تجعل منهم متّهَمين (بفتح الهاء) ؟

إنّنا راضون عنها إذ تلد البنات ، بنات الأفكار ، وراضونَ عن مكانتها إذ كانت بمثابة المورد العذب ، يكثر الزحام حوله ، وتعلو الجلبة أحياناً • كان ما أعطته معاصراً ، متنوعاً ، غنياً ، سامي التعبير والتقنية والموضوع ، ذا جدوى فنية ، وفنية ـ حياتية • ولكن هل نحن قانعون بهذا العطاء ، وبالرضى عنه • إنّ القناعة في العطاء معناها ، بشكل من الأشكال ، الجمود ، وهذا الأخير بدوره نوع من أنواع الموت ، فهو إذن ـ في نهاية المطاف ـ لا عطاء •

يظلُّ أمامنا أن يشترك مزيدٌ من مثقفي الوطن العربي بتقديم أروع وأجدى الآثار الأدبية الحديثة ، ويظل أمامنا أن يتوفر مزيد من الامكانات المادية لتكون جسراً صامداً تعبر عليه الامكانات الأدبية بلا تردد •

تصورنا غني ، وطموحنا كبير ، ولكنْ لا بُدَّ من تناغم الامكانات المبذولة والمؤهلات المجنَّدة ، وذلك في لحن واحدٍ منسجم •

ومنذ الآن تطرح المجلة على مثقفينا وأدبائنا تصميمها على إصدار أعداد متخصصة في المسرح العالمي ، وفي القصة ، وفي الشعر ، وتقترح لذلك أحدث الانتاج الذي ترك أو يترك أثراً باقياً ـ ولنترك هذه الصفة على عموميتها التي تعمّدناها ـ وأن يجيء هذا الانتاج متنوعاً ، من اكثر من بلد ، ومن اكثر من بستان ادبي ، وأن تكونَ هناك دراسات نظرية تتخلّلُ العطاءات الابداعية • وسنعمد في وقت قريب الى وضع مخططاتٍ كاملة لأدب أمةٍ من الامم أو لأديب عظيم يظلُّ العدد بعدها موسوعة صغيرة ـ كبيرة •

طموحات ترتسم حروفاً على الورق • وموعدنا يوم يجري في الجذوع والهياكل (التصورات) النسغ والدم • ولعلَّ ربيعاً أدبياً نجنّدُ له الطبيعة ، يجنّد بدوره الطبيعة حتى يتمّ له إنجاز ذلك ، ويحق لنا أن نتغنى مع البحتري بجمال وطلاقة « الربيع المتكلّم » •

« رئيس التحرير »

لوسيان بيكر

شاعر من عصرنا

ترجمة : د. أحمد سليمان الأحمد

LUCIEN BECKER

ولد لوسيان بيكر في ٣١ آذار ١٩١٢ في مدينة ميتز Metz . وكان والداه يملكان مزرعة يعملان فيها ، ولربما كان سيسير على خطى ابيه لولا ان هذا الأخير قد توفي عام ١٩١٤ ، وباعت الأم المزرعة بعد ذلك باشهر وانتقلت لتعيش لدى أمها في قرية « ريش » . وهكذا لم يصبح لوسيان فلاحاً ، الأمر الذي سيأسف عليه طوال حياته ، ولكنه سيظل وفياً للأرض ، وستغدو قصائده مشبعة بعطورها ؛

وفي عام ١٩١٨ دخل مدرسة ريش وبرز بين أقرانه كتلميذ مجتهد ، وغمرته حياة القرية بجمال طبيعتها : البساتين ، النهر ، السهل ، الصيد . وهناك المطالعة المستديمة وسط هذا الجمال المستديم . وفي الثانية عشرة كان قد قرأ قاموس «لاروس» الصغير ، المصور ، ثلاث مرات .

وفي الثامنة أو التاسعة وَجَد لوسيان بيكر نفسه وجهاً لوجه مع الموت . مشهد سيترك في نفسه أثراً لا تمحوه السنون . كان الوقت شهر آب ، وكان المكان مَرْجاً على شاطىء النهر ، وكان الطفل يقطف بعض الثمار . وغير بعيد ، كان جواد رائع يلتمع عرفه تحت الشمس . وفجأة أبرقت الدنيا وأرعدت . وسقط الجواد مصعوقاً . وكتب بيكر في مذكراته : « لقد ظننت أنني أنا الذي سقط . اقتربتُ من الجواد . ولكن ليس على الفور . انتظرت عشر دقائق . خاصة وأن العاصفة كانت مجرد غيمة في السماء المشمسة هنا

وهناك ، وكانت هذه الطريقة الغريبة في الظهور تخفي أمام عيني ، نوعاً من الفخاخ ، فلربما كانت الصاعقة التالية مخصصة لي ، بعد أن وفرتني الأولى . لقد شاهدت هذا الجواد الضخم مضطجعاً على جنبه . ما من قطرة دم عليه ـ الشيء الذي أثار دهشتي في ذلك الوقت . في مثل هذه الحالة يتوقف اللسان قاصراً . شاهدته ولكني لم أكن أستطيع وصف الجواد وغالباً ما طرحت على نفسي هذا السؤال : أكان موجوداً في الحقل قبل أن يصعق ؟ إنه الحدث في حالته الصرفة : لا شيء ، أبداً لا شيء في الثانية التي سبقت ثم ها هو عالم كامل من الوجود ينهار . وبعد بضع دقائق كنت أتابع قطافي للقنطريون » .

لقد أثر هذا المنظر على بيكر ، وأخذ بشكل من الاشكال يظهر في أشعاره :

لست إلا بقعة من أرض
محاطة بالموت والليل .

★ ★ ★

السرير جاهز دوماً لاستقبال الموت .

★ ★ ★

لستُ إلا حجراً مُلْقىً خارج حياتي

★ ★ ★

لن نلتقي أبداً
لأن الموت بيننا
مثل الاسمنت بين الحجارة

★ ★ ★

غادر الفتى قرية « ريش » ومدرسته الابتدائية عام ۱۹۲۳ الى مدينة «ديوز» لمواصلة دراسته . وفي يوم من أيام عام ۱۹۲۷ قدر لبيكر أن يطلع على « بيان السريالية » الذي عالج فيه مؤلفه آندري بروتون الصورة الشعرية مستشهداً بريفيردي ، ولوتريامونت ، وديسنوس ، وآراغوان ، وفيتراك .

وفي عام ۱۹۲۹ ، أخذ يكتب قصائده الاولى ويرسلها الى ريني شار . ويجاوبه هذا الاخير دون إبطاء ، وتنشر القصائد في مجلة « ميريديان » . ويتجرأ أخيراً فينشر ديوانه الأول « قلب من نار » الذي ما لبث أن تبرأ منه .

ويقرر بيكر أن يكتب لصاحب «بيان السريالية» عام ۱۹۳۰ وهو عام اختيار بالنسبة للحركة السريالية . ففي الخامس عشر من كانون الاول (ديسمبر) ۱۹۲۹ صدر العدد الثاني عشر والأخير من مجلة « الثورة السريالية » . وقد هاجم بعض المتمردين بروتون ولكن الحركة

وجدت أنصاراً جدداً في شار ، ودالي ، وسادول ، وصدر « الحبل بلا دنس » لالوار وبروتون ، كما صدر العدد الاول من المجلة الجديدة « السريالية في خدمة الثورة » بادارة بروتون ، وبدا أن الحركة السريالية قد تغلبت على الازمة التي تعرضت لها وأن نفوذها قد اجتاز الحدود التي كانت قد توقفت عندها فيما مضى • ويكتب بيكر من مقاعد الدراسة الى بروتون ، وينتظر بلهفة وصول الرد الايجابي بطباعة قصائده • ويجيء رد الشاعر الفتى ذو الثمانية عشر ربيعاً غريباً في مثل هذا الموقف ، إذ أنه بعد ذلك وطوال سبع سنوات ظل في معزل عن كل ما له علاقة بالشعر من قريب أو بعيد •

في عام ١٩٣٢ يستدعى بيكر الى خدمة العلم في سوريا ، وفي ثكنات حلب بالذات • وهناك شاهد الشمس تشرق وتغرب على الصحراء • وعبر بساتين تمتد على العاصي • ولكن ذلك لم يحرك شاعريته • وتعرف في هذه الفترة الى الشاعر اللبناني جورج شحادة الذي كان يقيم في بيروت وتبادلا الرسائل •

بعد الاقامة في سوريا كان على بيكر أن يبحث عن وسيلة للمعيش • وتسجل في كلية الحقوق بمدينة نانسي ثم دخل في الادارة عام ١٩٣٥ • وتزوج في العام التالي • وهكذا وجد نفسه ، في الرابعة والعشرين من عمره ، موظفاً ، متزوجاً لا يتميز على أحد من زملائه • ولم يكونوا ليعرفوا أنه شاعر • ولكن الأدب ما لبث أن انتصر في داخله ، وأخذ يراسل مجموعة من الشعراء الشباب وينشر في المجلة الأدبية المشهورة : « دفاتر الجنوب » Cahiers du Sud الصادرة في مرسيليا •

ومع انتهاء صيف عام ١٩٣٩ غمرت الجدران باعلانات مشؤومة : اعلان التعبئة العامة • إنها الحرب • وجرى اجتياح فرنسا من الشمال الى الجنوب وانتقل بيكر الى مرسيليا حيث أقام علاقات مع المجموعة التي كانت تصدر « دفاتر الجنوب » وفي عام ١٩٤١ ولدت ابنته ريتو بيكر وصدر ديوانه «الانسان اليومي » ، وفي عام ١٩٤٢ صدر له « الوحدة في كل مكان » وفي عام ١٩٤٣ « حتى ولا الحب » •

وفي هذه الأبيات المجتزأة ما يعبّر عن إبداعه وعن أفكاره :

الضوء يبدو ثقيلاً ، منحنياً
على عالم دون معجزة أو بهجة

في عري الدم الذي يـدور في داخلي
أتنشق نفس الحصاة الباردة ·
لفافة تبغ تدخّنُ مكاني

أنا لم أعد موجوداً إلا في بضع خطوات
أقوم بها دوماً في نفس المدار

ليس ثمة في الحقول من ينابيع كافية
لحبس الضياء بين الأعشاب

مامن ميت يراك ، مامن ميت يبحثعنك
الكون وحيد مثل يد مقطوعه

الليل يدور حول المصباح
مثل طائر على شفا السقوط

لم يعد المساء إلا قطعة كبيرة من الأرض
تنقض دون ضجيج على ماتبقى منالعالم

المغيب لم يعد ، في قربه من الأرض ،
إلا جفنا مثقلاً ينغلق

الكلمات ترتعش في الفم كالأوراق

ثغرانا لم ينهيـا قبلاتهمـا
المتبقية بيننا مثل جسر مقطوع

وأنا أضم لحمك إلى لحمي
أعرف لماذا الأرض منتفخة بالهضاب

لماذا تنقلب تحت الغابات
لماذا تسرع نحو نَبْع وليد

هذا اللحم هو المساحة الوحيدة
التي يمكن لقلبي أن يلقي فيها المرساة

عندما لا تكونين هنا ،
عندما تفرقنا حجرة الفضاء الكبيرة
أحسُ أن الموت يمكن أن يبلغني بشكل
أسـهل ·

وينصرف الشاعر بين ١٩٤٥و١٩٥٠ الى حيـاة الحفلات ، والاجتماعـات ، والمعارض · ويبدو وكأنه إنما ارتاح الى هـذه الحياة ، وأنها حملت اليـه الرضى · وهو ينصرف الى هذه الحياة كليا ، لأنه يندفع بكل الرغبة فيأعماقه، ثـم ما يلبث ، وكأنه قـد أتخم ، أن ينسحب مـن اللعبة ، مقتنعاً بأنـه لم يخلق « لحب الظهـور وانحرافاتـه المتعددة » ·

ويبتعد بيكر عام١٩٥٢ عنالاوساط الأدبية الباريسية ويسافر الى « دكر »

عاصمة السنغال • فهل سيكون لهذه الحياة الأفريقية الجديدة أثر في نفسه وفي شعره بالتالي • لنسمع الى ماتقصه علينا هيلين بوفار : « لقد تعرفت الى لوسيان بيكر وقابلته في أفريقيا السوداء • لم يكن لوسيان بيكر يعرف أنه يعيش في أفريقيا • كان لوسيان بيكر في أفريقيا رغماً عنه ، كما كان شاعراً رغماً عنه ، كما أنه موجود ، حي ، رغماً عنه • ماذا كان يفعل لوسيان بيكر في أفريقيا ؟ إنه لم يكن يقرأ ، ولم يكن يسافر ، كان يبقى هو نفسه ، وحيداً مع نفسه ، ينظر الى ساعته الجدارية • لقد سألت لوسيان بيكر عشر مرات ، مئة مرة في الهاتف : ماذا تصنع ؟ فكان جوابه الذي لايتغير أبداً : أنظر الى الساعة الجدارية • وبالطبع كانت الساعة معلقة الى الحائط المواجه لمكتبه » •

وفي الواقع لم يكن بيكر يبدو متعلقاً بشيء ، وكان ، كما قال عن نفسه : « على الأرض دون أن يكون في الدنيا » •

ومما لا شك فيه أن العزلة هي بالنسبة لبيكر قانون من قوانين الجاذبية البشرية التي لا يمكن أن نتهرب منها • ولكن هذا الرجل التائه في شعاب الوحدة ما لبث أن أخذ يحتل مكانه ، شيئاً فشيئاً ، انسان ملتزم ، ولكنه موزع ، بين رغباته وبين امتلاك جسد • لقد أحس بنفسه منجذباً الى الجمال الساحر والى الحرية التي تعده بالتغير والتجديد • واندفع ، في هذه الفترة ، وراء شهواته ، وسجل كل ذلك ولاحظ ووصف ، وغدا شعره يتجه بكليته نحو مجد الجسد الذي تنتصر فيه الرغبة أبداً • ولكن كل هذا لم يكن ليمحو من أمامه شبح الموت • كان يبعده للحظة • كانت الرغبة تلعب دور الفينق لدى بيكر : تلتهب ، وتخمد ، ثم تطير في نظرات النساء •

نظرتكِ ، الرحبة قياساً بالفضاء
تجعل مني كائناً
يبحث عن طريق
لا يتعدى جسدك •

أنتِ الشيء الوحيد
الذي أستطيع الاحتفاظ به إلى صدري
وعيناكِ المحبتان فريدتان
مثل أجمل غروب شهدته طفولتي •

وفي عام ١٩٥٥ يغادر بيكر « دكر » ويعود الى باريس • ويبدو وكأنه آثر

الابتعاد عن الناس ، بل الذوبان في تيار الحياة • سبع سنوات من صمت يتلوها عام ١٩٦١ وديوان « الصيف بلا نهاية » • وأخذ صوته يهمس بعد أن كان يغنّي • وخرج من مخدع المرأة الذي كان قد وجد فيه ملجأه الأخير ، وصافحت عيناه العالم بتناقضاته وقبل الوميض الذي كان يعده ولو بنغبات متفرقة من ينبوع الفرحة والسعادة • ونحسُ ، في هذه الفترة ، بأن أفقه قد اتسع ، وأن نظرته قد تحررت • ولم يعد يهرب من الأشياء ، بل أخذ يتفحص المسافات ، ويفرط عَبْرَها السنابل التي يمكن له أن ينقذها ويتغذى بها • بَلْ يتخلص من الحس الأرضي الذي كان يربض في أعماقه منذ الطفولة :

وعلينا أن نبني أهراء حتى السماء
لنحتفظ بالثمار التي تلد الربيع •

وبعد أن كان يتجه الى القرية « التي تمسُ أجنحتها الأرض كأجنحة العصافير الميتة » أخذ يرى أن •••

القرية تحسُ بلحظة سعادة
لأن دخانها يذهب عالياً ، عالياً في السماء

شجرة الطريق لا تخفي سعادتها
فهي تاخذ ، دون سبب ، بالتالق مثل الثريا •

حتى الحجارة ، التي لعبت دوراً هاماً في خيالات بيكر الشعرية ، لم تعد تلك « التي هجرتها الأرض » والتي تمثل سلفاً نهايتنا القريبة ، وإنما غدت ثماراً تكشفت عنها الأرض ، وحيوانات مغفية ، والشهود على النارِ الأولى :

إنها متناثرة مثل ثمار شجرة
مدفونة منذ عهد مديد بعيداً جداً في التراب
لأن العصور ، بمساعدة الريح ، تهاجم
كلَّ مايلحُ على أن يحيا واقفاً •

ودون أن تنفصل لحظة عنْ صمتها ،
تلقي النظر على الرجال الوقورين فحسب
هؤلاء الذين يستولون عليها ليقلبوها بين أيديهم
كما كانوا سيفعلون بحيوان راقد •

ومع ذلك فليست بحاجة الى أي كان
كي تتذكر الخطى الأولى لعالمٍ
عرفته أفضل من أي آخر في عصرٍ
كانت تعلّمُهُ أن يَصْنعَ النار •

كان بيكر يقول : « ان وحدتي ليست عبثاً ، ذلك لأنها في أغلب الاحيان وحدة مقتسمة، اذا جاز هذا التعبير• ومن جهة

أخرى فاني أقرأ جميع الصحف والمجلات الاسبوعية (ولا علاقة لها بالأدب بالطبع) الصادرة • أستطيع أن أقدم تقريراً عن جميع قضايا اليوم ، من مشكلة لاوس الى خفض مكوس الجمارك، مروراً بالنزاع بين الدولة والكنيسة في بولونيا • حقاً إني أطلع على كل شيء• وكنت أشعر بنفسي وحيداً ، أكثر فأكثر ما بين ١٩٤٥ و ١٩٥٠ عندما كنت أشارك في حفلات «كوكتيل» واجتماعات أو معارض » •

ولعلَّ عزلة بيكر هذه ، والتي هي شيء من الفضول الذي يريد أن يشمل كل شيء ، إنما كانت نوعاً من الشعر الذي يسعى الى متطلبات جديدة• وجاءت قصائد « صيف بلا نهاية » شاهداً على الشاعر في طريق التفاؤل المأساوي • أجل إن الخوف من الموت الذي نلمسه لدى بيكر يؤدي الى كلمة « نعم »حارة يهتف بها للحياة • أولم يعبر عن ذلك بتلك الصيحة التي أطلقها : « ان الحياة جميلة حتى الموت » !!

لنقبل بـه إذن على أنه شاعر هـذه الحياة ، بكل مافيه من صدق ،وحماسة، وإبـداع •

حتى ولا الحب

الى جو بوسكي

- ١ -

لا يـد تستطيع مساعدتك
على شاطيء الميل الذي يتصاعد حتى عنقك •
لا تستطيع انقاذ أي شيء ، حتى ولا هذه النظرة الانثوية
التي عشت طويلاً لأجلها •
من العالم ، لم تعد ترى إلا أشجاراً تتساقط •
تحس أن كل كلمة تلفظها

تتصلب مثل حجر يعبر الفم ·
تحس أن الحب كان مايزال وحدة ·

السماء جميلة مثل جبين ، والنساء أكثر شباباً
من كل وزن العشب في ريح الصباح
ثمة أطفال مرحون ينظرون اليك
دون أن يعرفوا بأن الموت موجود أيضاً لأجلهم ·

بعد أن أدرت نظرة في العالم
لم يعد لك حق إلا في مكانٍ على الأرض
عليك أن تدفع ثمنه ، اذا أردت أن تكون وحيداً ،
وحيداً كما يستطيع وكما يجب أن يكون الأموات ·

- ٦ -

في مكان ما ، من بيت هادىء
تمرُّ الشمس عبر النوافذ
واذا يخال الغبار نفسه وحيداً يأخذ بالرقص
دون ضجة إلا تلك التي تثيرها حشرة ·

ثمة في البعيد صياح طفل
أو نباح كلب جثمت عليه الوحشة ·
ثمة ، في العشب ، خطى ينبوع
حيث البحر ،متخفياً ، يتخذ مكانه الوطيد ·
وفجأة لم يعد في النهار الرحيب
إلا دبُور تائه يرتطم بالزجاج

إلا عصفور" أحرقته الشمس
يسقط مثل ورقة وسط السنابل •

والغرفة الأعمق من العالم
تقف في الظل قرب الباب
بقلب توقف عن الخفوق
إذ لم تعد ثمة شمس على النوافذ •

- ٩ -

الجلد على الدم مثل ورقة
تتمزق في مكان العيون
ونشاهد جيداً أعماق النظرة
تتألق ، للحظة ، بشيء من النار •

إنه الرجل نفسه ، عابراً من ليل الى ليل ،
موارياً رأسه في السماء الخفيضة •
وعندما يعود ، يجد دوماً
نفس الظل الذي يغل خطاه •

إنه الرجل نفسه الذي تتقاذفه الواجهات
المركَبّة' على الأعماق البحرية •
نفس الرجل محاطاً بالعصور
ولم يعد يجد على طريقه مفارق •
يسقط المطر مستقيماً كالحصائد
ويبحث عن ممر في الريح الصلبة •
والنهار الوليد شامخ ، فارغ
حتى لم يعد ثمة إلا إنسان على الأرض •

- ١١ -

المصابيح تذبل في الليل الجاثم
على المدينة التي آلت الى جدران ،
على الموت الذي آل الى بضعة أجساد ،
على الرجـال المضطجعـين على امتـداد الغرف ٠

البحر ، مفتح العينين ، ينغرز في ظله
حتى لا يعود يرى نجوماً
حتى يرى الأرض تنطفيء
في جمرة النوافذ المسحوقة ٠
الغراس ، سراً ، تصنع جسوراً من ندى
على الحقول التي يركض عليها
النداء الحائر لقطار يراه أحدهم
في الفجر على بعد مئات الكيلومترات من هنا ،

شرساً ، واثقاً مثل عاصفة ٠
ثمة حصى احتفظت
بقليل من النهار تحت خطى انسان
لم يعد ، في ظله ، يتمكن النهار من البزوغ ٠

- ١٢ -

الأرض في انتظارها تحبس الأنفاس
تحت المطر الشفاف كالحصى
وأنا أركض ، مقتلعاً يدي من الريح ،
نحو الغرفة حيث أتأمل نفسي

في أربعة جدران لم تتغير ،
في سقف حيث أموات كثيرون
لم يجدوا مكاناً لنظرة أخيرة ،
في زجاج لستُ فيه ، مطلقاً ، نفس الرجل ·

مثل ينبوع ، بعيد ، بعيد في غابة
نسمع خفوق القلب حتى الأصداغ ·
مثل بلاطة تستضيء فجأة بالمطر
تبحث العين عن الليل في النافذة ·

والمصباح ، عالم فوق عالم ،
في منتصف الدرب بين السماء وجبين الناس
خفوقه ليس وجيب قلب
بل نبض الأشياء العابرة الى الخلود ·

قصائد

- ١ -

بقي لنا المطر عارياً على البلاط ،
عارياً على الراحات ، عارياً على الدموع ·
بقيت لنا النساء اللواتي أحببناهن من نظرة واحدة
وعبرن بوجه من غير جواب ·

كلُّ أثرٍ أدل به على الدروب
يغلق قبراً ليس قبري ·
ولكن ، قريب هو الزمن الذي سأضيع فيه
وشفتاي جافتان من الوحل ، تحت جسر السماء العالي ·

حياتي لم يكن لها حتى البريق السريع
للندى المعروض ، للحظة ، تحت الشمس
وسوف يتذكرها المدى مثل أنفاس
كانت تهزُّ فمي مثل ورقة •

ومن جسدي المتناثر ستنهض غراس
يكون لها شيء من نظراتي على فروعها
ولن يعلم أحد أني أبعث فيها
وحيداً كالبركة الأخيرة محمولةً على الأرض •

أصداغ أخرى ستحصي الدم قطرة قطرة
وتمتزج رفاتي بغبار الأثاث
منتظراً أن أخرج من ثيابي حياً من جديد
كما في اليوم الذي تراجع فيه العالم أمام جبيني •

- ٢ -

لدى كل خطوة تتخلى عني الأرض ،
لدى كل كلمة تشتعل الحياة من جديد ،
لدى كل قبلة أجد عربي •
وعلى جبيني شيء من شموخ السماء •

كل ما من شأنه أن يرضي رغائبي
يهرب مني مثل نهر يفرُّ من منبعه •
وينزلق النهار الذي لم أحسن إمساكه بين الأهداب •
وتحتوي النساء أفخاذ دوماً أكثر جمالاً •

تَصْدي الوحدة في داخلي مثل حجر
يلامس ، في بئر ، الماء الذي لا نراه ·
يداي فارغتان مثل شجرة
ألقت الى الريح بأوراقها ·

لم تعد ثمة من حرارة في جسدي
إلاّ كما في أعمــاق الجدران حيث أنغرز ·
وفي غمرة ، الملابس الداخلية واللحم والجلد ،
تمرّ النساء خالداتٍ كالحصاد ·

ودفعة واحدة تنشقت نسيم الفضاء
القادم من وديان مُرِنَّةٍ مثل جراح ·
ومن القبور ، حيث يلتئم جرح الأرض شيئاً فشيئاً
يصعد صوت ليس بصوت أحد ·

- ٣ -

النور الذي يتهاوى عليّ
عندما أسـير في الليل
جرح وجهي جراحاً بليغة
لا يمكن للنهار أن يلأمها ·

إنه لوجه عارٍ حقاً
ينغرز في لحمي المتغرّب
عندما يبحث العالم ، صباحاً ،
في أكداس قاذورات الشارع ·

النوافذ ثقوب
أرمق منهـا السماء بأقرب

مما أرمقها من أعلى البروج :
مستنداً إلى الظل ، يمكنني أن أكون واقفاً •

عندما تشرق الشمس
أعتقد أنها ستساعدني على الحياة
ولكن في أعماقي يصدأ الدم
هارباً من قلب لن يرى النهار أبداً

عندما امرأة عليها أن تكون جميلة
تظل أقرب اليّ من كل ضياء الأرض ،
أكون واثقاً أن باستطاعتي أن أحبها
ولكنّ الحشود تحملها بين الأذرع •

في غرفة ، تنتظرني امرأة
جسدها بكل حرارته سيتفتح لجسدي
في لحظة ، وبامتلاء
لا يمكن لشيء أن يحده ، حتى ولا الموت •

- ٤ -

يجب أن نحب المرأة مثل شيء
لا قيمة له إلاّ بالشكل أو المظهر •
ليس لها إلا بشرتها لممارسة الحب
تماماً كما ليس للسماء إلا الماء
تهبط اليه فتغدو أرضاً وسط البرك

ليس لكلمات الحب من معنى
أكثر من حصيد بديع سيقطعونه
والنظرات التي ينتزعها من ليلته
لا تطيل النهار لحظة أكثر •

والأيدي التي تأسر امرأة
مثــل شيء على شفا الذوبان
تدخل في جسدها دون حدود
وتتلوى مثــل غابة من السرخسيات ·

عنيف ، بكل ما تعتملُ الرغائب في نفسي ،
مأخوذ بالموت الذي لا يني ينتظرني ،
أتجهُ اليكن ، يا نساء كل الأيام ،
مثل غرسة نحو نوافذ النهار العالية ·

ذلك لأني أتذكر طرقاً تصنع من العــالم
مكاناً لا لقاء فيه أبــداً
فالموت يدور أسرع منه ،
تاركاً الرؤوس الفارغة تطفو لدى كل أفق ·

- ٥ -

الحياة جميلة ، جميلة حتى لتنتزع الآهات ·
لدى كل مفترق ، تغيّر رأساً ،
لدى كل قبلة ، تغيّر فماً ،
لدى كل امرأة ، تغيّر نهوداً ·

النظرات ، واحدتها أجمــل من الأخرى ،
وكل منها ، إذا ما أشرقت في وجه امرأة ،
تثير مثل اضمامة الشمس الأخيرة
المنسكبة على مدينة تنغمر في المساء ·

في زاوية الشفاه ، دم
ولكن لا أحد يستطيع إزالته

ذلك لأنه يأتي قُدُماً من القلب
مذكّراً أن الفم ينبوع نار ٠

غرف الفندق كابيــة اللون
ولكنَّ فرحة الأجساد تشتعل فيها ،
محتواةً بين بَشَرَتَيْنِ راعشتين ،
غير مرتوية مثل صيف بأكمله

الأيدي تركض ، تتجمع ، تستغرق في تأملاتها
مندهشة ، لدى كل محطة ، من ملامسات
ترعش غابةً بأكملها ،
ترفع البحر إلى أعلى موجاته ٠

ولكن القلب يظل لا مباليا
بالكلمات التي يسكب فيها الحب حرارته :
فهو لا يريد ، لا يستطيع أن يختار
ذلك لأن الحرية هي أيضاً أجمل من الحب

- ٦ -

لــم يعد ثمة في المدينــة
ـ حيث النجوم نوافذ جدرانها العالية ـ
الا ضياء بعض المصابيح
التي تغمر الشوارع بمياهها الراكدة ٠

اندفع آخر العابرين ، مطرق الرأس ،
نحو باب ينغلق دون ضوضاء
على ممشى مديد ، بارد ،
كما لو أنه نفق تحت جبل ٠

أبداً لن يصل الى نهاية هذه الفرْجة في الليل •
وجوده ثقيلٌ حمله
لأنه يعرف أن في أعلى السلم
ثمة دوماً نفس الصريعة التي تنتظره : الوحدة :

يعرف أن ألوف النساء
في مكان ما من عالم أحكم رتاجه
يكتشفن تحرُّق أجسادهن الخفي
إلى حنـــان قبلة ، إلى عنف ضمة

ستار من جص يسقط على حجرته
فما فائدة فتح النافذة
التي قد يقدم منها الربيع ، ممتلىء اليدين ،
مذكراً إيـــاه أنه ليس في المحتفلين ؟

مصباحه سيأتلق طويلاً بين النجوم •
ولكن لا تظنوا أنه يكتب قصيدةً ما :
فهو ، ببساطة ، ينتظر
ليحاول أن يحيــا نهـــاراً شبيهـاً بغـيره •

(٧)

فتشت في لحمك عن سبب للحياة ،
لم أجد إلا جسداً يعود منه فمي
بنفس القبلة الفولاذية ،
بنفس الحلمة النـــارية الجسورة اليائسة

لحظة كانت الأرض تصعد حتى يديّ
في نبض بَطْـــنٍ يكـــاد يتفتـــح ،

كنت أهتف بفرحتي للكائن الذي أتدحرج عليه
كما على أعلى موجة بحرية ٠

كنت أحـاول أن أنطلق بعيـداً عبر هـذا اللحـم
ولكني كنت أقطعه فقط مثل خطوة
أجد أثرها في ربيع من الندى ،
مثل ثقب شمس في قلب العالم ٠

الكلمات التي كنت ألهج بها لأصل الفضاء بأنفسنا
كانت تتساقط كالعصافير
التي تشبثت السماء بأسرها في نظراتها
وظل الحبُّ منيعاً بين عيوننا ٠

كان جسدك يفقد شيئاً فشيئاً وجهه ،
وكان العالم ينغلق ، للحظة ، علي
وفي ضوء هذه المرأة التي كانت تخفي الأرض عني
كنتُ أجد غاباتٍ من العذوبة ٠

وكنا بعيدين الواحد عن الآخر
كما النور عن الحجر الذي يلامسه ٠
وكنا نتلاقى في عرينا كما أمام مرآة
ليست بحاجة الى النهار كي تعرف نفسها ٠

في قلب الخلود ، في هبوط لا متناهٍ
من جبـل الى جبـل ، مـن بقعة جرداء في غابة الى بقعـة ،
كان جسدانا يتمسكان بأغصان الحنان
المولود من نهد متوتر على كتف ٠

لحمنا العاري مثل صباحِ النوافذ
كان يصعد بانبثاق واحد نحو وجهينا

المندهشين من أنه لا حدود لهما إلا عمق نظرة ،
ولا شيء يفصلنا عندما كنا نغلق العيون ٠

كانت اللذة جديدة مثل ذائب المعدن ٠
ولم تعودي إلا ثمرة سقطت على العشب
ولكي أتذوقهـا كان عليَّ أن أبحث عـن فمـك ،
كـان عليَّ أن أتملى من نهديك وبشرتك ٠

قبلة ٠ وهذا وجودنا يخف حتى يغدو بلا وزن
بسمة ٠ وهـذا الحب يغمر كـل الوديان
نظرة ٠ وهذا البحر فوقنا
كلمة ٠ وهذا العالم يعود بطيئاً تحت أقدامنا ٠

- ٨ -

أحبك كما يحب المرء يوماً صيفياً جميلاً
واقفاً وشامخاً بين النهار والمساء ٠
أفكر بك بقوة
حتى أن غيابَكِ يصطفق في داخلي مثل باب في الريح ٠

وحدها ، الآن ، ذاكرة عمياء تذكرني
الملامسات التي كان جسدك يحيط بها جسدي
كما في غاباتٍ لا يمكن قطعها ،
ولكنها لا تستطيع أن تعيد إليَّ امتلاءَ لحمك ٠

أبحث عنك في داخلي كما في مدينة مقفرة
ومع ذلك ففي كل لحظة ألتقي بك
كما الأرض ، لدى كل خطوة ، تلتقي بالينابيع ،
ولكني أحسُّ بالبرد إن فقدتُ حرارة يديك ٠

وصوتك ، صوتك الذي كان ينعشني

كما يُنعش اللهب الجمر ،
صوتك لا مكان له ، حتى على فمي
الذي كان يمتزج به حتى صمت القبل ·

- ٩ -

ريتو ، رأسك جميل تحت شعر
تقع الشمس عليه كما في شبكة
وفي المساء تشتعل المصابيح أعذب فأعذب
لدى ملامسة غدائرك ونظرتك ·

واثقة من نفسك ، تمدين اليدين للمطر
وتدهشين اذ لا تستطيعين احتباسه ·
والكلمات على ثغرك مثل غراس
تثقب الأرض في نداوة الصباح ·

الأعشاب تلامس وجهَكِ
بأبْهى ملامساتها الحيوانية
وجميع الأزهار تحتفي بك
كما لو أن العالم ُولِد معك ·

عندما تغلّين في البحر ،
تضحكين من أنه لم تعد لك ساقان
والماء الذي تثيرينه انبثاقاً
يتساقط عليك كالأوراق ·

الفراشات تلاحقك
كي تحط على عينيك
والندى على خديك
أولى قبلات الحب لك ·

بابلو نيرودا

عن شعري .. وعن حياتي

ترجمة : هاشم حمادي

كلكم تقريباً تعرفون فيغا ـ سنترال ـ السوق المركزي •

وأنا أيضاً عرفته • كنت أذهب إلى هناك ، مثل العديد من سكان سانتياغو لشراء البندورة ، وحصيرة القصب ، أو قطعة السجاد •

وحتى الآن لا تزال تباع هناك هذه الحصائر القصبية الرائعة ، ومصنوعات الفخار الأزرق ، بامايري وكينتشيمالي • ومن ورائها تبدو تلال الملفوف ، وأنهار الذرة ، وهضاب البطاطا •

إنني أعبد السوق • ففي **شنغهاي** كان أول عمل قمت به هو أنني ذهبت إلى السوق • ونفس الشيء قمت به في مارتينيك ، وفي كولومبو وباتاوي • فأسواق المدن المدارية تصعقنا كما الفراشات أو الشعراء المداريين •

الألوان الصارخة ، والروائح المثيرة•

إن أسواقنا ومعارضنا محرومة من تلك الروعة ، التي تميز أسواق البلدان الاستوائيـة ، ولكن لديها تحفاً أخرى لا تقل عن تلك ـ الثمار اللذيذة الطعم للأراضي والبحار الجنوبية •

ويجب أن أعترف أنني كنت في الماضي، كما يحدث لنا جميعاً ، أحدق بكلتا عيني بتلك الفواكه والخضار الرائعة في السوق المركزي • ولم أكن ألاحظ الناس ـ النساء والرجال • فلم يحدث أبداً أن أوليت أي اهتمام للجمهور ،

الذي كان ينقل هذا الشيء أو ذاك ، يصعد ويهبط والأكياس على ظهره ، يكتظ ويسعى جيئة وذهاباً ، هناك ، عند أقدام معبد الخضرة المقدس ·

إلى أن جاءني الوحي في أحد أيام ١٩٣٨ ، وهاكم ما حدث ·

كنت قد عدت آنذاك من اسبانيا · كانوا يدعونني الى العديد من الاماكن المختلفة، لكي أتحدث، ويستمعوا الي· وفي كل مكان كان يطالعني حب الاطلاع المبارك ، الذي يميز التشيليين ·

وفي أحد أيام الشتاء عدت الى المنزل أشعر بالتعب والبرد ، وحين هممت بالذهاب الى الفراش تذكرت فجأة ،أن ثمة من ينتظرني في هذا الوقت بالذات·

تناولت معطفي وقبعتي وإحدى مجموعاتي الشعرية ، التي كانت في متناول يدي ·

أعطيت الورقة ، التي تحمل العنوان الى صديقي ، وبعد عدة دقائق كنا هناك ، حيث كانوا ينتظرونني ·

كان ذلك السوق المركزي ، وعندما دخلت مبنى النقابات المحلية ، شعرت ، للحظة قصيرة ، بالشك الهائل ، فقد أدركت أنني أمام حمالي السوق · ولم أكن مهيأ للتحدث اليهم ·

لقد استحوذت عليّ نفس الحيرة ، التي عانيت منها قبل عدة سنوات في مدريد ، حينما دعوني أنا وفيديريكو غارسيا لوركا الى الجامعة ، لنقرأ أشعارنا الأخيرة أمام الطلاب ، الذين يدرسون الآداب · وكان فيديريكو قد أعد بدقة كلمة قصيرة يقدمني بها · ولكن ما أن صعدنا المنصة حتى رأينا أن من في القاعة ليسوا جمهوراً أدبياً، بل مئات من تلامذة المدارس ، وقد خلقوا ضجة جهنمية ·

وحين صعدت لاتحدث استطاع فيديريكو أن يقول لي بصوت خافت : « ياله من مأزق يابابليتو » · والآنأنا أمام حمالي السوق ، ولم يكن أحد الي جواري ، لكي يهمس في أذني ·

جلست · لم يكن معي سوى كتابي « اسبانيا في القلب » · وأمامي كانت وجوه ذات ملامح حادة ، وكانتالايدي المخيفة ترقد على ظهور المقاعد · وبدل المرايل كان الجميع ـ تقريباً ـ يستخدمون الاكياس الملوثة بالطين · ومن تحت المقاعد كان يبدو عدد كبير من الصنادل ·

لم أستطع العثور على شيء يقال . وبدأت ببساطة أقرأ الكتاب الذي أحضرته معي . قرأت لهم الاشعار عن الحرب الاسبانية ، تلك الاشعار الملأى بالعاطفة والمعاناة . كنت أقرأ القصيدة تلو الاخرى ؛ الى أن أتيت على الكتاب كله ـ تقريبا ـ .

لم أفكر أبداً أن «اسبانيا في القلب» كتاب سهل ففيه اهتمام بعالم الانسان، بالحقيقة الدامية والمعذبة . وكان غموض الفكرة في هذا الكتاب لا يزال في بداية التلاشي .

في ذلك اليوم أدركت أن علي أن أضع ـ وبشكل حازم ـ حداً للعديد من آرائي الشعرية الباطلة .

ومع ذلك فقد تابعت القراءة . وفجأة ، وبرعب ، شعرت أنني في فراغ مطلق . فالحمالون كانوا يصغون إلي بصمت القبور .

إن أولئك الذين لم يحتكوا بشعبنا، لا يعرفون كيف يصمت التشيليون . إنه صمت المقابر ، ولا تعرف السبب الداعي له ـ هل هو الاحترام أم الادانة المفرطة، فأنت لا تستطيع أن تقرأ أي شيء على أي من هذه الوجوه . فلا تحاول أن تقبض على أية إشارة عابرة ـ عبثاً .

إنه أكثر الصمت ثقلاً في العالم . هكذا ، يصمت المسلمون في الصحراء ، الغارقون في التفكير .

انتهيت من قراءة الاشعار ، وحينذاك حدث أهم حدث في حياتي الأدبية كلها . فالبعض بدأ يصفق ، والبعض كان يجلس ورؤوسهم منحنية ، ومن ثم التفت الجميع الى الرجل ، الذي يبدو أنه قائد نقابي . وقد نهض هذا الرجل ، وهو يستند على المقعد بيديه القويتين ـ وكان مثل زملائه قد لف الكيس حول وسطه ـ ثم قال ، وهو ينظر إلي : « أيها الرفيق بابلو ، هل تعرف ، ان أحداً لا يهتم بنا ، واننا ... إننا لم نعان من قبل مثل هذا التأثير الهائل ، إننا نريد أن نقول لك ... » .

ثم أجهش بالبكاء . وقد شاركه البكاء العديد من الاشخاص الذين يقفون قربه . وهنا شعرت بضيق في حنجرتي ، ولم أكن قادراً على التغلب عليه .

إن الاحاديث كثيرة حول كيف يجب أن يكون الشعر ـ بهذا الشكل أم بذاك ، سياسياً أم لا سياسي ، نظيفاً ، أم غير نظيف .

لست أفهم هذا النقاش ، ولاأستطيع المشاركة فيه ٠

فالبلاغة والشعر في أيامنا هذه لاينبعان من الكتب ٠

إنهما ينبعان من مثل هذه الاجتماعات، التي ينفطر لها القلب ٠ حيث يقف الشاعر ، ولأول مرة ، وجهاً لوجه أمام الشعب ٠ وهنا لايطالبه أي كان بأي شيء ٠ إنني إذ أقرأ ما يكتب عن أشعاري ، أضع الكثير في الميزان ، وأحسب طويلا ، ماذا بالذات ٠

ولكن ماهي الصفحة ، التي استطاعت في هذا الميزان أن تحدث هذا التأثير على الاجتماع ؟

حينذاك بدأت لا أفكر فقط بالشعر الاجتماعي ، بل شعرت بأن عليّ ديناً لوطني ولشعبي ٠

وفي البداية فكرت ب « النشيد الشامل » فقط كنشيد تشيلي ،كملحمة مكرسة لتشيلي ٠

كنت أريد أن أحتضن كل شيء : وصف الناس ، الذين يعيشون هنا ، ماذا ينتجون ، وطبيعة البلاد الحية ٠

ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي في وضع معقد ، لأن جذورنا ، نحن التشيليين، تمتد عميقاًتحت الأرض،وتظهر في مناطق أخرى ٠ ف٠٠ «أوهينكز»(١) يمتد بجذوره الى « ميراندا »(٢) ، و « لاوتارو »(٣) من أقرباء « كوآوتيموك »(٤) ، وصناعات أوآهاكا(٥) الخزفية تحمل نفس اللون الأسود ، الموجود في فخار تشيليان(٦) الأزرق ٠

١٨١٠ ـ عام رائع ٠ فقد كان هذا العام رائعاً بالنسبة للجميع ٠ في ذلك العام تمرد الجميع ، لكأنه الراية

(١) « اوهينكز بيرناردو » (١٧٧٨ ـ ١٨٤٢) من كبار رجالات حركة التحرر في أمريكا الاسبانية ، زعيم الحكومة ، التي أعلنت في عام ١٨١٨ استقلال تشيلي ٠

(٢) « ميراندا فرانسيسكو » (١٧٥٠ـ١٨١٦) وطني فنزويلي ، واحد من زعماء النضال من أجل استقلال المستعمرات الاسبانية في أمريكا ٠

(٣) « لاوتارو » (١٥٣٥ ـ ١٥٥٧) زعيم الارآوكان ، أعلن النضال ضد الغزاة الاسبان وأعدم على أيديهم ٠

(٤) « كوآوتيموك » (١٤٩٧ ـ ١٥٢٢) آخر زعيم من زعماء الأتستيك ، الذين وقفوا في وجه الغزاة الاسبان ، وقع في الاسر ، ثم عذب وأعدم ٠

(٥) أوآهاكا احدى ولايات المكسيك ٠

(٦) تشيليان ـ المدينة الرئيسية في الاقليم التشيلي نيوبلي ٠

القرمزية للعصيان ، التي ترفرف فوق جميع أراضي أمريكا اللاتينية ٠

عندما كنت في البيرو ، ذهبت الى كوسكو ، وصعدت الى ماتشو ـ بيكتشو ٠

قبل ذلك بفترة قصيرة كنت قد زرت الهند والصين ، ولكن ماتشو ـ بيكتشا أعظم من كل شيء ٠

إن كل كتب التاريخ الدراسية تتحدث عن الحضارات القديمة ، عن آشور والآريين(٧) والفارسيين ، وعن أبنيتهم الجبارة ٠

وبعد أن رأيت اطلال ماتشو ـ بيكتشو ، أصبحت الاطلال الخرافية القديمة الاخرى بالنسبة لي وكأنها مصنوعة من الورق الممزق ٠

لم أستطع بعد ذلك أن أنفصل عن هذه الابنية ٠ وقد أدركت ، أنه طالما أننا كنا نسير على نفس الارض ، التي ورثناها ، فان ذلك يعني أن علينا ، الى حد ما ، أن نشارك في تلك الجهود النبيلة ، التي تبذلها شعوب أمريكا اللاتينية ، ولا نستطيع تجاهل ذلك ، لأن عدم معرفة مثل هذه الاشياء ، أو التغاضي عنها ، ليس جريمة فقط ، بل وهزيمة جديدة ٠

وقد قادتنا الكوسمو بوليتية(٨) الارستقراطية الى الانحناء أمام ماضي أكثر الشعوب بعداً عنا ، ونغلق أعيننا عن رؤية كنوزنا ٠

وبعد زيارتي لكوسكو فكرت بالكثير ٠ فكرت بالانسان القديم في القارة الامريكية ٠ وكانت معارك الماضي تبدو لي مرتبطة ، ارتباطاً حياً ، بالكفاح الراهن ٠

وهكذا ظهرت لدي فكرة كتابة « النشيد الشامل » لأمريكا ٠ وقبل ذلك كنت أنوي كتابة « النشيد الشامل » لتشيلي ، على شكل تأريخ ٠ ولكن تلك الزيارة غيرت كل خططي ٠ فمن على ذرى ماتشو ـ بيكتشو رأيت أمريكا بكاملها ٠ والفصل الاول من الكتاب هو « ذرى ماتشو ـ بيكتشو » ٠

كانت الفكرة تتوضح بالتدريج ٠

---

(٧) الآريون ـ قبائل متنقلة قديمة ، كانت تقطن في المناطق التي تقوم عليها الآن كل من ايران والهند ٠

(٨) الكوسمو بوليتية ـ مواطنية العالم ـ نظرية بورجوازية رجعية ، تطالب بالتخلي عن السيادة الوطنية ، وتدعو الى عدم الاهتمام بالوطن ، وبالثقافة الوطنية ٠

المترجم

ففي البداية كان على هــذه الملحمة أن ترتبـط ارتباطاً وثيقاً بالمكان ، وأن تكون ملحمتنــا نحن • وكان يجب أن تكون متعددة الجوانب ، مثل تضاريس قارتنا• وأن تكون أرضنا واضحةفيها•

أما ملحمة ماتشو ـ بيكتشو بالذات، فقد كتبتها في وقت متأخر جداً •

إن هذا الكتاب ، الذي أصبح بالنسبة لي تمهيداً للانتقال الى مرحلة جديدة في الطريقةالشعرية ، والىفكرة جديدة، كان يحتوي كل « الأنــا » • ويبـدأ بسلسلـة مـن الذكريات ذات الطابـع البيوغرافي (سيرةحياة) ، وأخيراً أردت أن أتطرق الى موضـوع الموت • فبين وحدة بقايا الدمار تبقى فكرة المـوت لا تغادر الرأس •

لقـد كتبت الاشـعار عن ماتشو ـ بيكتشو في إيسلا ـ نيغرا ، على البحر• وفي كل مرة كان يزداد تطرقي الى نضال الشعب • وقـد أدركت أن من الضروري وجود شعر ملحمي جديد ، لايتوضع في النظريات الشكلية السابقة• وكان يبدو لي أنه من غير الممكن الكتابة حـول المواضيع الامريكية ، مستخدماً الموشحات الطويلة المقفاة • فعلى الاشعار أن تأخذ مخطط هذه الارض غير المنتظمة، وتتكسر على الارخبيلات ، وأن تتسلق ذرى جبلية نحو الاعلى ، وتهبط سهولاً نحو الاسفل •

كنت أستغل كـل لحظة للكتابة • ويوماً بعد آخر كانت تقـل امكانياتي لذلك• وفي هذه الآونة بالذات اجتاحت تشيلي موجة من التنكيـل ، من تلك الموجات العادية بالنسبة لأمريكا البائسة• وفي هذه المرة شملتني أنا أيضاً ، وهكذا اضطررت للانتقال ، متخفياً من مكان الى آخر •

إن الحرية في قارتنا ـ سلعة العجز ، إنها تشبه الراية : فما أن يتمكن الشعب من ملامستها حتى ترفرف في الهواء ، بعد أن أصبحت في أيدٍ أخرى •

ولكي أنجو من المطاردة ، لـم يكن باستطاعتي البقاء في مكان واحـد ، وكان علي أن أغير البيت باستمرار • إن السجن شيء محدد ، له نظامه الخاص ومدته الخاصة • أما الحياة السريـة فأكثر اضطراباً ، هذا بالاضافة الى أنه من غير المعروف متى تحـل نهايتها • ومنـذ المحطات الاولى لهـذه الحياة ، أدركت أنه قد آن الأوان لكتابة الكتاب•

(٩) إيسلا ـ نيغرا ـ مسقط رأس الشاعر •
(المترجم)

كنت أدرس المادة ، وأضع الفصول ، وأكتب ، ولم أكن انقطع عن الكتابة ، إلا من أجل الانتقال الى ملجأ آخر •

وخلال عام وشهرين من هذه الحياة غير العادية أنهيت الكتاب • وكانت المشكلة في إخراج المخطوطة الاصلية من البلاد • صنعت لها غلافاً جميلاً ، دون أن أضع اسمي عليها • وعلى الغلاف وضعت اسم «بينيمينواسبينوسي» وعنوان « الضحك والدموع » • والحق يقال أن هذا العنوان يناسب كتابي الى حد بعيد•

كثيرة هي الاشياء الممتعة ، التي حدثت لهذا الكتاب • فقد كان جديداً بالنسبة لي أن أكتب الاشعار ست ، سبع أو ثماني ساعات بدون انقطاع • وحين أتيت على نصف العمل شعرت أنني بحاجة الى الكتب • فكلما ازداد تعمقي في تاريخ أمريكا ، كلما ازدادت حاجتي الى مصادر المعلومات • والغريب أنني كنت أجد كل ما أحتاج اليه ـ لكأن في الامر معجزة • ففي أحد المنازل ، ذات النمط الفلاحي ، عثرت في خزانة قديمة على دائرة المعارف الاسبانية ـ الامريكية• كنت دائماً أكره الكتب التي تباع عن طريق الاشتراك ، •• وفي هذه المرة كانت اللقية جوهرة • فكم من الأشياء كنت لاأعرفها ـ أسماء المدن ،الاحداث التاريخية ، النباتات ، البراكين والانهار !

وفي منزل آخر ، حيث كنت سأقيم طوال شهرين ، سألت صاحبه صائد السمك ، إن كان لديه كتب ما • كان لديه كتاب واحد ـ « تاريخ أمريكا المختصر » لباروس آرانا ، وهذا ماكنت أحتاج اليه بالذات •

وكنت ما ان أنهي فصلاً حتى يطبع على الآلة الكاتبة • كانوا يخشون بأن يضيع أصل الملحمة ، في حال اكتشاف أمري • أما هكذا فان الكتاب سيبقى ، حتى ولو ألقي القبض علي • لذلك فانني حين كتابة الفصول الاخيرة ، لم تكن الفصول الاولى لدي ، ولذا فانني لم أعرف حجم ماكتبت حتى مغادرتي تشيلي • فقد أعدوا لي نسخة خاصة ، كان بامكاني أن آخذها معي • وهكذا ، وعلى متن الحصان ، غادرت تشيلي عبر سلسلة جبال الأندس ، وليس لدي ثياب أخرى ، غير التي كنت أرتديها ، وفي الكيس كان يرقد كتابي وزجاجتان من الخمر •

وعلى الرغم من أن الكثيرين منكم

لا يعرفون ذلك ، فان الكتاب قد صدر في تشيلي · وقد يكون ذلك من أكثر الاشياء غرابة ، التي صادفها أي كتاب شعري في أي وقت كان · فالاصدارات السرية شيء عادي ، على الرغم من أن الاشعار بينها قليلة ، ولكن أن يصدر كتاب شعري بخمسمائة صفحة ، مع الصور ، فهذا شيء خارق للغاية ·

كانوا يعملون بحذر كبير : ما أن ينتهون من طبع الصفحات ، حتى تؤخذ من المطبعة الى مكان آخر وتخبأ · وبعد ذلك كان العمل طويلا ـ تجميع هذه الصفحات · وقد استغرق ذلك عامين · ومن الممتع أن كتابي قد سار في نفس المراحل التي مررت بها في حياتي السرية · فكما كان من الصعب إخفائي، لأن التعرف علي كان أسهل من كل سهل ، كان من الصعب أيضاً إخفاء هذا المجلد السميك ، ففي الليل ، وعندما كان يظهر الخطر ، كان الكتاب يخرج، وينقل الى مكان آخر أكثر أمنا ، ومن ثم يخاط ويوضع في الغلاف ، ثم يوزع نسخة نسخة ·

وفي تلك الايام ، وعندما كنت أجتاز سلاسل الجبال ، ونلتقي ـ أنا وكتابي ـ في كل خطوة بالمعونة الاخوية ، بدأت أفكر ، على الرغم من حبي للعالم النباتي وللأشجار ، أن لا معونة منها ، لأن مركز هذا الكون هو الانسان · فالانسان هو مركز كل شيء ، وفيما بعد ، وحول هذا بالذات ، كتبت الفصل الاول من « الكروم والرياح » ·

ترجم « النشيد الشامل » الى اللغة الفرنسية ، بشكله الكامل ، وقد ترجمه شخص واحد ـ أليس أرفيلي ، وترجمه الى الايطالية ـ داريو بوتشيني ، والى الالمانية ـ إيريخ اريندت · والطبعة الالمانية رائعة · إنني أقول ذلك لأنني حصلت منذ عدة أيام على النسخة الاولى، وانني أشعر أنني سعيد ، عندما أنظر الى هذا الكتاب الرائع ، الذي أصدرته دار « الشعب والسلام » في جمهورية ألمانيا الديمقراطية · وبعد عدة أيام ستصدر في الاتحاد السوفياتي الطبعة الروسية ؛ التي ساهمت فيها مجموعة كاملة من المترجمين ١١ شخصاً ، من بينهم أرينبورغ ، وغيره من الأدباء الروس ، وبين المترجمين يوجد اختصاصيون باللغة الاسبانية أمثال كيلين ، والشعراء المعروفون ، أمثال كيرسانوف، تلميذ وصديق ماياكوفسكي.

إن الاتحاد السوفياتي من أفضل من

يدفع أجور التأليف في العالم • فقد وصلت أجور ترجمة « النشيد الشامل » رقماً ، قد يخيل اليكم أنه أسطوري •

وفي بولونيا ترجم «النشيد الشامل» أيضاً ، من قبل فئة من المترجمين• وقد تمت الترجمة على النحو التالي : أن يقوم مترجم أو اثنان بالترجمة الاولية، ثم يقوم اتحاد الكتاب بتوزيع هذه المسودة على بعض الشعراء ، أما المحرر الرئيسي للكتاب فهو الشاعر الكبير ياروسلاف إيفاشكيفيتش •

ونفس الشيء بالنسبة لترجمة الكتاب الاولية في براغ ، ويقوم بترجمته أكبر الشعراء التشيكيين ، فيتيزلاف نيزفال• إن نيزفال العظيم شاعر كثير الاعمال، ولذا فانني أظن أن التشيكيين لن يقرأوا أبداً « النشيد الشامل » بشكله الكامل• ولكن ، هناك ، لدي الكثير من القراء ، حتى أن ثمة شارعاً يحمل اسم نيرودا• ولكن لست أنا المقصود بذلك ، بل الكاتب يان نيرودا • ويان نيرودا كتب عن أولئك المذلين ، الذين يقطنون أحياء براغ الفقيرة • ومع تغير النظام في بلدان الديمقراطية الشعبية ظهر تقديس لأولئك الكتاب وممثلي المثقفين الفنيين، الذين عكسوا حياة الشعب في مؤلفاتهم•

وهكذا فان يان نيرودا ـ هو البطل الرئيسي في تشيكوسلوفاكيا اليوم • أما أنا فأعتبر في أعين التشكيين حفيداً له•

إن اسم نيرودا ينتشر في براغ على نطاق واسع • ولأول مرة وقعت باسم نيرودا ، عندما كنت في سن الرابعة عشرة • فقد كنت بحاجة الى اسم مستعار ، لكي لا يعرف والدي أشعاري في الصحف • فقد كان يرى أن الشعر هو السبب في حصولي على العلامات السيئة في مادة الرياضيات • وذات مرة قرأت قصة ليان نيرودا ، كان لها تأثير كبير علي • وعندما احتجت الى اسم مستعار تذكرت هذا الشاعر ، الذي لم يكن معروفاً آنذاك ، وعلى شرفه ،وخوفاً من غضب والدي بدأت أوقع باسم بابلو نيرودا • وفيما بعد ظل هذا الاسم يلازمني باستمرار •

أن تكون الترجمة أصلية وكاملة ، تحتفظ بالحماسة الشعرية ، ولا تفقد أي شيء ، أمر مستحيل تقريباً ، إنني أنطلق من ترجمة أشعاري • حتى أنك قد تصادف بعض الاخطاء الفادحة •

وكنت أستلم ، أحياناً ، قوائم لا نهاية لها بالكلمات ، التي يسألني عن

مغزاها المترجم البلغاري أو الصيني أو الايطالي ٠

وكنت أوضح لهم مغزاها ، لأنها تشكل الجوهر الاصلي ، وتخلق الجو المميز للكتاب في هذا الوقت بالذات ٠ وهنا أريد أن أتطرق الى مشكلة تتعلق ب « النشيد الشامل » ٠ فالكثيرون يوجهون لي اللوم لأنني أدخلت في حياة تشيلي والقارة أشخاصاً وأحداثاً قليلة الاهمية ٠ وهناك من يقارن بين « ذرى ماتشو ـ بيكتشو » وبين الفصول الاخرى من كتابي ذات الطابع الهجائي ٠

دعونا نناقش الامر ٠

قبل كل شيء، إن حياة أي عصر لا تحددها الاحداث السامية أو الاشخاص النبلاء فقط ، فتدفق الحياة الشعبية يتكون من الجزئيات التي لا حصر لها ، ومن السلوك المجهول ، ومن العراقيل ، التي قد تبدو ضئيلة لا أهمية لها ، ولكنها جزء من كل كبير ٠ وقد فكرت أكثر من مرة ، عندما كنت أكتب عن «مارتي»(١٠) و « أوهينكز » إن كانت هناك حاجة لأن أذكر أسماء « أوبيكو »(١١) و « ماتشادو »(١٢) و«ميلغاريهو»(١٣)، طغاة القارة الامريكية التافهين ، وشركائهم ٠

وقد قررت أن أقوم بذلك في « النشيد الشامل » ٠

لم أكن أستطيع أن أكتب كتاباً عن الأشياء السامية فقط ، عن الهضاب العالية والابطال العظام ٠ كان علي أن أغير من لهجتي باستمرار ، كما تغيرها الحياة والارض في قارتنا ٠ كان علي أن أركز الاهتمام على الاشياء المتضائلة في الصغر ، ومن أجل ذلك اخترت اللحن التأريخي ، والاسلوب النثري المتعمد ، الذي من شأنه أن يخلق الطباق مع الرؤى الرائعة ٠ كنت أكتب،

---

(١٠) مارتي خوسي (١٨٥٣ ـ ١٨٩٥) شاعر كوبي عظيم ، وثوري ، وزعيم النضال من أجل استقلال كوبا ٠

(١١) اوبيكو هورهي : رئيس غواتيمالا منذ ١٩٣١ ٠ أسس في البلاد نظام الطغيان، أطيح به في ١٩ تشرين الاول ١٩٤٤ نتيجة تمرد شعبي ٠

(١٢) ماتشادو هيراردو : رئيس كوبا منذ ١٩٢٤ ٠ أسس أقسى الانظمة الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية ٠ وقد أطيح بدكتاتوريته في آب ١٩٣٣ نتيجة تمرد شعبي ٠

(١٣) مليغاريهو ماريانو : دكتاتور بوليفيا منذ ١٩٦٥ ٠ وفي عام ١٩٧١ وبعد التمرد الشعبي هرب الى البيرو ، حيث قتل هناك ٠

خطـوة خطـوة ، كما يتسكعون عبر الشوارع الصغيرة المتعرجة ، ويتفحصون الاحجار تحت الاقـدام ، ويراقبـون ما يجري في الشارع • لم أكن أريـد تفتيت شعري ، كنت أريد أن أسكب فيه الحياة •

إنني أقول ذلك ، ليس من أجـل الدفاع عن كتابي ، ففي كتاب سميك مثل « النشيد الشامل » قد يعجب أحدهم بهـذا وبعضهم بذاك ؛ والكثيرون قد لا ينال اعجابهم أي شيء • ولكن فكرتي كانت خلق بانوراما عريضة •

ففي هذا المكان ـ الماء الجاري ، وفي ذاك ـ الاحجار ـ وبرك المـاء • كل يبحث فيه عن حاجته ، انطلاقاً من ميوله ـ نحو الواقع أم نحو الخيال •

وقبل أن آتي على نهاية الحديث عن « النشيد الشامل » ، أريـد أن أذكر واحـداً آخر من تلك الكتب ، التي قدمت لي خدمات جلى • إنـه كتاب « طيور تشيلي » تأليف د•د• غودول، أ • أو • جونسون ، والدكتور ر•أ• فيليبي ، الذي صدر في عام ١٩٥١ • إنني لا أعرف الكثير من الكتب الرائعة عن بلادنا ، مثل هذا • ومذ ذاك فهو لا يفارقني أينما كنت • لقـد أصبح واحداً من كتبي المحببة ، وعلى الرغم من أنه كتاب علمي ، الا أنه في الوقت نفسـه انعكاس مثمر ودقيق وواقعي للحب •

إن أكثر أصدقائي في فرنسا أخلاصا ـ أراغون وبـول إيلوار • والجدير بالانتباه أن هذين السرياليين اللامعين قد وصلا ، بطريقين مختلفين ، الى فهم واحد للأحداث وللحياة •

كانا مختلفين جداً وبشكل دائم •

فأراغون يتمتع بالفن العقلي للجدل، وهو ليس فقط شاعراً كبيراً ، وكاتب مقالات رائعة ، وكاتب روايات مشهورة، وممثلا للواقعية الجديدة ، بل وهـو بالاضافة الى ذلك منظم رائع • إنني لا أتصور كيف يمكن القيام بكل هذه الاشياء في وقت واحد • وبالفعل فان نصف فرنسـا ينتظر باستمرار فكرة جديدة لأراغون ، مع كل مايتمخض عن ذلك من النتائج : المثيرة والمنيرة والملهمة للحياة • فمنذ فترة قصيرة انتهى مـن كتابة بحث كبير ، يؤكد فيه أن الشعر الوطني الفرنسي ـ شعر مقفى • وقد جاءت هـذه الدراسة كانفجار قنبلة بالنسبة للشعراء الشباب ؛ بله كزلزال

حقيقي . وبدأ أراغون ، بعد أن أثار العقول ، عملاً جديداً .

إن للفرنسيين شوقاً حقيقياً نحو العمل الفكري . ولذا فان فنانينا الامريكيين اللاتينيين الشباب يلتصقون كالذباب بنظرياتهم في مجال الفن . وما أن يعودوا من فرنسا حتى تكثر أقوالهم وتقل كتاباتهم .

ومن المؤسف أن فنانينا الموهوبين ، الذين كانوا يرسمون في السابق الناس والأشجار والسموات في أمريكتنا ، يبدأون بعد عودتهم من باريس برسم الدوائر والخطوط . لقد خيمت عليهم الكوسموبوليتية ، التي اجتثت جذورهم، كم هو رائع أن نؤكد الذرى الجبلية ورؤيتنا العريضة لواقعنا الفعلي . ومن الطبيعي ، أن الناس ، الذين يقطنون في مدن يسكنها تسعة ملايين نسمة ، لا يرون الخيول ـ تقريباً ـ ولا يرسمونها . ولكننا نحن بحاجة لأن نرى ما نعرفه وما نحبه مرسوماً .

إن من المخيف التفكير كم هي هائلة المآسي التي تعاني منها أمريكتنا ، ولكن من السعادة التفكير في ماذا يجب أن نعمل نحن هنا . إن علينا أن نسأل عن كل شيء ، وأن نشارك في كل مايجري عندنا .

وبول إلوار كان لا يشبه أراغون ، أبداً .

لقد توفي منذ عام فقط . ولا تزال فرنسا حتى الآن تعاني من هذه الخسارة . كان نضجه ملحوظاً ورقيقاً ، يشع من عينيه الكبيرتين الفاتحتين ، الشبيهتين بالثمرة الزرقاء . كنا نزور بعضنا يومياً ـ تقريباً ـ وقد أقنعته بالقدوم الى المكسيك الى مؤتمر السلام .

واكنني مرضت في المكسيك ، وباءت رغبتي في إطلاعه على هذه البلاد العظيمة والمدهشة ، بالفشل . وفي كل يوم كان يشكو في غرفتي : « ... كل ما أقوم به هو أنني أذهب من الفندق الى الاجتماع ... كل يوم نفس الشيء .. تقريباً كما في باريس .. كما الشارع الذي أقطن فيه ... » .

وقبل ذلك بعام توفيت زوجته ،فكان يشعر بالوحدة القاتلة . وفي ذات يوم، وفي المكسيك قدم إلي وكأنه إنسان آخر . فقد التقى بدومينيك ، وبعد فترة تزوجها في فرنسا .

توفي وهو يكتب أشعاراً عن الحب .

كان إلوار يحب بلاده بشكل غير عادي ، وذات مرة تحدثنا عن السريالية • كنا نقف في الشرفة في منزلي في كي دورليان ، خلف نوتردام ، كان المساء الشتائي يهبط ببطء • لكم أحببت هذا المكان في باريس • فالسفن الكبيرة الهادئة والبطيئة كانت تمخر السين • وكان دخان قوس قزح يلف الجزء العلوي من الكاتدرائية • وكانت المسلة الغوطية تبرز على خلفية السماء كما الحشرة الفضية •

ـ يا للجمال ! ـ قال بول وهو يحدق في الكاتدرائية •

ـ ولكنك اقترحت ، في المرحلة السريالية ، تفجير نوتردام • قلت له وأنا أضحك •

ـ لا أقل من الكاتدرائية !

وراح يقهقه كالطفل •

ومنذ عام مضى كنت جالساً في لوس هيدنوس وأنا أكتب ، حين وصلتني برقية • فتحتها • مات بول إلوار •

إنني أعتاد على هذه الانباء بالتدريج • إن شجرة الصداقة تفقد أوراقها ، تتساقط أكثر الثمار نضجاً ، ويعري الموت والشتاء الاغصان • ونحن بدورنا ، وفي وقت ما ، بالطبع •••

ولكن بول ••• بنهايته ، انتهى ، بالنبة لي ، نصف فرنسا • فقد كانت العودة الى باريس ، بالنسبة لي ، عودة الى صداقة بول إلوار النبيلة ، الى حبه الذي لايتزعزع ، الى إيمانه بالحياة •

إنني أعرف إرنبورغ منذ عدة سنوات • إنه الانسان الذي يثير الاهتمام دائماً ، إنه فنان النقاش من الفئة الدولية • فهو يذكرني بأسلوبه المدهش وغير المنتظر بسويفت ، الى حد ما • وفي موسكو كنت أذهب الى منزله في كل يوم تقريباً • كان لديه كلاب كثيرة • وأصدقاؤه يكتبون له من بريطانيا عن القضايا الجدية وعن الكلاب • وأحياناً ، وبشكل مفاجىء ، تصله رسالة من أحد العلماء المشهورين أو أحد اللوردات ـ العماليين ـ وفي كل الاحوال ـ تقريباً ـ يدور الحديث عن الكلاب •

وذات مرة كنا نتناول طعام العشاء عند عائلة إرنبورغ • وعلى الجدران رسوم بيكاسو •

وحول المائدة الروسية يدور الحديث فقط حول الاشياء الممتعة والطريفة • أما ما يقال عن « الشعب الخائف »

و « بلاد في الديجور » ، فصفات لا تجدها إلا في أنباء «يونايتيد بريس»، فالروس ، يمزحون دون تعب ، ويحدثونك بالقصص المختلفة ·

فلدى سيمونوف منزل صيفي في جورجيا ، وهناك يكتب أشعاره ومسرحياته · وقد قال أن للانخاب الجورجية موضوعها الدائم · ولا زلت أذكر نخباً حدثنا به ، حول الصداقة الحقيقية :

« لم يعد إيفان الى المنزل مساء · شعرت تاتيانا بالقلق فأرسلت ١٢ برقية الى ١٢ صديقاً من أفضل أصدقاء إيفان: « إنني قلقة · إيفان لم يأت الى المنزل مساء · ألم تره » · وفي اليوم التالي استلمت ١٢ برقية جوابية من الاصدقاء الاثني عشر ، وكانت كلها تتضمن الكلمات التالية : « لا تقلقي أيتها العزيزة تاتيانا ، كل شيء على مايرام، فايفان قد قضى الليل عندي » · وهكذا، لنشرب نخب الصداقة الحقيقية ·

★ ★ ★

وإنني إذ أتحدث عن أصدقائي النائين ، أريد أن أحدثكم عن ناظم حكمت الشاعر التركي · إنك لن تعثر أبداً على هذا الاسم في تلك المجلات الغريبة ، المكرسة للثقافة ، التي تقرأ في تشيلي · ولكنه الشاعر الاول في وطنه تركيا ، الشاعر الوطني · وإنني أعتبره واحداً من أكبر الشعراء الاحياء·

إن الشعب التركي يعرف أشعاره عن ظهر قلب ، ولكن اسمه في تركيا لا ينشر ·

إنني أحدثكم عنه ، لأنه يبدو لي ، وكأننا ترعرعنا معاً ، ·· من شأنكم كلكم أن تحبوه · إنني أرغب في أن أراه هنا على هذه المنصة بعينيه الفاتحتين (إنه لا يشبه الاتراك) ، وأن يقرأ لكم الشعر بلغته الغريبة · إن الشعراء الشرقيين يقرأون الشعر وكأنهم يغنون·

كيف أحدثكم عن طيبة وكمال وجاذبية ناظم حكمت ؟

إن الوطني التركي العظيم يعيش في موسكو ، في المنفى ، بسبب المناخ السياسي غير الملائم · وعندما كنت هناك ، كان يصدف أن يدعونا الطلاب والعمال للتحدث معهم ، ولقراءة الشعر لهم ·

كان يضحك مني ، لأنني ، وكما يقول ، أبدأ حديثي دائماً ب : وطني

تشيلي ـ إنها بعيدة جداً ، وهي أروع بلاد في العالم • إنها تمتد ، رفيعة ، كما السيوف القاطعة ، بين الجبال ، أكثر الجبال ارتفاعاً ، والمحيط ، أكثر المحيطات اتساعاً ••• » •

« هكذا تستقطب الناس ، فما الذي أستطيع أن أقوله أنا عن تركيا ؟ » •
ولكنه كان يقول الكثير •

لقد قضى حوالي ١٥ عاماً في السجن بسبب أشعاره ، التي كتبها في صدر شبابه • والامتناع عن تناول الطعام ، ومواقف السخط في شتى أنحاء العالم ، هي وحدها التي استطاعت أن تعيد له الحرية •

وقد حدثني أنه الآن ، وبعد أن قضى عامين في العالم الحر ، لا يستطيع أن يعتاد على بعض الأشياء كالمفاتيح •

لقد نسي المفاتيح لأنه طوال ١٥ عاماً كان الآخرون يفتحون له الباب ويغلقونه وراءه في الزنزانة •
كما نسي أنه في الليل ، وعند الذهاب الى الفراش ، يجب أن يطفىء النور ، لأنه ظل ينام طوال ١٥ عاماً والمصباح الكهربائي مفتوح •
إنه من أكثر الناس في العالم ظرفاً•

إنه يسألك عن تشيلي باستمرار • فأحدثه عن الكفاح العظيم للشعب في شمال البلاد•••وأحدثه عن أصدقائي، وكم هن جميلات النساء في تشيلي ، وكيف شاهدت ذات مرة فتاة في الشارع، كانت جميلة لدرجة ، أنني سقطت لدى رؤيتي هذا الجمال •

ويقول لي :

ـ إنك تبالغ دائماً • سأضطر لأن أسافر وأرى كل ذلك بنفسي •

لقد بدأت بـ « النشيد الشامل » وانتهيت بالحديث عن أصدقائي ، الذين يعيشون في بلدان أخرى •

ولكن في الحياة كل شيء مرتبط ، فالاصدقاء جزء من حياتي ، ومنها يولد شعري ، هكذا مباشرة ، كما النبات في الحقل• وأريد أن أقول أن لا شيء مما رأيته في البلدان الاخرى استطاع أن يحجب احساسي الاساسي•فحيثما كنتُ، كنت أقدم كل ماهو تشيلي ، وأؤكد في كل مكان الوعي الامريكي اللاتيني وإدراكي لعالم الشاعر التشيلي • لعل ذلك لأنني محبوب ومقروء في المناطق النائية • لقد ذكرت ذلك ، في نهاية حديثنا ، لأن شعري وصل الى تلك

الأماكن ، وهناك بقي الكثير من أصدقاء وطني الاحياء والمخلصين ·

إنني لا أتذكرهم وحدهم فقط ·
لو كان لدي وقت أكثر ···

إذن لحدثتكم كم سررنا وتحدثنا مع المغني الامريكي بول روبسون ، وكيف غنى لي ، لوحدي ، ذات مرة ، في أثناء العاصفة الثلجية ، وكيف وعدني بأننا سنسمع صوته في تشيلي في وقت ما ·

ماهي علاقة كل هؤلاء الناس بموضوع حديثنا ؟ وماهي علاقتهم بأشعاري ؟

إنني أريد بأشعاري الجديدة أن أوحد بين أكثر الناس اختلافاً ، لكي أضع حداً لتفرقتهم المقصودة ·

إنني أرغب في أن ينفذ وطني هذه الرسالة في العالم · أن تصبح وسيطاً بين البلدان الكبيرة ، وداعيتها الى الفهم المتبادل والتعقل والصداقة ·

وأن تسمع في وطننا أصوات كل المعمورة · وأن يحرز البلد الصغير إمكانية التعايش بين الناس ·

وإذا كان يتعذر القيام بذلك حالاً ، وبالقوى الخاصة ، فاسمحوا للشاعر ، الذي يذكر الامطار ، والذي عمده الكفاح ، القيام بهذا الواجب الاخوي، بالاستعانة بشعره ، والقيام بذلك من هنا ، من وراء جدران هذه الجامعة ، صحيح أنها صغيرة ، ولكنها جامعة · إنني أعتبر أن مهمة شعري هي أن أعمل بكل قواي ، وبكل دقة ممكنة ، من أجل أن يعيش الناس المفصولون عن بعضهم، والشعوب المختلفة ، بسلام ، وأن يتبادلوا حكمهم ، ويحترموا ويحبوا بعضهم بعضاً ·

إنني أعرف أن شعري إذا استطاع أن يحقق ، ولو القليل ، في هذا الطريق، أكون قد قمت بأكثر واجبات الشاعر شرفاً ، وبررت التفويض السامي لوطني ·

جورج ماورر

ترجمة : د عادل قرشولي

لمحة عن حياة ماورر

ولد جورج ماورر في الحادي عشر من آذار عام ١٩٠٧ في إحدى المدن الرومانية الصغيرة ، حيث كانت تقطن منذ العصور الوسطى أقلية ألمانية لم تزل تحتفظ بتقاليدها الفلاحية ولهجتها الساكسونية ومعتقدها اللوثري • في عام ١٩١١ رحلت العائلة مع الوالد الذي كان يعمل معلماً إلى بوخارست • ويروي ماورر أن والده كان فناناً مغموراً ، وربما كان هذا هو السبب في ايقاظ ملكاته الفكرية منذ الصغر • وفي بوخارست اطلع ماورر في المدرسة الثانوية للمرة الاولى على الأدب الألماني الكلاسيكي ، فاستحوذ على إعجابه وأثار تشوقه إلى عالم أكثر انسجاماً وتوافقاً وجمالاً من عالمه ، وإلى حياة للشعر ومع الشعر •

وفي التاسعة عشرة من العمر ارتحل الشاعر إلى ألمانيا ليرتاد منبع هذا الأدب الذي أحبه • وقد جذبت ماورر أول ماجذبته في ألمانيا أسرار الفن وشعر برغبة جامحة لاكتشاف هذه الأسرار ، فقرر أن يدرس تاريخ الفن والأدب الألماني والفلسفة • لكن ألمانيا ذات النظام الرأسمالي المتطور ما لبثت ان صدمت هذا الفتى القروي الباحث عن السعادة بضجيج مدنها الكبرى ، والجري وراء الربح ، والأجواء المتعفنة البعيدة كل البعد عن روح الأدب الذي أحبه ، والأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانت تطرق على الأبواب بعنف حاملة معها البطالة والتفسخ والبؤس • وأدت خيبة الأمل إلى تاجيج نيران اليأس في صدره فحمل « كتاب الساعات » لراينر ماريا ريلكه الذي أصبح مثلاً أعلى له لفترة معينة من حياته ، وارتضى لنفسه المنفى الروحي وإسكان أفكاره السماء •

ومضت السنوات كالأشباح حاملة معها بربرية الفاشيست في « زمن العنف » ـ كما يسمي

ماورر هذه الفترة في إحدى قصائده ، هذا الزمن الذي لم يرحم أحداً ، حتى ولا أولئك الذين أملوا في الاحتفاظ على الأقل بمنفاهم الروحي ـ كما يقول هانز دالكة في دراسة عن الشاعر ـ • لكن « زمن العنف » لا يترك الشاعر في عالمه الداخلي ، بل يحمل إليه الحرب بويلاتها وعنفها وكوابيسها القاتمة ؛ يحمل إليه البؤس والرعب والأسر • كما يحمل إليه فيما بعد العودة •

ولكن من أين هذه العودة ياترى ؟ وإلى أين ؟

إن السماء والعالم الروحي لم يبرهنا على قدرتهما في إنقاذ البشرية من الآلام • وكان ماورر قد عاد آنذاك من الأسر إلى منطقة الاحتلال السوفييتي ، حيث كان قد بدىء بازالة آثار الحرب وإعادة البناء ، لا المادي فحسب بل الروحي والفكري أيضاً •

في هذه الفترة كتب ماورر مجموعته الثانيةالتي نشرها عام١٩٤٨ تحت عنوان « أناشيدالعصر »، وكانت مجموعته الاولى قد صدرت عام ١٩٣٦ بعنوان « أصوات خالدة » وهي عبارة عن أفكار تدور حول الاله ، وفيها يقول :

وهكذا ترك الله يذهب إلى سماواته الصافية
وقال للعالم بلا مبالاة :
كن ساحة حرب للنمور والأفاعي !

أما في « أناشيد العصر » فقد حاول أن يخرج من هذا المنفى الروحي ، من العالم الداخلي الذي دعا إليه ريلكه ، وأراد هو تحقيقه في مجموعته الاولى • ولكن هذه العلاقة الجديدة بالواقع ما زالت علاقة مجردة على الرغم من أن تيار العصر قد خلص الشاعر الى حد بعيد من مصطلحات عالمه الشعري القديم •

ففي هـذه المجموعة تتصارع مصطلحات من نوع جديد ، ففي ناحية نجد العداء الذئبي ، والشيطانية ، والخداع ، والعنف ، والطغيان ، والحرب ، والموت ، والطبقات المالكة وفي ناحية أخرى نجد الحب ، والفرحة المضيئة ، والسيطرة على المستقبل ، والجماعية والفئات المنتجة التي تحمل على أكفها السلام • وفي هـــذه المجموعة ابتعد ماورر عن ريلكه ، واقترب من كلوبشتوك وشللر وهلدرين •

بعد تاسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٤٩ اتخذ ماورر خطوته التالية فكتب قصيدته الطويلة « وعي » ، وهو يجيب فيها على أسئلة طرحها في « أناشيد العصر » • ونراه في هـــذه

القصيدة يحاول التحرر من التشابيه المجردة ومن البحث عن الحلول في مجال غيبي ، إذ بدأ في تلك المرحلة في التوجه لدراسة الماركسية ولمعايشة الواقع الجديد •

لكن انطلاقته للتوجه إلى الواقـع المحدد بلغت ذروتها في تلك المرحلة في مجموعتـه « تقويم المقاطع الثلاثة » ، وهي مجموعة تضم أناشيد حلوة ، بهيجة ، بسيطة ، تتحدث عن الفصول الأربعة، والورود ، والأشجار ، والأطفال ، والقبل ، والأشياء الأرضية الصغيرة • فلقد فتحت على العالم نافذة وبدت الحياة خارج الذات مضيئة ومزهرة • وأصبح الشاعر يتمكن من النظر إلى المجتمع والطبيعة نظرة جديدة وأن يحقق الانسجام مع ذاته من جهة ، وبينه وبين الكون والآخرين منجهةثانية•

وتتالت منذ ذلك الوقت قصائده التي كانت في أغلبها قصائد طويلة شمولية ونذكر منها : « العناصر » ، « رحلة شعرية » ، « عرس البحار » ، « مديح فينوس » « صـورة ذاتيـة » ، « صور تاريخية » ، « أفكار الحب » ، « ماهو خاص بنا » ، « الشاعر والمادة » ، « حوار مـع جسدي » ، « حوار مع العالم » ، « عالم مجرب » وغيرها ••

كما تعتبر أعمال ماورر النظرية من أنضج الأعمال النظرية التي تعالج فن الشعر من وجهة نظر ماركسية •

وقد توفي جورج ماورر في الرابع من آب عام ١٩٧٢ وهو في الخامسة والستين من العمر على إحدى أعلى قمم الاكتمال الفكري والفني مخلفاً وراءه تراثاً شعرياً ضخماً لم يكتشف بكل سعته ولم يدخل إلى العالم من الأبواب الواسعة بعد •

★ ★ ★

الرؤيـة الشـمولية والتواصل الودي
في « ماهو خاص بنا » لجورج ماورر

حينما نشر جورج ماورر قصيدته الشمولية « ماهو خاص بنا » والتي كتبها بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢ تحدث النقاد في ألمانيا الديمقراطية عن فتح جديد في الشـعر الألماني الاشتراكي المعاصر • ومثلما افتتحت مجموعته « تقويم المقاطـع الثلاثة » مجده عام ١٩٥٣ لدى القراء ، افتتحت هذه القصيدة بعد عشر سنوات مجده لدى النقاد وعلماء الأدب ، إذ اتجهوا بأنظارهم إليـه وأصبحوا يضعونه في مكان الصدارة بين معاصريه •

ولا أغالي إذا قلت إن جورج ماورر هـو اليوم واحـد من أعظم الشعراء الاشتراكيين في العالم ، وانه لا بد للعالم من اكتشافه ذات يوم ووضعه في الصف الأول لقافلة الشعراء العالميين المبدعين •

العلاقة النشيطة بين الذات والموضوع :

يحاول ماورر في « ماهو خاص بنا » أن يكتشف تلك العلاقة النشيطة بين الذات والموضوع في مختلف نواحي الوجود الانساني ، وعرض هذه العلاقة بأكثر الأدوات حسية ووضوحاً لدفعها إلى حيز الادراك كأفضـل إمكانية لتفتح الانسان تفتحاً سعيداً يكشف عن الجوهر الأصيل فيه • وهو يضع الأنا الشعرية في علاقتها بكل المجالات الحيوية للانسان في عالمنا المعاصر ، محاولاً سبر غور هذه العلاقة • إن موضوع القصيدة إذاً ليس موضوع الأنا الشعرية المغلقة المتقوقعة على ذاتها ، بل هو موضوع شامل الى أبعد حدود الشمول • إذ أن الشاعر يتعرض في قصيدته لعلاقة الانسان بالكون ، بالطبيعة في لانهائيتها وفي شيئيتها المحـددة • ويتعرض

لموضع الانسان في الحركة الاجتماعية وموقفه من هذه الحركة • كما يتعرض من خلال هذا لأهم القضايا الحياتية ، للحب والموت والعمل وماضي الانسانية وحاضرها ومستقبلها ، ولآخر القضايا الفلسفية والمشاكل السياسية ـ التاريخية الأساسية لعصرنا • لكن الأشياء الكبيرة لا تنفي الأشياء الصغيرة ، بل تتضمنها • والتحدث عن الحياة والحب والموت والسعادة والعمل لا يعني بحال من الأحوال الخروج عن حدود الزمان والمكان أو فقدان الرؤيـة التاريخية المحددة • لأن هـذه القصيدة « لا تريد أن تضرب بلا هدف » ـ كما يقول ماورر ـ « عبر الأزمنة والأمكنة ، أو عبر ما يدعى بالانسانية الخالدة ، أو أن تعالج سعادة الانسان وتعاسته وحبه وموته بشكل مطلق ، بل تريد أن تكون قصيدة لعصرنا تبحث بشكل أكثر دقة عن قوانين تاريخ البشرية والطبيعة والكون • إن قضية الشاعر الأساسية هي مواجهة عالم عرفه وأدركه الانسان عن طريق الكلمة ، كما يواجه الامرأة ـ الحبيبة من خلال توافق الأفكار والأحاسيس ، والوقوف في وجه كل ما يعترض سبيل التواصل بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والعالم • »

وحدة الذات مع الكون ومفهوم التراث :

يضع ماورر في القصيدة الاستهلالية ذاتـه في مركز الكون ، ليشير إلى وحدة هذه الذات مع الكون •

أين يبتدىء العالم وأين أبتدىء أنا ؟
من هو المذاب في الآخر ؟

ليس هذا في الواقع سؤالاً بقدر ماهو إجابة • إنه الفعل المتبادل بين الذات والموضوع • فالشاعر هنا يشعر بوحدته مع الكون ، ومع الماضي والحاضر والمستقبل •

فتاة هو الماضي العابر ذاتي

إلى المستقبل ٠

وبهذا يضع ماورر اللبنة الأولى لتوضيح مفهومه عن التراث ٠ ومفهومه عن التراث يرتبط بمفهومه عن الانسان ٠ فالانسان ابتداء ونتيجة ٠ وهو يحمل إرث الأجداد للأحفاد بعد أن يكون قد تمثله وأغناه ٠ ولذلك يجب أن تعالج الانجازات العظيمة للفكر البشري من خلال علاقتها بجهود الأجداد ٠ « فنحن نأتي دائماً من الأبوين » ،

لأنه كذلك خاص بنا أن نحس عبر الأزمان
ونرضى للأموات حياة عظيمة ، ونفهمهم
على أنهم خاصون بنا
ساهموا بخلق ماهو خاص بنا
في الليالي وعبر التضحيات

إن هذه العلاقة بالتضحيات وبجهود الأجيال السابقة من أجل حياة أفضل هي التي تمنح الانسان سمته الخاصة ٠ إذ أن « التواصل » الذي يسعى اليه ماورر ٠ « لا يعني التواصل مع العالم المحيط فحسب ، لأن هذا التواصل هو من خصائص الحيوان أيضاً ، بل هو تواصل مع ما يسميه الانسان بالكون ٠ وإن عالم الانسان ليس حاضره فحسب ، بل هو كذلك ماضيه ومستقبله ٠ لأننا أجداد وأحفاد في وقت واحد ٠ وهذا ما يجب على الشاعر أن يتمكن من التعبير عنه ٠ فالمفهوم الانساني هو خط يصل العصور الاغريقية القديمة ، مروراً بالانسانية الكلاسيكية لعصر غوتيه وكانط ، بانسانيتنا الحاضرة وباحلامنا ٠ » لذلك يعتبر ماورر نفسه كما يعتبر مجتمعه الاشتراكي وريثاً للتراث الانساني التقدمي برمته ، يستوعبه ، ويغنيه ، ثم يقدمه بعد أن يرفعه إلى مرتبة أرقى للأحفاد ٠ ولا يغيب عن باله ، حتى وهو يتخلص من الجاذبية الأرضية ويغزو الفضاء ، أولئك الذين ضحوا من أجل هذا التراث ، فمن هناك :

من ذلك البعد ربما يبدو ياقوتاً دمُ الضحايا
ياقوتاً نُقبِّله ونحمله في أصابعنا
كشيء ثمين على نجوم غريبة

ويعبر ماورر عن علاقته الجدلية بالماضي من خلال رجوعه إلى التراث الشعري للانسانية ، مستنداً على أعمال خيرة ممثلي هذا التراث ، متمثلاً تصوراتهم ومثلهم العليا ، مطوراً لها بشكل نقدي وبنّاء • في هـذه القصيدة بالذات يتضح حضور فريدريش هلدرلين وراينر ماريا ريلكة حضوراً يحتاج إلى دراسة خاصة مستقلة •

الموت هو الخط الفاصل بين صورة وصورة :

شغلت ظاهرة المـوت بال ماورر فترة طويلة • ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده الأخيرة من التعبير عن هذه الظاهرة من مختلف الجوانب •

يرتبط مفهوم ماورر عن الموت بمفهومه عن الماضي والتراث • فالموت هو ضربة مريعة بالنسبة للانسان الفرد • ولن تتمكن أية معرفة يكتسبها هذا الفرد عن عظمة الانسان وتضحياته وتفاؤله من مساعدته لدى فقد عزيز • لأن « موت طفل أثقل من الهيمالايا » • مع هذا فنحن

نغطي رؤوس المقتولين
ونصالح الذكرى مع اللحظة الدموية
بأنغام الحزن •
حتى الأموات نمنحهم نحن حياة !

يربط ماورر مشـكلة الموت بموضوع التراث وحركة التاريخ على مستوى البشرية ككل • والتراث لديه ليس التراث الحضاري للانسـان فحسب ، بـل هـو كذلك مجموعة العوامل المكونة للانسان ذاته في علاقته الاجتماعية والكونية • وعلى

هـــذا فان الموت المطلق كركود أبـدي للحياة هو مستحيل في نطاق التاريـخ وحضور البشرية :

فهو في التحول
ليس أكثر من الخط الفاصل بين صورة وصورة في الفلم السينمائي،
الخط الذي يتحول في الحركة إلى لا شيء ·

إن الأموات إذاً يعيشون فينا · إنهم « فم الأحياء الشاكي »·وبمقدور الانسان أن يتابع حمل المشاعل التي حملها من ماتوا من أجل استمرار الحياة · لكننا لانتمكن من الانتصار على الموت إلا من خلال شيئين : الحب والعمل ·

الحب شرط للتواصل الودي :

يستخدم ماورر مصطلح الحب على مستويين : المســتوى الشخصي والمستوى العام · فالحب بمعناه الشامل سمة جوهرية من سمات الانسان تميزه عن الحيوان· والحب الحقيقي ممكن ·

فاذا لم تكن كذباً صرخة المصابين الذين طواهم الموت ،
حيث السكون الرهيب ـ
فلماذا يكون كذباً حب الأحياء !

ومن خلال الحب يتمكن الانسان من التواصل مع الأموات والأحياء والطبيعة :

إننا نحن من نمنح الحياة والحب
للشمس والقمر والجبال والأنهر والأموات ،
أولئك الأموات الذين لم يزالوا هنا
والذين يتحركون حسب طريقتهم الخاصة فينا ،
في الأعماق التي لم نسبر غورها بعد ·
من حيث جئنا وإلى حيث سنذهب ·

والحب بمعناه الأعم هو الشرط الأساسي لوجود التواصل • (والتواصل الذي يتحدث عنه ماورر والذي تتمحور في الواقع حوله مقطوعات هذه القصيدة ، هو تلك العلاقة النشيطة بين الذات والموضوع في جميع مجالات الوجود الانساني •) وبدون الحب لا وجود للتواصل • لأن كل تقارب يحدث بين الانسان وجميع المجالات الطبيعية والاجتماعية إنما يحدث إنطلاقاً من الحب • وإن كل ما يميز التعاطف بين الجنسين من تفاهم وفرح وتحقق رغبة ولذة وقوة خلق وحركة وتغير إ نما هو الذي يحدد كذلك العلاقات بين الأنا والعالم على جميع المستويات • وتأسيساً على هذا فان التواصل المفعم بالحب يعني أنسنة القوى الطبيعية ، ومعرفة طرق تأثيراتها وقانونياتها ، واحترامها « بحب » ، ومن ثم تحويلها لخدمة الانسان • ويعني كذلك أنه على الانسان إعادة العلاقة الطبيعية التي تميزه عن غيره من الكائنات بينه وبين الانسان الآخر ، وإدراك قوانين التطور الاجتماعي والرضى بها « بحب » ، ووضعها تحت سيطرته ومراقبتها من خلال المعرفة • وهو يعني أيضاً تخطي كل الأخطار التي لم تزل ممكنة الوقوع ، تخطي الكوارث الفجائية «بحب» ، واستيعاب النشيد للمرثاة•

الدوران حول شمس العمل :

لكن التواصل ـ كما أسلفت ـ هو علاقة نشيطة بين الذات والموضوع • ولكي تصبح العلاقة نشيطة تحتاج إلى فعالية • والفعالية لا وجود لها دون وجود العمل •

قرأ ماورر جملة لماركس يقول فيها : « لا يتمكن المجتمع من ايجاد توازنه إلا إذا دار حول شمس العمل • » وقد أحدث استيعاب مضمون هذه الجملة ثورة في فكر ماورر ـ كما يقول في حوار معه ـ ولعب دوراً أساسياً في صياغة مفهومه الحياتي والشعري :

العمل هو اللقاء العظيم للانسان مع ذاته •
فهل عرف دونه ياترى : من هو ؟

وفي مكان آخر :

أين يكون الفكر إذاً إن لم يكن في العمل ،
في المعادلات الجميلة
حيث تبعث لنا دروب النجوم
بالأنغام ٠

لم يستخدم ماورر مقولة « تحقيق الذات في العمل » ، بل استخدم مقولة أكثر دقة هي « لقاء الانسان مع ذاته » ٠ لأن الانسان إذ يعمل ينتج ، أي يعطي من ذاته شيئاً يساهم به في تكوين العالم من حوله ٠ وهو باحتكاكه بالعالم من حوله يقابل الشيء المعطى من الذات ، يلتقي به ، ويتغير بتغير الأشياء والناس ٠ لذلك :

فعندما يلمُّ الانسان الماء في السد
يلم بهذا ذاته ٠
أما إذا تركه على عواهنه ،
فيكون هو الماء الضائع في الرمال ٠

كان اكتشاف العمل هو الجسر الحاسم الذي أوصل الانسان للتواصل مع ذاته، ومع أقرانه ، ومع الكون ٠ ولا بد من استخدام هذا الجسر استخداماً حقيقياً لصالح التطور البشري حتى نتمكن من خلق إمكانية التواصل الودّي ٠

انطلاقاً من هذه المعرفة يترتب على الشاعر أن يعمل على توحيد البشر لكي ينموا فاعلين إلى « داخل المخططات العظيمة للمستقبل » ، وكي يمنحوا حياتهم معنى إنسانياً يغيرون من خلاله العالم حسب احتياجاتهم ، مغيرين بهذا أنفسهم ٠

هل التفاؤل موقف طوباوي ؟

ينطلق ماورر في هذا كله من موقف متفائل ٠ لأن التفاؤل هو كذلك خاص بالانسان ٠ فهو ما يمكنه من النظر إلى أمام ، وإلى فتح أبواب المستقبل ٠ والتفاؤل

ضروري لتخطي الهزائم وشحذ الهمــة للمحاولة من جديد • فنحن ننسى تقريباً « الأجنحة المتكسرة » ، أجنحة ايكاروس ، أحد أوائل الذين حاولوا الطيران بأجنحة اصطناعية إلا أنــه فشل • لكن عدم الرضوخ لليأس ، لكن التفاؤل هــو ما مكن الآخرين من الاستفادة من تجربته وإعادتها المرة تلو المرة ، حتى نجحت •

صرخ شللر ذات مرة : « لقد ولدنا لما هو أفضل » • وكان بهذا على حق • فعلى الرغم من كل أهوال تاريخ البشرية ، على الرغم من جميع الكوارث التي تلم بالانسان يبقى الانسان في جوهره يؤمن بشكل عام بالأفضل • وهذا الايمان هو أروع مافي الانسان وأشد الحوافز قوة على اجتياز المصاعب • وهو شيء خاص بنا • هذا الايمان هو الأمل الذي لا ينضب في إمكانية التواصل الودي مع الآخرين ومعالطبيعة والكون • لم يعد هذا الأمل وهماً ، بل أصبح اليوم يستند على أسس واقعية ينبع من جوهر المرحلة التاريخية التي نعيشها • فقد اكتسب التواصل نوعيــة جديدة تتكشف في كل شيء يدور حولنا • فهي تبرهن عن نفسها في إمكانية السيطرة على الكوارث الطبيعية • • وفي توطد المجتمعات الاشتراكية • وتنامي حركات التحرر الوطنية • وتخطي الجاذبية عن طريق الطيران • وفي ذلك الحوار الذي يجري مع من عملوا في الماضي على خلق « ماهو خاص بنا » وساهموا في رعايته • وفي الاندفاع الخلاق نحو المعرفة والاكتشاف • وفي العمل الذي يغير بتغييره للطبيعة كذلك جوهر الانسان • وفي اكتشاف جوهر الحركة والتوافق معه والمشاركة في توجيه هذهالحركة• وفي الحوار مع الطبيعة التي لم تعد لغزاً • وفي الفكر المرتبط بالواقع واستيعاب هذا الواقع من خلال الفن •

ليست الكلمة هدفاً بحد ذاتها :

إن براعم الانسجام تختنق في متاهات الذات المغلقة ، ولا تنمو وتزدهر إلا على أرضية هذا التواصل الودي الفعال الذي يؤمن ماورر في إمكانية تحقيقه • لذلك لم يعد بحاجة ـ كما كان في قصائده الاولى ـ إلى إله أو كائن يستحضره من وراء الطبيعة أو من فوقها لكشف علاقات الكون • ولم تعد الكلمة التي تستهدف سبر غور جوهر الأشياء والتعبير عن العلاقة بين الأنا الشعرية والكون بأكمله ذات

منشأ ميثولوجي صرف ، وإنما أصبحت عبارة عن « صدام » عن « ملامسة صدر لصدر » ، أي أصبحت نتاجاً للتواصل ، مستهدفة الايصال والتواصل • فنحن :

•• نبحث اليوم عن الكلمة
لكي نقول بالتحديد مانحن ، لكي نقول
أكثر من أننا تحررنا من السادة ــ
ونحس أكثر من حرارة الأفران العالية •

إن البحث عن « ماهو خاص بنا » هو إذاً في الوقت ذاته بحث عن معنى وجود الشعر • فثمة من يقول : ليس للكلمات من معنى • لكن ماورر يخالف هذا الرأي• فنحن نستطيع من خلال الكلمة أن نعطي الأموات حياة ، وأن نحتفظ بالتاريخ في ذواتنا • ومع هذا فان إعطاء الأموات حياة والاحتفاظ بالتاريخ في الذات من خلال الكلمة ليس هو الهدف الوحيد للكلمة • ولو كان الأمر كذلك لدى ماورر لما استطعنا أن نميز بين مفهومه وبين مفهوم ريلكة الذي كان يقول بضرورة تحويل الأشياء الجميلة المهددة بالانقراض إلى عالم الذات للاحتفاظ به • فالكلمة ليست هدفاً بحد ذاتها • والشاعر لا يحول الكلمة إلى طقس ميثولوجي ، بل يتساءل عن منشأ الكلمة وهدفها الانساني • ففي مقدور الكلمة ليس تحريرنا من الأسياد فحسب ، بل ومساعدتنا على سبر غور جوهر الظواهر ، وعلى تخطي الجاذبية ، والقفز إلى الكون الخارجي من خلال السيطرة على قوانين الأرض • بهذا يطور ماورر مفهوماً عاماً عن الكلمة انطلاقاً من الأسس الواقعية والموضوعية للعالم ، إذ يستند في مفهومه الشعري على نظرة مادية جدلية ومفهوم علمي للتاريخ • لذلك نرى أن جميع الأشياء ، حتى البهجة أمام قطارات الأطفال الصغيرة ، ومنديل الحبيبة ، والوردة تنتظم ضمن المفهوم العام • لأن الأشياء العظيمة التي تشغل بال الشاعر لا تنفي الأشياء الصغيرة ، بل تتضمنها •

حس الحياة الجديد :

لكن ماورر لم يكن ليتمكن من معايشة هذه العلاقة الكونية (العلاقة بين الانسان والانسان ، بين الانسان والطبيعة ، وبين إنسان الحاضر وبين التاريخ

من ناحية ، وبينه وبين إمكانياته المستقبلية من ناحية أخرى) ولم يكن ليتمكن من التعبير عنها مبرزاً شمولها وانسجامها على هذا الشكل ، لو لم ينطلق من التوافق على المستوى العام بين رغبات الفرد من ناحية ومخططات المجتمع وأهدافه مع اعتبار الذات جزءاً من هـذا المجتمع من ناحية أخرى ، ولـو لم ينطلق من انتفاء ذلك التناقض الجوهري بـين هذين القطبين في المرحلة التاريخية التي توصـل إليهـا مجتمعه الاشتراكي ٠

ومن هذا المنطلق فان القصيدة تعبر بشكل رئيسي عن النوعية الجديدة لحس الحياة الاشتراكي الجديد ، مع الاشارة الشعرية إلى تلك المعارك الاجتماعية العظيمة للشعوب ، تلك المعـارك التي ينبثق عنها التواصل الودي كنوعية جديدة متغيرة ، ويصبح أساساً لكل إنسجام ٠

★ ★ ★

جورج ماورر

ماهــو خاص بنــا

- ١ -

مرت على رأسي الأزمنة والشتاء والصيف •
كما لو عبر نافذة تتطاير النجوم اليه
والقمر •
بحيرة تقف فيها الجبال على القمم
هي روحي •
فتاة هو الماضي العابر ذاتي
الى المستقبل •
أين يبتدىء العالم وأين أبتدىء أنا ؟
من هو المذاب في الآخر ؟
إنني أسمع صوتي — أيُّ مزيجٍ
من المعنى والهواء ؟
إصطدام هي الكلمة ،
ملامسة صدر لصدر
ضجيج المعارك المنصرمة •

- ٢ -

حول ثقلي أديرُ نفسي
كالنجوم حول ذاتها •
لكن الربيع والخريف يأتيان من حركة
أشمل •
وهكذا تنمو الكلمة ، العظيمة ،
المنفوضة عن الشفاه
كالثمار الطالعة في الشمس الغالية
من خصوبة الأرض ورعاية الانسان ،
متوهجةً في القشرة ، ساكبةً عصيرَها
المنعش
على اللسان ، مبشرةً من لم يزل مريضاً
بالصحة الجليلة ،
مرفرفةً
في رعود أشعة الكون الخيالية
كالحمامات التي تُطْلَقُ في الأعياد
مخدرةً بصراخها الآذان ••
وكل منها تعرف عشها بثقة !

- ٣ -

متين" هو لحمنا وقابل" للتمزق ،
ثقيلة هي عظامنا ويمكن كسرها بسهولة •

إنسجام قطاراتنـا لا يتدحرجُ دائمـاً
على سكة .

وموت طفل أثقل من الهيملايا ..
ماذا نقول للأم ؟ كيف نتمكن من رفع
هذا العبء ؟

ماالذي تقدر عليه الكلمة الكبيرة ؟
أتستطيع أن تسند الدعائم التي ردمها
انهيار المنجم ؟

اننا نغطي رؤوس المقتولين

ونصالح الذكرى مع اللحظة الدمويـة
بأنغام الحزن .

حتى الأموات نمنحهم نحن الحياة !

فاذا لمتكن كَذِباً صرخة المصابينالذين
طواهم الموت

حيث السكون الرهيب ـ
فلماذا يكون كَذِبـاً حب الأحيـاء :
انهالحب هو الذييمنحنا الكلمةالسامية،
الكلمة التي لم يتمكن من خنقها أحد
منذ أن فكر الانسان .
اننا نحن من نمنح الحياة والحب

للشمس والقمـر والجبـال والأنهـر
والأموات ،

أولئك الأموات الذين لم يزالوا هنا
والـذين يتحركون حسب طريقتهـم
الخاصة فينا

في الأعماق التي لم نسبر غورها بعـد
من حيث جئنا والى حيث سنذهب .
مسحورة هي عيوننا كما لدى المحبين ،
الذين ينادي أحدهما الآخر : ياحياتي!
وهذا خاص بنا ! ولسوفنحافظ عليه،
ولننسمحللتعاسة ، ولن نسمحللمجرمين
لن نسمح لأحد بأخذه منا .

- ٤ -

هل أقضي على الدموع ؟ وكيف أقدر
على ذلك ؟
ألا يجب أن نذكر أن الدموع تسكب
في التعاسة كما في السعادة ،
وبأن تيارها لا يتدفق الا في الانسان
جاعلاً من العيون ينابيع ؟
أيتها الدموع انني أصبحت أجدُ صعوبةً
في التفريق
بين ماهو ملح وماء ، وماهو روح .
فقد كان لغزاً بالنسبة اليّ دائماً
كيف أن الضوء يتجمع في العين لـدى
البسمة ،
بينما ينطفيء لدى الحزن كما لو من
الداخل .
ما كان ملحاً وماء أصبح الآن روحـاً
متسكبة !
وما كان انطفاءً وضوءاً أصبح الآن
حزناً وسعادة !

فالانهار ترضخ ، وترضخ البحيرات
لعين المسافر عنـدما تبرق عبر نافذة الطائرة
لتصبح بهجة في ذاتـه حتى ولو كانت
تخبىء الغرقى ٠
أمّا المكان الذي حدثت فيه مأساةالغرق
فتظل عيون الحزانى تجلله بالسواد ٠
وجبل الايتر(١) يظل يمسك بالاحتفال
الأسود حتى الأبد
ويحمل النصب التذكاري
بصبر على الاكتاف ، حيث لم تَطْـف الانهـار ،
ولم تسقط الصخور على رؤوس الناس،
بل حيث أراد القتلة اغتيـال ما هـو خاص بنا
في حضور أشجار الزان ٠
فداسوا وطعنوا بقسوة أكبر من قسوة العناصر ،
تلك التي لم نزل ننفخ فيها الحيـاة
والدهشةُ تغمرنا
لتسليمها ذاتها لنا على هذا الشكل ،
تلك العناصر المترعة بالمفاجآت ٠

(١) جبل الايتر : يقع شمال مدينة فايمر بالمانيا الديمقراطيـة ، بالقرب مـن معسكرات الاعتقال النازية « بوخن فالد » ٠

أما الماء فلا يسلّم نفسه من أجل القتلة
ليصبح دمعاً
ولا يسلم الضوء ذاتهلهم ليصبح بسمة ٠
ولن نمنحهم نحن الحياة ٠

- ٥ -

في عين ملاح الفضاء أصبح بحرالاغريق
من جديد
بزرقة الزهرة الخالدة ،
والعالم صار من جديد تلك الصـدفة
التي خرجت فينوس منها ٠
فنحن نأتي أبدا من الابوين ٠
والجنس البشري يندفع ، تيـاراً مـن الجمال
في الفضاء المزدان بألوان قوس قزح ٠
من ذلك البعد ربما يبـدو ياقوتاً دمُ الضحايا
ياقوتاً نُقَبِّلُه ونحمله في أصابعنا
كشيء ثمين على نجوم غريبة ٠
اذ أننا لا نطير بسهولة ٠
ثقل الارض هو طيراننا ـ
وكالضحية الفرح ٠
لكن هذا يجب أن يقول لنا الكلمة ٠
لأن هذا هو اصطدام هيرقل بالأسد ،
الاصطدام المحتدم في الرعد ،
الذي نسمعه ونذكر الأجداد ٠

لأنــه كذلك خاص بنا أن نحس عبر
الأزمان
ونرضى للأموات حياة عظيمة ، ونفهمهم
على أنهم خاصون بنا
ساهموا
بخلق ما هو خاص بنا
في الليالي وعبر التضحيات
اذ أن من وقف هناك وتطلع الى الانسياب
والى الكرة الملتهبة الثقيلة
وفهم أكثر من الرقرقــة وأحس أكثر
من الحرارة
فقال إن إلهاً يتحدث من خلاله لم يكن
غبيــاً ،
بل معلما حتى لنا نحن الذين نبحث
اليوم عن الكلمة
لكي نقول بالتحديد ما نحن ، لكي نقول
أكثر من اننا تحررنا من السادة ـ
ولنسمع أكثر من ضجيج الآلات
ونحس أكثر من حرارة الافران العالية ٠
اذ أنها ثقيلة بما فيه الكفاية هــذه
الأشياء ٠
لكن طيران الانسان هو الثقل
الذي يجعل من الانسان انسانا ،
إبناً للكتلة العائمة ٠

- ٦ -

المتاجر في الفضاء خاصة بنا ٠
وخاصة بنــا بهجة أن نرى أنفسنا في
الواجهات
لُعباً تعتمر القبعات أو تلف الصدور
الأنثوية
بالحرير الصيني ٠
خاصة بنــا بهجة أن نرى القطــارات
الصغيرة
تعبر النفق ،
وأن ننظر الى أثاث غرف عمالقة الغابات
من الداخل ٠
يا لها من بهجة عظيمة أن ننسى تقريباً
الأجنحة المتكسرة ،
وأن نحلّق كالطيور
أو نغوص كالأسماك الباردة !
اننا نريد أن نمتصّ حليب أشعة المجرّة ٠
فنحن ظامئون الى هذا الحد ٠
فضولنا بلغ درجة من التصميم
يجب أن تتطاير معه الصخور
وأن يُقطعَ صقيع القطب كالزبدة ٠
ان جباه أطفالنا الناعمة
تنطح اليوم بجبروت جبال الورق ـ
لكن مفاتيح الحروف ذات الذقون الجعدة
بين الأنامل الصغيرة
تفتح بصرير أو بسرعة

الجبل الذي لا يستطيع فأر" قضمَه ،
أو فيل زحزحته من مكانه •

- ٧ -

العملهو اللقاء العظيم للانسانمعذاته•
فهل عرف بدونه ياترى : من هو ؟
وعندما يلم الانسان الماء في السد
يلم بهذا ذاته •
أما اذا تركه على عواهنه ،
فيكون هو الماء الضائع في الرمال •
وعندما يُضرمُ الانسانُ النارَ فيالموقد،
يصبح بهذا هو النار الباعثة للدفء •
أما اذا غضب ،
فيكونالنارَ التي تفترسالمدنوالبلدان•
واذا لم يذهب الانسان في دربالنجوم،
يبقى ذلك الحيوان المجتر أعشابَه •
واذا لم يحس شوق العالم كله ،
فلسوف يتحول الى الحجر
الذي يضرب •

- ٨ -

يا للسطح الهوائي !
يا لقبة النجوم فوقي !
يا للبريق الدائر في الليل ـ هذهالقبةِ
الفارغة !
يا للقناديل الورقية الملونة في عيد نبيذ
الانسان !

ومع هذا فلو سقطت قطعة صغيرةصغيرة
من ذلك النجم الذي التم على نفسه
كقبضة
فستخترق طاولتي
كطلقة بندقية •
يا للسطح الهوائي !

- ٩ -

في جمجمتي
أحمل أفكار العالم ،
التي لا يفكر بها هو ،
والتي يرضخ لها •
لكن جميع أفكار الحكيم
لا تذيب الحجر
الذي ينفلت من السقف ،
وبصمت
يفجر الجمجمة ،
الحجر الاقوى من الجمجمة ،
المتستر الى درجة رهيبة •

- ١٠ -

لندع الموت للأموات !
فهو في التحول
ليس أكثر من الخط الفاصل بين صورة
وصورة في الفيلم السينمائي
الخط الذي يتحول في الحركة الىلاشيء•

أما اذا ما توقفت الحركة فحسب
فيكون الجمودُ والسأم
يكون الزمنُ زمناً مرعباً
يكون القناعُ الذي لا يتحرك ٠

- ١١ -

أَنصِتْ الى عروق العالم الذهبية !
ان الانسان هو الوحيد
الذي حولها الى أوتار ،
الى كمانات وأبواق ٠
يا للالحان الصاخبة العابرة !
والموت لم يزل
فم الاحياء الشاكي ٠
ما الذي لم يحوله الانسان ؟
منديل الحبيبة
يلمع في عينيه من خلال الخميلة ٠
كحل عينيها
يرعد عبر جسده الثقيل ٠
الحبيبة تدخل في ذاته
كما يدخل الهلال في فتحة الجفنين ٠

- ١٢ -

أوجد العشاق
بعضهم لبعض
جميع عطور الورد ٠
ها هي ذي الآن تفوح !
كاللهب تهب الألوان
وبين الورود والنظرات
يلعب العشاق
كالأطفال بين الأبوين ٠

- ١٣ -

لسنا من خلق العالم ٠
لكن اللقاء معه هو خاص بنا ٠
لم أخلف أنا الصديقة ،
لكن حبها خاص بي –
طالما كنت أستحق الحب ٠
وحسب ميزان لهيبي
ستكشف لي الصديقة ذاتها ٠

- ١٤ -

أواه كم من الأشياء تستطيع أن تضم
شبكة عيني ، هذا المكان الصغير ؟
ولكن لتدرك أعجوبة الشبكية :
الكون كله يسلم نفسه لها بحب !
وهذا الحب نسميه المكان ٠

- ١٥ -

تسمي مقياس حياتك برميلا مثقوبا
وتقول انك تغرف بلا جدوى فالبرميل
لا يمتلىء
والزمن يتسرب منك ٠
لكن ضع البرميل في التيار فلن يفرغ
أبـــداً ٠

- ١٦ -

ألف خطر وخطر يساند بعضها الآخر
كالأقواس المنحنية

التي يسند أحدها الآخر
فتحمل الانحناءات .

- ١٧ -

ما هو هذا الهمس العذب ،
الذي أسمعه على الدوام .
لا تخدعني أذناي .
انه ليس بالريح – بل هو الريح !
انها ليست الاشجار – بل هي الاشجار!
انه حديث
وهو يأتي مع الشعاع –
وصمت
ممتلىء غاية الامتلاء
كحديث الأحبة الصامتين .
لا بد أن ثمة شيئاً ما هنا
كنبع في الغابــة .
هاهو ذا لون أزرق بين الاعشاب
ينادي : لا تنسني !(٢)

- ١٨ -

من ذا الذي سمع في البدء العلاقة –
روحَ الهواءِ تلك ،(٣)
حتى شد هكذا الأوتار ؟
بما أن صوت الحبيبة أكثر رقة
من صوت الحبيب ،
ومع هــذا فقد أحبت هي ذلك النغم
الأكثر خشونة
ووضعت يدهـا على الصدر القاسي ،
أكثر ابتهاجاً
مما لو أنها ضمت الى صدرها
رفيقة الطفولة
تعلمت الصخور كيف تتحرك
والجدران كيف تتفجر .

- ١٩ -

هكذا تتفتح العيون
الاغريقية ذات الحاجب العريض ،
وتتوج الصخرة التي لا شكل لها
بنظام الأعمدة .
وأمام تجاعيد الجبال
ترصف النظرة المصرية بسخاء
ملامس البيان(٤) البيضاء والسـوداء في
معابد الموتى ،
حيث لعب البناؤون
بأعمدة الجرانيت الساطعة
وغياب الشمس .
والمنبسط العملاق في مقابر « مينغ »(٥)
يسير بالخطوةالموزونة للناس والحيوانات
الحجرية

(٢) « لا تنسني » : إسم نوع من الزهور .
(٣) المقصود بالعلاقة هنا : العلاقة بين الخشونة والرقة . وروح الهواء هي الكلمة التي تحمل المعنى من خلال التموجات الهوائية.

(٤) الآلة الموسيقية المعروفة (بيانو) .
(٥) مقابر غني بعيدة عن بيكين .

عبر الأبواب الملونة التي تنظم الهواء
باتجاه نصف الكرة المرشوش بأشجار الفواكـه ،
حيث ينام في النصف الثاني من الكرة الأمـوات
تحرسـهم التماثيـل الفخارية للخيول
والراقصين والعازفين •
وفجأة تصبح واحدةً أسرابُ البشرية
في عين القلب المحبة
التي ينظر من خلالها **الشاعر •**

- ٢٠ -

أبدا ننمو الى داخل المخططات السمحة •
هذا هو مكاننا، وهنا يوجد دائما مكان،
حيث لا إقناع بالقبضات •
لقد كان لنا مكان أمام الباستيل ،وأمام قصر الشتاء ،
وفي البيت المائل مع الريح في جوليس(٦)
من أجل فرح الملايين •
انه الفكر الموجود في ذواتنا
يجعل دروب النجوم ترفرف
كالشرائط في جدائل الفتيات •
مكان عظيم هو تسامحنا ،

(٦) جوليس : هو المكان الذي كتب فيه الشاعر الالماني شللر « نشيد الفرح » الشهير الذي لحنـه بيتهوفن والحقه بالسيمفونية التاسعة •

ومكان لا نهائي فهمنا ومرحنا •
من جميع شوارع الحياة يتجمع هناك
جميع السكان ، يتجمعون
في أسواق يوم العطل ـ راغبين في رؤية العرض
الجديد أبـداً ، والمولود مع هذا من الذكرى ،
مثلما نكتشف في وجوه الأطفال
ـ الذين لم يكونوا والذين أصبحوا ـ
سماتِ الأبوين ، مبتهجين ،
لأنَّ الشيءَ الذين صارَ شيءٌ جديدٌ
ومع هذا فنحن نعرفه •

- ٢١ -

ماهو الفكر اذاً ؟
انه الرجال القادمون من المغاسل
الصاعدون الدرجات بسلالهم الثقيلة
المليئة بالغسيل الناصع الذي نظفتـه طبول غاضبة
حتى أن الأطفال ينحنون بأنوفهم المنتفخة
على الحلم الأبيض •
وهو دفع المذراة للحنطة ،
حيث يرتعب العطر النائم ويهرب •
لا يجب أن يفصل الفكر أبدا
عن العجلات السريعة التي تحمل الخيرات
الى الأمكنة البعيدة •

فنحن نتطلع ببهجة وادراك الى ثمار
العمــل •
وحتى الحصى المرشوشة بين السكك
هي لغة •
والعضلة المتوترة والمرتخية
التي تبني أجزاء المنزل
تجعل الفكر صالحاً للسكن •
أين يكون الفكر إذاً ان لم يكن في العمل،
في المعادلات الجميلة
حيث تبعث لنا دروبُ النجوم
بالأنغـــام •

- ٢٢ -

من حلق الأسد
أعاد هيرقل عروسه
وظل يعصر بسواعد سمراء
فناءه الزائر
حتى صمت •
أبــدا كان الأبطال الجوابون يبحثون
عن المــوت
حاملين اليه الموت •
كان الكنز دائما وكذلك كانت العروس
في آخر زاوية رطبة من المغارة •
وكان المدخلُ دائما فمَ التنين •
من نهاية العالم حتى نهايته
اندفعت خيول السهوب ،
أمامها سحابة السهام المهسهسة
ووراءها الشعوب المسحوقة •
وأرعدت مدافع السفن
وسيوف الانسان
حفرت أجساد الانسان
حتى اكتشف بعد عناء كبير
كنز الكنوز :
المنجل الذي لمع بين الصراعات
وبين السيوف والتيجان الصدئة ،
ذلك المنجل الذي يشحذ أبداً
على حجر الصوان •
وهكذا خلص المنجل
من المــوت •

- ٢٣ -

لسوف نستبدل الحرب بالعمل ،
وساح المعركة سيصبح حقلا للفلاح :
إن حكاية أيامنا
لا تقل روعة
عن جميع أساطير الأقدمين !
ولكنْ لم يكن دون جدوى ذلك التاريخ
واصطدام الجيوش
وضجيج المعارك المنصرمة •
فلقد صرنا نحن •
وهاهي ذي العصور جميعا تمد الينا الآن
على أطباق دموية يتصاعد منها الدخان
إمكانية الانسان : على التغلب •

إنّ حزمة الرماح في صدورنا
تفتح درب الحرية ٠

- ٢٤ -

والنزاع يتحول الى رقص ٠
وبسماجةٍ تتساقط الرؤوس الفارغة ،
التي امتلأت بدم البشر ٠
والذين يتحركـون بصعوبـة يخرجون
متدحرجين
من مسرح العالم ٠
قسماتهم لم تعد مطلوبة ٠
أنظمة المعارك القديمة
تبعث الملل ٠

في فكر الانسان المنتعش ٠
باقات ورود غير منتظرة
تنبثق من دخان معارك التاريخ ٠
ولسوف يخيب أمل من لم يزل ينتظر
أن يرى عبر الدخان
الحركات المتشنجة للأجساد الممزقة ٠
ان نظام خطوات التاريخ
يسري بالضرورة في أعضائنا ،
وليس من معلم رقص
يتمكن من ايقاف خطواتنا
التي تسير عبره
كالأرض
السائرة عبر موقفها القديم ٠

★ ★ ★

يان نيرودا

(١٨٣٤ ـ ١٨٩١)

مؤلف (قصص مالا سترانا) ولد في براغ في شارع (مالا سترانا) الفريد في طابعه وجماله • قضى طفولة قاسية ، وكان والداه فقيرين • فأبوه كان خماراً وأمه كانت تعمل في خدمة البيوت •

ترك سكان (مالا سترانا) آثاراً عميقة في ذاكرته • ما لبثت أن انبثقت بقوة والحاح فيما بعد ، فدونها في كتابه (قصص مالا سترانا) وهو كتاب كلاسيكي في الأدب التشيكي ، يصور بدقة وأمانة وحيوية ، الجو الذي كان يسود هذا الحي القديم في العاصمة التشيكية •

بعد أن أتم نيرودا دراسته واشتغل مستخدماً ثم معلماً ، انتقل الى الصحافة فأصبح من ألمع الصحافيين الذين عرفتهم الأمة التشيكية • بيد أن ضالته المنشودة وجدها في الشعر ، فانصرف اليه بكل ما في نفسه من قوة • وكانت مجموعاته الست في الشعر الغنائي ، تتحدث عن خيبته في الحب ، كما تعبر عن محبته لبلاده وايمانه بمستقبل الانسانية المشرق • يعتبر نيرودا من مؤسسي الشعر التشيكي الحديث ، رغم أن النقاد في عصره ، لم يخصوا شعره بالعناية الجديرة به • كتب نيرودا تمثيليات منها الهزلية في فصل واحد وكرس كتبه النثرية القصيرة للتحدث عن براغ القديمة وسكانها • ولم يتزوج قضى السنين الأخيرة من حياته في المرض والاهمال •

ان (قصص مالا سترانا) التي ترجمت الى لغات أجنبية كثيرة ، لقيت رواجاً كبيراً ، ولاسيما الطبعة الانكليزية فاعتبر النقاد الانكليز نيرودا من كبار الكتاب الواقعيين في الأدب العالمي الى جانب ديكنز وبلزاك وغوغول •

يان نيرودا

أشباح

منتزعة من يوميات محام متمرن

ترجمة : ليان ديراني

أمس ، بلغت الثلاثين من العمر • شعرت أني غدوت رجلاً آخر ، منذ أمس ، فقط ، غدوت بكل ما فيّ رجلا ، دمائي تدور دورانا منتظما ، جميع أعصابي غدت من فولاذ ، كل أفكاري طبعت بطابع الجد والرزانة ، انه لعجيب حقاً ، أن يتمكن رجل من النضج هكذا في ليلة واحدة ، بل ماذا أقول ، في لحظة واحدة ، فيمده شعوره ببلوغ الثلاثين ، بمثل هذه القوة ! هكذا اعتورني السرور ، لأني أحسست أن في مقدوري ، الاقدام على عمل ، وانجازه بنجاح • غدوت أتامل كل شيء بصفاء تام ، أجل ، سأشرع الآن ، وأنا منشرح الصدر ، بكتابة مذكراتي ، كي أصور نفسي ، كما أنا • اني متيقن ، اني بعد بضع سنوات ، سأطالع باعتزاز هذه الصفحات من مذكراتي • وان كل من يتاح له أن يطالعها ، بعد موتي ، سيهتف معجباً : انه لرجل حقاً !

غدوت اذن ، على حين غرة ، انساناً آخر ، حتى أن أمسي الأول ، أخذ يبدو لناظري ، جزءاً من ماض ضبابي ، سحيق • أجل ، لم يعد في وسعي أن أفهم ماضي • كنت أكتب حقاً ، كل يوم مذكراتي • أما الآن ، اذا ماعدت الى الافكار التي كنت دونتها فيها ، فانها تستعصي على فهمي وأقف دونها حائراً • فاهز رأسي قائلا : لم كتبت هذا ؟ ـ (« ما جدوى المثل العليا ؟ ما جدوى تبني مثل أعلى ؟ » ـ « شمس باردة ، محيطات من جليد ! » ـ « ما أكثر ما أراني كئيباً ، ولكن كآبتي لا تبلغ حدود الموت ، بل الانتحار • » ـ سحابة مصاب جسيم يهدد ، أو الشعور بأن العالم يندفع الى الهاوية • » ـ « قد أكون مخطئاً • » ـ « قبل أن أنجز المهمة التي تفرضها علي الحياة وبعدها ؛ لا يخامرني أي احساس بالبهجة ، بل يراودني سؤال مؤلم لا غير • ») سخافات جسيمة ! احساس مريض • لقد تولد هـذا كله من أني لم أكن أؤمن باي هدف محدد ، واضح

المعالم ، ولا أتمتع بارادة حازمة واني كنت انساق في مجرى الحيـــاة ، باسخف مظاهرها وأتفه قوالبها • فما أسمى الذروة التي أراني أرتقيها فجاة !

أولاً : علي أن أقدم فحصاً لأصبح محامياً ، ولسوف أقدمه سريعاً • ثانياً : سانصرف الآن ، كل الانصراف الى دروسي • فلن تطأ قدماي مكتب المحاماة بعد الآن ، قبل أن افرغ من هـــذا الامتحان ، ان أستاذي لن يقدم على شطب اسـمي من لائحة العاملين عنده ، لأنه ، ان فعل ، أضاع علي قسماً من السنوات السبع المكتسبة في التمرن • ثالثاً : ساظل محبوساً في بيتي حبساً مشدداً ، فلا أدخل المقهى ، حتى ولا في المساء ، اذ أنني أخجل من نفسي لما أضعته حتى الآن ، من مال، في هذه الجلسات اليومية ، التافهة ، في لعب الورق • لن أقصد الى (بريكوبي) يوم الاحـد ، ولا الى المسرح أيضا ، لن أذهب الى أي مكان ، والآنسة فرانسواز ، لن تصدق عينيها ! قالت وهي في بيت (لوكوتا) ان هيئتي ، لا تنم الا عن الشرود والطيش ، فانتظري اذن !

يا لها من فكرة رائعة ! لا بد من التضحية لتحقيق هذه الفكرة ! أجل ، سانتقل الى (مالا سترانا) • في حي (مالا سترانا) الوادع الشعري ، بين جيران هادئين ، لطفاء ، في جهة ما ، في قلب شارع منعزل • نعم ، الجو الشعري ضرورة قصوى لاشباع النشوة التي تتملكني اليوم ، يا للنعيم ! مسكن وادع ، شقة بَرود ، تطل على هضاب (بيتران) الحالمة ، وتشرف على حديقة صغيرة خاصة ، لا بد لي من بيت ، له حديقة ، حيث يتوفر العمل والسكينة • بدأت أشعر الآن أن تنفسي ، تحسن •

فالى الأمام !

في بيتران عنادل ، ان لم أخطىء الظن !

حالفني الحظ • شقة في شارع (أوجيزد) الآمن ، هي أفضل ما يمكن أن أشتهي • هنالك ساقبع مثل ولد في مخبئه السري ، لن يعرف أحد من أمري شيئا ، لا ، لن يعرف أحد ! ان هذا البيت بطابقيه الاثنين ، أعجبني مظهره سلفا • الا أني ، لن أكون مستاجراً مباشراً ، بل مستاجراً ، غير مباشر ، هذا لا يهمني ! مؤجرتي المقبلة ، هي زوجة مراقب في الخطوط الحديدية • لم أحظ بعد ، برؤية السيد المراقب هو يقوم بعمله في مكان ما ، وهو في سفر دائم • انه يسكن في الطابق الاول ، في شقة كبيرة ، فيها غرفة واسعة ، تطل عـلى الشارع ، وفيها مطبخ وغرفتان صغيرتان استاجرتهما ، في جناح خلفي ، منعزل قليلا ، فيهما ثلاث نوافذ تشرف على الباحة الوعرة ، ونافذة أخرى ، هي نافذة الغرفة الصغيرة الخلفية ، تشرف على الحديقة وعلى (بيتران) ، انهـا حديقة صغيرة جميلة ، قالت لي زوجة المراقب في الخطوط الحديدية ، ان جميع المستاجرين يتمتعون بحق التنزه فيها • أما أنا فلن أذهب اليها ، بل سأنصرف الى عملي • الحديقة رائعة جداً• فالبيت يقع في أسفل (بيتران) والباحة تقع على سفحه والحديقة على مستوى الطابق الاول ، بحيث تصبح نافذتي ، وكانها في الطابق الارضي • فاذا ما وقفت أمام هذه النافذة ، سمعت تغريد العنادل في

(بيتران) • يالها من لذة ! وانا الذي كنت أتساءل ان كان في (بيتران) عنادل ! أجل ، ان فيهـــا عنادل !

المؤجرة صبية ، امرأة ضئيلة ، في وسـع المرء أن يعطيها من العمر اثنين وعشرين عاماً • جميلة ، ذات جمال سليم • حقاً ، ان وجهها لا يتسم بطابع الانسجام المعهود ، فذقنها عريضـة بعض الشيء ، الا ان خديها تشبهان المخمل الوردي ، وعينيها البارزتين زرقاوان كأزهار الترنجان• تحمل على ذراعيها ابنة في شهرها السابع ، اسمها كاتيا ، اذ ليس عسيراً على المرء ، وهو بين هؤلاء الناس ، أن يعرف حياتهم فورا • ان كاتيا تثير في النفس الضحك • جمجمتها ، أشـبه بكرة ، وعيناها في أعلى رأسها ، جاحظتان ، مثل أمها ، وهيئتها تنم عن بلادة شديدة • ولكن ، لا يكاد المرء ينظراليها بلطف ، حتى تشرع هذه الكتلة الصغيرة بالضحك ، ولا يلبث هذا النظر المحدود ، أن يمتلىء فجاة بشرر ، ولا يلبث المرء أن يقرأ في هذه النظرات السماوية ، في هاتين العينين ، تعبيراً محبباً ، حتى أن ••• (يجب علي أن أتمم هذه العبارة فيما بعد ، أما الآن فلا أعثر على التعبير الدقيق) • داعبت خد كاتيا قائلا : ـ انها لفتاة جميلة ! من المستحسن دائماً كي تحظى بعطف الامهات ، أن تطري مفاتن أولادهن • عاقلة لا تبكي تقريبا أبداً ، قالت لي الأم ببشاشة • ولقد سرني أن أعرف ذلك ، بسبب انصرافي الى الدراسة •

حين قلت ، اني دكتور في الحقوق ، بـدا التأثر واضحاً على وجـه زوجة المراقب في الخطوط الحديدية • وحين قلت اني أدعى كروملوفسكي ، هتفت : ـ أوه ، ما أجمل هذا الاسم ! هؤلاء الناس يفصحون عما يجول في خاطرهم على الفور ، وبعفوية بالغة ! لقد تم الاتفاق بيننا على الأجرة والتنظيف والفطور ، بحيث تتعهد مؤجرتي بغسل ثيابي وتنظيف مسكني ، وتقدم لي طعام الصباح• ان هناك في الاسفل ، عند مدخل البناية ، حانة نظيفة ، كما استطعت أن الاحظ ، يؤتى لي منها بغدائي وعشائي • ـ حين يكون زوجي في البيت ، نتناول ، نحن أيضا ، وجباتنا في هذه الحانة ، ان مطبخها بورجوازي • جميل ، وانا أيضا ، أحب المطبخ البورجوازي ، اني لا أميل أبداً ، الى الطعام المخلوط بالتوابل ، الذي يقدم في المطعم • في الأسفل الى اليسار عند المدخل تماما ، دكان لبائع أحذية ، وفوقي ، في الطابق الثاني ، يسكن خياط ، فماذا أبتغي أكثر من هذا ؟

فيما انا أتفق مع مؤجرتي ، اذا برجل في الاربعين من عمره ، (غليونه) بين أسنانه ، يدخل المطبخ من الباب المفتوح • هو أحد الجيران ، اذ أن ثيابه تدل على أنه في بيته • كان يدخن وهو مستند على مصراع الباب •

ـ اقدم لك الدكتور كروملوفسكي • قالت له زوجة المراقب في الخطوط الحديدية وهي تشدد على كلمة الدكتور •

سحب الرجل من غليونه نفساً ، وقال : ـ تشرفنا ! بهذا الجار الكريم ، يادكتور ! ومد يداً سمينة ، رخوة • فصافحته • هذا انسان يجيد معاملة جيرانه • انهم هنا ، على كل حال ، أناس

ضيبون ! هو رجل ربعة ، دموي الوجه ، ذو عينين زرقاوين ، نديتين كأنهما مغمورتان بالدموع • ولكنهما ، للمرة الثانية أقول ، عينان صادقتان ! بيد أن هذا الصدق في النواظر المائية اللون ، قد يتاتى من شرب الكحول ، اني خبير بهذا النوع من الناس ! شفته العليا سميكة ، والممنون كافة ، لهم شفة عليا سميكة •

ـ ألا تعرف لعبة الستة ؟ قال لي •

كنت أود اعلامه أن علي أن أنصرف في هذه المرحلة الى دروسي ، وانني لا ألعب بشيء في هذه الفترة ، ولكن ، لماذا أسيء بسرعة الى حسن الجوار ، فقلت له بابتسامة ودية :

ـ هل من تشيكي ، لا يعرف لعبة الستة !

ـ حسناً سيكون في مقدورنا أن نلعب بعض الاحيان ! نحن ، معشر الفنانين ، نجل رجال العلم• أن لديهم دائماً ما يعلمونك اياه •

أي شيء أستطيع أن أعلمهم أنا ! ولكني شعرت ، ان علي ، بدوري ، أن أقول شيئاً ودياً• من عساه يكون هذا الرجل ؟ فنان ••• نظر مائع ، وجه دموي ، يدان سمينتان ••• أراهن أن في أنامله بثوراً ، لا أتمكن من رؤيتها • أجل ، ان في أنامله بثوراً ، دون ريب • هو يعزف على الكمان الكبيرة ••• أنا خبير بهؤلاء الناس ! قلت له :

ـ أنتم معشر الموسيقيين ، ليس لديكم حقا ، متسع من الوقت •

ـ أما سمعت ، ياسيدتي ؟ كان الرجل يقهقه ، كان لحدة ضحكه ، ترتفع كتفه من الاسفل الى الاعلى ، وتهتز على مصراع الباب ، فكأنه كركدن يحتك بلوح خشبي •

ـ أنا موسيقي ! عجيب ••• قال هذا ، وهو يشير باصبعه من فوق كتفه ، الى باب يقع في وسط المجاز ، وتبدل ضحكه بسعال خشن ، صاخب •

ـ السيد أوغستا ، رسام •

في هذه الاثناء ، أقبل من آخر المجاز ولد ، يركض ، في حوالي الثامنة من العمر ، وقد اجتذبه دون ريب ، هذا الضحك وهذا السعال • فاخذ يفحصني وهو مستند الى الرسام •

أهو ابنك ، ياسيد أوغستا ؟ قلت وقد أحسَسْتُ بعض الضيق •

ـ هذا صغيري جوزيف ، نحن نسكن هناك ، عند الباحة ، في الجناح الايمن ، كما تسكن أنت، هنا ، في الجناح الأيسر ، وفي وسعنا ، أن نرى كل ما يجري عندك • نوافذنا متقابلة •

ـ من هو هذا السيد ؟ قال جوزيف الصغير ، وهو يومىء الي باصبعه • انني أحب لغة الأولاد البسيطة ، العفوية •

ـ هذا هو الدكتور كروملوفسكي ، يا قليل الأدب !

ـ وهو عازم على السكن هنا ؟
ـ اسمع ، ياجوزيف ، أتريد (كرويتزر) ؟ قلت وانا أملس خصل شعر الولد الشقراء •
فمد الولد يده دون أن ينبس بكلمة •
أعتقد أني تركت انطباعاً حميداً في نفس الجميع •

★ ★ ★

انه ليوم مرهق ! نقل الأمتعة ، ترتيبها ، تغيير مكان كل شيء ، شعرت من جراء ذلك بدوار قلما بدلت مسكني ، أنا لا أحب تبديل المسكن ، ولكن يبدو أن ثمة أناساً مغرمين بذلك ، لعله مرض ، ان هؤلاء أناس ، ذوو طباع ، لا تستقر على حال • بيد أني لا أستطيع نكران مافي تبديل المسكن من نكهة شعرية ، فالمسكن الذي سنغادره حين يبدأ يتعرى ليصبح مقفرا ، لست أدري ، أي حنين يتملكنا فجاة ، فنشعر أننا على أهبة مغادرة ماوى أمين ، لنركب أمواجاً ، قد تطيح بنا • أما مسكننا الجديد ، فهو ينظر الينا نظرات غريب ، ليس لديه ما يسر به الينا ، انه بارد • اني أشعر شعور ولد صغير ، ياتي مكاناً ، لم يالفه ، فيتشبث باذيال أمه ، صائحاً : ـ أنا خائف ! ولكنني غداً صباحاً ، سانهض ، وساردد دون ريب : ـ ما أهنأ النوم هنا ! ولكن ، كم الساعة ؟ العاشرة والنصف • البيت كله غارق في صمت تام ، مثل قرارة بئر • صورة رائعة : (صامت مثل قرارة بئر) ، إنها لصورة أروع من القول : « صامت مثل كنيسة » وانها لصورة قليلة الشيوع على كل حال •

مؤجرتي أضحكتني كثيراً • كل شيء يدهشها ، فلا مناص لها من أن تلمس وتفحص كل شيء ؛ هذا الفضول الساذج ، ليس فيه ما يجرح الشعور ، انها تساعدني بهمة ونشاط ، وقد مدت، في التو ، فراشي وهيأت سريري ، وكان أن أعجبت أشد الاعجاب بالغطاء الكبير المصنوع من جلد الغزال والمخدة المشدودة من جلد الغزال أيضا • فحين وضعت في مكانها ، لم تستطع أن تتمالك عن أن تستلقي على السرير ، لترى كيف يكون الاستلقاء عليه ، كما كانت تقول ؛ كانت وهي متمددة على السرير ، تضحك فرحة مثل سنجاب ؛ لو كان في مقدور السنجاب أن يضحك حقاً • ثم وضعت كاتيا الصغيرة على السرير وعاودت ضحكها • ان لها ضحكة خاصة بها ، ضحكة شبيهة برنين جرس صغير • وما ان بسطت على الأرض ، قرب السرير ، جلد الثعلب الوبري ، المحاط بقماش أحمر ، حتى عاودتها نوبة جديدة من البهجة ، اذ فكرت أن كاتيا الصغيرة قد تخاف من رأس هذا الثعلب ، ذي العينين الزجاجتين • ـ ساخوفها به حين لا تلزم الهدوء ! شيء تافه كفيل بأن يسعد هؤلاء الناس بسرعة •

بيد أن الغضب سرعان ما استولى علي بعد ذلك • فحين وصلت مع النقلة الثانية ، أبصرت في الغرفة الثانية ، من الباب المفتوح ، جوزيف الصغير ، جاثياً على ركبتيه أمام اناء السمك ،

ممسكاً في راحة كفه سمكة حمراء ، كان قد التقطها • فقفزت • يالهي ! الا أنني ما لبثت سمعت ورائي صوتاً نسائياً ، ماكنت أعرفه ، ماكدت ألتفت ، حتى كانت امرأة تسرع في مبارحة الغرفة راكضة • كانت مؤجرتي ، قرب السرير تضحك ، حتى تكاد تقع • ــ انها زوجة الرسام ، حملت نفسها عناء المجيء ، لترى كيف يكون النوم في هذا السرير • وابنة صاحب البناية ، أقبلت هي الاخرى ، لتتمتع بلذة النوم فيه • أعتقد أن مؤجرتي ، لابد لها من استدعاء سكان البناية كافة ، ليجربوا النوم في فراشي ، واني لاتساءل ، على أي شيء ينام هؤلاء القوم ، الا أن جوزيف ينبغي له ألا يلج غرفتي دون مراقبة ، اذ من الممكن أن يقلب وعاء السمك ، يوماً ما • وهو فضلا عن ذلك، ولد صغير ،جميل ، يشبه شعره خيوط الكتان ، وعيناه كالخوختين ، لم يرثهما عن أبيه بل عن أمه•

أصيخ دائماً بسمعي لأعرف ان كان ثمة عندليب يغرد ، فلا أسمع شيئاً ، لا شك ان الطقس ما زال بارداً ، ربيع ممتع ، الربيع هنا ، حل منذ ستة أسابيع ، وما فتيء الناس يخرجون وهم يرتدون معاطف الشتاء ! فكلما تقدمنا نحو الصيف ، كلما كان البرد أشد ، من يدري ، قد يكون من اللازم ، لبس الفراء في الصيف ، شيء غريب ، فكرة رائعة : (لبس الفراء في الصيف) •

ولكن برداً خفيفاً ، ما كان ليؤذي العنادل قط ! أرهفت سمعي دون طائل ، فالعندليب لايشدو! خطوات ؟ خطوات انسان ثقيلة ، تقترب في المجاز • هنالك باب يصر ، انه باب المطبخ ، صوت امرأة وصوت رجل ، لا ريب انه المراقب ، عائداً من السفر • ساطفيء النور سريعاً ، وأخلد الى النوم • فقد تاتي به الى هنا ، ليجرب النوم على الفراش • وان مراقباً في الخطوط الحديدية ، عائداً من السفر ، سيكون دون ريب متسخا •

★ ★ ★

الحقوق المدنيـة • الانظمة المتعلقة بالمعاملات التجاريـة • الحقوق التجارية • المرافعات القضائية • المواد الموجزة • العبث بحق التملك • الانظمة المطبقة في الخصومات المتعلقة بعقود الايجار • التشريع المنجمي • التشريع في المياه • الحقوق الجزائية • التنظيم في المادة الجزائية المرافعة المتبعة في المواد المبرمة • التشريع في المشاع • الانظمة المتبعة في منصب كتاب العدل • التنظيم المطبق في المهن الحرفيـة • التنظيم في الرهائن • المرافعة في المعاملات التجاريـة • قانون الجمعيات • قانون الصيد • التشريع المطبق في مادة تحديد أجور الدعاوى •

هذه هي أسماء الكتب ! كل صباح ، سالقي نظرة على هذه القائمة ، كي أرى أين صرت في الدراسة ، فلا أتباطأ • بيد أني لن أتباطا ، فانا الآن شخص آخر • مع هذا ، كلما عنت عـلى بالي خاطرة مفيدة ، لن اتوانى عن تدوينها ، لأقرأها كل يوم ، كل يوم ! فالمرء يسهو على الرغم منه•

★ ★ ★

كان طعام الصباح حسناً : قهوة دون هندباء ، كعك طازج • كانت مؤجرتي في ثياب الصباح : في صدرة بيضاء • انها المشرقة ، نظرة واحدة اليها ، تكفي للحكم على أن هذا البيت يرتعبالسعادة يالها قهوة لذيذة ! يالها قهوة رائعة ! قلت هذا لأكتسب عطفها • ـ هذا مدعاة سروري ،يادكتور، جل ماارجو ، أن تكون مسروراً • هل من شيء آخر ؟ في هذه البرهة ، فكرت بالمراقب ، بزوجها•ـ أعاد زوجك ؟ أود لو أتعرف اليه ، بأسرع مايستطاع • ـ مضى الى المحطة ليقدم تقريره وسيعود وقت الغداء • عادت تضحك ، انها تقضي وقتها بالضحك • ثم أردفت : ـ بامكاني الآن أن أرتب سريرك وأقضي بعض الحاجات ، فقد انهيت حمام كاتيا ونامت ، ولئن كان هذا يسبب لك ازعاجاً ، يادكتور ، ففي وسعك الانتقال الى الغرفة الاخرى ، ريثما أنتهي •

انتقلت الى الغرفة الثانية ، وتطلعت من النافذة التي تطل على الباحة • ان في الطابقين المقابلين ، أزهاراً في النوافذ • هي أزهار رخيصة من التي تستعمل في الشرفات ، كالريحان العطري والعصيفرة وابنة الراعي ونبات الورد ونبات المسك واكليل الجبل طبعاً • ان اكليل الجبل زهرة الاعراس وزهرة المآتم • رائحته رمز الحب • وخضرته الأبدية رمز الاخلاص • يقال ان اكليل الجبل يقوي الذاكرة ، فينبغي لي أن أبتاع منه أحواضاً كثيرة • اكليل الجبل هو الذي يلقى به على مجاري المياه •

على مياه الساقيه
ورود حب طافية
جان يراها قربه
بسرور آتيه

آه ، كلا ، ما زال أمامي متسع من الوقت كي أتزوج !

الحديقة في منتهى الترتيب • في جنباتها عرائش كثيرة ، لعل لكل أسرة تسكن في البناية ، عريشة خاصاً بها • واني أراهن أن نبات الخبازى ، لا يتسلقعلى طولهذه العرائش الا ليجد جوزيف الصغير ما يلهو به •

قالت لي مؤجرتي ضاحكة ، وهي تقف عند الباب :

ـ انتهى التنظيف ، انتهى ، يادكتور • كانت قد فتحت نافذة الغرفة الاولى على مصراعيها • يتعين علي أن أعيد اغلاقها ، بيد أني آثرت الانتظار حتى تنصرف •

ـ الا تريد شيئاً ؟ انها نموذج صرف للاخلاص • يجب علي ، على الاقل ، أن أكون لطيفاً ، فأبادلها بعض الحديث • من مسكن الرسام كان يصل الى مسمعي عياط ولد صغير وصيحات صوت نسائي ، عالي النبرة •

ـ هل من رضيع هناك ؟

ـ نعم ، ابنة في السنة الاولى من عمرها ، تجار طول النهار ، (لن أفتح النوافذ المطلة على الباحة الا نادراً) • وزوجة الرسام لا تكف كذلك ، كل الوقت عن الصراخ • مفصلات مخبزها حسنة التشحيم • (يتوجب علي اذن ، أن لا افتح أبداً النوافذ المطلة على الباحة ، أما النافذة المطلة على الحديقة ، ففي امكاني تركها طول النهار ، مفتوحة على مصراعيها •)

لاحظت أن مؤجرتي لا تتكلم كلام سيدة راقية ، لا بأس ، هي امرأة بسيطة • ولكن ، يبدو ان في (مالا سترانا) ، عبارات خاصة ، لا بد لي من تسجيلها كقولهم ، مثلا ، (مفصلات المخبز) •

قالت لي مؤجرتي وقد رأتني أكتب : ـ آمل أن لا أكون قد أزعجتك ، يادكتور ، آمل أن لا يكون لديك شاغل ؟ فقلت : ـ أبداً ، فقط هكـذا • ومن يسكن الشقة التي فوق الرســـام ؟ ـ شخص غريب الاطوار ، شاب عازب ، يدعى (بروفازنيك) ، لا أدري ما كان عمله ، فيما مضى • يصرف أيامه ، دون عمل ، يقضي وقته مسمراً في نافذته ، لا يبارحها شأن بوم عجوز ، ينظر الى جيرانه بعينيه الساهمتين ، ليرى ما يفعلون • وهو كمن يملس ظهر هرة ! قالت هــذا وضحكت • فسجلت (يملس ظهر هرة) • ـ من جهة الشارع ، ان الشقة القائمة في الطابق الاول ، انما هي شقة المالك وابنته : السيد والسيدة (فيجروستيك) وفي الطابق الثاني ، تسكن أسرة مكونة من موظفين • من المؤكد انه لم ينقض بعد على زواجهما وقت طويل ، لأن العلاقات بينهما ، ما زالت وطيدة • أنا أثرثر هنا ، ومن يدري ، ان لم تكن ابنتي الصغيرة ، كاتيا ، قد استيقظت • وانفجرت قهقهتها العالية ، فاذا بها قد انتقلت الى جهة الباب الثانية •

أنا الآن مطلع على كل شيء • لنغلق الباب بسرعة ولنشرع في العمل •
الساعة التاسعة ، اليوم الثلاثاء ، انه ليوم ميمون للبدء بالدراسة !
سأبدأ بالحقوق المدنية ، شأن غيري • أعتقد أن الامور ستجري على ما يرام •••

عاد الصوت نفسه يدوي ، ببهجة ، من جهة الباب الثانية : ـ فاتني أن أسألك ، ان كنت قد قضيت ليلتك الأولى ، هنا ، في نـوم مريح ، يادكتور ؟ انظر الى صغيرتي كاتيـا • انه السيد الدكتور ، قدمي احترامك الى السيد الدكتور • (ودفعتها الى تقديـم الاحترام •) هكـذا ! (وراحت تدفعها نحوي •) لا شك أنك نمت نومة مريحة ، كما أقدر أن أتخيل ، على فراش كهذا ؟ (ها هي قد أصبحت قرب السرير •) انظري ، ياصغيرتي كاتيا ، هنا ينامون : دودو ! (وها هي تضعها على السرير •) انك تفعلين كالسيدات العظيمات ، هيه ، أيتها الخرقاء الصغيرة؟ هذا ما يستحق أن يسمى سريراً ! (واذا بها تستلقي نصف استلقاءة الى جانب الصغيرة كاتيا •)

انها امرأة جميلة فتيـة ، وانه لمشهد طريف ، ولكن •••! لبثت أديـم النظر بعناد ، الى الحقوق المدنية •

ـ كاتيا ، تعالي ، السيد الدكتور مشغول ، فيجب أن لا نزعجه • هاهي قد خرجت بضحكتها• أن يكون المرء على مثل هذه السذاجة ، أمر لا يصدق !

فلنتابع الآن ! يتحتم البدء بقراءة كل مادة في تفكير عميق ! سنرجىء الكلمة الافتتاحية • المقدمة • في قانون ••

هرة ! هرة بيضاء ! تقف أمام الباب وتموء • لأول مرة أراها ، أهي هرة مؤجرتي ؟ ماالعمل لاخراج الهرة ؟ آه ، نعم ، بس س ••• بيد أني اذا قلت بس‌س ••• فلربما راحت تموء بصوت أعلى ، هذه الهرة ! أنا لا أحب الهررة ، فهي خبيثة وماكرة وهي تقبض على الفأر • هي تخدش وتعض ! وهي تنط على حلوق الناس وهم نيام وتخنقهم • فكرة صائبة : في كل مساء وأنا ماض الى النوم ، سأقول بس س •••! ويقال أيضاً ، ان بين الهررة هررة وحشية ، هذا ما كان ينقصني يجب أن أسأل مؤجرتي بحذر وانتباه ، فقد تكون هذه الهرةأثيرة لديها ، ان لم تكن هي قد لاحظت ، لوجود بعض الدلائل ، أنها على جانب من الوحشية •

ها هي تعود الى المواء • فتحت لها الباب قليلا ، فلاذت بالفرار • أقبلت المؤجرة تسألني ، ان لم أكن بحاجة الى شيء • ـ كلا ، لست بحاجة الى شيء • بيد أني فرجت الباب • وذلك بسبب هذه الهرة • ـ آه ، حسناً !

المقدمة •••

قرع الباب • انه الرسام • هو لا يريد ازعاجي ، ولكنه منذ برهة ، حين كانت نوافذي مفتوحة ، أبصر لوحات معلقة على الجدار فعجز عن تمالك نفسه • لدي لوحتان فنيتان ، ملونتان ، من صنع (نافراتيل) ، احداهما ، تمثل البحر في هيجانه ، مطبوعة بطابع الكآبة ، والأخرى تمثل البحر عند سطوع الشمس ، مفعمة بالبهجة • وقف الرسام طويلا ، أمام هاتين اللوحتين • انه يرتدي ثيابه الخارجية وفوقها معطف أسود ، عريض الاكمام ، ويعتمر بقبعة ، على شكل قالب سكر وبيده عكاز • لو نبتت على هذه القبعة نبتة عارشة ، لجاءت بقبر قوزاقي • هذا ، لابد أن يكون من صنع (نافراتيل) • انه ما رأى في حياته لوحات كهذه من رسم نافراتيل ، ومتى سنقيم جلسة لنلعب لعبة الستة ؟ ـ نعم ، نعم ، في أحد هذه الايام ، في أحد هذه الأيام • قد يكون من الممكن، أن نلعب ثلاثة فقط مع مالك البيت ، وإن دعوت أنا أحد الاصدقاء ، فسيتاح لنا أن نلعب أربعة • بيد أن هناك ما يريد أن يقوله لي • ان زوجته تشعر بشيء من الضيق أمامي ، فقد فاجأتها البارحة، ممددة على سريري • ولكن السيدة (فيلهيلموفا) ، هي التي دعتها وشجعتها • فابتسمت بأدب :

ـ نعم ، أود أن أطمئن زوجتك العزيزة ، ان الأمر ، ليس خطيراً الى هذا الحد • ـ يا لهؤلاء النسوة ! تصافحنا فانصرف • كانت مؤجرتي واقفة في اطار الباب • الآن ، بلغت الساعة العاشرة ، ألا أحب أن يؤتى لي من تحت بطعام الصباح ، على الطبق ؟

ـ شكراً ، أنا لا أتناول فطوري أبداً على الطبق •

المقدمة • حول القوانين المدنية بصورة عامة ، تعريف الحقوق •

★ ★ ★

كنت أرتع بشعور غامر مريح ، كنت مستغرقا في مواد القانون استغراقا جعلني أشعر معه باسف عميق لوصول الغذاء • هو حسن ولكنه ، ليس فاخراً • (عـلى كل حال ، ليس من المفيد للصحة ، أن يشبع المرء حين يقضي وقته كله قاعداً •) ـ أترغب في قهوة سوداء ؟ ـ كـلا ، ياسيدتي ، ما أنا بحاجة الى شيء ، الى أي شيء ، حتى تحين الساعة الثامنة من هذا المساء • ـ ولا الى سيجار ؟ ـ أنا لا أدخن ـ حين أكون في غرفتي •

★ ★ ★

عظيم ! شان التيار وهو يجرف قارباً بسرعة محمومة ، فتتوالى الاشياء ، أمام ناظريك عـلى الشاطىء • مادة اثر مادة ، شان حبات السبحة حين تتوالى • ما كان يخطر لي أبداً ، أني أعرف كل هذه الأشياء ، وان الأمر سيجري بمثل هذه السهولة • كنت لشدة استغراقي في عملي ، لا أرى ولا أسمع شيئاً • أعتقد أن مؤجرتي دخلت غرفتي حوالي ست أو عشر مرات • وأعتقد أنها حاولت مرتين ، أن تخوف كاتيا الصغيرة بتكليمها عن عنزة صغيرة • ولو كانت قد وجهت الي كلامها ، لما أجبتها ، دون ريب • فهي ترى ، على الأقل أن عليها أن لا تزعجني •

غمرني شعور اطمئنان شديد • ١٣٥ مادة ! آن أوان العشاء الآن ولسوف أتابع • وليقولوا لي ، بعد هذا ، ان العمل ليس مسرة ! ان جسدي كله ، يرتعش مسرة •

الشواء كان قاسياً بعض الشيء ••• يالها من رعونة ! نسيت المراقب في الخطوط الحديدية تماماً • ـ كاس آخر من الجعة ، يا سيدتي الصغيرة • أفي مقدوري أن أتحدث الى زوجك الآن ؟ فلابد من بعض التعارف ! ـ مضى الى المحطة ، لأن قطاره ، يصل في الساعة التاسعة • هاانـذا ، من جديد ، أرملة • وضحكت • ربما لن يتاح لي التعرف الى المراقب •

★ ★ ★

الساعة العاشرة والنصف • اني مرهق ؛ قوتي لم تفتر ولكن أعصابي تخونني • ان في القوانين المدنية ١٥٠٢ من المواد وسافرغ منها في ثمانية أيام • مهلاً ، فلسوف أسري عن نفسي قليلا ! شرعت أقوم باحصاء جميع مواد مجموعات القوانين الاخرى ، واكتفيت بتقسيم بسيط ، واذا بي ، في مدة شهر ، ساكون جاهزاً !

رعشتي لا تزال تتصاعد ، وعروقي تنبض ، فلن يتسنى لي النوم ، في التو ، دون شك ، الا انني ساتمدد طلباً للراحة • ساضع مصباحي ومذكراتي قرب رأسي ، على المنضدة • وسافكر •

لقد خفت ، اذ تقدمت من فراشي ، ماذا أبصر على سريري : مثلثين صغيرين ، انها الهرة ! انها هنا متمددة ، وقد اكتفت برفع رأسها والنظر الي •

ما العمل الآن ؟ ليتني أعرف كيف يتصرف المرء ليخيف هرة ! كلا ، لا أبتغي تخويفها ، ولكن، بم يجب أن أنتهر هرة كي تنصرف • ـ هيه ••• هوه ••• لا ••• هولا ! فتطلعت الي كان شيئا لم يكن • بانتا •• لون ، هذا ماينتهر به أرنب ؛ هيا ! ياصغيرة ، ياصغيرة ! أوست أوست ! لم تتنازل أن تنظر الي • بل أراحت رأسها على قائمتيها ونامت • ماذا أعمل الآن ؟

يبدو أن الحيوانات المفترسة ، تخاف النار • قربت مصباحي من الهرة ، ولكنها ، لم تبد حراكا ، بل اكتفت بالغمز بعينيها • يبدو انها تكدرت فاستاءت •

الحذاء ! رميتها به فاخطاتها ، بيد أنها نزلت عن السرير ، وهاهي قرب الباب • فتحته لها•• الحمد لله ! تعالى صوت خلف الباب ، يسالني ان كنت بحاجة الى شيء • كلا • مع ذلك ، فتحت الباب • ـ اني أعمل على اخراج الهرة ، هذا كل شيء ! لو كنت أميل الى مبادلتها الحديث قليلا حين تكون وحيدة ، لا تجد الى الرقاد سبيلا ، وتجد الوقت طويلا • فلم أجب • واذا بضحكة مكبوتة ، خلف الباب •

★ ★ ★

يا الله ، ما أعظم بهجتي ! تون تون تون سبيتيوسكفا ••• انه العندليب !

يا له من نغم بديع ! يا للحنجرة العجيبة ! يا للهزار الالهي الذي تغنى به ألوف الشعراء ! صوت الربيع ، صوت الحب ، صوت البهجة ! تيو تيو تيو تيو ، تيو تيو تيو ، تيكس •

كوتيو كوتيو كوتيو كوتيو •••

ما أشد طغيان البشر ! تراهم يمنعون عن مثل هذا الطائر الفتان ، نعمة الحرية ! ينبغي أن يحظى بكامل حريته ، كي يشدو لحنه بحرية •

سي سي سي سي سي ••

كفوررور تيو سكفا •••

كأنه العسل ! المجد للقوانين التي سنت لحماية هؤلاء المغردين المجنحين •

سكفو سكفو سكفو ••• هذا ، ان هذا ما يخدش السمع قليلا ••• ولكن ما عدا هذا ، فانه السحر الحلال !

تساك تساك تساك تساك ••• كفى والى النوم ! انه يحفر في دماغي كقضيب من الحديدالمحمى!

تساك تساك تساك تساك ••• تساك تساك تساك تساك تساك تساك •• تساك تساك ••• انتصبت واقفا • هذا ما يدفع بي الى الجنون ••• ثارت اعصابي ! آه ، اذا أغلقت باب الغرفة الاخرى ، فلن أسمع أبدا ••• تساك تساك تساك تساك •• بلا جدوى ، لم أستفد شيئا ! هذا العصفور اللعين ، لابد أن يكون في مكان ما ، في الباحة ••• تساك تساك تساك•••

لا بد لي من بندقية ، بندقية ! لو كان عندي بندقية ، لأطلقت النار من النافذة حتى ولو أدى ذلك الى اثارة الجيران جميعا ! الا يهب أحد لقتل هذه الحشرة الخبيثة !

تساك تساك تساك تساك ••• أيها الرب الاله ! يايسوع بن مريم ! رأسي يكاد ينفجر ! كلا ، شيء لا يطاق • لو كنت أدري أين هي ، لما ترددت ، للبست ثيابي ••• تساك تساك تساك••• حسنا وجدتها ! أخذت من الخزانة معطفا عتيقا ، فانتزعت منه البطانة ، وأخرجت قطنه وحشوت به أذني ، بقدر ما أستطيع • والآن ، انبحي ما شاء لك النباح !

تساك تساك تساك ••• لا فائدة ! انتزعت القطن كله ! وشددت أذني ورأسي وماحوله بشال سميك • لـم أستفد شيئا البتة ، ان هـذا الطائر القـذر ، ما زال يقذف بمساميره الى ما وراء أسوار الحصن !

لا ريب انها ستكون ليلة ليلاء !

لم أستيقظ حتى الساعة العاشرة ! رأسي كأنه قد من خشب • لم أدر متى نمت ، أظن في الساعة الثالثة ، فبين الساعة الثانية والثالثة كنت أتقلب على الفراش ثائر الأعصاب ، والبلبل مازال ينبح • المدينة القديمة خالية من عنادل ، نابحة • أعتقد أني أصبت بزكام • ان بين عيني وخزا وان في أنفي حكا • السماء سوداء والهواء بارد • ان ثمة فصولا من الصيف ، لا يختلف فيها تموز عن تشرين الثاني • فيهطل مطر جليدي وتتعرى الاشجار من أوراقها ويرتعد الناس بردا •

طردتني مؤجرتي الى الغرفة الثانية ، يبدو انها تنوي القيام بالتنظيف • ستعود ، دون شك ، مرة أخرى ، الى ترك النوافذ مفتوحة ، وسيزداد زكامي شدة •••! سأتوجه الى منزل الرسام ، ريثما تنتهي • فانا مدين بزيارة لزوجة الرسام كي تنفض عنها غبار الخجل مني ، يجب عني أن أكون لطيفا • وما دام الرسام قد جاء للسلام علي ، فلا مفر من رد زيارته ؛ اني أعرف العادات المتبعة •

ـ يوم مناسب لزيارة أسـرة أوغستا ، قالت مؤجرتي ، فالسيدة أوغستا (تزازي) اليوم• مؤجرتي تقول اشياء غريبة • فما معنى كلامها : تزازي اليوم ؟ فمن يزازي ، (أي يبـدل الجيم بالزاي •) يزازي دائمة ، وكل يوم ، أليس كذلك ؟

قرعت الباب واصخت بسمعي • لا شيء • رحت أدير مقبض الباب بحرص ، فانفتح الباب • الاسرة كلها هنا ، مجتمعة في الغرفة الامامية • ـ أتسمحون ؟•• لم يلتفت الي أحد • الرسام جالس أمام مسند التصوير ، يشد على صدغيه ، وزوجته واقفة ، ورأسها منحن الى الامام ، قرب طاولة صغيرة ، منخفضة ، وبيدها خرقة • لم ينظر الي سوى جوزيف الصغير ، فمد لي لسانه وأشاح

عني بوجهه ! وراح يجيل عينيه مراراً ، بين أبيه وأمه • لم يكن علي ، الا أن أتغاضى عن وقاحة جوزيف الصغير ؛ فيكف من تلقاء نفسه • أقبل علي كلب صغير أخذ يستروحني ؛ هو لا ينبح ، لأنه ، لا يزال صغيراً •

ـ أتسمحون !

ـ آه ، هذا جارنا ، أرجو المعذرة ، ظننت الخادمة ، ايه ، يا امرأة ، هـذا هو الدكتور ، الساكن قبالتنا ! لدينا اليوم حساء بالبطاطا ، وأنا بكل سرور أتناول الحساء بالبطاطا ، ثلاث مرات في اليوم ، ونحن ، الآن ، نتناقش ان كان يحسن بنا ، أن نمزج الحساء بشيء من الجريش • تفضل ، اجلس •

ينبغي لي أن أبدأ الحديث بداية مناسبة ، بل أحسن بداية ممكنة •

ـ أرجوكم ، ما أنا بغريب عنكم ، كما تعلمون • فاني أعرف السيد وأعرف الصغير أيضا ، وقد رأيت السيدة كذلك • سيدتي العزيزة ، أقدم اليك نفسي : الدكتور كروملوفسكي • واذا بهذه الشقراء القميئة ، النحيلة ، التافهة ، تنحني على نحو أهوج ، كأنها دمية خشبية ، ذات مفاصل تحييني فجاة ، وهي تنحني بسرعة حتى الأرض • هي تود أن تقول شيئاً ما •

ـ لا بأس ، لا بأس ، السيد أوغستا أخبرني أنك كنت ناقمة علي نقمة خفيفة ••• غريب هذا ! يجب أن لا يحدث هذا بين الجيران !

خيل الي ، أنها ستنكسر مرة أخرى الى قسمين • لم يبق لي الا أن أجلس • وهل أنـا مرتاح في المسكن الجديد ؟ كل الارتياح ، لولا أن في هذه الليلة ••• وحدثته عن العندليب •

ـ غريب ، العندليب ، وأنا الذي ما سمعته !

ـ أتساءل كيف يمكنك سماعه ، وكنت ثملا ، لا تعي ! قالت زوجة الرسام وقد تدخلت في الحديث ، بصوتها المرتفع ، الحاد كموسى الحلاقة •

ـ كنت قليلا •••

ـ وهذا أيضا ، هذا قليل ؟ وشمرت السيدة أوغستا كمها ، فابصرت بقعة زرقاء •

ـ وحين افكر ، يا دكتور ، اني كنت حراً في الانتقاء ، وكان الجميـع يجنون بي ، فتزوجت بهذا النموذج ••• ان زوجة الرسام ، يجب أن تعادل في علمها زوجة البقال •

وجدت نفسي ؛ في مازق حرج • بيد أني تاكدت انها ، حقا في حديثها تزازي •

وها هي الآن تنصرف الى تنفيض الغبار عن الأثاث ، كاني لم أكن موجوداً • ـ نعم ، نزلت بي مصيبة صغيرة ، يا دكتور ، قال الرسام ذلك محاولا ان يبتسم • ان الابتسام لا يتفق معه • ـ مررت بستة مقاه ، الا اني لم أشرب الا كاساً واحدة في كل منها ورجعت فوراً الى البيت • الحظ لا يحالفني • أنا رجل شهم ، طيب ، ولكني ، لا أكاد أشرب قليلاً ، حتى أصبح انساناً آخر ، وهذا الآخر ، يتابع السكر ، ويرتكب حماقات • فهل أنا المسؤول ؟ واذا بضحكات مكبوتة •

ـ لا باس ، بين حين وآخر ، ومن الممكن أيضا ان يكون ذلك مفيداً للصحة • قال لوثر ••• ولكني ، على حين غرة ، خشيت مغبة اقوالي • فلم أتابع • وخيل الي أن الغرفة ستلقى على رأسي • فانثنيت في حذر • ـ بالأمس تولاني الياس من جراء هذا العندليب • كان الكلب عند قدمي يعض بنطالي • فما أردت أن أركله ، ولكني كنت منزعجاً •

ـ كنت أتمنى لو تسمعني ، فهذا ، هذا يستحق السماع ، أليس كذلك ، يا آنا ؟ فلم تخاتل آنا • ـ اني أجيد التغريد كالعندليب • وقد يحدث أحياناً ، أن أجيء بخمسة أو ستة عنادل ، فنقوم معاً بحفلة موسيقية من هذه الحفلات • ولا بد أن تتاح لك فرصة سماعها فتوافقني في رأيي• ولو شرع باستدعاء العنادل ، لأطلقت النار عليها •

ـ كنت أعتقد أنك رسام مشاهد وهنا لا أرى الا رسم وجوه • كان أمامه على مسند الرسم ، صورة وجـه •

ـ أنا لا أرسم الا قديسين ، يجب أن أكسب عيشي • ثلاثة أثواب طويلة ، حمراء أو زرقاء ، وقليل من اللحم ، وينتهي كل شيء ؛ الا أن هذا العمل ، لا يدر مالاً • أنا في الواقع ، رسـام وجوه • كان عملي لا بأس به ، المدينة يهودية كلها ، ولكن هذا ، لم يكن يدر علي مالاً يذكر ، ان رسم يهودي من رأسه الى قدمه ، يساوي عشرين فلوران ، الا أن ألمانيا جاء وانتزعهم مني ، لدي فكرة ! طلب الي أن أرسم القديس كريسبان ، والدكتور يستطيع أن يساعدني ، فاجعل منه نموذجا • حلت المشكلة • الدكتور بدلاً من القديس كريسبان • بينهما شيء من الشبه ••• اني لأتساءل ، عما في ، فهل أنا أطير ؟ أثرت تغيير مجرى الحديث • ساتحدث عن جوزيف • ينبغي أن اكتسب مودة جوزيف •

ـ جوزيف ، تعال الي ، تعال !

ـ وأنت ، هيا ، اخرج ، أنت غبي •

صفعه الأب • رأيتني أحمر • فانتحب الصبي :

ـ هي السيدة فيلهيلمينا ، التي قالت اليوم ، هذا الكلام لأمي • قالت ان الدكتور غبي ! أليس هذا صحيحا يا أمي ؟ ـ اخرس !

ـ أنا ، ما أشد غباوتي ! ـ تعال الى هنا ، يا جوزيف ، تعال؟ لقد تكلمت بصوت مخنوق • فاقترب الصبي مني ، وتكوم بين قدمي •

كيف السبيل الى مداعبة الأولاد ؟ ـ هات يدك ! هذه الاصبع تغلي وهذه تقلي وهذهتشوي••• وهذه تقول : هاتي شقفة ! وهذه تجيب ••• لم يضحك الولد •

ـ هذا بابا ، هذي ماما ، هذا جدو ، هذي تيتا ، هذا ••• لا أعرف البقية • الصبي لم يتزحزح قيد أنملة •

ـ مهلاً ، يا جوزيف ، ساقول لك أحجية : من أنا ؟ أنا أخضر ، ولست عشباً ؛ أنا أصلع ولست كاهناً ، أنا أصفر ولست شمعاً ؛ لي ذنب ولست كلباً • فمن أنا ؟ ـ لا أعرفها • تمنيت أن أفسرها له ، ولكني ، أنا الآن ، لم أعد أعرفها • تذكرت أحجية ، ولم أعد أعرف معناها • سألني جوزيف قائلا :

ـ هات ، أيضا ، ما عندك من غباوة !

فنهضت وكانني لم أسمع شيئا • واستأذنت :

ـ يتحتم علي أن أمضي لعملي•اقترب الظهر • فقال الرسام : ـ وكيف مضى الوقت سريعاً ! أن ساعتنا تتاخر بمقدار نصف ساعة • فتدخلت السيدة أوغستا قائلة : ـ كلا ، لقد ضبطتها أمس بطرف المكنسة ، حين دقت الساعة الكبيرة • يبدو أن زيارتي أشاعت في نفسه كثيراً من البهجة ، ويتحتم علي أن أكثر من مجيئي اليه • وننعم بحسن الجوار !

تمنيت الآن ، لو أفهم لماذا أنا غبي !

سلمت على امرأة ، في المجاز ، ربما كانت ابنة المالك • فلقد تجاوزت سنّ المراهقة •

ـ أما كانت تزازي ؟ سالتني مؤجرتي • انها تزازي •

ـ وما ذلك ، إلا لأنهم يملكون اليوم شيئا من المال • وحين لا يملكون شروى نقير ، فانها تتكلم على نحو مناسب • يظهر أن مؤجرتي سليطة اللسان • ـ حين كان الدكتور في المجاز ، منذ لحظة ، أطل بروفازنيك من نافذته ، كي ينظر اليك • فرفعت نظري نحو نافذة بروفازنيك • تراءى لي وجه ناحل ، أصفر كالشمع ، ولم يتح لي أن أرى أكثر من هذا • ـ هل أنا بحاجة الى شيء ـ كلا ! قلت هذا بشيء من الجفاء • هل لها أن تدع كاتيا الصغيرة في غرفتي بضع دقائق ؟ ليتعين عليها أن تمضي الى البقال وترجع سريعاً ، وكاتيا الصغيرة ، قد تبكي حين تظل وحيدة • ـ ولكني لاأدري كيف أداريها !

ـ ساضعها على السرير • ـ وان راحت تبكي ؟ ـ كلا ، مادام عندها انسان • ـ وإن ارتكبت شيئاً من الحماقات •••؟ ـ أهذا ظنك بالصغيرة المسكينة ؟ ـ نعم ، الصغيرة المسكينة ! لقد كنت شــديد الاستياء •

مشروع جديد : محاولة التاثير في جوزيف الصغير تاثيراً معنوياً •

★ ★ ★

ما كنت أظن أني سانصرف الى العمل ، اليوم ، بمثل هذا النشاط ، فاني مطمئن ، راض ، ولكني مرهق ، بشكل رهيب ، سامضي الى الفراش •

العندليب لا يغرد ، لعنه تجمد من الصقيع • لو يتحقق ذلك !
وددت أن أعرف ، لماذا ؟ أنا غبي !

★ ★ ★

« وقبل كل شيء ، أحب أن اهنئك سلفة ! وأعتقد أنك مع ذلك تقبل نصيحة مـن صديق قديم ، بل أعتقد أن واجبي يقضي علي ، أن أسدي اليك النصيحة ، ان كان لدي نصيحة مفيدة ! قبل كل شيء ، أوصيك ، أثناء امتحانك ، برباطة الجاش ! ان معلوماتك وفيرة ، هذا ، ما أنا قانع به • بيد أن رباطة الجاش ، تذوق عشرين مرة ، سائر المعلومات • فالسادة المستشارون ، يطرحون بصورة عامة ، أسئلة تعتمد على التفكير ، فاذا أرتج عليك وقد قال لك السيد المستشار ـ حين يجيئك ، شخص ويطلب مقابلتك ، لكونك محامياً ، ويطرح عليك هذا السؤال ، كيفتتصرف؟ أجبه بانس وبشاشة ـ ساشدد على طلب سلفة • هذه نصيحة ، صدقني ••• »

ياله من مغفل ! ليس في قدرتي أن أتحمل أناساً ، يريدون أن يتكلفوا الظرف ، وهم يرددون نكات قديمة ، بالية • لـم يكن من العبث ، ان أطلقت عليه وهـو في المدرسة ، لقب (جندرا) الثرثار • فما هو سوى ثرثار ! الا أن الغلطة ، غلطتي ، فلأي شيء كتبت اليه عن مدى انصرافي الى الاستعداد ، ولأي شيء ، دفعني اللطف الى أن أضيف : « ••• ان كان لديك ما تسديه الي من نصائح قيمة ••• » لست بحاجة الى نصح أحد ، ولا سيما نصحه هو • فلن أجيبه !

ا لاأني مصاب بزكام لطيف • ان جسدي كله ، مسرح لرعشات خفيفة ، فدماغي مرهق ؛ وعيناي لا تكفان ، طول الوقت ، عن سكب الدموع • وانه ، ليدهشني ، أن أجهد ، رغم هذا ، كل الجهد ، فلا أفقد الشهية •

فالى العمل !

★ ★ ★

أقبل المالك لمقابلتي • انسان غريب الاطوار ، في الستين من العمر • شبح صغير ، يبدو أصغر مما هو في الواقع ، بسبب من صدره الغائر وكتفيه الهابطتين بشدة ، كانما هو يحمل بكل يد دلواً من الماء • وجه جاف ، حليق ، شفتان واهيتان لأن فمه أدرد ؛ ذقن شبيهة بالكرويتزر ، وانف صغير ، مقطوم وشعر رمادي • بيد أن عينيه السوداوين ، تتقدان ببريق دموي • ويداه المعروقتان ، الجعدتان ، تبدوان كانما هما تتلمسان شيئاً بعصبية ، في الهواء ، وأحياناً تنتاب جسده كله هزة فجائية • اذا تكلم ، كان كلامه قريباً من الهمس • من يجالسه ، لا يحس شيئاً من الارتياح ، فكانما ثمة ما يحاول أن يحدث في كل لحظة •

لقد وفد علي يسالني ان كنت قد أخبرت الشرطة بتبديل سكني • أما أنا ، فقد سهوت ، طبعاً • ينبغي اذن ، أن أنجز ذلك • يبدو أن الرسام قد حدثه عن جلسة لعبة الستة ، فسرّ سروراً فائقاً • انحنيت له • وقد شعر بما بي من زكام ، فقال : ــ كثير من الناس ، لا يقدرون ، أي كنز ، يملكون حين ينعمون بالصحة ، لم يكن هذا بالظرف الخارق ، فاكتفيت باجابته ببسمة مهذبة : ــ هذا صحيح ! وانقطع بيننا مجرى الحديث • أعربت له عن أملي ، في أن ينعم دائماً بصحة سليمة • كلا ، لم أخصص ، أن في حلقه علة ما ، فينبغي له أن يعتني بنفسه ، فسعل وبصق على حذائي تماماً • سرني منه عدم انتباهه الى ما فعل ، والا لوجد مجالا لاعتذارات عقيمة ، فخبأت قدمي تحت كرسي • سالني ان كنت موسيقياً ، كلا ، لست موسيقياً ، حين كنت فتىً ، عزفت حقاً ، قليلا على البيانو ، الا أنني ما تعلمت شيئاً ؛ رغم هذا ، أجبته بابتسامة كان ما أقول مفروغ منه : ــ أعتقد أن ما من تشيكي ، الا وهو موسيقي صغير • ــ هذا حسن ، هذا حسن ! أظن أن في وسعنا أن نعزف بأربع أيد • انني في الصيف ، اترك سنطيري في الحديقة ، هو سنطير قديم ، ولكنه جيد ، فنزجي الفراغ ، ونروح عن النفس ، عظيم ! شعرت أن من الواجب ، أن أتراجع بانتظام •

ــ أتعزف على البيانو ؟

ــ آه ، كلا ، أعزف على الكمان •

ــ هل لديك آلة جيدة ؟ وبحث بنظره على طول الجدران • فتابعت التراجع بانتظام • ــ مضى علي عهد طويل من غير أن أعزف ، لأني منغمس بمشاكلي اليومية ، اني ••• ــ يالها من خسارة • نهض وما شاء أن يشغلني مدة أطول • فهو ليس من هؤلاء الملاكين ، الذين يسلبون المستأجر كل الحقوق • بيد أن لديه أيضاً ، ما يود أن يقوله ــ أليس خلف هذا كله ، في أسبانيا ، شيء من روح بسمارك ؟ وانتصب قبالتي ومعاني المراوغة تجول في ناظريه • فاجبته أن سُبُل الدبلوماسية عميقة ، لا يُسبر غورها • ــ هو ذاك ! قال الملاك موافقا • ــ الخشبة الضخمة لا تندفع كعود من الثقاب • هذه المرة ، داس قدمي اليمنى بفظاظة وهو يمشي وأردف : ــ اقول دائماً ••• الملوك لا يقنعون بما يملكون • فلم أبد اعتراضاً ، واكتفيت ببسمة مهذبة • فاستاذن وانصرف •

انه لبيان ساذج ولكنه صحيح • فكل ما يملك هؤلاء الناس من حكمة ، تكمن في أحكامهم ، ومن الخطأ أن نضرب بهذه الاحكام عرض الحائط ، فهي انما تجسد فلسفة الفرد ؛ حتى ولو كانت فلسفة محدودة • وهذا ما يكون مجموعة من أمتع الآراء : آراء كل فرد •

★ ★ ★

جملة القول انني راض عن نهاري ، واني منصرف الى الفراش •

العندليب يغرد ، ولكن في مكان ، أبعد ، بقليل ؛ في امكانه أن يغرد هناك ، ما شـاء له التغريد • أما اذا استدرجه الرسام اليه ، فسائر فضيحة ، ما بعدها فضيحة • فضيحة مهذبة ، لا لشيء ، الا لأظهر أن ثمة أشياء ، لا يمكن السكوت عنها • بيد أني آمل أن يكون الرسام غارقا في المقاهي ، أمس ، كان على السيدة أوغستا ، أن تزازي • يلوح لي أن مؤجرتي ، لم تكثر اليوم من سؤالها عما اذا كنت بحاجة الى شيء ما • فكل أمر ، مع الزمن ، يتخذ مجراه الصحيح • ومن الممكن ، أن أكون مخطئاً ، ما دمت شديد الانصراف الى عملي !

★ ★ ★

زكام وعمل • لا أدري عن العالم شيئا ، لشدة انكبابي على عملي •

رغم ذلك ، لاحظت أن مؤجرتي ، في هذه المرة ، هي حقا ، أقل الحاحا في سؤالها عما اذا كنت بحاجة الى شيء ما • لقد اعترفت هي ، اليوم ، أني في الحقيقة ، انسان طيب ، وان الله تعالى ، لن يتوانى بالتاكيد ، عن اسعادي • كان في مطبخها أرملة ، هي زوجة أحد صانعي الاحذية، وأم لولدين ، كانت تشكو من شدة بؤسها ، فاعطيتها (فلوران) واحداً • فكان الله تعالى ، مكلف برد كل (فلوران) الى أصحابه •

الهرة لم تعد تطأ غرفتي ، حتىولو كان البابمفتوحا على مصراعيه•فهيتكتفي بالبقاء الىجانب الباب والمثابرة على المواء • انها ، كما يبدو ، تحذرني •

أتذكر أني أر حتى الآن المراقب في الخطوط الحديدية • أتراه ، عاد في هذه الاثناء ، الىبيته؟ هندباء في القهوة ! لا أخطىء ، انها الهندباء ، يا للهول ! فلا بد لي من تفاديها بتدبير ما •

★ ★ ★

أنجزت دراسة الحقو قالمدنية ، بسرعة متزايدة ، شان حصان سبق عند اقترابه من الهدف •

★ ★ ★

الهندباء ، من جديد ، بل أكثر من أمس ، كما يبدو لي ، ومؤجرتي ما سالتني ، ولا مرة واحدة ، ان كنت بحاجة الى شيء • أما أنا ، فاني آمن ، مطمئن • أمس جاءتني أرملة أخرى ، ربة أسرة وزوجة أحد صانعي الاحذية • يبدو أني انسان فائق الطيبة • فلوران آخر •

★ ★ ★

جوزيف تلقى عقاباً مريعاً ، كان يصرخ ، وصراخه يدوي في أرجاء البناية كلها • سالت مؤجرتي عما جنى • الحقيقة انه لم يقترف اثما • لقد ابتاع قليلا من الجوز ، فاكله أبوه • دافع جوزيف عن حقه ، فانهال الأب عليه بضربات متوالية • رثيت لحاله • ـ ولد مثله ، مهما كانت الظروف ، لا يستحق حبل المشنقة • في هذه السنة ، في يوم الجمعة الحزينة ، سرق نقوداً من الصحن الموضوع قرب أيقونة القبر المقدس في الكنيسة •

أجل يجب أن أترك أثراً روحياً في نفس جوزيف ! وقد يفوت الأوان • من المؤسف أن ولداً صغيراً مثله يرعاه أب تافه حقا ، ليس في مقدوره أن يقوم بدور المربي الصالح •

ان جورج واشنطن وهو صغير ، لم يكن كذلك ، شيئاً مذكوراً ، ولكن جورج واشنطن ، كان ولداً لأب ذكي • ان الله تعالى ، لو وهب الاولاد حاسة سادسة ، لتمكنوا في سن مبكرة ، أنيدركوا ، ان كان آباؤهم يشبهون والد جورج واشنطن أم لا • في الحالة الثانية ، يتعين عليهم ، أن لا يضيعوا وقتهم سدى ، تحت سلطة أب فاشل وأن يبحثوا عن غيره في مكان آخر •

★ ★ ★

جاءني الرسام بخفة ورشاقة • طلب مني أن أكون (نموذجا) لرسم القديس (كريسبان)• أجبته اني مكره على البقاء أمام كتبي • لقد تعلمت أن أكون أكثر فظاظة •

★ ★ ★

أنجزت الحقوق المدنية ! غداً ، سانصرف الى دراسة التنظيم في مادة الحقوق التجارية • ما أهنأ ما سيكون نومي اليوم !

لامراء ، أن عجل بوشكين ، كان قد استشعر بمثل ما استشعرت به اليوم ، حين هتف : ـ يالي من حمار مسرج ! كانت لحظة مريعة ! في الصباح ، طرحت على نفسي سؤالا ، وأنا قانع ، أني انتهيت من الحقوق المدنية • فارتج علي ولم اتمكن من الاجابة بكلمة واحدة !

ـ يا يسوع بن مريم ! أطلقت هذه الصرخة وشددت على جبهتي • شعرت كاني أصفر فجاة • أقبلت علي مؤجرتي راكضة • ماذا جرى لي ؟ فاجبتها ببلاهة :

ـ لم أعرف كلمة مما حفظت ! ـ هذا ما تستحق ، قالت ذلك ورجعت راكضة وهي تضحك بشدة • يا للحسناء السفيهة !

انني الآن أكثر هدوءاً ، في المرات السابقة ، حين كنت أدرس ، كانت الامور تجري على هذا المنوال ، كما أذكر • يجب على المرء أن يدع مجالا لما تعلمه ، كي يرسخ ويثبت •

ألم يكن هذا ، تلميحاً لتاكيدها ، في أحد الايام ، حين قالت ، انني غبي ؟ كلا ، هذا ليس بسذاجة ، بل وقاحة مقصودة !

★ ★ ★

أرملتان ، زوجتا صانعي أحذية ، كلا ، احداهما كانت زوجة خياط ، يلوح لي ، أنمؤجرتي تبغي أن تجيئني بكل ما على الضفة اليسرى من نهر (الفلتافا) من أرامل باكيات •

★ ★ ★

منعطف ! منعطف تـام ، جذري ، ما خطـر لي أن أتوقعه في حيـاتي ، منعطف في الطبيعـة وفي المجتمع •••

أولا : أيام رائعة ، صافية ، باسمة ، ومـع الحرارة المستمرة ، زايلني الزكام • ثانياً : سئمت شرب هندباء مؤجرتي ، وقد نعمت بشرب قهوة ، هيأتها بنفسي على سخانة كحول • والله لأهيئن ، بعد الآن ، قهوتي بنفسي • لقد أجريت كذلك تغييراً كبيراً في سائر النواحي • فمؤجرتي لن تأتيني ، بعد الآن ، من الاسفل ، الا بغداء هذا النهار ، ومنذ هذا المساء ، ساهبط الى المقهى• فما أنا بحاجة الى منّة أحد ، مع ذلك ، فان اهتمام مؤجرتي بامري ، قد تراخى كثيراً ، لا بأس ، هذه الطريقة أفضل لي • والمرء ، مع هذا ، لا يستطيع أن يقضي كل الوقت قاعداً ، فيصبح بليداً، ولا يشتغل الا بوهن متزايد • يتوجب علي ، أن أدرس ساعات معينة ، كل يوم ، ساعات معينة، ما دامت الرغبة الاولى ، المتاججة ، قائمة ، ويتوجب علي أن أسري عن نفسي قليلا • أن أسري عن نفسي ، بين قوم هادئين ، وادعين ، قد التقي بهم في الاسفل ، لن يسبب لي أي ازعاج ! وسامضي كل يوم الى الحديقة ، لقضاء سويعات معدودات ، على الاقل • فالناس يتنزهون فيها ، منذ يومين • فان نهضت من فراشي ، كل صباح ، أبكر من العادة بقليل وان مضيت للدراسة في الحديقة ؟ انها متعة ، أن أشتغل هكذا ، فاني لا أزال أتذكر سني دراستي الثانوية •

المشروع : النهوض كل يوم ، من الفراش ، باكراً ، باكراً جداً •

★ ★ ★

أقدمت على طرد أرملة أخرى ؛ انها هي أيضاً ، زوجة صانع أحذية •

★ ★ ★

هذه الحانة أعجبتني ! مظاهرها ليست على ما يرام ، بيد أن المرء يقضي فيها أويقات طيبة ، هدا ، في الواقع ، ما أنشده ، في هذه الآونة • فما أنا بحاجة الى ارهاق نفسي ، كي أنطق بالظريف من الكلام ، بل أكتفي بالملاحظة والانصات • انهم قوم بسطاء ، ولكنهم يتميزون بشخصيتهم • هم بطبيعة الحال ، أذكياء وظرفاء ، دون تصنع ، ويقنعون باتفه نكتة • كل شيء يدفعهم الى الضحك العفوي ، العميق • ولكن ، ينبغي ، أن يكون المرء نفسانيا ، ويفهم كنه الاشخاص ، كي يسري عن نفسه بينهم ، على نحو أسمى ، وأنا موهوب ، مؤهل لذلك • القاعة رحبة ، نظيفة ، وان كانت قليلة النور • في وسطها ، من الداخل ، (بليارد) ، ومع الجدران ، طاولات صغيرة ؛ في المقدمة، عند المدخل ، طاولات ، منها أربع مشغولة • واستناداً الى ما اكتسبته في هذه السهرة بكاملهامنخبرة، فان قصادها ، لا بد أنهم ، ثابتون لا يتبدلون وما تبدلوا منذ سنوات • أدركت هذا على الفور ، عند دخولي • اذ خيم صمت عام ، وصوبت الي الابصار كلها •

ألقيت على الجمع تحية واحدة • كان الرمل الابيض المفروش ، منذ أمد قريب ، يئز تحت أقدامي • جلست الى طاولة ، كان يجلس اليها شخص ، لا أعرفه • فرد علي الرجل تحيتي ، دون أن ينبس ببنت شفة • وسرعان ما أقبل صاحب الحانة القميء • ـ آه ، الدكتور ! يسرني جداً ، أن يجيء الدكتور لزيارتنا هل راض أنت عن الغداء والعشاء ؟ قلت اني راض كل الرضى : لا شك أن لدي بعض الملاحظات ، بيد أن الواجب يدعو ، في بعض الاحيان ، الى اكتساب مودة الناس بكذبات صغيرة • ـ انني جد سعيد ، وغاية ما أتوخاه ، هنا ، أن أحظى برضى زبني • ـ هؤلاء السادة ، أيعرف بعضهم بعضاً ؟ نظرت الى الرجل الذي لا أعرفه ، والذي يحدق أمامه ، جامد الوجه ، منطوياً على نفسه • ـ كيف ، ألا تعرفه حتى الآن ؟ ولكن هؤلاء السادة جيران ، يسكنأحدهم فوق الآخر ! السيد الدكتور كروملوفسكي ، السيد سامبر ، الخياط • ـ أهلا ، قلت وأنا أمد يدي الى السيد سامبر • فاكتفى الخياط برفع رأسه قليلا وصوب أنظاره على المائدة البعيدة قليلا ، ومد لي ، باهمال ، يداً كخف الفيل ، ياله من رجل غريب الاطوار ! بيد أن الخادم سارع الى خدمتنا• اني أوثر الذكور من الخدم • فالاناث منهم ، لا يخلون من عشيق واحد ، على الاقل ، يقضين معه الوقت في الزوايا ، هامسات ، موشوشات ؛ وللزبن أن يتابعوا النقر على الموائد ما شاؤوا !

من عادتي ، ألا أرى ولا أسمع شيئاً وأنا أتعشى • ولكن ، ما أن أفرغ وأشعل سيجاري ، حتى أنظر الى ماحولي وانتبه الى كل شيء • حول المائدة المقابلة ، بعض السادة ، يتجادلون بحماس• وعلى المائدة الأبعد منها ، شابان جالسان والى يسار مائدتنا ، سيد وسيدةوصبيتان ، وملازم ، بثياب عسكرية ، ليس هو فتياً جداً ، وهو مائل الى السمنة • حول الموائد ، يضحك الجميع بصوت قوي ، ولا سيما من حول المائدة اليسارية • كانت أصغر الفتاتين ترنو الي •! أسنانها جميلة وعيناها ضاحكتان ، حسناً ، لها أن ترنو الي ما تشاء ! أما أبوها ، فله رأس غريب جداً ، محدد بزوايا

مستقيمة ، وله شعر رمادي ، مردود على قمة جمجمته • فكأنه قارورة جعة مربعة ، ورغوتها في عنقها • أما رأس الفتاتين ، فهو يشبه قارورة ، الا أنها أكثر اتساعاً •

كانت مائدتنا الوحيدة التي يخيم عليها الصمت • شرعت في الحديث • ـ كيف أحوالك ، يا سيد سامبر ؟ أجفل قليلا ثم نطق ـ هكذا كانت هيئته ، لا تنم عن شيء من الفصاحة • ـ هل لك كثير من الرفاق ؟ ـ في البيت ، اثنان فقط • أبعث بالشغل الى الخارج • لا بأس ، على كل حال ، مجموعة كلمات • ـ لك أسرة ، ياسيد سامبر ، دون شك • ـ كلا • ـ آه ، اذن ، أنت عازب • ـ كـــلا • كان يبدو متردداً ، الا أنه أضاف أخيراً : أنا أرمل ، منذ ثلاث سنوات • ـ بلا زوجة ، ولا أولاد ، لا بد أن يكون ذلك عسيراً عليك • بذل جهداً جديداً ثم قال أخيراً : لي فتاة صغيرة ، عمرها سبع سنوات • ـ قد يتوجب عليك أن تتزوج ثانية • ـ نعم •

جاء صاحب الحانة وجلس الى مائدتنا•فقلت : ـ لطيف ، أن يشرفنا المعلم بزيارته • ـ لاأقوم الا بواجبي ، هذا ، ما تتطلبه المهنة ، من الواجب على المعلم أن يتنقل بين طاولة وأخرى ، فهـذا ما يرغبه الزبـن ويرون فيه شرفاً كبيراً لهـم • وددت أن أضحك ، كما أضحك لنكتة ، الا أني رنوت الى عينيه ؛ وفي ثوان ، تغضنت عيناه ، دون أي وميض من التفكير ، كان قد قال هذا على نحو جدي • لا شك انه مغفل • أما هاتان العينان ! في حياتي كلها ، ما صادفت عينين ، بمثل هذا اللون من الاخضرار الصافي • ان له بشرة حمراء ، وان شعره الشبيه بجلده ، يظهر وكأنه امتداد حريري لبشرته • فما أن أنظر اليه من بعيد ، حتى أرى تموج أطراف رأسه • أبديت لـه ملاحظة ، كي لاينفصم ما انقطع من الحديث : ـ نتمتع الآن بطقس جميل • ـ نعم ، ولكن حين يتحسن الطقس ، ينصرف الناس الى التنزه ، فتفرغ المقاهي • خرجت أنا كذلك الى الشارع ، بعد ظهر هذا اليوم ، وعدت سريعا • كانت الشمس تسخن ظهري ، وحين تسخن الشمس ظهري ،فذلك يعني دائماً أن هناك عاصفة • مع ذلك ، لم تثر أيما عاصفة • فعضضت على شفتي وقلت : ـ أما في قلب المدينـة فلا تستطيع العاصفة ولا المطر أن تلحق اي اذى بالمتنزهين • فالمظلة تحميهم • ـ ما كنت أحمل مظلة • ـ في هذه الحالة ، يرجع المرء الى بيته مسرعاً • ـ اذا مشيت' مسرعاً ، فلا أكون متنزهاً ! ـ حين يهطل فيض من المطر ، يلجأ المرء الى ممر مسقوف • ـ اذا لجأت الى ممر مسقوف ، فلا أكون متنزهاً أيضاً • حقاً انه لأبله ! هاهو يتثاءب • ـ أنت متعب؟•ـ نمت أمس باكراً ، وحين أنام باكراً ، أشرع بالتثاؤب ، وفي اليوم التالي باكراً • ـ بل لم يكن عندك زبـن • ـ على العكس ، لقد سهروا حتى ساعة متأخرة ، ولكن أمس ، كانت جعتيرديئة ، وهذا مازعجني••• فلماذا أكابر ؟ انه لنموذج فريد في نوعه !

عند المائدة اليسارية ، كان الملازم يحتد : ـ أنا أقول لك ، من الف شخص ، رجل واحـد يستطيع معرفة عدد أنواع الخيول البيضاء ! هنالك سبعة عشر نوعاً ! وأنفس ما فيها ، النوع

الابيض البراق ، أنا أقول لك • حصان جميل • بياض وردي حول عينيه وشدقه • حافره ، من اللون الاصفر الصافي •••

في هذه البرهة ، دخل المقهى زبون آخر • فتبين لي من الصمت الذي خيم ومن النظرات ، أنه زبون طارىء : مضى الزبون الى طاولة في الداخل ، وجلس ، وعاود الحديث مجراه • راح الملازم يبين أن الحصان الأبيض ، يكون أسود اللون حين يولد كانت صغرى الفتيات تصرف الوقت بالتطلع الي •• فهل أنا حصان أبيض ؟

أفرغت كاسي • فلم يتحرك المعلم • ولم يتحرك النادل اينياس أيضاً • نقرت على الطاولة ، فسارع اينياس كالمجنون • كان اينياس يثير فضولي ، وكنت ألاحقه بنظراتي • هو رجل في الاربعين من العمر ، أزراره فضية بشكل أقراط ، وفي أذنه اليسرى شيء من القطن • هو قليل الشبه بنابوليون الاول ، ولكنه نابوليون الاول مع شيء كثير من البله • فجفناه الهائلان ، لا ينطبقان الا في فترات متباعدة ؛ وهذا ما يشبه فاصلا هاماً بين أفكاره ، بيد أني أراهن أن اينياس لايعرف التفكير أبداً ، فهو يجمد هنا أو هناك ، بهيئة المفكر المستغرق ، فاذا ما نقر أحد على الطاولة ، انتفض فجأة وأسرع •

على الطاولة المقابلة ، يدور الآن البحث حول اللغة البولونية • اني أراقب غرابة الناس الذين يتشبثون باتخاذ أسماء غريبة ، كي يظهروا بمظهر الظرفاء • ويؤكد أحدهم ، الآن ، ان المرء ، اذا ما أجاد اللغة التشيكية واللغة الالمانية ، فهو يجيد كذلك بالضرورة ، اللغة البولونية ، وهكذا ، لا تكون اللغة البولونية الا مزيجاً من هاتين اللغتين ويضرب مثالا على قوله •

دخل من جديد ، شخص ما • هو صلب كقرمة عتيقة • مظاهره تشير الى انه زبون دائم ، ابتسم وجلس الى مائدتنا • ــ هو جار آخر لكم ، قال المعلم وقد أقبل علينا • ــ الدكتور كروملوفسكي ، السيد كليكس صانع أحذية • فمد السيد كليكس الي يده • ــ انك لانسان لطيف، حقاً ، انسان لطيف ! لا بد أن الفتيات يهمن بك ، يادكتور ! فاخذني الضيق ، وخيل الي ، أني أحمر قليلا • كنت أوثر أن احتفظ بمظهري الطبيعي وأن ألقي نظرة خاطفة ، مع بسمة ، على ما حولي ، على هذه الفتاة ، مثلا ، الا أن هذا لا يليق • ــ هو أنضر منك شباباً ، قال المعلم ضاحكاً ، ولا سيما بوجهك المليء بالثقوب ، كقالب الحبوب ! ــ عجيب ، عجيب ! قال كليكس وهو يفرك رجليه على الرمل • ــ أما صدر اليك ، حتى الآن ، أمر من البلدية ، بضرورة تنظيف الارض وغسلها ؟ فانفجر الضحك • ــ نعم ، يادكتور ، هو لايغسل الارض هنا ، ان لم يتلق أمراً • ومرة في السنة ، يأتي شرطيان لسوقه الى الحمام • وأحياناً ثلاثة من رجال الشرطة • لأنه يدافع عن نفسه بضراوة • فتعالت ضحكات مجلجلة عامة • ان كليكس ، كما يظهر ، نكتة هذا القوم • فهو يجيد الطعن ، وكنت لا أتمكن من الامتناع عن الضحك من قرارة نفسي • بيد أن وجهه الخشن،

الملىء بالدمامل ، ليس خبيثاً ، ونظرته ماكرة ولكنها صريحة • ـ هو مصيب ببخله ، أضاف بعد قليل ، لانه بحاجة الى مال كثير ، فانا لا أشرب بقدر ما يشرب وكان قد أتى على كاسه • ـ بودي لو آكل أيضاً شيئاً ما • كان يتكلم وهو يقوم باشارات سريعة ، ويداه ، دوماً ، تقريباً ، فوق رأسه ، فكانه قرمة مقلوبة ، جذورها الى الأعلى

كان الشابان الجالسان وحدهما الى طاولة ، منفردة ، قد طلبا صحن الفواكه ، المخروطي الشكل ، على البليارد ، ونهضا • كانا تقريباً بارتفاع واحد ، عندما كانا جالسين ؛ أما الآن ، فقد بدا أحدهما قصيراً جداً والآخر طويلا جداً • أنا لا أعرف شخصاً ، لا يلفت انتباه أحـــد ، ما دام جالساً الى طاولة ، في مقهى ؛ أما اذا انتصب واقفاً ، فلا ينتهي من الانتصاب ويطول ويطول ، واذا بالحاضرين كافة ينفجرون ضاحكين • فيصاب المسكين بكدر ممض •

كان كليكس وهو يتفحص قائمة الطعام يغمغم :

ـ لا شيء ، دائماً لا شيء ، سوى البابريكا وفضلات ملمومة ، لا شيء سوى بقايا ، سحبتها من جيبك ، أليس كذلك ، أيها الحانوتي ؟ ـ عليك أن تسكت •

ـ لو كان عندك دجاجة مطبوخة ! ـ هكذا أنت ! لا تتمنى الا أن يكرس المطبخ لخدمتك وحدك•

ـ وهل الأمر عسير ؟ تأخذ بيضة مسلوقة وتريد أن تقشرها • قه ، قه ، قه ! ـ ارفع الشعر من جبهتك ! كان هـذا القول مضحكاً ، لأن كليكس ذو رأس أصلع مثل رئيس كنيسة (كانتوس سبتيميوس) •

من المائدة المقابلة ، سنمع صوت يقول : ـ سكوت ! شارلو يقبض على برغوث ، واذا انتباه وصمت عام ، واذا الرؤوس تلتفت • أما ذاك الذي يدعى شارلو فقد أدخل يده داخل قميصه ، من جهة صدره • كان وجهه مسرحاً لابتسامة وادعة ، مفعمة بالثقة • هاهو يسحب يده ، ويضغط ابهامه عـلى سبابته ويضع شيئاً على المائدة • واذا بضحكات وتصفيق ، واذا بالسيدات يعضضن مناديلهن • ـ انه يقبض ، لك ، على كل ما تريد من البراغيث ، نعم ، كل البراغيث ، قال لي كليكس • فأبديت دهشتي بلطف وسألته : كل البراغيث ؟ ـ نعم كلها ! ـ ولكن ، اينياس ، ماذا حدث لعشائي ؟ ارجع لي كاسي ، فما أنهيته بعد ! ثم أضاف وهو يوجه لي كلامه : ـ لايدعني أبداً ، أنهي كاسي • لا شك انه مزاح •

ـ حسناً ، أنت خبيث ، قلت هذا وأنا أضحك • أقبل اينياس من المطبخ • كانت على وجهه تطوف الآن ، معالم الغباوة البالغة • ـ من فضلك ، ياسيد كليكس ، مــاذا طلبت لعشائك ؟ ـ شيء فظيع ، انه سريع النسيان ! وهذا ما لاتجده في أي مكان آخر !

ـ كنت طلبت ... وكليكس أيضا قد نسي . ها هما الآن ، لا يذكران شيئاً ، لا هذا ولا ذاك .

كان صوت الأم يعلو الآن على جميع الاصوات :

ـ اذا كان للأم ابنتان ، فمن الواجب عليها ، أن لا تدعهما تلبسان ثياباً متشابهة ، بعد بلوغهما ، العشرين من العمر ؛ والا فانها لا توفق الى تزويج أي منهما . لا شك ، ان هذا القول محسوب بدقة ، حتى يعرف المستمعون ان أية من الابنتين ، اللتين تلبسان نفس الثياب ، لم تبلغ بعد العشرين من عمرها . واني لا أصدق شيئاً مما تقول .

نبهني كليكس وهو يبلع طعامه : ـ حذار ، يادكتور ، أن يحتالوا عليك فتدفع ثمن كاس زائدة . المعلم كان مجنداً ، وكان في المقهى ، يمحو سراً الخطوط الدالة على عـدد ما يأكل من الصحون ، أما الآن ، فهو يزيد سراً عدد الكؤوس ، كي يخفف مما على ذمته . طبعاً ، ضحكت . وحاولت من جديد ، أن أعقد أواصر الحديث مـع السيد سامبر ، الا أني لم أفلح أن أستخلص منه سوى أمر واحد : انه يقصد الى الحانة ، دائماً ، في الصباح .

كان اينياس كأنه مسمر الى البليارد ، هو يتابع اللعب باهتمام زائد ، ولكنه يتمنى : بشكل واضح فوز اللاعب الصغير ، كان بين حين وآخر ، يقفز. وكان في هذه الآونة يقفز على رجل واحدة.

فرغ كليكس من عشائه . فحشا غليونه وأشعله . كان وجهه يبدو على وهج اللهيب ، شبيهاً بكور عتيق . فسحب نفساً ، وأجال فيما حوله نظراً مطمئناً . وقع نظره أخـيراً ، على الغريب الجالس قرب البليارد . ـ لا بد أن يكون هذا صانع أحذية ، قال لي بصوت خافت مبتسماً : أيتها الأفعى ! صاح بصوت ، جعله هذه المرة جهورياً . فانتفض الغريب ولكنه لم يوجه نظره الينا، ـ يا حذاء ! صاح كليكس مرة أخرى . فادار الغريب وجهه صوبنا بفتور ، وكان غاضباً : ـ ذبابة ماخور ، دائمة السكر لا محالة قال هذا بتمهل وبصق . بيد أن كليكس ثار فجاة ثورة عنيفة . ـ كيف ؟ أعلي تبصق ؟ علي ، على بورجوازي من مدينة براغ ؟ وهم بالنهوض . فصده المعلم وأعاده الى كرسيه ومضى نحو الغريب . ضرب كليكس المائدة . ما من أحد رآه ، قط ، ثملاً وان حدث وافرط في الشراب فما ذلك الا لأنه يجابه مشاكل مزعجة ، وهذا ، لا يعني أحداً . كان صاحب الحانة ، قد أخرج ، من طريق المطبخ ، الغريب الذي نهض طائعاً . وظل كليكس يصيح . غير أن شجاراً وضجيجاً كان قد نشب فجاة ، تحت القبة . وبعد بضع ثوان ، جاء المعلم وقال : ـ ما أن خرج حتى عاوده الغضب وحاول أن يعود أدراجه ، ولكني قذفته الى الشارع ، مثلما تلقى الصرة العتيقة في مكان مهمل .

بعد فترة قصيرة ، عاد المرح السابق الى مجراه الاول . فقد دوى التصفيق فجاة ، على الطاولة

المقابلة • ـ مرحى ، مرحى ! لوفلر سيقوم بتقليد الذبابة ، لوفلر ، قلد الذبابة ! وتعالىالتصفيق في أرجاء القاعة • سالني كليكس ان كنت قد رأيت من يقلد الذبابة • فاجبته بالنفي • يبدو أن هذا من الغرابة بمكان كبير ، حتى يخشى عليّ أن انفجر من شدة الضحك • لقد شاهدت هذا ، مرة ، وأعتقد أن ما من مقهى من مقاهي براغ الا وفيه من يقلد الذباب • وليس في وسعي ، أن أتحمل هذا • كان لوفلر ، يتمنع وهو جالس خلفي مديراً لي ظهره ، يبدو أن الضجيج قد زاد عن المالوف • ـ صمتاً ، صمتاً ، صه ! ران الصمت وشرع لوفلر يطن • أولا ، مثل ذبابة تتطاير في غرفة ، ثم مثل ذبابة تنقر الزجاج وأخيراً ، يقبض عليها لوفلر ويحبسها في كاسه ، حيث تتخبط ، وهي تطن طنيناً أقوى • فتعالى التصفيق ••• وصفقت أنا أيضاً • اتجهت الانظار كلها نحوي ، ليروا ان كان هذا قد نال اعجابي • ـ ياله من رجل لعين ! قال كليكس • قليل أمثاله ! ولسوف يجعلنا ننفجر ، ذات يوم ، من شدة الضحك • وافرغ كاسة تلو أخرى ، لا ريب ، انه ما زال ثائراً من جراء خصامه • كان بين حين وآخر ، ينقر على معدته ويقول ، كانما يعتذر : ـ ما زال أمامي عشر بوصات لأبلغ المعدل الطبيعي • شيء غريب !

ـ لعبك سيء ! هذه الملاحظة ، جاءتنا على حين غرة ، من جهة البليارد ، من هذا المسكين اينياس ! هذا البائس اينياس ! فاستدارت جميع الرؤوس ، بغتة الى هذه الناحية • ان اللاعب الصغير الذي شمله برعايته ، ضرب ضربة ، نفر منها اينياس ، فلم يتمكن من كتم اشمئزازه وأستيائه • وساد الهرج والمرج • وضرب اللاعب بعصاه على طاولة البليارد • فصاح الملازم :

ـ هذا ، لا يطاق ، اذهب عنا الى الشارع ! وصاح المعلم ، انه سيلقي اينياس الى الشارع ، غداً ، صباحاً ، وسيعطيه حسابه • فضحك منه كليكس وساله : ـ كم من المرات قلت هذا ؟

هدأت الخواطر من جديد • ودخل بائع متجول • شخص مهزول ، قذر ، غير حليق ، يرتدي ثياباً رثة ، مهلهلة • وضع صندوقه على مائدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وراح يعرض مشطاً ثم محفظة نقود ، ثم حاملة سيكارات ، وكان كل فرد ، يكتفي بايماءة سلبية برأسه • قام البائع، دون أن يتفوه بحرف ، بجولة على سائر الموائد ، ثم أغلق صندوقه ، وحمله تحت ابطه وانصرف • واذا بتصفيق •••

ـ صه ، صه ، سكوت ، وراح لوفلر ، يقلد الآن ، صوت (الامعاء المحشوة) ، وهي تتلقى• تصفيق وقهقهة • أما اينياس ، فهو الوحيد ، الذي ظل ينتبذ مكاناً منفرداً ، وهو محزون الفؤاد ينظر بخوف الى القاعة ، وهو يغضن جفنيه •

قام لوفلر برقصة تيرولية[1] انها رقصة خليعة ، ولكني رغم ذلك صفقت • راح الملازم ،

(١) رقصة تيرولية : يقوم الراقص بهز صدره ورأسه بحركات متوالية •

أمام مائدته ، يتكلم بصوت قوي ، ويتلفظ بعبارات ، كان من الممكن أن تدفعني ، لو كنت أباً وكنت أصطحب امرأتي وبناتي ، أن أقذف به الى الشارع ! الا أن شافعه الوحيد ، أنه يعرف الحاضرين، منذ عهد بعيد ، ولكن ، في هذه الحالة ، كان يتحتم عليهم ، منذ عهد بعيد ، أن يقذفوا به الى الشارع •

استاذنت وانصرفت •

على العموم ، سريت عن نفسي • يجب على المرء أن يتحلى بالمنطق السليم ، فيدرك كنه هؤلاء الناس البسطاء •

★ ★ ★

لم أستيقظ باكراً : انني حين أمضي الى المقهى مساء ، فاسهر وأنام متاخراً ، أطيل النوم وأتاخر في استيقاظي ، ولكن يبدو أن ثمة أناساً ، مع ذلك ، يستيقظون باكراً ، بسرور فائق • لا باس : فالمرء حين ينام نوماً هنيئاً ، يقوم بعمله بشكل أفضل !

★ ★ ★

ياله من يوم رائع ! لم أستطع أن أملك نفسي ، فوقفت أمام النافذة ، المفتوحة على مصراعيها• إني أسمع ، بوضوح ، ضجيج البناية كلها ، واني واثق ان هذا لا يزعجني كثيراً ، فهو شبيه بضجيج سد ماء بعيد ، وهذا مايبعث ، على الاقل ، الجدة في الرتابة المقيتة التي تهيمن على غرفتي المغلقة • هنالك من يغني ، في الطابق العلوي ، فوقي ، في بيت سامبر ، الخياط ، لا ريب انه رفيق له ؛ انه يغني فقط ، وبصوت أخرق • وانها لأغنية مضحكة !! « ولعله ، لهذا السبب وحده لا يتصنع شيء غريب ! »

خف جوزيف الصغير الى منزلي • ليس من الحكمة أن يالف المجيء وانني ساجعله يفهم هذا بتان •

ـ تعال الى هنا ، ياجوزيف ، أتجيد الغناء ، أنت أيضا ؟ ـ طبعاً ، أجيد ! ـ اذاً • هات ما عندك ، غنني شيئاً حلواً ، أتفهم ؟ فراح الصغير يغني : ولكنه اخطأ ، لا أهمية لذلك برأيه• ـ حسنا جداً ، والآن ، هيا ، انصرف • أتدري أن من الواجب علي ، أن أظل وحيداً دائماً ، وان من الواجب أن لا تاتي الى هنا • فارتحل جوزيف • انه يعجبني • أنا الآن أدرس التنظيم في مادة الحقوق التجارية ، وانني منشرح لدراستها بعد دراسة الحقوق التجارية •

★ ★ ★

صخب مثير في منزل الرسام • جوزيف يتلقى تاديباً متقنا • سـاقوم باغلاق النافذة ، وقد فطن الرسام الى هذا ، فصاح بي ، من طرف الباحة البعيد : ياله من ولـد قذر ! لا سبيل معه الى الراحة ! ـ ولكن ، ماذا فعل جوزيف ؟ ـ هذا الاخرق الصغير ، أكل رسالة أخي ، الغوري ، فلم أعد أدري باي شيء ، أجيب عليها ! فاغلقت النافذة ، ولكن الرفيق ، في الطابق العلوي ، مازال يتابع « عدم تصنعه » •

تغديت في الأسفل : مع سامبر والحانوتي • كنت أراقب اينياس ، وكانمضحكاً ! فقد قضيا وقتاً طويلا ، على الطاولة المجاورة ، في اجراء حساب الليلة الفائتة • وكان اينياس ، بنظرة شزراء وهيئةبليدة ، تنم عن ذعر فائق منمعلمه ، ينتظر بشكل ظاهر ، التسريح الموعود في الليلة السابقة، بين لحظة وأخرى•وكان خيال المعلم المهترىء ، يتارجح تارة الى جهة وطوراً الى أخرى ، ويغضنجفنيه بفتور لقد نسي كما يتضح تماماً ، ما حدث في الليلة الفائتة • فما أن فرغمن الحساب حتى انتفض اينياس •

أقبل المعلم ليجلس الى مائدتنا • قلت : انه لحساء لذيذ ! حتمة انه لذيذ ! قال المعلم مردداً : ـ وماذا يمكنني أن أتناول مع الحساء ، يا اينياس ؟ ـ ماتريده • أعطني اذن شيئاً من الشمندر الأحمر • ـ كلا • كيف كلا ؟ فالشمندر مسجل على لائحة الطعام • صمت اينياس • واغرقالمعلم في الضحك ، حتى أمسك بخاصرتيه ، وقال أخيراً ، في قهقهة مجلجلة : ـ سآتيك بما تريد بنفسي، يا دكتور • ان اينياس لا يتمكن ، كلا ، لا يتمكن ••• فتطلعت باستغراب : ـ نعم ، لا يكاد اينياس ينظر الى الشمندر الاحمر ، حتى يغمى عليه ؛ فهذا ما يذكره بدم بشري مجفف • هـــذا الأبله ! ماكول الهناء ! لم يكن الغذاء ، عدا هذا ، يدعو الى البهجة • والمعلم لاتستطيع الاستعلام منه عن شيء : ـ ماذا في الصحف ؟ سألته • ـ لا أقرأها • أنا أفضل الذهاب الى دكان البقال ، فاساله عما يجري ••• كنت قـد لاحظت أن في أسفل الجدار القائم حول القاعة ، حفراً ، غير منتظمة • ـ ما هذا ؟ قبل مجيئي كان المكان قاعة للرقص ، فخرب الناس هذا الجدار برقصهم • أجئت الى هنا ، منذ زمن بعيد ؟ ـ أنا ؟ هذه السنة ، هي الثانية عشرة • أما سامبر فلم يقل شيئاً على وجه التقريب عدا « ايه » و « هم » هذا كل مافي قاموسه •

★ ★ ★

كنت مساء في الحديقة • كان فيها نصف سكان البناية ؛ واذا استثنيت الزوجين اللذين ، في ريعان الصبا ، المقيمين في الطابق الثاني والمراقب في الخطوط الحديدية ، زوج مؤجرتي ، فانا الآن أعرف جميع السكان وحين أفكر فيهم يعتريني دوار خفيف • فالسيد بروفازنيك ، مثلا ، الذي يسكن فوق شقة الرسام ، ما استطعت ، بعد ، فهم حقيقته • لمحته ، مرات عديدة ، في النافذة ،

وكان يبدو لي ، أصفر الوجه ، منمنماً ، مثل صحن من الحلوى • والآن ، عرفت السبب • ان له حول وجهه لحية صغيرة ، سوداء ، حليقة عند شفتيه وذقنه ، وكنت من بعيد ، لا أرى سوى هذه الظاهرة • فشعره كان رمادياً ، تقريباً ، فهو يجب أن يكون في حوالي الخمسين من العمر ، وهو محدودب الظهر كثيراً •

عندما هبطت الدرجات القليلة المؤدية الى الحديقة ، كان بروفازنيك يتمشى في آخر الحديقة ، على حين ، كان الكل متجمعين تحت العريش القائم في الزاوية اليمنى : المالك وابنته ، والرسام وزوجته وجوزيف • كانت عينا المالك السوداوان ، المحمومتان ، شاخصتين الي ، كاني حقاً دخيل • فتعالى صوت أنيس ، حاد النبرة : ـ بابا ، انه الدكتور ، كروملوفسكي ! ـ الدكتور ، آه ، ولكنني نسيت ، ومد لي يده المعروقة ، المحرقة • ـ باذنك وددت أنا أيضاً ، أن أتدفأ قليلاً في الحديقة • ـ أرجوك ؛ راح يسعل ، وبصق على حذائي • وجلسنا • لم أعرف بماذا أتحدث ؛ لعل الصمت الذي خيم لم يكن ليزعج الآخرين ، أما وقعه علي فكان ممضاً ؛ كنت أستشعر انهم كانوا يترقبون ليروا ، ان كان الدكتور محدثاً بارعاً •

كان جوزيف عضدي الوحيد • ـ تعال الي ، ياجوزيف ، كيف حالك ؟ فاقبل جوزيف وتكوم بين رجلي وارتفق ركبتي • وقال : هات حكاية •

ـ أتريد مني أن أحكي لك حكاية ؟ عجباً ، فقد تذكر العفريت الصغير ، أني حكيت له أشياء كثيرة ، في ذات يوم • ـ احك لي حكاية • ـ حكاية ؟ ولكني لا أعرف أي حكاية ؛ بل ، مهلاً ، سأحكي لك ، مع ذلك احدى الحكايات • وشرعت بصوت جدي : ـ يروى أن ملكاً • طيب • لم يكن له أولاد • طيب • ابنه الأكبر خطر له بأن يطوف في الارض متسولا • ضحك عام •

ـ الدكتور ، ظريف ! قال الرسام ومسح قطرات كبيرة من الدمع ، جرت من مقلتيه النديتين • الرسام رجل فطن ، كما يتضح ، وهذه المظاهر التي تعبر عن الاعجاب ، أثارت خيلائي • جميل دائماً ، أن يعتبر المرء ظريفاً • ـ هيا ، تابع ، طلب الرسام فهذه القصة ، هي ، أيضاً ، للأولاد الكبار • مصاعب جديدة • فالقصة لا تتمة لها ، هي تنتهي عند هذه النكتة ، بيد أن هؤلاء الناس الطيبين ، لايفقهون هـــذا • ومادمت رجـلا ظريفا ، فقد تحتم علي اللجوء الى الارتجـال ، لعلي أفلح • فتكلمت وتكلمت ، ولكنني أخفقت ، وشعرت ، على حين غرة ، أني لا أجيء الا بهراء • فكف القوم عن الاصغاء وأخذوا يتحادثون فيما بينهم ، فتهللت • وظل جوزيف وحده يصغي الي ، فملست شعره • بيد أن لكل قصة نهاية ، ولقد بدات أهذر • واذا بفكرة حسنة تراودني • أمسكت ، بغتة ، بيد جوزيف ، كاني ما أبصرت هذه اليد ، الا في هذه اللحظة ، وقلت له :

ـ أنظر ، يا جوزيف ، ما أوسخ يديك ! فنظر الصغير الى يديه • انحن ، أود أن أسر في أذنك

شيئاً ما ! فقال لي بصوت خفيض : أعطني قطعتين من ذوات العشرة قروش ، فامضي وأغسل يدي ! أخرجت سراً من جيبي قطعتين ودسستهما في يده • فانطلق الى الحديقة ، حيث بدت للعيان ، ابنة سامبر الصغيرة ، وهي فتاة في السابعة من عمرها •

التفت الى ابنة المالك ، الجالسة الى جانبي ، وهي شديدة الشبه بابيها • وجه جاف ، دقيق المعالم ، ويدان شفافتان وذقن صغيرة وأنف صغير جد صغير ، ترى ، هل في مقدورها ، أن تتنفس منه ؟ بيد أن هذا الأنف الصغير ، لا يقبحها ، هو وجه محبب ، بعينين سوداوين • وصوتها العالي لطيف حقاً • لابد لي ، بهذه المناسبة ، أن أذكر ، أني مولع بالعيون السود ، وان امرأة زرقاء العينين ، تذكرني دائماً ، بامرأة عمياء •

ـ أنت موسيقي ، يا دكتور •••

ـ كروملوفسكي ، تدخلت الفتاة ، قاطعة على أبيها كلامه •

ـ نعم ، يا أوتيلي ، أعرف ، أن السيد يدعى كروملوفسكي •

ـ سبق لنا أن تحدثنا عن ذلك ، حين تكرمت بزيارتي • وكنت قد عزفت على الكمان ، من مدة طويلة ، طويلة جداً ، جداً ، حتى أني أصبحت الآن عاجزاً عن لمس الكمان • ولكن المالك لم يعد يصغي الي ، فمالت ابنته علي قليلا ، وهمست في اذني بصوت كئيب ، مخنوق :

ـ مصيبة أبي ، أنه يفقد الذاكرة ابتداء من الظهر • وأمسك المالك بزمام نفسه وتكلم بصوت ، كانما بنح فجاة : ـ تعالي ، يا أوتيلي ، أحب أن أتمشى هناك • ـ آه ، يادكتور ••• من فضلك ، اليك هذه البطاقة • ومد نحوي بطاقة طويلة ، بيضاء كتب عليها : ـ أنا مصاب بالم في حلقي ، أرجو المعذرة ، ان لم أتكلم بصوت أعلى •

في هذه الآونة ، انضم الينا بروفازنيك • فابتسم لي وكان في ابتسامته ، شيء من السخرية• ومد لي يده :

ـ خادمك ، الدكتور كراتوشفيل •

ـ أدعى كروملوفسكي •

ـ أمر عجيب ، كنت أعتقد ، أن كل دكتــور ، يدعى كراتوشفيل ، قه ، قه ، قه ! كانت ضحكته مبحوحة وعنيفة •

فرنوت اليه بعينين مذعورتين •

ـ وفيم كان هؤلاء السادة يتناقشون ؟ كيف حالك ، ياسيد أوغستا ؟

ـ لست على ما يرام ! ليس لدي تقريباً ما أعمله •

ـ كيف ، كيف ••• ما صادفتك ، مرة على الدرج ، الا وتحت ابطك لوحة جديدة • قد يكون رسم لوحتين ، في اليوم الواحد ، لعبة بالنسبة اليك !

فابتسم الرسام مزهواً بنفسه • ـ هذا صحيح ••• ان « الاساتذة » في وسعهم دائماً ، أن يحاولوا ، ان كان هذا ممكناً •••

ـ في استطاعتك أن ترسم أكواماً من الوجوه ، هكذا ، وتحفظها لديك ، تحت الطلب ، قه ، قه • هذا ، مع العلم أن رسام الوجوه ، أكثر المخلوقات تفاهة في العالم • حتى وان لم يوجد رسام وجوه واحد ، فثمة على هذه الارض وجوه وفيرة ، بل ، من أغرب الوجوه ! فعلام ، لا تنصرف الى رسم شيء آخر ؟

هممت أن أضحك ، فان ما فاه به بروفازنيك من هجاء مقذع ، لا رد عليه ، وقد رأيت الرسام متضايقاً ••• ماذا يستفيد من مضايقته ، هذا المسكين !

ـ كنت قديماً رساماً لوجوه من التاريخ غمغم الرسام • ولكن هذا ، لم يكن ليدر علي مالاً ، فالناس لا يفقهون شيئاً من التاريخ في ذات يوم ، طلب مني أحد الكهنة ، لوحة ، تمثل راهبة كبوشية ، يلقي عظة دينية في معسكر (فالنشتاين) ؛ فرسمت له لوحة فاخرة ، كما أستطيع أن أؤكد ؛ ولكن ، حين أنجزتها ، أبى الكاهن استلامها وما استلمها ••• كان يريد كبوشياً ، يلقي عظة ،ولكن، دون وجود كبوشي ••• وهو كاهن ! وعهد الي ، مرة أخرى ، رسم لوحة ، تمثل (زيزكا) ، لبلدية (كوشوف) • يا للجلجلة ! بعثت اليهم برسم • ولكن الاحذية ، لم تنل رضاهم كان يتحتم علي أن أطلب من السيد بالاشكي(١) ، شهادة تبين رضاه عن مطابقتها للتاريخ • فمنحني السيد بالاشكي وثيقة تنم عن موافقته • ولكنهم في كوشوف ، يعتمدون في أمورهم خبيراً ، يدعى ، (مالينا) ؛ فقرر (مالينا) ، هذا الخبير ، أن لوحة (زيزكا) ، ليست ، متفقة مع مطالب التاريخ العسكري • طال الجدل ، بيني وبينهم ، وأخيراً ، كتبوا الي ، يتهددونني ، بشن حملة علي ، على صفحات الجرائد • فمن الخطر ، أن يكون الرسام ، رساماً تاريخياً •

ـ عليك ، اذن أن تقوم برسم لوحات منوعة • فمثلا ، مصلح مزامير ، يصلح مزمار زمّار سكران • أو « فارة في مدرسة بنات » • ليس من الضروري رؤية الفارة ، بل البنات والمعلمة جميعاً وهن يرتقين المقاعد مذعورات ، يجب ابراز كل معاني الرعب !

(١) مؤرخ تشيكي شهير •

ـ حقاً ، ولكني رسمت كذلك لوحات منوعة • وقد عرضت' احداها في أحد المعارض ، هي لوحة جميلة • كان كل شيء ، في ذلك العهد ، يكتب بالالمانية ، وكانت لوحتي ، تحمل اسمة ألمانياً • كانت تمثل رجلا" ، متمدداً على فراشه وامرأة تاتيه بطبقمن الطعام المحرق •••

ـ يا للهول !

ـ ولماذا ؟ فالطبق لم يكن ظاهراً ، بل كان ملفوفاً بغطاء حتى لا يبرد •

كنت أتمنى ، أن أهرع لنصرة الرسام ، كي ينجو من هذا المازق الحرج ولكنني ماعرفت السبيل الى ذلك • ـ في أي يوم نحن ؟ قلت لبروفازنيك على نحو أهوج •

فاجابني بروفازنيك مكشراً : ـ ما عليك الا أن تنظر الى قبة قميص المالك ، يا دكتور ، كراتوشفيل ، فانه لا يبدل قميصه ، الا مرة في الاسبوع ••• فاليوم يجب أن يكون الخميس •

ـ ياله من وقح ! ـ فالمسكين مصاب بـداء فريد ، حقاً ، يبدو انـه يفقد الذاكرة دائمة ، ابتداء من الظهر !

ـ أجل ، لابد انه قام في الماضي ببيع قبعات من القش • ان من يقومون ببيع قبعات القش ، يصبحون على غاية البلاهة ، بسبب الكبريت ، ولا سيما التيروليون • ••• وبعد هذا ، يعجزون عن اتمام عملية جمع بسيط •

ـ ولكن ، يقال ، انه رجل محترم •••

ـ محترم ولكنه غبي • ان نظره لا يتجاوز أنفـه ، الا بخمس أصابـع • أنا أعرفـه من عشرين سنة •

ـ يقال ان ابنته شديدة العناية به • هي امرأة لطيفة ، دون ريب ، مع انها صغيرة السن •

ـ انه مجرد فضول منها • فالفضول الانثوي ، دفعها الى المجيء الى الدنيا ، قبل أوانها بعشرين سنة ، وانها الآن نادمة • هي صريحة ولقد شتمتني أكثر من مرة •

ان عبارات بروفازنيك الوقحة ، عكرت صفوي ، فقلت : ـ هيا بنا ، نثرثر قليلا" مع المالك • ـ هلموا ! قال الرسام في عجلة ، وضرب كتف بروفازنيك • فكلما نزلت ضربة على كتف بروفازنيك عاد فوراً الى الصواب •

نهض الاثنان • كان رحيل الرجلين قد أيقظ فجاة ، زوجة الرسام من بحر أحلامها ، الذي كانت مستسلمة الى عبابه ، وهي ترتفق على باب العريش • ـ اسمع ، يازوجي ، ساهيء للعشاء بيضاً مخفوقاً !

ـ حسناً ! قال الرسام وأبتعد • اغتنمت السيدة أوغستا هذه الفرصة ، لتؤكد وهي تزازي ، ان كثيراً من الشبان تقدموا طالبين يدها وان جميع الرجال ، يجنون بهـــا • أحببت' أن أشبع غرورها ، فقلت ان هذا ما زال ظاهراً ، حتى الآن • ـ ما هذا الذي مازال ظاهراً حتى الآن ؟ ـ فارتج علي ، ولم أعد أفقه ما أردت أن أقول ، وانتهى بي الأمر الى الافصاح عن انها ما زالت تبدو حسناء • فشمخت السيدة أوغستا بانفها ، هي ليست متقدمة كثيراً في السن • ولا سيما حين تتزين (ها هي مندفعة في الكلام كالطاحون) ـ في ذات يوم كان هناك مـن يتعقب خطاي ، فقال : ما أظرفها !وغمغمت بضع كلمات ، الا أنها كانت قد ابتعدت •

مضيت لأنضم الى الآخرين في الحديقة • قرنا الي المالك باسماً ، ليبين لي أنه عرفني ، ومد لي مرة أخرى ، نفس البطاقة ، وعليها نفس الكتابة • كان الحديث يدور حول الحلوى • وددت أن أستعيد اعتباري محباً للممازحة • فسالت : ـ هل الآنسة خبيرة بالحلوى ؟ ـ أوه ، كلا ـ اذن بالسكاكر ! وضحكت ضحكة مجلجلة اذ من المعلوم ، أن المرء ، اذا ما أرسلها ضحكة صادقة ، فانه يجذب الآخرين الى مجاراته • غير اني ، ما جذبت أحداً • يبدو انهم لم يفقهوا كنه مزاحي •

سالني المالك ، ان كنت موسيقياً وداس قدمي وهو يطرح سؤاله • ـ كلا ، قلت له ضاحكاً ، ثم ما لبثت أن رثيت لحاله • فاردفت : ـ أعتقد أنكم كثيراً ما تذهبون الى الأوبرا ؟ ـ كـلا ، لست' جديراً بها • فاني أسمع نصف الاصوات عالية جداً ، بالأذن اليمنى ، فلا أرتاح • هذا انسان غريب ، يفقد ذاكرته ، ابتداء من الظهر ، ويسمع نصف الاصوات عالية جداً بالأذن اليمنى • ـ أنا أوثر انبقاء في البيت ، أمام البيانو ، مكباً على العمل • ـ هل تعمل في التاليف ؟ ـ الآن ؟ لا ، من بضع سنوات والى الآن منصرف الى تصحيح موزار • وعنـدما أفرغ ، سترى من هو موزار ! وبصق على حـذاء بروفازنيك • مسح بروفازنيك حذاءه بالعشب • وقال : ـ منذ سنوات ، وأنا كذلك ، لا أذهب الى الاوبرا • وان ذهبت ، فما ذلك ، الا لسماع مارتا •

أمسك المالك بيدي وانتبذ بي ناحية منفردة • فلديه ما يريد أن يسره لي ، ولكنه لميتمكن، وسمعت (س س س س) فكأن ثمة بخاراً يندفع من مرجل • غمغم ثلاث مرات متواليات صوت (س) بينما نحن نتجول في الحديقة ، ثم أفلح في أن سالني ، ان كان في الملفوف ، مادة الفوسفور• انه اذن مصاب باللكنة ، فوق مافيه من مصائب ، وهو يتعثر بحرف (س) • ثم مـد لي من جديد لافتته •

ثم أمسكني الرسام من يدي وجرني الى زاوية • أما كنت قد رأيت كيف ضرب كتفبروفازنيك؟ فاذا ما قيض لبروفازنيك أن يستثير حنقي ، فما علي الا أن أطرق على ظهره ، قليلا جداً ، فتلين قناته في التو • يبدو أن بروفازنيك خبيث •

أخيراً ، جاء دور بروفازنيك ، فانتحى بي ناحية • ما رأيي في تاسيس شركة تقـوم بادارة

جزر على الفلتافا ؟ كان يحدق فيّ بهيئة ظافرة • فقلت ان هذه الفكرة تبدو فذة للغاية •

ـ والآن ، أرأيت ، ان لدي من هذه الافكار ، أكثر من فكرة واحدة ! ولكن البشرية ، الآن لا تعير ، الافكار أي اهتمـام • واني ، لا أجـد في نفسي الجـرأة على بحث هذا الموضوع مـع هؤلاء الاغبياء •

ـ ما رأيكم ، لو لعبنا لعبة الستة ؟ أعلن الرسام لا بأس ، نستطيع اللعب ساعةمن الزمن• كان ورق اللعب في جارور ، في عريش الرسام • فجلسنا حول طاولة صغيرة ، واتفقنا على أن ألعب شريكاً للمالك ، ويلعب الرسام وبروفازنيك ضدنا • لعبة ممتعة ! فالمالك ما زال يسأل ، حتى آخر ورقة ، عن اللونالرابع • انه لا يعرف على أي لون لعبت ، ولا يساعدني به • أراهن ان في يده ، صوراً ولكنه لا يبدي لي ولا واحدة منها • فاذا ما سألت سؤالا ، أبرز لي لافتته ، فوق الطاولة • كان بروفازنيك وأوغستا يربحان ، طبعاً ، ويضحكان مثلما تصهل الخيل • فتيقنت ، ان لم يبق لي ، الا أن ألقي بورق اللعب وأدفع ما خسرت • ودفعت أوتيلي عن أبيها ، ولو لم تفعل ، لما فرغنا من الحساب ، بل من حساب جولة واحدة ، فهو يزعم انه كان قد دفع ما عليه ، وفي الوقت ذاته ، يدوس قدمي بعنف ، تحت الطاولة • فسحبت قدمي ورحت أتلهى بمتابعة النظر الى قدمه، وهي تبحث بعصبية ، تحت الطاولة ، عن شيء تستطيع أن تستقر عليه •

على حين غرة ، حمل علي مدعية ان لعبي سيء واني ما وضعت (ملكي) على (أصـه) البستوني • هذا ، مع انه ، لم يرم مرة واحدة اللون البستوني واني ، أنـا الذي كنت أحمـل (الأص) • ظل المالك يشتم غاضباً ، وصوته يهدر كالبوق ، وكان قد تجمع في جيبي خمس عشرة قصاصة من الورق • كانت أوتيلي ، ترميني بنظرات مستلطفة ، أليمة ، ففهمت وصمت •

لعبنا حوالي ساعة ، خسرت أكثر من ستين كرويتزر • رجع المالك الى بيته بصحبة أوتيلي أن رطوبة الليل « تضر بحلقه » كما يبدو • وعاد بروفازنيك الى بيته أيضاً • وجاءت خادمـة الرسام بالعشاء الى الاسرة • فطلبت منها ، أن تاتيني أيضاً بما أتعشى مع الجعة •

فاكلت والرسام يسري عني • شكا لي عدم تقدير مواهبه حق قدرها • وكان قد طرد من الأكاديمية ، قبل انجاز دراسته ؛ لأنه كان أوسع اطلاعاً من الاساتذة •

★ ★ ★

عدت الى البيت والصداع يؤلمني •

★ ★ ★

لن أدع النافذة مفتوحة ، بعد الآن ، ليلا ، حتى ولو كان الحر شديداً ! عند الرسام ، قامت ضجة ، بعد منتصف الليل بساعتين أرسلت السيدة أوغستا صوتها الحاد ، وكان صوتهاخليقاً بأن يقطع قرمة • وقد فهمت جوهر الخصام • فالرسام عاد الى بيته فاقد الوعي • كان رغم هذا ، يشعر بما هو فيه من السكر ، وكان يحاذر أن يكسر شيئاً في الغرفة • فما كاد يلج الغرفة ، حتى استند الى الباب مرتقباً بزوغ الفجر • وقد نام ، طبعاً ، وهو واقف ، فهوى على الارض في صخب• بهذه المناسبة ، أدركت تماماً ، السبب في انقطاعي عن سماع العندليب • فهو يبدأ سهراته الموسيقية ، في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل ، ربما بعد رجوعه من المقهى •

★ ★ ★

لمحت المالك وابنته في الحديقة • كنت أتوق الى رؤية المالك ، في وقت ، يتمتع فيه بكامل ذاكرته ، فنزلت • كان هناك لسوء الحظ ، بروفازنيك ، وكنت لم ألمحه من النافذة •

كان المالك يعزف على سنطيره • ـ مهلاً ، يادكتور كروملوفسكي ، سأعزف لك أحد مؤلفاتي القديمة ، وهي أغنية مؤثرة ، دون كلمات • عزفأغنية•لا بأس بها ، حسبقدرتي على فهم الموسيقا، ورغم انه ، كان يعزف على آلة سيئة ، فقد كان يعزف بمهارة واحساس • صفقت له • كيف وجدتها ياسيد بروفازنيك ؟ ـ أنا ، من جهتي ، أفضل مارتا ، بيد أن معزوفتك ممتعة ، في وسعك، أن تلقي بها ، وأنت مطمئن ، على كومة من الزبل • اسمع ، لو كنت تستطيع أن تؤلف قطعةحسنة، قطعة فعالة ، لابادة البق ، لظللت أنشدها ، كل الوقت ، لكثرة ما أعاني منه • وأدار ظهره ساخراً • فأشار الي المالك كي يفهمني ، أن في رأس بروفازنيك ، ما لايسير سيره الطبيعي • وفي الوقت نفسه ،أكب علي بروفازنيك ، وهمس : ـ اني مستعد أن أدفع الكثير ، أن تمكنت ، ذات يوم ، من رؤية ما في رأس أحد الموسيقيين • ان هذه الرموز الموسيقية ، مضحكة ، دون ريب ! فكان دماغهم يزخر بالديدان ! وفطن المالك الى أن الحديث يدور حوله ، فغمغم : « لا يدفع اللوح الخشبي كما يدفع عود من الثقاب » أحببت أن أرد الامور الى نصابها فسألت بصوت مرتفع: ـ وأنت ، ياسيد بروفازنيك ، أما أحببت الموسيقا في يوم من الايام ؟ أنا ؟ كيف لا ؟ صرفت ثلاث سنوات على الكمان ، ثم على المزمار ثم على الغناء ، يبلغ المجموع تسع سنوات ، صرفتها على الموسيقا ••• مع ذلك ، فلا أفهم أسرار الموسيقا •

فالتفت نحو الصبية وسألتها في أدب ، كيف كان نومها • ـ حسن ، الا أني ، عندما أفقت هذا الصباح ، شعرت بشيء من الكآبة ، فلم أفقه السبب ، فانخرطت في البكاء ••• ـ حتماً ، لا ريب ان هناك سبباً ما ! ـ سيدة عاقلة ••• ـ أتحسبني عاقلة ؟ بابا ، الدكتور ، يخالني عاقلة ! وراحت تضحك حتى سالت دموعها • ورحت ، أبين لها ، أن الدموع ، تظل تجري مع مجرى الحياة ، الا أننا لا نشعر بها • كنت قانعة ، ان بمقدوري أن أظل أتحدث عن أمور ، بالغة

الخطورة ، ولكني ما كدت أبلغ منتصف حديثي تقريباً ، وكنت أتكلم عن لمعان العين البشرية ، حتى وقف المالك ، بغتة ، وقال : ـ اوتيلي ، فلنعد ، ينبغي أن تراقبي طعام الغداء ! وانصرفا ، وقد خلفاني بين براثن بروفازنيك •

شعرت بشيء من الانزعاج أمام هذا الانسان الفريد من نوعه • كان يرنو الي مكشراً تكشيرة خاصة ، مما زاد في شعوري بالانزعاج • لم أكن ، مع هذا ، راغباً في الفرار ، فعقدت معه أطراف الحديث • قلت : ـ مهما كانت الامــور ، فالمالك موسيقي ممتع • ـ أجل ، أجل ، انه يجيد ولا سيما ما ••• كيف يدعى هذا ؟••• حين يعزف اللحن ذاته على بضعة مزامير ! • ـ في علم الآلات ؟ ـ نعم ، مع ذلك ، ما وجه الصعوبة في ذلك ! ان أرغنا صغيراً ، متنقلا وكلبة يلعب وينبح بجانبه ، هو جميل كذلك • فلم أتمالك نفسي من الضحك • نظر الي بروفازنيك وقال لي : ـ دكتور ، أنت اليوم ، على غير مايرام ! ـ أنا ؟ تساءلت ••• بيد أن بروفازنيك مر بيده على جبهته ، كأنما هو يربط ما انقطع من حبل أفكاره ، وبدأ بصوت أجش ، بطيء ، وبالغ في الجد :

ـ أنت انسان ذكي ولا أريد أن أعاملك ، معاملة الاغبياء ! أنت تعلم أني أكن لسائر البشر كراهية وحشية ، فلشد ما ألحقوا بي من أذى ، من أذى بالغ في حياتي ، مضت سنوات كثيرة ، وأنا التزم منزلي • ومنذ أن بدأ رأسي يشتعل شيباً ، بدأت أعتزل النزهات • فان من تحادثه ، كائناً من كان ، لا يلبث أن يبادرك بدهشة فائقة : ولكن ، اسمع ، أقسم بشرفي ان الشيب تمشى في شعرك ! يا للأغبياء ! أليس كذلك ؟ والآن ، ها أنا أشيب الشعر كفارة • الا أني عثرت على خدعة ••• وراح بروفازنيك يبتسم لفرط سعادته • اني أعاجلهم ، قبل أن أدع لهم مجالا ، ليفتحوا فاهم ، فأقول لهم وأنا أتصنع الذعر :

ـ والله العظيم ، لا أدري مابك ، فصحتك لا تبشر بخير • أوه ، ما أحسن ما أجيد التصرف كي أروعهم ! كانت ملهاتي الوحيدة ، خلال سنوات ، تنحصر في تسجيل كل ما كنت أسمع عن هؤلاء وأولئك ، وفي حفظ وثائقي جاهزة ومرتبة حسب الحروف الابجدية ترتيباً دقيقاً • زرني ، ذات يوم ، لأريك سجلا حافلا لسكان مالا سترانا • وحين أعياني الجنس البشري وأخرجني عن طوري ، أخرجت المغلفات ، الواحد ، تلو الآخر ، وشرعت في كتابة رسائل ، غفلا من التوقيع ••• لا جدال في أن الناس ، جُنّ جنونهم وهم يطالعون كل ما استطاع مجهول ، أن يكتب عن حياتهم ، وما من أحد ، ما من أحد تمكن حتى الآن من الكشف عني ! اني ، لك ، وحدك ، أبوح بهذا السر ، وعلى كل حال ، فقد أقلعت عن هذه اللعبة التافهة • لم أعد أرغب إلا في كتابة رسالة واحدة ، فوجود هذين الزوجين السعيدين بجانبي ، يمضني ويحز في نفسي ، فلا مفر من عمل شيء ما ، ولكن ، لست أدري ، ما يجب عمله ، حتى الآن ، لسوء الحظ •

كنت أرتجف • وكان بروفازنيك ، يتابع باندفاع ، ويتكلم بسرعة زائدة :

ـ نعم ، كنت رجلا ! وقد اغويت نساء كثيرات وانا في ريعان الشباب ! لا تخف ، لن أسعى الى اغوائك : النساء المتزوجات ، اني مرتاح الضمير من جهتهن ، فما كنت أستهدف الا العازبات حين كنت طالبا ، في الصفوف العليا ، كنت أسجل عندي ، ما أجد على لوحات مدارس البنات من أسماء اللواتي كن أسوأهن عملا ؛ لأن هؤلاء هن أكثرهن تفرغا • كنت أهتم بسائر ما يقع بين الطلاب من غرام ، فما أن ينشب نزاع بين فتى وفتاة ، حتى أكون ماثلا • وما أن تحتد معلمة حتى تقع غنيمة باردة •

فانتفضت قافزاً • لم يعد في وسعي أن أصبر على هذا •

ـ معذرة ، يجب أن أدخل ••• وانصرفت مهرولاً • سمعت من خلفي غمغمة رنانة ، حادة • أتراه ، خالني مجنونا ؟

★ ★ ★

حين أهبط الآن لتناول الغداء ، تقوم مؤجرتي بتنظيف مسكني • لم أعد أراها الا لماماً ، اذا ما مررت بالمطبخ • هذا لحسن حظي !

★ ★ ★

جلبة في بيت الرسام ، بعد ظهر هذا اليوم • تاديب مريع ، نزل بجوزيف ، وسببه الاثنا عشر كرويتزر ، التي أعطيته إياها البارحة • فقد أعيد جوزيف الى بيته ، بصحبة مفوض الشرطة ، الذي كان يمسك به من يده • كان جوزيف ، قد عرض على المفوض أجراً ، ليمتطي ظهره كالحصان ، في الشارع ، أمام البيت تماماً •

لقد ظهر أن جوزيف ، كان قد دعا مارنكا الصغيرة ، ابنة سامبر ، كي تنعم بمشاهدته • وبالتالي ، كان يهيىء عرضاً رسمياً • لعلها قصة الحب الاول ؟ هذا ممكن ؛ فمن جهتي ، كنت قد عشقت أول ما عشقت وأنا في الثالثة من العمر ، كان الضرب جزائي ؛ الا أن جوزيف يضرب ضرباً كثيراً وشديداً •

★ ★ ★

في المساء ، المقهى • نفس الناس ونفس الاماكن • أولا : ساهم الجميع في تبادل الآراء حول المسرح التشيكي • زعم الملازم السمين ، انه كان ، مرة في المسرح التشيكي ، فاعجب بالقاعة • وكانت تمثل في ذلك الحين ، مسرحية ، يعرف اسمها بالالمانية ، ولايعرفه بالتشيكية • تساءل عن الأسم • فلم يعرفه أحد • أخيراً ، أكد الملازم بثقة ، اسم المسرحية ، بالتشيكية • يا للمهذار !

ظل الحديث يدور حول المسرح ، ثم طرح على بساط البحث ، الفرق بين مسرحية هزلية ومسرحية جدية • عاد الملازم ، ليؤكد من جديد ، بثقة بالغة ، ان كل مسرحية جدية ، يجب ان تتالف من خمسة فصول • ذلك هو مثل النظام الذي يقضي بوجوب وجود مستودع لأربع فرق ميدان •

بعد ذلك ، استعاد الحديث مجراه المالوف ، كلمة ، كلمة تقريباً ، شانه في الليلة الفائتة • تكلم كليكس عن الكسرات التي يخرجها المعلم من جيبه ليقدمها للناس ، وتكلم عن الشرطيين اللذين يسوقان المعلم ، مرة في السنة كي يستحم ، وعن الدجاجة المطبوخة الخارجة من البيضة المسلوقة • أما المعلم ، فتكلم ، من جهته عنقالب الاقراص • وكل نكتة ، كانت تقابل بنفس قهقهةالليلةالفائتة•

من جديد ، نظرت الي الفتاة ، ذات الرأس الشبيه بالقارورة • التهمتني بنظراتها ، كما الشمس تلتهم الماء • من جديد ، جاء البائع المتجول ، المهزول ، القذر وغير الحليق • فما قال شيئاً ولا باع شيئاً ، وانصرف • ان هذا النموذج من الناس ، أتمنى ، لفرط ماهو مضحك ، أن أدعه يموت جوعاً ، لا لشيء ، الا لأني أود أن أسري عن نفسي • فلعله قطع على نفسه عهداً ، بالدخول دوماً ؛ بهذه القذارة ، الى الحانات ذاتها ، دون أن يقول شيئاً أو يبيع شيئاً •

بعد ذلك ، في وسط الانتباه الشامل ، يقبض شارلو على برغوث • ويصفقون للوفلر ، فتطن الذبابة ، ويصوت المصران المقلي • أظن أني أنجزت عرض كل برنامج المحل •

رغم هذا ، فقد طرأ شيء جديد • ذلك أن شارلو نادى لوفلر : ـ ما رأيك لو نقلد الخنانيص(١) ؟ تصفيق • قام الاثنان بتقليد الخنانيص • فوضع الاثنان قبضتيهما تحت غطاء الطاولة ، وهما متقابلان ، وأخذا يحركانها كثيراً على نحو متقن ، حتى ليخيل الى المرء ، أن ثمة خنازير حقاً ، في كيس واحد ، وأخذا في الوقت نفسه ، ينغران بطريقة ، جد طبيعية ، حتى صار المشهد تاماً • كنت لا أبصر الا وجه شارلو • وكان في تقليد الخنوص سعيداً ، حتى كانت عيناه تلتمعان من البهجة •

★ ★ ★

أعتقد ، أني ما درست اليوم ، كما ينبغي •

في هذه الليلة ، ثارت عاصفة رهيبة ، وفي الصباح ، كان الجو عبقاً بالشذى • فهبطت الى الحديقة ، بكتابي ، ولم يكن فيها أحد •

رغم ذلك ، كان فيها انسان • ولم يكن هذا سوى جوزيف • سالقيه خارجاً ، ويقضى الأمر ،

(١) الخنوص : الخنزير الصغير •

على أكمل وجه • أرأيت ، ياجوزيف ، فقدت الاثني عشر كرويتزر ، التي كانت معك • قلت لـه ذلك ، وملست شعره • فرنا الي الصغير ثم ضحك ضحكة ماكرة •

ـ كلا ، استرجعتها من والدي ! ـ آه ، جيد جداً ، وماذا تنوي أن تفعل بها ؟ ـ أنا أعرف، ولكن ، الا تحكي لأحد ؟ ـ أنت تعرف أني لا أحكي لأحد •

ـ وعدني فريديريك الصغير ، أن يطلعني على أرقام النمر الرابحة ، عند سحب اليانصيب •

ـ ومن هو فريديريك الصغير ؟ ـ هو ابن المرأة ، التي تسحب دائما في اليانصيب • رجوته كثيراً ، ثم وعدته بستة كرويتزر ، وسيقول لي ، الآن ، الارقام التي ستربح • يا للسذاجةالطفلية اللذيذة! وما تنوي أن تصنع ، بهذا المال كله ، بعد أن تربح ؟ ـ أوه ، لن أفعل شيئاً عظيماً ، سأبتاع لأبي جعة ، وأبتاع لأمي ثوباً مزيناً بخيوط ذهبية ، ولك أيضاً ، سأبتاع شيئاً ما • ان جوزيف ولد طيب القلب •

★ ★ ★

جوزيف ولد ماكر ! وانى لأتميز غيظاً • حين أخذ الحر يشتد ، رجعت الى غرفتي • كنت أشعر أني على أحسن حال ••• آه ، يا للماكر ! فقد جلست ، وفيما أنا أستعرض في ذهني ، كل مادرسته ، تحت في الحديقة ، أخذت أتطلع الى غرفتي بصورة آلية • على حين غرة ، استقر نظري على لوحتي التي هي من رسم نافراتيل : البحر في وهج الشمس • فما بقي من وهج الشمس شيء : لا شيء ، سوى غيوم وسماء داكنة ! اقتربت فاذا باللوحة مغطاة بكتل من الطين ، واذا بالجدار ، فيما حولها ، شبيه بها • مما لا جدال فيه ، ان جوزيف ، كان قد قذف الطين ، في أنبوب من خشب!

فحملت اللوحة وقصدت الى الرسام ، أشكو له • غضب الرسام • وعوقب جوزيف بالضرب ، دون شفقة ، أمـام عيني • كنت أرنـو الى هـذا المشهد بتلذذ يبـدو أن الرسـام سيعمد الى اصلاح اللوحة •

★ ★ ★

لا مناص من القضاء على هذا الكسل ! فالكسل وحده ، هو الذي حدا بي الى طلب قهوة ، من المقهى بعد الغداء ، وذلك ، كي أجنب نفسي عناء القيام بصنعها ، أما الآن ، فيجب علي أن أهيىء بنفسي قهوة جديدة ، لأتخلص من طعم الاولى •

★ ★ ★

عدت اليوم من جديد ، الى العمل ، بشكل رديء • سمعت صليل سيف ، في المطبخ • ترى ، أيحق لمراقبي الخطوط الحديدية ، أن يحملوا سيفا ؟

★ ★ ★

دعيت لأسال ، ان كنت ، لا أنوي النزول الى الحديقة ، في هذا اليوم ، اذ يبدو انهم يريدون، من جديد ، أن يلعبوا لعبة الستة •

فلم أجب • ولن أذهب • سمعتهم يتناقشون في الأسفل ، انهم يتساءلون ان كنت في غرفتي • فانرسام يؤكد ، أني فيها ــ انتظروا ، ساغني أغنيــة ، لأخرجه ، بهذا وعدهم بروفازنيك • ثم وقف تحت نافذتي المطلة على الحديقة ، وراح ينشد بصوت كئيب :

« أنت تتساءل لماذا
لا أضع في قربتي لبناً ،
مهلاً ، ساخبرك لماذا
ساخبرك ، على الفور ••• »

واغرق في ضحك خانق وأصاخ بسمعه • ثم قرر : ــ ليس هنا ، لو كان هنا ، لسحبه صوتي، كما تسحَب السدادة من القارورة •

★ ★ ★

الا أني ، لم أتمالك نفسي طويلا ، بل نزلت عقب ذلك بقليل •

كان الحديث عن العاصفة • أكدت لنا زوجة الرسام ، عشر مرات متعاقبة وبرصانة فائقة ، ان ليس من يصدق ، كيف خافت من العاصفة • وأيد الرسام ذلك بقوله : ــ امرأتي ، تخاف العاصفة خوفاً جنونياً • فتحتم علي ، هذه الليلة ، أن أوقظ الخادمة في المطبخ ؛ كان من الواجب عليها ، أن تنهض وأن تجثو على ركبتيها وتصلي • نعم ، والا فلأي شيء ، نحن نستخدمها ؟ بيد ان الشقية غفت ! فطردتها هذا الصباح • وقال بروفازنيك ، ان تلاوة صلاة ، قد يكون أحياناً ، عسيراً • أنا لا أعرف من الصلوات ، الا عشراً ، ولكن ، كلما شرعت ، في تلاوة احداها ، أخطىء ، فاعيدها من أولها • وزعمت زوجة الرسام ، أنها تعلم كلما هبت الريح ، ان هناك شخصاً سيشنق! وحدث في هذا الصباح ، أن بائع الحليب ، أكد لها ، أن أحد المتقاعدين ، من مدينة (هزيفدا) ، قد شنق نفسه • ــ هذا منتحر آخر ! واذا بروفازنيك ، الذي لم يكن منتبها الى الحديث ، يسأل : هذا المنتحر ، تراه من قتل من الناس ؟ قولوا لي ذلك ، وأنا أعرف عندئذ من هو المنتحر !

فسألت ابنة المالك ، ان كانت هي أيضاً ، تخاف العاصفة • ــ أنا لـم أدر حتى بوجود عاصفة ، كنت نائمة • كان لرنة ضحكتها ، وقع عذب على أذني • كانت الفتاة تقوم بتنظيف قفص كبير ، طلي حديثاً • كان هذا القفص على شكل حصن قديم ، له جسر قلاب وأبراج وشقوق مستطيلة• هل أرى أن هذا القفص يصلح للكنار ؟ فاجبتها انه يصلح دون ريب • واندفعت أقارن بين الكناري وقصور القرون الوسطى ، الخ ••• كان ذلك في منتهى السخافة ! ان الله وحده عليم ، كيف يحدث

هذا ، لأن الحديث مع الآخرين ومع النساء الذكيات ، لعبة صبيانية بالنسبة الي ، أما هنا ، مع هذه الصبية البسيطة ، فلم أعد أصلح لاي حديث • ترى ، كم تبلغ من العمر ؟ حين تضحك ، تبدو في التاسعة عشرة ، أما حين تتسم هيئتها بالجد ، فتبدو كانها في الثلاثين ••• لقد حرت في معرفة الحقيقة !

كان بروفازنيك الى جانبي ، يحاول أن يبرهن للرسام ، أنه اذا ما رسم وجهاً ، فينبغي له ، أن يسعى الى ايجاد بعض الشبه ، على الاقل ، فهذا ، حسب رأيه ، ضمن الموضوع أيضاً • يبدو أن الجمهور لا يدرك الفن الحقيقي وانه يطالب بهذه السخافات • فالوجوه ، في (فيينا) ، ترسم الآن ، كما يبدو على اسطوانة ؛ وهذا ما يعتبر نجاحا فائقا ، فاللوحة تخربش في ربع ساعة • أخذ الرسام ينقر على ظهر بروفازنيك فصمت هذا •

جاء المالك ووزع قصاصات من الورق • انه يحاول أن يتكلم بصوت ضعيف • وبعد برهة ، جرني بروفازنيك الى ناحية منعزلة • وقال ان لا أحد يعمل شيئاً لصالح شعب براغ المسكين ، لاشيء البتة • يظهر انهم يقضون وقتهم في ترديد أقوالهم ؛ هذا الشعب المسكين ! ليس له عمل ! رغم ذلك لا يعملون لصالحه شيئاً • أما هو بروفازنيك ، فيبدو انه يحسن تدبير الأمور • هو مثلا ، تراوده فكرة ، فلا يدعي انها فكرة رائعة ، ولكنه ، يستطيع ، على الاقل ، أن يأخذ بنصرة كثير من المساكين ، مع أن تحقيق فكرته ، لا يتطلب مالا كثيراً ، ويكفي أن تركز على عربة تجر بالايدي مرجلا صغيراً ، يتصاعد منه البخار بصورة مستمرة • بهذه الوسيلة يتم التنقل من بيت الى بيت ، لتنظيف مجاري الفلاحين ، بواسطة البخار ، ولو أحصينا عدد المدخنين ، في براغ ، لأدركنا مقدار الربح الأكيد • فما رأيي ، بهذه الفكرة ؟ لم أستطع الا الاعجاب بها •

لعبة الستة مرة أخرى • انقسمنا الى فريقين ، شأننا في الليلـة البارحة ، حسب العادة ، كما يبدو • وتم كل شيء ، كما في الامس ، ولكنني خسرت اليوم • سبعين كرويتزر • وفي نهاية اللعبة ، عاد المالك الى عياطه •

ابتعد المالك وابنته واتخذ الرسام وزوجة الرسام مظهر التفكير • ـ غـداً ، يوم الأحد ، قال الرسام أخيراً ، حسناً ، ألا تدرين ؟ ستشترين أوزة !

★ ★ ★

كليكس يتحرق غضباً • هو عضو في هيئة فرسان مدينة براغ ؛ اليوم ،توفي قائدهم ؛ فعقدوا اجتماعاً ، للتداول بشأن الدفن : اقترح كليكس ارسال برقية الى (فيينا) يلتمس فيها : ترقية المتوفى الى رتبة عقيد بعد الوفاة ، ليصبح في مقدورهم ، اذ ذاك ، أن يقيموا ماتماً ، أجمل بكثير•

وحدث ان كان هناك ، في الاجتماع ، من هو أخبث منه ، فاجهض الفكرة وسفهها ، وكليكس يتميز الآن غيظاً ، الى ان لزم الصمت أخيرا •

ظل النقاش حول الموت سجالا • البقال في الساحة فقد أحد ذويه • من هذا ؟ ـ هو أبوه ، لا أكثر ، ولكنه لشدة كبره في السن ، كان يخجل من نفسه • هذا ما قاله صاحب المقهى • فسأله سائل : ـ من أي شيء مات ؟ ـ مات من مرض السل ، كما مات أبوه من قبل • يبدو ان نهاية بعض الأسر مكتوبة سلفاً •

البائع المتجول ••• أنا واثق ان هذا المخلوق ثابت على عهده •

★ ★ ★

حقاً ، ان هذه الحال ، لا يمكن أن تظل على هذا المنوال • أهذه دراسة ؟ أني أتقدم كالحلزون، وفكري شارد ، تائه • ما من أحد يزعجني ، وان زعمت ذلك ، فهو محض كذب ولكني مشتت الفكر• ففي مخيلتي ، أناس يروحون ويغدون ، انهم جيراني ، واني لأراهم فجأة يتجمهرون كلهم معاً ، واذا بأحدهم تارة ، وبالآخر طوراً ، ينفصل عن الجمهرة ، فيتقلب تحت نظري ثم يتحدث ويكشر على طريقته • يجب أن تتبدل الحال ، حقاً ! انني ما انتقلت الى مالا ستراننا ، لأنخرط بين هؤلاء الناس•

★ ★ ★

الساعة الحادية عشرة • سمعت صليل سيف في المطبخ ؛ هذا العسكري ، لا بد أن يكون أحد أقرباء مؤجرتي • لعله فارس •

★ ★ ★

عويل وصرخات حادة ، ترسلها زوجة الرسام ؛ صرخات أليمة وتنهدات ونباح كلب الرسام • فهمت أن الكلب قد اقترف اثماً رهيباً : فقد التهم حافظة نقود زوجة الرسام ، بكل مافيها من ذكريات عائلية : شعرات المرحوم ، والد السيدة أوغستا ، وصك الزواج والله أعلم بما فيها أيضاً•

★ ★ ★

ساد بيت الرسام هدوء نسبي ، دام نصف ساعة ، ثم عادت الضوضاء من جديد ، لعل الرسام عائد من الحانة • سمعته يتكلم بصوت قوي ، ويقذف الشتائم ، وأخيراً ، راح يزأر ، فتدوي البناية كلها بصيحاته : ـ قلت لك ، ياشقية ان كبد الأوزة ، هو حق شرعي لرب الأسرة ! الناس كلهم يقرون بذلك ، أيتها القبيحة ! خرج الرسام عن طوره ، فجاء الى النافذة • فطويت جسمي بشدة ، لأختبيء تحت طرف النافذة • بعد فترة ، سمعت : ـ ياسيد سامبر ، أمصيب أنا أم لا ، أليست

كبد الاوزة ، حقا شرعية لرب الأسرة ؟ لم أسمع صوت سامبر ، فعاد الرسام الى صياحه ، مرة أخرى • ــ حسناً ، أنت ترى •••

ان زوجته اقلمت على طبخ الكبد وازدرادها ، كي تفرج عن نفسـها وتسلو فقد ذكرياتها العائليــة •

ظلت الجلبة والمخاصمة قائمتين على قدم وساق ، قبالتي • بيد أن صوت الرسام ، ما لبث أن انفصل عن هذه المعمعة : ــ وورقتا العشرة فلوران ، هل ابتلعهما أيضاً ؟ فماذا ناكل الآن ؟

★ ★ ★

ان بعد الظهر في هذا اليوم رائع وهادىء • هدوء كنسي يرتع فيه المرء بنعمة الراحة • لم أستطع تمالك نفسي ، فنزلت الى الحديقة ؛ انها مقفرة ، يرين عليها سكون ممتع • أخذت أروح وأغدو ، كما أشاء ، أقف عند كل عوسجة وعند كل نبتة ، وبدا لي كل شيء متوجاً بغبار طلعرباني • أحسست ، على حين غرة ، سعادة غامرة ، ومسرة فائقة ، وددت لو أقفز كطفل ، لو لم أكن معرضة للانظار من النوافذ ، فالنسيم رخي ، مع هذا ، في وسع المرء ، أن يسمع ، كما لو كان ، ثمة ، عالم قصي ، جد قصي ، مفعم بهمس سحري • ولجت احلى العرائش ، وأخذتاقفز••• ما أكثر ما أشعر براحة !••• نعم !•

مضيت من عريش الى آخر • رنوت وفكرت ••• تصورت هنا ، أسرة وهناك أسرة أخرى ، وجميع أعضاء هذه الأسر ، بكل مزاياهم وكل نقائصهم ••• فعمرت وجهي ابتسامة مشرقة ، اني لسعيد جــداً •

السنطير ! هذا السنطير العجوز ، ذو الصوت الخائر ، العتيق • ما أكثر ما تستطيع هــذه الآلة ، أن تروي ! بقربها ، كم من ضحكات جلجلت ، وكم من آهات نفثت بقربها ، كم من مرة ، سبح الفكر في عوالم من السحر الحلال !

جلست أمام السنطير وفتحته • خمسة أوتار ! يا للسنطير المسكين ! حينكنت أعزف عــلى البيانو ••• آه ، ما أكثر ، ما تقادم العهد ! كنت لا أتوق الى الدراسة ، وكان أستاذي مهملا ، لا يداوم بانتظام ، الا في أول كل شهر ••• آه ، يالعهد الشباب ، ذلك العهد الذهبي ! ورحت أتيه في عالم الاحلام •

لا بد لي من تذكر شيء ما ••• بعض الالحان ، على الاقل ••• دو ••• مي ••• لا ••• لا بأس ! لا ••• ري ••• فا •••

ــ ولكن الدكتور يعزف على البيانو ••• حسن هذا ! فجاة ، سمعت صوت الرسام • فتنبهت

مرتعشا ••• أحسست أن كـل رواد حدائق بلادي واقفون ورائي • فاقشعر بـدني ، ولبثت في مكاني مصعوقا •

ـ اعزف لنا شيئا ، يادكتور ، أرجوك ، قالت الآنسة أوتيلي مغردة •

ـ ولكني لا أجيد شيئا ، يا آنسة ، حقا ، لا أجيد شيئا ، البتة ! في حياتي ، كلهـــا ، ما مددت يدي الى البيانو ••• عزفت على الكمان ، هذا صحيح •••

ـ ولكن هذا ، هو أكثر امتاعا ، لقد سمعت ايقاعات صافية ••• انك تستطيع ، صدقني ، ارجوك • وعقدت أصابعها في وقفة توسل • في هذه اللحظة ، كانت تبدو في التاسعةعشرةمن العمر•

الشيطان يعلم لماذا اهرب من السنطير ، بكل ما أملك من قوة ! فالانسان مخلوق مزهو بنفسه، وهذا مايجعله مضحكا • ـ حقا ، لا افقه شيئا ، يا آنسة ، واني لمقنعك باني لا افقه شيئا ، على ان لا تهزئي بي ؟ تذكرت اني كنت اعرف ، فيما سلف من الزمن ، نشيد (نورما) ، ولقد عزفته، منذ سنوات خلت ، كنت أجيده ، فلا بد لي اذن ، من معرفة نشيد (نورما) ! فاللحن الاول ، كان هو نفسه على الكمان وعلى السنطير معا • سي سول مي ••• اللحن الاول فقط ، فوضعتأصابعي على سي سول مي وبدأت • ما ان وصلت الى الايقاع العاشر ، حتى عجزت عن المتابعة •

ـ حقا انك لاتفقه شيئا • قال بروفازنيك بصوت أجش •

ـ كانما هو ينشر خشبة • غمغم المالك • فاحسست عرق الخجل يسيل علي •

ـ ولكنه بديع • قالت ابنة المالك ، بصوت ينم عن تاثر محموم • ـ الدكتور لم يعزف أبدآ على البيانو ، ورغم ذلك ، استطاع أن يعزف ••• فالدكتور ، لابـد انه يتمتع بميـل عجيب الى الموسيقا • كان بودي لو أضمها بين ذراعي ، فهي ذات قلب طيب جدآ ! ـ منذ زمن طويل وأنا أعرف أن الدكتور ، يتمتع بموهبة بارزة • فهو يجيد الصفير ••• دكتور ، لقد صفرت الترافياتا ، هذا الصباح ، ولقد سمعتك تصفر •

ما مـن شيء يفوتها ! يا للفضول النسائي ! عـلى أن لا تكون ••• كلا ، لا أصدق ••• يا يسوع بن مريم !

ولكن •• بالضبط ، لماذا اقول ، يا يسوع بن مريم ؟ فانا لا أدعي ،اني راغب فيها ، الا أن المصيبة ، أن تكون بالضبط •••

ـ مهلا ، ساعزف لكم من مقطوعاتي ، أنشودة دون كلمات ، قال المالك متدخلا ، وهو يجلس أمام السنطير •••

وعزف • ماهي الا لحظات ، حتى توقف ، ولم يتمكن من المتابعة هو أيضاً ••• دائماً ، ابتداء من الظهر ! مع ذلك ، صفقت له • أما بروفازنيك ، فقد كشر : ـ انها ، رغم كل شيء انشودة حلوة ! تصلح تماماً لمن يشاء أن يتسول !

أقبلت زوجة الرسام • كانت قد انصرفت ، لتبحث عن جوزيف ، وما لبثت أن عثرت عليه ، في حديقة مطعم مجاور ، قرب ملعب الأساطين ؛ وكان قد وهب الولد ، الذي يقوم بجمع الأساطين كرويتزرين ، كي يمنحه الولد حق الصياح ، معلناً عن عدد الأساطين التي تنقلب ، في كل مرة • كان جوزيف ، في هذه الاثناء ، يجني ، علناً ، صفعات رنانة ، غزيرة ، ويتلقى فوق ذلك كله ، شتائم أمه • كانت زوجة الرسام لا تستطيع أن تزازي • لقد أعجبت بقدرة الكلب الكلب الوقائية ! ـ والآن ستلزم البيت ، ولن تغادره ، فيد انملة ! اذهب الآن واتتني بالصغيرة • فابتعد جوزيف بفتور •

ما هي الا لحظة حتى دوى في أرجاء البناية كلها ، صراخ ولد • ثم ظهر جوزيف على الدرج يحمل طفلة ••• كان يحملها من رقبتها بيديه الاثنتين ، كما يحمل كلب صغير • لم تعد الطفلة قادرة على الصراخ ، لأن وجهها ، غدا شديد الزرقة • فاندفعت زوجة الرسام وأمسكت الطفلة وصفعت جوزيف •

كان الرسام أيضاً ، معكر المزاج ، في هذا اليوم ، أما السبب ، فهو معروف ! لقد قضى الوقت في التنمر ، والتشكي ، من أن فنه ، لا يدر عليه إلا ربحاً ضئيلا • فساله بروفازنيك : ـ اذن لماذا لا تنصرف الى الحفر على الخشب ، أو النحت على الحجارة ! فما زلت شاباً ، وفي مقدورك أن تتعلم•

ـ كيف ، حفّار على الخشب ! ولكن الحفارين لا يكسبون ما يسد رمقهم ، في الظروف الراهنة• لم يعد أمامهم ، الا أن يصنعوا سفافيد لشك المصارين المحشوة وعليها شعار أيضا !

ظللت مع ابنة المالك في ناحية منزوية • جلسنا ، تحت عريش ورحنا نثرثر • لقد تبيّن لي ، أنني في الواقع ، أحتكر الحديث كله • شيء غريب ، فانا اليوم ، أجدني ، متكلماً ، لا ارتبك ، في العثور على ما أتكلم عنه ، بيد أني ، أتكلم دوماً ، تقريبة ، عن نفسي ، عن شخصي ، لا باس؛ فالمرء يستطيع هكذا ، أن يتكلم بشيء من العمق ، وعن شيء يعرفه•وتبيّن لي أن اوتيلي معجبةبي• فهي ، لا تدع سانحة تمر ، الا وتلفت أنظاري الى احدى مواهبي ، أو الى احدى مناقبي • فهي متيقظة الفكر •

يالها من امرأة لطيفة !

★ ★ ★

كان كليكس قد اتصل مساءً بسامبر ، كان يحدثه بلجاجة ملموسة • كان ظاهراً ، ان سامبر يصغي اليه بانتباه لم يعهد به من قبل • فادركت أن كليكس ، يحاول اقناعه كي يتزوج ، مرة ثانية ، فان لديه خطيبة له • ـ عمرها ستة وعشرون عاما ••• ثروتها ثلاثة آلاف فلوران ••• تتصل باكابر القوم وهي اثيرة لديهم •• فهل يقيض لي أن أحضر عرساً ؟

الملازم نظر الي اليوم نظرات وقحة • التفت عشرين مرة ، على الاقل ، لينظر الي • ترى ماذا يريد مني ؟

★ ★ ★

اني أعمل ولكن بشكل غريب • اني ، منذ الصباح ، أشعر بحافز يحثني على المضي الى الحديقة والجلوس فيها ، وحيداً أو مع الآخرين ، سيّان عندي • ان أفكاري مشتتة ، مثل ••• (لا أعرف ، مرة أخرى ، مثل أي شيء هي مشتتة) •

★ ★ ★

آي ، آي ، آي ••• اليوم ، الرسام حانق من الصباح الباكر ••• يا للضوضاء ! قد اتضح لي أنه ضرب (١) زوجته (٢) جوزيف (٣) الكلب • والكلب مازال ينتحب •

جاء الرسام لمقابلتي ••• هل لدي ورقة جميلة ، ليكتب عليها رسالة • لا مفر من الكتابة الى أخيه ، الكاهن ، وليس لديه في البيت ، ماهو بحاجة اليه • انه لا يحب الكتابة ، كما يبدو ، لا يحبها أبداً ! فهناك من الناس ، من يرون في الكتابة ، ضرباً من الموت • أما اذا وجب عليـه أن يكتب ، فانه يريد هدوءاً ، والا ، فلن تاتيه الافكار الصائبة • ـ أما توفير الهدوء عندي ، يادكتور، عندي في هذا الجحيم ! يتحتم علي ، أن أشرع في فرض النظام ••• لقد ضربت الجميع ، وان لم يكفوا ، فوالله لأضربنهم ، مرة أخرى ••• ولقد طردت الخادمة ، لأن لسانها كرحى الطاحون •

هذه هي الخادمة الرابعة ، منذ سكني هنا

أعطيته ورقة ، فانصرف • وماهي الا لحظات ، حتى أقبل جوزيف مُعولا ، فقد بعث به أبوه ، يسالني ، ان كان عندي ريشة حسنة • فاعطيته ريشة •

الرسام يذرع غرفته جيئة وذهوبا ، أعتقد انه يفكر •

★ ★ ★

كنت عند البقال المجاور • صرت اذا ما احتجت' الى شيء ما ، أفضل الذهاب بنفسي ، لآتي به • وفيما أنا راجع ، صادفت عرضاً ، أمام البيت تماماً ، أحد أصدقائي المقربين ، الدكتور جنسن، رئيس أطباء مستشفى المجاذيب • كان يمشي الهوينى ، ويتطلع الى ماحوله ، في الشارع •

ـ دكتور ، ماذا تفعل أنت هنا ؟

ـ اني هنا ، عرضاً ، أتمشى أوثر التمشي في مالا سترانا • وأنت ؟

ـ أنا أقطن هنا الآن • كنت قد انتقلت من مدة غير بعيدة •

ـ وأين ؟

ـ هنا ، أمامك •

ـ حسناً ، أحب' أن ألقي نظرة على مسكنك ، لو سمحت •

لقد أحببت الدكتور جنسن محبة فائقة ، فهو انسان ذكي ، هادىء ، لطيف • فاعجب بمسكني، تفحص كل شيء ، وأبدى ملاحظاته على كل شيء • طلبت منه أن يجلس ، فأبى ؛ انه يؤثر البقاء واقفاً ، كما يبدو ، وقال ان التطلع من النافذة ، جميل في هذا الوقت • جلس قرب النافذة ، وظهره الى الحديقة ، ووجهه الى مجاز الطابق الاول • في غرفتي مرآة على الجدار ، بجانب النافذة تماماً ، فاتضح لي ، أن الدكتور جنسن ، يديم النظر الى هذه المرآة ••• وتراءى لي ، أن الدكتور، مزهو بعض الزهو بقامته ، رغم كل ما يتسم به من مظاهر الرصانة • سالني كيف جئت الى هنا ، الى مالا سترانا ؟ فاجبته أني جئت آملا أن أشتغل في هدوء ، وأضفت أني ضللت السبيل قليلا ، فسكان هذا البيت أقل الناس هدوءاً ! أراد أن يعلم أي نـوع من الناس يسكنون هنا • فبدأت أتحدث عن بروفازنيك • إن بروفازنيك قد يستثير اهتمامه ، مادام مختصاً بالأمور النفسية • فتحدثت عى نحو حي ، ووصفته على شكل مفصل ، ولكني تاكدت أن بروفازنيك • لا يثير اهتمامه • فهو ينظر الى المرآة • وعلى حين غرة ، ارتعش وانحنى الى خارج النافذة • سالني ، ان كانت ابنة المالك، هي ، التي تسير هناك ، في المجاز • فاعترتني الدهشة ، وسالته بدوري ان كان يعرفها • فاجابني انه يعرف هذه الأسرة ، منذ عهد بعيد • فدار على لساني سؤال غريب ، ولكني ترددت ••• لقد جالت بذهني تصرفات المالك الغريبة ، بل المؤثرة أحياناً ، وانتهى بي الأمر ، أخيراً ، ان طرحت سؤالي بصوت عي ، متلعثم • فابتسم الدكتور : ـ كلا ، كلا ! كل مافيه ، أنه سوداوي ، غير أن سوداويته تسبب له عذابة ممضا • فأنا أعرف هؤلاء ، منذ طفولتي تقريباً ، كانت أمي صديقة لهم • الا ان وجه الغرابة ، أن تظل أوتيلي ، غير متزوجة ، حتى الآن ! فهي جميلـة ، لا بأس بجمالها ، وهي جد لطيفة ، وقد أنشئت لتكون ربة بيت وهي ذات ثروة • فالأسرة ليست معسرة

وفي حوزتها أموال طائلة • لمن المؤسف أن تظل هذه الفتاة مهملة ، مع أنها نصيب رائع ! ولكنه ما زال ••• ها هو ينحني على النافذة ويبتسم ويلوح بيده •

آه ، انه لم يكن اذن ، يتمشى عرضاً ! فانا الذي صادفته في الوقت الذي يتمناه ! أثار في الدكتور جنسن فجاة ، ضرباً من الاشمئزاز •

واستاذن بعد برهة ، وقد وعدني ، أن يرجع ، اذا ما مر عرضاً ، بقرب مسكني • لا مجال لعودته • أعتقد أني لم أكلف نفسي عناء اجابته اجابة مهذبة •

★ ★ ★

هو عازب مثلي تماماً ! كلا ••• ليس هو مثلي حقاً ••• فانا لا أضمر في مخيلتي أيـة فكرة ••• ولكن مع ذلك ، بالطبـع ، اذا ما بدأ محام شاب عمله بقدر من المال ، حسناً ••• ما جدوى كل هذه الافكار الحمقاء ••• والآن !

★ ★ ★

أظن أن نيرودا على حق ، حين يؤكد اننا معشر الرجال ، نغار على سائر النسوة ،حتى اللواتي لا يثرن فينا أي اهتمام •

الرسام قبالتي ، يتمشى في غرفته ، جيئة وذهوبا • لا ريب انه يفكر •

★ ★ ★

حلت بي كارثة أثناء الغداء • ان أسـرة كاملة من الذباب ، كانت تستحم في حسائي • وقد ابتلعتُ الاب والأم وأنا شارد الذهن ؛ أما أجنة الذباب ، فما زالت عائمة ، وهذا ماضقتُ به ذرعا • فانا آكل الذباب ، وجوزيف ياكل الرسائل والكلب ياكل الذكريات العائلية ••• والله أعلم بما ياكل أيضاً كل من يقيم في هذه البناية !

★ ★ ★

أنا أعرف ما هو ! كنتُ عرضاً في النافذة ، حين تناهى الى سمعي ، صليل سيف • انحنيت الى الخارج فابصرت الملازم السمين ، ملازم المقهى ! ذاك هـو الذي ، كنت في مذكراتي ، قـد عاهدتُ نفسي ، على طرده الى الشارع •

أهو أحد أقرباء مؤجرتي ؟

★ ★ ★

سهرة في الحديقة • أسرّ بروفازنيك في أذني ، بكثير من البهجة ، انه لأول مرة ، يتأكد له ، ان السيدة الصغيرة المجاورة ، ذات عينين حمراوين • ان بروفازنيك ، آثار الآن ، فيّ الاشمئزاز • لقد سأل المالك ان كان ، اليوم ، قد حضر ماتم العقيد في هيئة فرسان مدينة براغ • ـ كلا ! أنا لا أحضر المآتم ••• ما حضرت أي ماتم ، منذ وفاة والدي • فقد أنشِدَتْ الأناشيد ، أمام النعش وكان المنشدون يخطئون في إنشادهم•كان اللحن خطأ ، خطأً جسيماً ، مازال حتى اليوم ، يلاحقني في كل لحظة من حياتي ! أليس هذا شعرياً ؟

لقد أقبل الرسام • وجهه الدموي اللون ، حافل بكل ما يخلفه التفكير العميق من آثـار • فسألته : ـ هل أنجزت الرسالة ؟ ـ كلا ، لن تنتهي قبل غد • الظروف في بيتي ، لا تساعد على السرعة • فسأله بروفانيك • ـ أنت تريد من أخيك ، الكاهن ، أن يبعث اليك ببضع مئات من الفلوران ، أليس كذلك ؟

ـ انك تريد أن تمزح ، بضع مئات من الفلوران ••• ليست هذه الترهة ، هي التي تساعد على التخلص من الضنك في هذه الأيام العصيبة ! فاجاب بروفازنيك وقد تكلف الاستياء ـ آه ، آه ، ما هذا الا لأنكم عديمو التفكير ! أما أنا ، فببضع مئات من الفلوران ، أعرف كيف أعيش ! انها كسب بنظري ! فاستاجر أرضاً قريبة من براغ وأزرعها ••• أتعرف ما أزرعها ؟ لا شيء ، الا شوك الدواب !! واني لأراهن ، أني سأقع على صياد ، يستاجر مني هذا الحقل ، للقبض على الحساسين ، وان لم أجد ، فاني ساصيدها بنفسي•

ـ اياك أن تنسى التصوينة بجدار ! ـ لماذا ؟

ـ بسبب مجاري الهواء ، حتى لا تصاب حساسيتك بالروماتيزم ! لقد أصبح الرسـام من الظرفاء •

ان المالك اليوم ، كئيب كل الكآبة • فما وزع أوراقاً ، فثمة هموم تنتابه • ليخيل اليـه أنه سيفقد أنفه • اذ أنه طالع مقالاً لـ (فوكت) جاء فيه ، ان فقد الأنف يبدأ بزكام • وتذكر انه مصاب بزكام ، منذ بضعة أيام ، وهو الآن « مقتنع ان أحد منخريه بدأ يتصدع » ، ولكن ، ما دام الظهر قد فات ، فلم يعد يدري أية منهما •

كانت أوتيلي تنظر الى أبيها باكتئاب وتكاد تعجز عن امساك عبراتها • عدنا الى الجلوس في ناحية منعزلة ، تحت العريش ورحنا نثرثر • أما اليوم فقد تبدلت الحال • اليوم ، هي التي أمسكت بزمام الحديث ؛ انها تسري عن نفسها ، انها تبث همومها ••• أصغيت اليها وتاثرت بعض التاثر بما سمعت • وشعرت أن مواساتي لها تخفف عنها عبء الهموم •

لقد انصرفوا • وظللت وحيداً ، جالسة في الحديقة • ليس في مقدوري ، أن أمضي اليوم ، الى الحانة ، لا يساورني أي ميل لمجالسة الناس ، فما أنا ، أبداً ، في حالة طبيعية • انه الحنين وفي الوقت نفسه ، ضرب من الرغد •

★ ★ ★

استيقظت باكراً جداً ، أمس واليوم ، ربما كان ذلك ، بسبب من الحرارة • قد يكون هـذا مناسباً للعمل • ولكن ، حتى حين أستيقظ باكراً ، فاني لا أغادر الفراش • اني أشعر بارتياح وأنا متمدد على السرير ، وأفكاري تسبح كما تشاء ، فاذا ما عرضت لي فكرة مجنحة ، محببة ، في بحران هذا التهويم الماتع ، لا ألبث أن أستوقفها ، وأتابع مسيرة أحلامي •

لا أريد أن أكذب : هذه الافكار ، لا تمت' الى دروسي ، الا بصلة بعيدة • انني الآن ، أتابع دراسة قانون المناجم ، الذي تتردد عباراته الخارقة ، في كل مكان وفي كل ما أعمل • ان سريري يتحول الى حرز حريز ، استخرج منه أحلاماً ذهبية•فاذا ما رايتني الى جانب هذه الصغيرة أوتيلي ، فهذه الفكرة ترسم دائرة حولنا •••• انها لطريقة في الذود عن حقي في الحرز •

★ ★ ★

فطنت' الى أني كتبت : هذه الصغيرة أوتيلي ••• فحذار ، حذار !

في منزل الرسام ، صمت خارق • انه جالس الى طاولتـه ، ورأسه عـلى يـده ، ينظر الى السقف ويفكر •

★ ★ ★

أزف أوان فترة بعد الظهر ••• ها هو الدكتور جنسن ! انه يستعجل الأمور • لا أخالني جد لطيف معه ، وهذا لديه سيان • بل يخيل الي • انه لا يعيرني أي اهتمام •

ها هو من جديد ، عند النافذة ، أمام المرآة ، ما من مشهد ، أدعى الى الاكتئاب من رؤية رجل أمام مرآة •

لقد أبصر المالك وابنته يعبران الفناء ، ليتجها الى الحديقة ، فكلمهما من النافذة ، كلمهما بمودة فائقة • ان بعض الناس ، يسمحون لأنفسهم باستغلال أواصر قديمة ، لتجاوز جميع الحقوق• فالمالك وابنته دعواه الى الحديقة ، فرماني بنظرة متحدية : سنرى من منا ، نحن الاثنين ••• لا ، لن نرى ، البتـة ، شيئاً ، ما دمت' لا أريد شيئاً ! أنـا أشعر ، حقاً ، اني لا أريد شيئاً ، لا أريد شيأ بتاتاً !

★ ★ ★

الحديقة اليوم ، تبدلت تبدلا تاماً ، أراني ، وقد أصبحت فيها غريباً جداً • فهواؤها تغير ، وخلت' الناس تغيروا كذلك ، وان التفكير في الدكتور جنسن ، وحده ، يزعجني • وهو يتحدث عن أشياء ممتعة : وكما يقال ، ان كثيراً من الناس ، تؤهلهم سطحيتهم أن يتحدثوا عن كل شيء ، بطريقة ممتعة • واذا الجميع ، يغدون ، فجاة ، ما عدا بروفازنيك ، واذا هم يصيغون الى جنسن، كانما هو ينطق بما لا يعرفه الا الله • سيان لدي ، ان كنت لا أتكلم بطريقة » ممتعة • » •

بذلت محاولة فاشلة كي آخذ بزمام الحديث • سالت الرسام : ـ أما أنجزت الرسالة ؟ ـ سانجزها غداً ، لا بد من منحها قسطاً من الراحة ••• وسرعان ما عاد الى توجيه كلامه الى جنسن :ـ لا ريب أن حياتك مثيرة ، يادكتور؟ ـ كيف ذلك ؟ ـ لا ريب أن المرء يجد متعة بالغة في مستشفى المجانين • رجاء" هل لك ان تروي لنا بعض ما صادفت من نوادر ! هاأنا من جديد ، منزو وحيد ليت بروفازنيك يتقبل • ولكن ما عتمت أن لاحظت أن جنسن قد ارتبك قليلا • وهذا مدعاة سروري • فتفوه ببعض العبارات عن الفارق بين مجنون وسوداوي ، بيد أن هذا لا يثير اهتمام أحد ، أما ما يريده هؤلاء ، فهو معرفة أي من العظماء يحسب المجانين أنفسهم : فالرجال يظنون أنفسهم أباطرة والنساء مريم العذراء • ان جنسن لا يروي غليلهم ، فهو يتابع تقريره الطبي وينتهي أخيراً الى هذه الفكرة : كل انسان تقريباً ، مريض عقلياً ، بدرجة متفاوتة • هذه الفكرة أثارت الجميع • فالمالك طاطا رأسه في أناة وقال : ـ أكثر الناس ، وهم يتمتعون بصحتهم، لا يقدرون قيمة ما يملكون •

أخيراً ، استاذن جنسن للانصراف • سيعود قريباً ، كما يبدو • فقلت لنفسي : ولكن ، قبل فوات الاوان •

لم يظهر لبروفازنيك أي أثر في هذا اليوم •

بقي الحديث يدور حول جنسن ، ردحاً طويلا وطويلا جداً بعد انصرافه • وشوشتني أوتيلي انه يخيفني ! فاجبتها : ـ الرأي الطبيعي ، يكون أحياناً ، ممتعاً جداً •

★ ★ ★

كليكس ، لم يدع أمام سامبر فرصة للراحة • فمد صاحب الحانة رأسه ليسترق السمع عن كثب • فهو يغمغم وينظر الى كليكس ، كانه يود أن يلتهمه •

★ ★ ★

في الساعة التاسعة ، اقبل جنسن • القى نظرة خاطفة على الحديقة وعلى المجاز ، ونظر الى نفسه ، في هذه الفترة ،في المرآة ، ثلاث مرات على الاقل ، وفي كل مرة ، كان يطيل النظر • يريد

أن يعرف ، ان كان ثمة من يهبط الى الحديقة ، في ساعة مبكرة • فاجبته بايجاز : ـ كلا ! سالني أخيراً ، ان كان لا يسبب لي ازعاجاً ؟ فاجبته أنني في الواقع ، تاخرت كثيراً عن الانصراف الى الدراسة، على نحو جدي • فارتحل جنسن ، وهو على أكثر تقدير ، منقبض الصدر • هو وشانه

★ ★ ★

حوالي الظهر ، أرسل الرسام يسالني ، ان كان لدي مغلف للرسالة ، فاعيره اياه•انني الآن، أرنو اليـه من النافذة ؛ كانت زوجته وابنـه واقفين بجانب الطاولـة ، ينظران اليه ، وهـو يكتب العنوان •

★ ★ ★

الرسام مقبل مدبر في غرفته ، ممسكاً بيده الرسالة الموضوعة في المغلف ، متوقفاً بين حـين وآخر ، ليتفحص خريدة فكره • انها تشيع في نفسه الكبرياء !

★ ★ ★

كنت بعد الظهر ، أول من قصد الى الحديقة • كان يخيل الي ، ان دهراً ، لابد أن ينصرم قبل وصول الآخرين •

بعد ساعة نزل المالك مع أوتيلي • خضت واياه جدالاً سياسياً • ثم انتهى بسرعة الى هذه النتيجة : « الملوك ، لا يقنعون أبداً بما يملكون » • فوافقته بحرارة • ثـم أدلى ببعض العبارات المعهودة • وكنت ، في كل مرة ، أبدي اعجابي بها • وسرعان ما انشغل بجفنة العنب العذراء ، فرحت أحدث أوتيلي بلهجة ودية • علم الله كيف أفلحت ، فقد راحت فجاة ، تطري عفتي بحمية فائقة • وظلت تتابع الثناء على « عفتي » فاخذت تمطها وتشدها ، كما يمط الحذاء ويشد الجلد بملاقطه ، حتى يزيد منه ما يكفي لصنع زوج آخر من الأحذية ، لأحد أقربائنا • كيف أتيح لهذه الصبية ، أن تدرس عفتي ؟

الرسام وزوجة الرسام • الرسام بوجهه المطمئن بل الظافر وزوجة الرسام بلسانها القاطع كالسيف • ـ هل أنجزت الرسالة ؟ سالت الرسام فاجاب : ـ أوه ، طبعاً ، كان ذلك كان لعبة صبيانية وكان في وسعه كذلك ، أن يدبج مراسلات كاملة مع أوروبا كلها ، في مدة نصف نهار • ـ كان يجب عليك أن تكتب اليه كلمة عن السيدة فيلهيلموفا ، قالت زوجة الرسام ذلك وهي تنفجر ضاحكة • ـ فالكهنة يؤثرون هذه القصص • ما عساه أن يكتب عن مؤجرتي ؟ ـ علي أيضاً أن أكتب رسالة الى أخي المقيم في تارنوف • فنحن معشر الاخوة ، لا نتراسل الا مرتين في السنة ، تلك هي العادة • فلم يصغ اليه أحد ، بيد أن مؤجرتي ظلت مدار البحث • ثم تحدثوا عن الملازم،

يبدو أن مؤجرتي ، تطل دائمة برأسها ، لتطمئن الى قدوم الملازم • كانـوا يروون هذا ، بلهجة غريبة ، ويرنون الي بضحكة صاخبة • واذا ببصيص من النور يخترق دماغي فجاة : أمن أجل هذا كنت ، اذن ، غبياً ؟ فاخذني الغضب وقلت ما لست أذكره بالضبط •

ثم لعبنا ، نحن الثلاثة لعبة الستة • خلال اللعب ، صبرت على جميع ما ارتكبه المالك من أخطاء ، صبر الملائكة ، وأعطيته الحق في كل شيء • مددت رجلي تحت الطاولة ، عن قصد ، قرب رجله ، كي يرفه عن نفسه • فكان يدعس قدمي ، كما تدعسُ دواسة الأرغن •

اليوم أيضاً لم يات بروفازنيك •

★ ★ ★

لم يحدث لي أبداً ، مثل هذا الحادث المذهل •

مضيتُ لتناول العشاء عند صديقي موروزيك • هو يسكن في أقصى سميشوف ، فركبتُ عربة لتوصلني الى بيته • لبثنا في يسر ، نتجاذب أطراف الحديث ، حتى ساعة متاخرة من الليل ، ثم عدت أدراجي أمشي الهوينا • كان الليل ساحراً ، وكانت تعمر رأسي أفكار مجنحة • لـم يكن ثمة حي يرزق ••• وكان حوذي يغلبه النعاس ، يعود بحصانه الهزيل ، المرهق ؛ كان الحصان يجر أرجله جراً ، والعربة تتمايل في بطء مـع زقزقة الحديد ، كان صرير الدواليب المتواتر ، يثير في نفسي شعوراً بالارتياح • ما أن بلغت البنايتين القائمتين قبل بيتي حتى تجاوزتني العربة ، فرأيت الحوذي ينحني فوق مقعده ، قائلا لي : ــ ألا تركب ، ياسيدي ؟ تلك كانت عربتي نفسها• كنت قد سهوت عن دفع أجرة الذهاب كما سهوت عن صرفه ولبث الحوذي ينتظرني الليل بطوله • فكنتُ مكرهاً على تادية أجرة الانتظار ، لهذا الجرو الاشعر •

اني عاشق ، لا ريب في ذلك !

★ ★ ★

تخيلت هذا الاعلام في الصحف :

« الدكتور كروملوفسكي وخطيبته الكريمة ••• » فبنظر هؤلاء الناس ، ما من خطيبة ، الا وهي كريمة ••• ينبغي أن لا يشك أحد بشيء ، رغم أن •••

كل ما بيننا ، يجب أن يكون واضحاً !

★ ★ ★

مشهد طريف • مازلت أنتفض منه ! حتى أصبتُ من جرائه بالغثيان •

صليل سيف في الخارج • قرع بابي • ـ ادخل ! واذا بصف ضابط ، بثيابه العسكرية ، يدخل ، ليس هو بالملازم المعهود ، وهذا ما أدهشني فنهضت ورميت القادم بنظرة المستفسر • كان صف الضابط ، يلبس بزته الرسمية الجديدة وعمرته • فحيّاني •

ـ من فضلك ••• الدكتور كروملوفسكي ؟

أجبته بايماءة من رأسي •

ـ جئتُ من قبل الملازم ريباكي•وكان ريباكي هو الملازم السمين ، ملازم الحانةوملازم مؤجرتي•

ـ ماذا ترغب ؟

ـ ان الملازم قد اعتبر نفسه مهاناً ، بالعبارات التي تفوهت بها البارحة ، خلال حديث ، جرى هنا ، في هذه الحديقة نفسها ، يمس السيدة فيلهيلموفا ، التي يكن لها الملازم ، صديقها ، أسمى آيات الاكبار ، وقد عهد الملازم اليّ ، كي أطلب منك ، ترضية ، على نحو لائق ورسمي •

رفعتُ يدي الى جبيني وشخصتُ الى صف الضابط بعينين مدوّرتين • فكرت في سهرة الأمس وكنا قد تحدثنا عن أشياء كثيرة وقد تفوهتُ أنا كذلك بما لست أدري ، ولكني أتذكره حتى ولو تعرضت حياتي للهلاك •

انتظر صف الضـابط جوابي في هدوء ، فدنوت منـه ، وشعرت أني بـدأت أرتجف • ـ أرجوك ••• قد يكون ثمة خطأ ما ••• فمن ، تراه وشى بي الى الملازم ؟••

ـ لا أدري •••

لعله هذر ؟ هل لمؤجرتي أن تقدم على استراق السمع ، من نافذة غرفتي ؟ ربما مع الملازم ؟

ـ لقد تكلمنا أتذكر ذلك ، كيف ، أتراني ، قلتُ شيئاً ما ؟ أمـا الملازم ، فلا أعرفـه الا بالنظر •••

ـ هذا كله ، لا يعنيني • فانا ماجئت الا لطلب تسوية

ـ ولكن ما دمت أثبتُ لك ؟ فما عسى أن أقول عن الملازم ؟ فاني أكن احتراماً فائقاً للملازم•••

سبق ان قلتُ لك ، اني أنتظر جواباً واضحاً •••

ـ حسناً ، اذا كان الملازم ، استناداً الى مالا أدري من الهذر ، رأى أني أهنته ، فبلغه اذن رجائي بقبول اعتذاري …

ـ هذا لا يكفي .

ـ وماذا يريد اذن ؟ أيريد مني أن أتقدم أمام هؤلاء الناس …؟

ـ الملازم ريباكي يطلب تسوية بالسلاح . فهتفت : ـ الملازم ريباكي مجنون . فانا ما قاتلت أحداً قبل الآن ، ولن أقاتل أحداً …

ـ سأقوم بابلاغه ماشئت . حياني وصفق الباب .

فليذهب الى الشيطان .

كنت أتميز غيظاً ! مبارزة ، لستُ أهلا لأن أمسك سيفا . فانا دكتور في الحقوق ومحام مقبل ! وان المادة ٥٧ من قانون الجزاء ، تعتبر المبارزة من الجرائم وتنص المواد (١٥٨) حتى (١٦٥) على العقوبات وهي صريحة !

انهم مجانين ، فارّون من مأوى المجانين !

★ ★ ★

مضيت لمقابلة مؤجرتي وكنت قد سمعتها ، تروح وتغدو في المطبخ . كنت أهم بأن أوضح لها القضية بطيبة خاطر ، وأن أقول لها ما أقول بطيبة خاطر ، ولكنها قالت لي بهيئة غاضبة ، حاقدة : ـ عد وتسمّن في غرفتك ! وأدارت لي ظهرها وانصرفت الى غرفتها . لا بأس ، اني عائد لأتسمّن في غرفتي ! يالها من عبارة غريبة !

★ ★ ★

اليوم ، لم تعد الحديقة كسالف عهدها في الأيام الماضية . انني الآن ثائر الأعصاب ، وما بيدي حيلة .

بروفازنيك عاد الى ما بيننا ، من جديد . نظر الى الجمع ، كما ينظر البوم ، وقال لهم : ـ هيئتكم ، اليوم ، لا تبشر بخير !

كنت وأوتيلي تحت العريش . حدثتني نفسي بضرورة البدء بالمغازلة ، في هذا اليوم . فتأهبت ، ولكن الكلمات عصتني ، فلم أجد ما أقول ، غير المألوف . صرفت النظر عن هذا الأمر ، اليوم .

انضم الينا بروفازنيك • فرنا الينا ، فترة قصيرة ، ثم قال لي : ـ هل نويت أن تتزوج ، يا دكتــور ؟

سؤال مقيت ، أمضني • بيد أني ابتسمت ابتســامة مغتصبة وأجبت : ـ نعم ، يا سـيد بروفازنيك ، عزمت على الزواج • ـ انك على حق ، لا بدَّ أن يكون الزواج طريفاً ، فالأولاد تسلية، بل أشد امتاعاً من كلب لحام صغير •

ياله من مخلوق قذر !

اليوم ، كان الحديث بارداً ، سقيماً • ولم أبح ببنت شفة ، عن زيارة العسكري •

★ ★ ★

أف ، أف ! الشيطان هو الذي ساقني الى مالا سترانا •

حسناً ، لا بأس ! قبلت ! كان بوسعي أن أرفض ! ولو فعلت ، لما استطاع ، دون ريب ، أن يقدم على تنفيذ وعيده ، ولكن الدم ، حين يشرع بالغليان ، حتى في جسد حمل صغير ! انـه سيجرحني ، هذا مؤكد ، ولن أقوى بالتأكيد ، ان أرد عليه بشيء ! سألملم جرحي وألزم فراشي ، وفي امكان دروسي أن تنتظر بعض الوقت ، بل وقتاً طويلا ، حتى يُرفَع الحظر عني ويُسمَح لي بالمرافعة • بل لعل من الأفضل ، أن يقتلني !

صليل السيف من جديد • قُرع الباب ، ودخل صف الضابط ، الذي كان قد جاء بالأمس ، ببزته الرسمية • فحياني وأنباني أن الملازم ريباكي ، ليس في نيته ، أن يدع القضية تنتهي بهذا الشكل ، وانه لآخر مرة ، يطالب بتسوية ، بالسلاح • فحنقت بعض الحنق وأجبته ، أنني أمس ، قلت له ، كلا ، وأنني اليوم ، أقول له أيضاً : كلا ! فأجابني صف الضابط ، أنه آسف ، ولكن الملازم ، سينهال على وجهي ، بضربة من سوطه ، حالما يصادفني وأينما كنت • فانتفضت محتداً، وانتصبت في وجه صف الضابط •

ـ لا ، لن يفعل شيئاً ، أؤكد لك • ـ بل ، سـيفعل حتماً • وداعـا ! ـ تمهل ، وبأي سلاح ؟ ـ بالسيف !

حسناً ، قبلت • فرماني صف الضابط بنظرة استغراب ، ورددت ، وأنا أرتجف غضباً : ـ قبلت ! ولكن بشرطين : أولاً ، يترتب عليكم أن تقدموا لي السلاح والشاهد ، وثانياً ، أن تعدوني باسمكم وباسم الآخرين جميعاً ، وعد شرف ، أن يظل خبر هذه المسألة طي الكتمان عن أي مخلوق،

في العالم ، وأن تختاروا للمبارزة ، مكانا مامونا جداً • ـ أعدك بشرفي • واستاذن منصرفا بادب، بأدب جم • وكان قد وعدني أن يرجع غداً أو بعد غد ، للاتفاق على مابقي •

انقضى الأمر ! من الممكن أن تنفضح القضية كلها انفضاحا كاملاً • ولعل مؤجرتي قد سمعت هذا النقاش وقد جرى بصوت مرتفع ، جـد مرتفع • اني لأراهن انها سمعت وأنها السبب في هذا كله • لقد أدركت من مجرى الامور أني كنت قد جرحت كبرياءها الانثوية • ولكن ، ليس لهذا السبب ، كنتُ غبيا ! أما الآن ، فاني غبي • انها ، اذا ماقامت بالوشاية بنا الى السلطة ، فاقرأ السلام على العمل في المحاماة • وينقضى علي ، أن أظل كل حياتي متمرنا ! ولكن ، في حوزتي رأسمال زهيد ، وكذلك أوتيلي • ، بيد أني ، لا أدري ، ان كانت تقبل بالزواج مني •

★ ★ ★

من البدهي ، أن لا أقوم باي عمل • اني لا أقـوم الا بتصفح كتبي والانهيال على نفسي بالشتائم •

★ ★ ★

جاءني موزع البريد برسالة • انها مختومة بخاتم مالا سترانا ، والرسالة خالية من التوقيع • يا لهذا القذر ، بروفازنيك :

عزيزي الدكتور وعزيزي المرشح للمحاماة !

أعتقد أنك مرشح للزواج ، أكثر مما أنت مرشح للقضاء • ان رغبتك في الزواج ، ليست الا صفقة دنيئة ، وجد دنيئة • أنت طامع في بيت ، طامع في مال ، ولست طامعة في امرأة • فانت لا يمكنك أن تتوق الى هذه القرعة العجوز الذابلة ، التي هي ، لشدة غبائها ، لايمتد نظرها الى أبعد من أنفها ! (لا يمتد نظرها الى أبعد من أنفها ، سبق لي أن سمعت هذهالعبارة من فم بروفازنيك) •

عار عليك أن تقدم على بيع نفسك بهذا النحو ، على التضحية بحياتك الفتية ، في صفقةمبتذلة•

أحد الكثيرين ممن يرتأون هذا الرأي •

★ ★ ★

رويدك ، سترى ! سانتقم منك بدلا من الانتقام من الملازم • وتملكني غضب جارف ، كان يدفعني لمقاتلة العالم بأسره •

لا أستطيع القول اني أرتعد فرقا على حياتي • بل اني لا أخشى الجراح • فهذا أقل مافكر

فيه • بيد أني أعلم أن الخوف لا بد آت ، واني لا أخشى سوى الخوف • فما أنا إلف' مبارزات ، وما حدث قط ، أن فكرت في مبارزة فالخوف آت ، لا ريب فيه • وساكون مرتع رجفة وثورة أعصاب، واضطراب أوعيتي الدموية ، وتشنج عضلاتي كلها ، فلن تنقصني ثانية ، دون رعشة ، ولسوف أتثاءب من شدة الخوف •

وسيكون ذلك مضنياً !

★ ★ ★

نحن نتحادث في الحديقة ولكن باي شكل ! لن أقدم ، اليوم ، على أية مكاشفة غرامية ، فما الفائدة ! أوتيلي ، خذي منديلك وهيئي الضماد ! فان مت' ، قضي الامر ! وان جرحت ، قامت أوتيلي بالسهر علي والعناية بي ، فهذا ما أعتقد ، على أقل تقدير ، وعندئذ ، يجيء الاعتراف على قدميه • كما يحدث في الروايات • بيد ان هذا ، ما يحلو بي الى اثارة نقاش هادىء ! ولاأدري حول أي شيء ! انتهى بي الأمر أخيراً ، الى سؤالها عما اذا كانت تنوي المضي غداً ، الى المسرح التشيكي • فسالتني : ـ وماذا يمثلون ؟ فقلت : ـ تمثيلية (جان هيس) • فنحن اليوم ، في السادس من تموز ، موعد الذكرى السنوية لليوم الذي أحرق فيه (جان هيس) على المحرقة •

ـ كم كنت أتمنى مشاهدتها ، ولكنني ، لن أمضي لمشاهدة (هيس) • ـ لماذا ؟ أرجو أن لا يكون المانع كونه هرطوقياً ؟

ـ كلا ، ولكن غداً هو يوم الجمعة ، وانيأصوم في هذا اليوم•لو كان هذا النجس بروفازنيك حاضراً ، لوجد في الحجة دليلا على أن نظرها لا يمتد الى أبعد من أنفها • أما أنا ، فلا أرى فيه الا سذاجة وان للسذاجة دائماً سحرها ، هذا أكيد •

أقبل بروفازنيك ! فتقدمت للقائه وجررتـه الى تحت العريش • ـ أيها النذل ، تجرأت وأرسلت لي اليوم احدى رسائلك المغفلـة ، التي تقض بها مضاجع الجيران كافة ! فانا الذي سأناقشك الحساب !

ـ من حدثك عن رسائلي المغفلة ؟ سالني بروفازنيك ذلك وهو شاحب اللون ،كقماش وسخ•

ـ أنت نفسك خبرتني في ذلك اليوم !

ـ أنا الذي قلت لك ذلك ؟ وارتسمت على وجهه معالم بلاهة ، وجدتني معها مكرهاً على الاشاحة عنه بوجهي ، كي لا أضحك ، على الرغم مني •

ـ اليك ما أقول ، ان عدت الى مثل هذا العمل ، فسانهال عليك بالضرب ، كجرو صغير ! وابتعدت عنه • ان الملازم ، لقنني درساً ، على الاقل •••

استقر الرأي عقب ذلك ، على اللعب لعبة الستة • أخرج الرسام ورق اللعب من الجارور ،

وفي نفس اللحظة تقريباً ، أمسك بعنق جوزيف • مشهد طريف • كانت جميع أوراق (الكبة) ، قد انتزعت •

اتضح أخيراً أن جوزيف ، كان قد ألصقها على ورق أبيض وقدمها الى مارينكا سامبروفا ، عربوناً لمحبتـه •

لم يعد اللعب ممكناً ، وهذا ما أشاع فيَّ الرضى •

فتحدثنا وتحدثنا ، ولكن دون متعة • رحت بعد هذا ، أتمشى مع أوتيلي ، بين أصص الأزهار • فالتفتت اليّ ، فجاة وحدقت في عيني وسألتني عما بي • فوجئت ولكني قلت ، ان ليس بي شيء ، وتضاحكت • فهزت رأسها وكررت مرات كثيرة ، أني بالتاكيد ، أكتم عنها ما أكتم •

انها ••• انها تميل الي ، أمر واضح !

★ ★ ★

انني مقيم في غرفتي ، وانني أفكر • ما أشد هدوئي ، فالخوف لم يات بعد • ولكنه آت • لعلي لم أفهم بعد ، ان المبارزة ، لا بد ، واقعة.؟

وانها غـداً !

★ ★ ★

حسناً ، نهضت اليوم من النوم !

استيقظت قبل الساعة الثالثـة ، فما تباطات ، بـل نهضت في التـو • شعرت أني حقاً ، شـديد الانزعاج •

ولكني لم أدر أبداً ، كيف أقضي الوقت ، ولا باي شيء نزلت الى الحديقة وعدت الى غرفتي ، مرتين • رحت أمسك كل ما وقعت عليه يدي ، ثم أعيده الى مكانه الاول ، في سآمة وفتور •

لم يكن لي طاقة على انتظار صف الضابط •

أخائف انا ؟ نعم أم لا ؟ اني أرتعش واني أتثاءب ، ويبدو اني أتثاءب من شدةجزعي المحموم•

★ ★ ★

ها هو قد جاء • اذن ، غداً في الساعة السادسة ، في ثكنات (هرادكاني) ، في قاعة مكشوفة ، كما يظهر ، قلت لنفسي : حسناً ، سينقل جسدك من قاعة • واضحكني ذلك من أعماق نفسي ، كانما هي مزحة ، لا تسمع ولا تصدق •

كان صف الضابط على درجة سامية من التهذيب • حتى توصل الى القول ، انه كان يسر

هو شخصياً ، لو تم تلافي هذه المسالة المزعجة بطريقة ما • فاعترضت : لا موجب لذلك • ولكني ، ما لبثت' أن شعرت برغبة في أن أصفع نفسي • فما أنا في الحقيقة ، سوى غبي •

وماذا بعد !

★ ★ ★

قمت بزيارة لصديقي موروزيك في سميشوف • فانا ، أولا ، لا أقوى على ملازمة بيتي • وثانياً، ان موروزيكمبارز ماهر ، يقاتلمثل كلب كبير ؛ ففي وسعه ، أن يعلمني شيئا ، في آخر لحظة •

ان موروزيك شخص مقيت • لقد كشفت له عن سري ، فهزىء بي • ان ثمة أناساً ، أعجز من أن ينظروا الى الامور نظرة جدية ! طلبت' منه أن يعلمني ما يمكن أن يفيدني • فاكد أن ليس في مقدوري ، أن أتعلم شـيئا ، فيما بقي أمامي مـن ضيق الوقت • فقلت مستاء : ــ أوه ، لا عليك ، سوف ترى !

فتناول سيفين ، ذوي حدين ، وأعطاني أحدهما مع الغوذة ، وحذرني ، قائلا : ــ هكذا ، هكذا ، هكذا ، الآن ، كلا ، ليس هكذا ! انتبه الى رأس السيف ! واذا بسيفي على الأرض • فقال ضاحكاً : ــ عليك أن تمسك السلاح بشدة • ــ الا انه ثقيل ! ــ ما من سيف ، أخف منه ، هيا ، مرة اخرى ! ماهي الا فترة قصيرة • حتى كنت منهوك القوة ، كانما قمت برفع حمل ثقيل بيدي : كان موروزيك ،، بقامته الطويلة وجسده المتين ، لا يبالي ! ــ استرح قليلا • وضحك مرةأخرى• تذكرت ان موروزيك ، كان ألطف بكثير ، مما هو عليه • فقلت له : ــ ما قلت هذا ، الا لأنك خائف ! ــ أوه ، انني لا أخاف بتاتاً ، بشرفي ! ــ اذن ، فلنعاود ؟ بعد دقيقة ، شعرت اني متعب ثانية • فنبهني موروزيك : ــ يجب أن لا تبذل كثيراً من الجهد • فلن تقوى ، غداً على تحريك السيف ••• ابق عندي ، في البيت ، لتناول الغداء والعشاء ، وسنجري بين فترة وفترة ، تمارين ، ولكن دون افراط • كنت لا أنوي الرحيل ، حتى وان لم يعرض علي هذا الاقتراح • كانتزوجته ترنـو الينا ، وهي تعتقد • أننا نلعب ونلهو ، كانت تضحك • ان هـؤلاء الناس يقضـون وقتهم ضاحكين •

قبل الغداء بقليل ، سالني موروزيك ، ان كان ريباكي مقاتلا مرموقا • ــ لا أدري • ــ لا باس ، يجب أن تتعلم القيام بهجمة سريعة ، أو هجمة مفاجئة • هذه أو تلك ! وأجبرني مرة أخرى على حمل السلاح •••• فما حملته برغبة زائدة •

ما أروع هذه الهجمة السريعة ، المفاجئة • انني لم أوفق ، فهجومي يبدو دائما بطيئا وغير مفاجىء • هل في مقدوري أن أوفق ؟ صاحت السيدة موروزيك : ــ الى الطعام • فتهللت •

كنت لا امسك ملعقتي الا بصعوبة • كانت يدي ترتجف ، فاوقعت الحساء • وضحك موروزيك• انتظر ، غداً ، حين ترى صديقك جريحاً ، طريحا ، عند قدميك • كنت أشتهي أن أصاب بجرح بليغ ، حتى لا يجد موروزيك ، ما يفعل سوى البكاء •

جرني بعد الظهر ، الى القيـام بمبارزتين أخريين • كنت أضرب بالسيف في الهـواء وعلى موروزيك كالمجنون ، ثم هويت على الأرض بسيفي وخوذتي ، ولم أعد أنوي النهوض • ــ أنهض ، يجب أن تفرك جسمك بالكحول • ففركت جسمي بالكحول ، وفاحت مني رائحة نتن ، اضطرت لشدتها السيدة موروزيك ، أن تحمل تطريزها وتهرب بعيدة ، الى الطرف القصي من الحديقة • كنت أنا أيضاً أتمنى لو أهرب من نفسي •

عدت الى غرفتي ، في ساعة متاخرة من الليل • واذا ألم شديد في مرفقي وركبتي • هـل المبارزة تجري بالأرجل ؟

★ ★ ★

وجدت في البيت بطاقة • من أوتيلي !

« أيها الدكتور المحترم !•• يجب أن أكلمك في نفس هذا اليوم • حين حضورك ، في هـذه الليلة ، انزل الى الحديقة وحين تصفر التريفياتا ، أكون بقربك • سامحني على خربشتي هذه ، فانا لا أسلك هذا المسلك ، الا عطفاً عليك • أوتيلي • »

★ ★ ★

لا ريب ، ان مؤجرتي قد تكلمت • وسيكون المشهد طريفا •

قصدت الى الحديقة • كان البدر منيراً ، فابصرت بوضوح مجاز الطابق الاول ، في الجهـة الاخرى من الفناء • ما من أحد هناك •

تمشيت ، فلاح لي شخص • شبح أبيض ! أظهرت نفسي لحظة في نـور القمر ، ثم عدت فتواريت في الظلام ••• اذن ، لا مناص من لحن التريفياتا • يعلم الله ، أني اصفر هذا اللحن طول النهار ، أما الآن ••• لو هددت بالموت ، لما استطعت أن أتذكره ••• بيد أنها مع ذلك ، أبصرتني ! في وسعي رغم ذلك ، أن أصفر ما أشاء ، أليس كذلك ؟ الا أنني لم أعثر على شيء ، سوى : ــ جوزيف ، جوزيف ، ماذا تصنع كاتيا ؟ اني ، اذن أصفر ، جوزيف •••

ــ الدكتور ، في الحديقة ، وفي مثل هذا الوقت المتاخر ••• هذا ما تناهى الى سمعي ، من نافذة الرسام • لقد جاء الرسام الى النافذة ، الله أعلم ، باي لباس •

ــ ليلة رائعة ، اليس كذلك ؟ وأنا أيضاً ، لا أرغب في النوم ••• لنتحادث قليلا •••

توارى الشبح من المجاز • ــ أوه ، وأنا أيضاً ، صاعد الى غرفتي • صحتبصوت قوي ، عن قصد • فالتحدث هنا ، مع الرسام ••• لن ينتهي حتى الصباح •••

ابتعدت وأنا أصفر صفيراً قوياً (لقد عثرت الآن على لحن التريفياتا) واجتزت الفناء في

هون • كنت اتوقف وأتلفت تارة الى هذه الجهة وطوراً الى الجهة الاخرى ؛ ما من أحد على الدرج، ما من أحد في المجاز ، لعل اوتيلي غضبت ، بسبب ندائي « جوزيف •• »

ولعل من الافضل ، أن لا نتحادث اليوم • ولكن نعم ، من الافضل حتماً ••• وغداً ؟

★ ★ ★

الرسام عند النافذة ، مكب على حافتها • هممت أن ألقي نظرة في المجـاز ، ولكنه يبصرني فيشرع اذ ذاك في الحديث • فاسدلت ستائري •

رغباتي الاخيرة • ينبغي أن يكون كل شيء في غاية الترتيب والنظام • وصية موجزة وواضحة ، بضعة أسطر ، لا غير ادع كل ثروتي لأختي ، والسلام !

★ ★ ★

انني الآن سأحاول أن أنام • انني هادىء ، لكن هذا أمر مشكوك فيه • أما غداً ، فسأرتجف كقصبة ، أعلم هذا ! لا بد أيضاً من ربط ساعة المنبه •

الرسام ما زال متمدداً على حافة نافذته ••• الزم مكانك ، أيها الغلاظ !

لم أنم أكثر من ساعتين • رغم ذلك ، خيل الي أني نمت وقتاً كافيـاً • كانت السـماء قد اصطبغت بلون رمادي ، لأن الفجر ، في شهر تموز ، يبزغ في الساعة الثالثة • وقد أخذت برودة الصباح ، تخترق جسمي • اني أتثاءب ، بشـكل رهيب • واني أرتعش قليـلا ، هذا صحيح ،

★ ★ ★

ولكني لاأرتجف •

لم أدر ما أصنع بما تبقى لي من الوقت • اني لا أبتغي الهبوط الى الحديقة • فقد ألجأ الى الركض وأنا ارتعش ، وقد يتعبني ذلك • فيداي ما زالتا تؤلماني ، منذ البارحة • قد يكون في مقدوري ، أن ألقي نظرة على أوراقي وأسعى الى ترتيبها •

★ ★ ★

الساعة الخامسة والنصف وانـا لا أزال منهمكا • ألقيت نظرة دائرية على غرفتي ، كاني اتحقق من أنني ما نسيت شيئاً • وما عسى أن أنسى ؟

وداعـا !

★ ★ ★

هرولت على الدرج واندفعت الى فناء الثكنة • اجتزت الباب الحديدي بقفزة وقد هممت أن

أبكي فرحاً كانت عيناي ، في الواقع ، نديتين ، كأنما أنا أغادر كهفاً مدلهماً ، لأدخل في وهج الشمس الساطع • درت في جميع الجهات ، وأنا لا أدري ، أين ينبغي أن أسير •••

ـ كرومنوفسكي ؟

انه موروزيك ! هذا المسكين موروزيك ! ارتميت على عنقه ، والدموع تجري على خدودي • بيد أني عجزت عن الكلام ••• ـ والآن ، ستقاتل ؟ ـ انتهى كل شيء ! الحمد لله ! ولكن دعني ، انك ستحطم يدي • فطنت الى أني أضغط يده ، وكأنها بين فكي ملزمة • ضغطت يده مرة أخرى! ـ فلننطلق في عربتي •• استأجرت عربة ••• هل تناولت فطورك ؟ ـ فطوري ؟ كلا ! ـ اذن هلم الى أحد المطاعم ! ـ نعم ! لا ! الى غرفتي أولا ثم الى أحد المطاعم • ينبغي أن تعرف أوتيلي اني سليم معافى •

صعدنا الى العربة • كنت أهذر كولد صغير • الله أعلم بما أقول ! لم أفطن الى أننا قد بلغنا منزلي • في أسفل الدرج ، قمت برقصة ، وتكلمت بصوت مرتفع جداً ، كي يسمعني كل من في البيت • مع أن هذا مخالف للآداب •

ما كادت مؤجرتي ترنو الينا ، حتى هجرت مطبخها مهرولة ، لتختبىء في غرفتها • لن تثوبي الى رشدك ! رويدك ، فاني محتفظ لك بمفاجأة !

ماكدت أدخل غرفتي ، حتى هدأت ثائرتي • ان عودتي الى غرفتي أعادتني الى الحقيقة • قال موروزيك : ـ أتدري ، أنك حتى الآن ، لم تقص عليَّ شيئاً ؟ وأشعل سيجاراً وتمدد على الاريكة •

أجل ، ما قصصت عليه حتى الآن شيئا •

يتوجب علي ، أن أستعيد رباطة جاشي •

★ ★ ★

عند مدخل الثكنة ، كان رجلان ينتظراني • فسارا بي الى الفناء • هبطنا الدرج ووصلنا الى القاعة المكشوفة ، حيث كان بانتظاري الملازم والطبيب • قام أحد الرجلين بتقديم نفسه الي ، انه شاهد لي • وأعلمني أن كل شيء مطابق لأدق الانظمة ، وان الاسلحة متشابهة تماماً • أعتقد اني أجبته بايماءة من جذعي • في هذه الآونة ، تقدم مني صف الضابط الذي كنت على تمام المعرفة به ، وهو شاهد للملازم ، وأعلن : ـ هذان السيدان لا يضمران أي حقد لبعضهما ، فالمبارزةسوف تجري ، ولكني أقترح ايقافها عند حدوث أول جرح • أموافق أنت ، ياسيد ؟ فقلت : ـ حسناً وقال الملازم : ـ حسناً ، وخلع سترته • فحذوت حذوه • وأعطيت سيفاً ، فتأهبنا وصالبنا سيوفنا• شعرت بغضب مقدس يتملكني ! « هجمة سريعة ومفاجئة » ـ خيل الي ، أني سمعت في رأسي هدير شلال وأبصرت شرراً أمام ناظري ، في هذه البرهة ، صاح الشاهدان :

توقف ! وقفزا الى ما بيننا ، رافعين سيفيهما • فرجعت بصورة آلية ، خطوة الى الوراء ، وابصرت دماً ، يسيل على خد خصمي • واني ، لأعتقد اعتقاداً جازماً ، أني حييت بالسيف ، تحية ضابط وأعدت سلاحي الى شاهدي‌منحنياً أمامه ، بأدب • ثم ارتديت سترتي في وقار ، وسمعت‌الطبيب يقول : جرح طفيف ! وانصرفت • وبينا أنا مبتعد ، سمعت أيضاً من يقول خلفي : ـ رجل شديد البأس ! حذار باستطاعتي الآن ، أن أقاتل الأرض برمتها ! ولن يثنيني أمر ! جرح طفيف جدا ، لعمري ، لن يبوح به أحد ! وفي مقدوري ، أن أوجه لك شكري ، يا عزيزي ، ياصديقي العزيز !

ضحك موروزيك : ـ حسنا ، كن في المستقبل مبارزاً بارعاً ، لأنك فاجأته مفاجاة حقيقية • وكان تصرفك حكيماً ، لأول مرة !

خلتني بطلاً • فرحت أتمشى مقبلا مدبراً ، بخطى ثقيلة • توقفت أمام المرآة • نظرت الى نفسي ، وهممت أن أبتسم ، بيد أن بسمتي بدت لي بلهاء •

نهض موروزيك : ـ انني لجائع ، هلم بنا الى مطعم ! أما وجه الغرابة فهو اني لم أجع‌بعد• فسألته : ـ ولكنك ، أنت أيضاً ، لم تتناول بعد فطورك • ـ ومتى كان بامكاني أن أتناوله ؟

أدركت آنئذ ، كنه ما أبداه الى موروزيك من كرم ونبل • ـ وأين عثرت على عربة في مثل هذا الصباح الباكر ؟ ـ لقد أوصيت عليها ، أمس ظهراً ، وأنت مقيم عندي •

هذا الشهم ، هذا الشهم موروزيك ! وارتميت على عنقه • فلقي عناءً في الافلات مني • انني قوي في بعض الاحيان •

★ ★ ★

حانة صغيرة • وجهان اليفان : سامبر ، الخياط وصاحب الحانة • مددت يدي : ـ والآن أيها المعلم ، أتقوم بارتياد حانة ، غير حانتك ؟ ـ هذه هي أول مرة ، منذ عشر سنوات ، أطأ فيها أرضاً ، غير أرضي •

جلسنا الى طاولة أخرى أكلنا وشربنا ، وبين لي موروزيك وهو يحدثني بصوت خافت ، ضرورة الانتقال من البيت وعلى الفور • فمؤجرتي لن تسكت عني ، وانها ستشوش على عملي ، والوقت ضيق ، لا يسمح لي • ان رأيه صائب • ولكن ، أين أستطيع السكنى ؟ من الافضل ، أن أرجع الىمسكني الاول • ـ هيا بنا ، نمضي اليه فوراً ، بالعربة ، قد يسهل علينا استئجاره من جديد• ان موروزيك صديق حميم ، رائع • رجل شهم ، بكل مافي الكلمة من معنى ، واني لأحبه حباً جماً ، ولا أذكر أنه تخلى عني ، في الشدائد ، ولو مرة واحدة •

كان صاحب المقهى ، بادي الاهتياج ، ظاهر الغضب • انه يتكلم بصوت يزداد حدة • يحاول اقناع سامبر بالاحجام عن الزواج مهما كلف الأمر ، كان ينهال بالشتائم على كليكس كانما هـو مصدر كل البلاء على هذه الارض خرج سامبر ليأتي بسجاير ، فصحت بالمعلم قائلا :

ـ اسمع ، أيها المعلم ، لأي شيء ، تريد أن تردع سامبر ؟ ـ اني صاحب حانة ، أليس كذلك ؟ ولي زبني النظاميون ، ومن واجبي أن أحتفظ بهم !

ـ ولكنه بحاجة الى ربة بيت وأم ترعى ابنته • ـ كلا ، انه زبون دائم ••• هو يتغدى عندي ويتعشى أيضا ، ولا باس به اذا سكر ••• رجع سامبر •

★ ★ ★

كانت الشقة خالية وقد أجرونيها بسرور • سانتقل اليها ، بعد غد ، الاثنين • فما عسى أوتيلي ، أن تقول ؟ أعتقد أنها ستوافقني ، فلسوف أكاشفها ببيان السبب وباعلان محبتي اياها معاً • لسوف يكون في وسعي أن أجيئها في كل يومين مرة ، بـل في كل يوم ، مرة • ولا مناص من ذيوع خبر المبارزة ، وعندئذ ، ساحظى بالاعجاب ، بيد أن كسب الرزق ، ياتي أولا •

دعاني موروزيك ، للغداء عنده •• وفيما نحن ناكل ، تحدثنا عـن المبارزة • فان موروزيك متفائل من كل شيء ، ولكني أرى انه يسخر مني • وان أجملت القول ، فذلك تافه وعقيم •

★ ★ ★

سارعت مساء ، في الرجوع الى البيت وسرعان ما هرولت الى الحديقة •

كانت أوتيلي غاضبة حقاً • لقد تحاشتني ! وامتنعت عـن اجابتي • كنت أقدر ، أن من المفروض عليها ، أن تبتهج •

النسوة المدلعات ، لسن دائمة محببات •

★ ★ ★

قضيت السهرة في مقهى المدينة القديمة ، التي كنت أرتادها ، فيما مضى • لشد ما سري عني• لقد كنت جذاباً ، ان صح القول • لقد أعجبوا بطلاقة محياي وانفراج أساريري • أجل ، منذ أربع وعشرين ساعة ، تقريباً ، كدت أن أكون ميتة وممدداً في نعش •

أملي عظيم في أن أنعم الليلة بنوم هانيء •

★ ★ ★

استيقظت باكراً جداً • انها ذكرى الليلة البارحة • ولكنني ، رأيتني مطمئناً ، مثل وليد في حمام فاتر ، فمططت جسدي الصغير ومددت ذراعي •

ونمت عقب ذلك ، حتى الساعة التاسعة كالمترفين •

★ ★ ★

الدكتور جنسن هنا • علام تجيء ؟ مهلاً ، انك لتزداد دهشة ، في وقت ، لن يكون أبعد من هــذا اليوم •

شد على يدي بحمية خارقة ، بحرارة زائدة • حاول مرات عديدة أن يشعل سيجاره • قال لي : يجب أن أعرف ، لأي سبب ياتي الى هنا • حتى لا ينهب بي الظن الى مالا يعلم به الا الله ، وعاد الى الطاولة الصغيرة ، لياخذ صندوق الكبريت • أيقول لي ، أنا ، لأي سبب ياتي الى هنا ؟ يتصور أني لا افقه عن الدافع شيئا ! وقف ، مرة أخرى ، أمام المرآة • حقاً ، انه لمزهو بنفسه ـ هنا ، يقطن من يدعى بروفازنيك ، مقابل غرفتك ، في الطابق الثاني • لقد حدثتني ، أنت عنه ، أكثر من مرة • كان قد أقام مرات عديدة ، عندنا ، في مركز الامراض النفسية ، مرة منذ عشر سنوات ومرة ثانية منذ ثماني سنوات • ومنذ ذلك الحين وبناء على رغبة أقرباء له ، وهم قوم أثرياء ، أخذت أراقبه ، بين حين وحين ، ولقد وجهوا الي ، الدعوة مرة أخرى ، منذ عهد قريب • لقد غمرتني بهجة عارمة ، إذ عرفت باقامتك هنا ، ولا سيما في هذه البناية نفسها ؛ كان يتحتم علي ، أن أتصرف باكثر ما يمكن من الكتمان • فهو يعرفني ويتجنبني ، فما نزل الى الحديقة ولا مـرة واحدة ، وانا بصحبتكم ، رغم انه كان يفد على الحديقة ، كل يوم ، كما اكدت لي • هو يراقبني بقلق ، وهو في هذه اللحظة ، ينظر الي • اني أراه بوضوح ، هنا ، في مرآتك ، هو خلفالستارة، يمد رأسه قليلا • ولكن ، بالاستناد الى كل ما رأيت ، وما سمعت ، لا أعتقد ان ثمة مجالا ، للخوف من حدوث نوبة جديدة •

فغرت فمي وحملقت عيني : ـ كيف ، ما من شيء سوى هذا !

شعرت بضرب من الراحة ، تلك هي الحقيقة • بل ، بما يشبه الخيبة ، أيضا •

★ ★ ★

انصرف الدكتور • وددت أن أناديه وأقول له : ـ لو تدري ، ان كنت ترغب ، فيما يتعلق••• فلن اقف عثرة في طريقك •••

بدا لي فجاة ، أني ما فكرت قط باي منافسة •

بل أعتقد ••• آه ، ان البشر مخلوقات غريبة !

★ ★ ★

قلت لمؤجرتي بايجاز وجفاء أني حتى مساء غد ، ساكون مرتحلا عن هذا المكان • فاصاختالي، مطاطئة الرأس • أصبحت الآن ، تطاطيء راسها دائما ، أمامي • فقد روضتك ، ها •••

أما الغريب في الأمر ، فهـو أني ، طول مدة اقامتي ، ما ابصرت ، مرة واحدة ، زوجها ، المراقب في الخطوط الحديدية • ان هذا لم يحدث قط ، وأعتقد أن هذا افضل ، لأنه قد يستثير فيّ الشفقة •

★ ★ ★

أوتيلي غاضبة أبداً ؛ وبعبارة صريحة ، لا أبالي كثيراً بغضبها • فكل ما أشعر به أني حانق بعض الحنق • انبات الجميع ، في الحديقة ، أني مرتحل ، مع هذا ، ظلت باردة ، حقاً ، كأني انبئها بسقوط ملعقة على الأرض • ان النساء مخلوقات غريبة الأطوار جداً •

أحمد الله على أني لم أكاشفها بشيء •

★ ★ ★

كنت في مقهى المدينة القديمة • اني أروح عن نفسي بين هـؤلاء الناس ، بحيث أستطيع أن أرجع ، اثر ذلك الى ممارسة عملي الفكري • فالى العمل ، الى العمل ! بعد اجتياز فحص القبول في المحاكم ، سأفرغ نهائياً من الفحوص ، ملء الحياة !

★ ★ ★

اني منهمك بالانتقال الى المسكن الجديد •

★ ★ ★

في مسكن الرسام ، حملة تاديب عامة • جلبة رهيبة • الرسام يتاهب لتدبيج رسالة ثانية • عاد مرة أخرى ، يطلب مني ورقاً للكتابة • أجبته باختصار ، ان جميع حوائجي قد حزمت ، وانا لا أدري ، أين صار الورق •

★ ★ ★

ابنة المالك تقطع الخضار من الحديقة للسلطة •

رنوت اليها ببرود • انها فتاة ذابلة •

قصتان قصيرتان

ترجمة : يوسف اليوسف

- ١ -

انسانان رقيقان

بقلم : غراهام غرين

جلسا على مقعد في حديقة مونسو لمدة طويلة دون أن يتوجه أحدهما الى الآخر بكلمة واحدة . كان يوماً من أيام الصيف الباكر ، مليئاً بالأمل ، ذا غمامات تتثنى عبر السماء أمام نسمة لطيفة . غير أنه في أية لحظة يمكن للريح أن تنقطع فتصبح السماء واضحة ، شديدة الزرقة ، ولكن الوقت أصبح متأخراً جداً ، فالشمس ستغرب قبل ذلك .

ربما كان بالنسبة الى الشباب يوم الالتقاء بالصدفة ـ التقاء يتم سراً خلف حاجز عربات الاطفال الطويل حيث لا يرى الا الاطفال والمربيات . أما هما فقد كان كلاهما في منتصف العمر ، ولم يكن أي منهما راغباً في وهم امتلاك الشباب المفقود ، مع أن الرجل يبدو أفضل مما يظن ، وخاصة بشاربه الحريري الذي ينتسب الى العالم القديم ، والذي يشبه وساماً من أوسمة السلوك الجيد . أما هي فقد كانت أجمل مما اعتادت المرأة أن تنبئها . ولقد أضفى عليهما الاحتشام والتحرر من الوهم

قاسماً مشتركاً • كان يفصل ما بينهما خمسة أقدام من المعدن الأخضر ومعذلك فقد ظهرا كما لو كانا زوجين يشبهكل منهما صاحبه • راح الحمام الشبيه بكرات التنس الرمادية القديمة يتدحرج حول أقدامهما دون أن ينتبها اليه • وأخذ كل منهما ينظر الى ساعته بين الفينة والفينة ، ولكنهما لم يتبادلا النظر • فبالنسبة اليهما كانت برهة السلم والوحدة هذه محدودة •

الرجل طويل ونحيف • كان لديه ما يدعى بالملامح الحساسة ؛ وجهه عادي الى درجة مريحة ، مع انه لا يخلو من وسامة ، إذ ليس هنالك دهشة بشعةحين يتكلم، فالانسان قد يكون حساساً دونما خيال • وكان يحمل مظلة توحي بالحيطة• أما هي فأول ما يلفت الانتباه فيها هو ساقاها اللتان تبدوان غير حساستين كساقي فتاة في لوحة عادية • ومن ملامحها نستدل على أنها وجدت اليوم الصيفي حزيناً ، ومع ذلك فقد أنفت من أن تطيع أوامر ساعتها وتدخل مكاناً ما •

ما كان لهما أن يتبادلا الكلام لولا أن مراهقين أخرقين قد مرا من أمامهما، أولهما يحمل مذياعاً مدوياً على كتفه ، أما ثانيهما فيركل الحمام المنشغل بنفسه• وراحت ركلاته تثير الضجيج ، تاركة احدى الحمامات مهروسة على الممر •

نهض الرجل وهو يمسك مظلته كما لو أنها سوط الخيل • « أوغاد صغار شياطين ، » صرخ ، وبدت العبارة أكثر انتساباً الى العصر الادواردي بسبب من نغمتها الاميركية الخافتة ــ لا ريب في أن هنري جيمس قد استخدمها •

« يا للطائر المسكين ، » قالت المرأة• راح الطائر يتقلب على الحصباء وهو يبعثر الحجارة الصغيرة • كان أحد الجناحين معلقاً بوهن واحدى قائمتيه مكسورة أيضا ، إذ كانت الحمامة تتخبط على شكل دوائر وهي عاجزة عن النهوض• وتحركت بقية الحمائم الى مكان آخر ، دونما مبالاة ، وهي تنقب في الحصباء بحثاً عن لباب الخبز •

« ليتك تشيحين بنظرك قليلا ، » قال الرجل • وضع مظلته على الأرض وسار بسرعة الى حيث كان الطائر يتمرغ • التقطه وراح يلوي عنقه بخفة وبمهارة ــ كانت نوعاً من المهارة على كل رجل حسن التربية أن يمتلكها • وأخذ يتلفت بحثاً عن سلة مهملات أودع فيها الجسد بكل ترتيب •

« لم يكن ثمة ما نصنع غير ذلك ، » قال معتذراً حين رجع .

« لم أكن لأستطيع أن أفعل ذلك أنا بنفسي ، » قالت المرأة بلسان أجنبي حريص على الصحة النحوية للكلمات .

« استلاب الحياة هو امتيازنا ، » أجاب بتهكم ، لا بكبرياء .

حين جلس تقلصت المسافة الفاصلة بينهما ؛ أصبحا قادرين على أن يتحدثا بحرية عن الطقس وعن اليوم الحقيقي الاول للصيف . كان الاسبوع الماضي بارداً قبل الأوان ، وحتى اليوم ... أعجبته الطريقة التي تتكلم بها اللغة الانجليزية ، واعتذر عن افتقاره الى الفرنسية ، ولكنها أكدت له : لم تكن موهبة أصيلة . لقد تخرجت من مدرسة انجليزية في مارغيت .

« تلك منتجع بحري ، أليس كذلك؟»

« البحر يبدو دائماً رمادياً، » قالت، وغرقا لبرهة في صمت فاصل . وبعد ذلك، وربما كانت تفكر بالحمامة الميتة، سألته عما اذا كان قد التحق بالجيش.

« لا ، كنت فوق الأربعين حين نشبت الحرب ، » قال . « خدمت في بعثة حكومية في الهند . لقد أغرمت بالهند . »

راح يصف لها أغرا ولكنا و ، ومدينة دلهي القديمة ، وعيناه مشتعلتان بالذكريات . أما دلهي الجديدة فلم يحبها، لقد بناها رجل بريطاني ـ لطـ لط ـ لط ؟ لا أهمية لذلك . انها تذكره بواشنطن .

« إذن ، أنت لا تحب واشنطن ؟ »

« لأقص عليك الحقيقة ، » قال ، أنا لا أشعر بالسعادة في وطني . فأنا أحب الاشياء القديمة.في الهند ، وحتى مع البريطانيين ، شعرت بمواطنيتي أكثر ـ هل تصدقين ذلك ؟ والآن في فرنسا ، أشعر بالشيء نفسه . كان جدي قنصلا بريطانياً في نيس . »

« كانت نزهة الانجليز حديثة العهد اذ ذاك ، » قالت .

« نعم ، ولكنها شاخت . مانبنيه نحن الامريكيين لا يشيخ بشكل جميل. بناية كريسلر وفنادق هيلتون ... »

« هل أنت متزوج ؟ » سألت . تردد قبل أن يجيب ، « أجل » ، قالها كما لو كان راغباً في السكوت ، ولكنه قالها بمنتهى الدقة . أخرج يده وتلمس مظلته التي منحته الثقة أثناء هذا

الموقف المذهل ، موقف التحدث بهذه الصراحة مع أحد الغرباء .

« ما كان لي أن أسألك ، » قالت وهي ما تزال حريصة على قواعد اللغة .

« لم لا ؟ » اعتذر لها بأسلوب تعوزه اللباقة .

« كنت مهتمة بما قلت . » منحته ابتسامة صغيرة . « حين خطر لي السؤال لم تكن لي القدرة على كبحه . »

« هل أنت متزوجة ؟ » سألها فقط ليريحها ، إذ كان قد شاهد محبسها .

« نعم . »

عند هذه اللحظة كان كل منهما يعرف الكثير عن الآخر . وشعر الرجل أن من الفظاظة ألا يكشف لها عن هويته . قال ، « اسمي غريفز ، هنري س. غريفز . »

« اسمي ماري ـ كلير ، ماري ـ كلير دوڤال . »

« لقد كان عصراً جميلا ، » قال الرجل الذي يدعى غريفز .

« ولكن الطقس سيغدو بارداً قليلا حين تغوص الشمس . » فر أحدهما من الآخر ثانية بندم .

« لديك مظلة جميلة . » قالت ، وكانت محقة تماماً ـ فالرباط الذهبي كان شديد التميز ، وحتى من مسافة بضعة أقدام يستطيع المرء أن يرى حروفاً محفورة عليه ـ حرف « هاء » بالتأكيد ، مجدولا ربما بحرف « س » أو حرف « غ » .

« هدية ، » قال بغير سرور .

« أعجبت كثيراً بتصرفك تجاه الحمامة . أما أنا فلست غير جبانة . »

« هذا ما لست متأكداً منه كثيراً ، » قال بلطف .

« بل هي الحقيقة . »

« حقيقة فقط بمعنى أننا جميعاً جبناء فيما يتعلق بشيء ما . »

« انك لست جباناً ، » قالت معترفة بالجميل وهي تتذكر الحمامة .

« بل أنا كذلك ، » أجاب ، « في قطاع كامل من قطاعات الحياة . » بدا وكأنه على حافة انكشاف الذات ، فأمسكت بطرف معطفه تجره الى الخلف . والحقيقة أنها أمسكته تماماً من طرف معطفه ، وعند ذلك قالت ، « لقد لامست طلاء رطباً . » ها قد نجحت الحيلة إذن ؛ أصبح قلقاً على ملابسها ، ولكن لدى

تفحص المقعد اتفقا على أن مصدر الطلاء لم يكن هناك • « لقد كانوا يدهنون درجنا ، » قال •

« ألديك بيت هنا ؟ »

« لا ، شقة في الطابق الرابع • »

« ذات مصعد كهربائي »

للأسف ، لا ، قال بحزن • انه بيت جد قديم في الدائرة السابعة عشرة من باريس •

كان باب حياته المجهولة قد انشق قليلاً ، وأرادت هي أن تقدم شيئاً ما عن حياتها الشخصية ، ولكن ليس الكثير • قالت ، « شقتي جديدة جداً الى درجة الكآبة • وهي في الدائرة الثامنة • الباب يفتح كهربائياً دون أن يلمس • تماماً كما في المطار • »

حملهما تيار قوي من الانكشاف • عرف كيف كانت تشتري أجبانها في ساحة المادلين ـ كان هذا الشراء أشبه بحملة تقوم بها من المنطقة الثامنة ، قرب شارع جورج الخامس ، وذات مرة كوفئت بمشاهدة الخالة ايفون ، زوجة الجنرال ، الى جوارها وهي تشتري الجبن الابيض • ومن الناحية الاخرى، كان هو يشتري أجبانه من شارع توكفيل ، الواقع الى جوار شقته •

« أنت بنفسك ؟ »

« نعم ، أنا أقوم بالتسوق ، » قال بصوت انقطع فجأة •

قالت ، « الطقس بارد قليلاً الآن • أظن أنه ينبغي الذهاب • »

« أتترددين على الحديقة كثيراً ؟ »

« انها المرة الاولى • »

« يا للتوافق الغريب ، » قال • « انها المرة الاولى بالنسبة الي أيضاً ، على الرغم من أنني أسكن الى جوارها •»

« وأنا أسكن في مكان بعيد عنها • »

نظر كل منهما الى الآخر برهبة ، وهما عالمان بغموض العناية الالهية • قال ، « أفترض أن ليس لديك شغل يمنعك من تناول وجبة خفيفة معي • »

جعلتها الدهشة تغرق في لغتها الفرنسية • « ليس لدي شغل ، ولكن أنتم ••• زوجتكم •••؟ »

« انها تتناول الغداء في مكان ما ، » قال • « وزوجك ؟ »

« لن يعود قبل الحادية عشرة • »

اقترح مطعم اللورين الذي لم يكن الا على مبعدة بضع دقائق من السير ، وسرها أنه لم يختر مكاناً أكثر أناقة أو أكثر زخرفاً • وهبها الجو

البورجوازي الثقيل للمطعم شيئاً من الثقة ، ومع أنها كانت تحسّ بعض الشهية ، فقد راقها أن تراقب السير المنتظم والمنسرح لعجلات عربة المشروبات • كانت قائمة الطعام أيضاً طويلة بما فيه الكفاية لتمنحها وقتاً يكيفهما مع الألفة المذهلة التي أبدياها أثناء تناول الغداء معاً • وحين أعطي الأمر ، أخذا يتحدثان على الفور •

« لم أتوقع ••• »

« إن طريقة سير الامور مضحكة ، » أردف وهو يشيد بغير قصد منه نصباً مزخرفاً لتلك المحادثة •

« حدثني عن جدك القنصل • »

« لم أعرفه البتة ، » قال • كان التحدث في قاعة المطعم أصعب من التحدث على مقعد الحديقة •

« لماذا ذهب أبوك الى أمريكا ؟ »

« ربما بسبب من روح المغامرة ، » قال • وأفترض أنها روح المغامرة هي التي أعادتني لأعيش في أوروبا • لم تكن أمريكا لتعني الكوكا كولا وصحيفة « الحياة » حين كان أبي صغيراً • »

« وهل وجدت المغامرة ؟ كم هي بلادة مني أن أطرح هذا السؤال• طبعاً لقد تزوجت هنا ؟ »

« أحضرت زوجتي معي ، » قال •

« بيشنص المسكينة • »

« المسكينة ؟ »

« انها مولعة بالكوكا كولا • »

« تستطيع الحصول على هذا الشراب هنا ، » قالت ، وهذه المرة ببلادة مقصودة •

« نعم • »

جاء نادل الخمور فطلب شراب السانسير • « اذا كان ذلك سيناسبك؟»

« أعرف القليل عن الخمور ، » قالت •

« ظننت أن الفرنسيين كافة ••• »

« نترك ذلك لأزواجنا ، » قالت •

أما هو فقد شعر بألم غامض • كان يقاسمهما القاعة الآن رجل وزوجته ، مما جعلهما يصمتان قليلاً • ومع ذلك لم يكن الصمت ملاذاً حقيقياً • وفي الصمت كان الشبحان قد انغرسا بثبات، لو لم تجد المرأة الجرأة على التكلم •

« ألديك أطفال ؟ » قالت •

« لا • ألديك أنت ؟ »

« لا • »

« أأنت آسفة ؟ »

قالت ، « أفترض أن المـرء يأسف دائماً لخسرانه شيئاً ما • »

« أنا مسرور على الأقل لأنني لـم أخسر اليوم حديقة مونسو • »

« نعم ، وأنا كذلك أيضاً • »

كان الصمت الذي تبع ذلك مريحاً• ذهب الشبحان وتركاهما وحدهما•وذات مرة تلامست أصابعهما فوق القندس(١) السكري (كانا قد طلبا الفريز) • لم يملك أي منهما رغبة في المزيد من الأسئلة ؛ إذ غـدا كل منهمـا يعرف صاحبه أكثر مما يعرف أي شخص آخر• كان ذلك أشبه بزواج سعيد ؛ انتهت مرحلة الاكتشاف – نجحا في فحص الغيرة، وهما الآن في منتصف العمر • الزمن والموت هما العدوان المتبقيان ، وكانت القهوة أشبه بانذار بالشيخوخة • وبعد ذلـك كان مـن الضروري أن يكبحـا الحزن بشيء من البراندي ، ولو أن ذلك لم يكن ناجحاً • كان الأمر كما لو أنهما مارسا عمراً كاملاً يقاس بالساعات كعمر الفراش •

(١) نوع من الحلوى

قال عن رئيس الخدم العابر أمامهما، « انه يبدو أشبه بمتعهد • »

« نعم ، » قالت • ودفـع الحساب وخرجا•انهما أكثر رقة من أن يقاوما نزع الموت لمدة طويلة•سأل ، «أأستطيع أن أراك في البيت ؟ »

« لا أفضل ذلك • حقاً ، لا • »

« أنستطيع أن نتناول قدحاً آخـر وقوفاً ؟ » اقترح بقلب نصف حزين •

« لن يقدم لنا مزيداً من النفع ، » قالت • « كانت الامسية مكتملة • أنت حقاً رقيق • » لقد تأخرت كثيراً حـين لاحظت أنهـا استعملت لفظـه (أنت Tu) فأملت أن تكون لغته الفرنسية رديئة الى درجـة تكفي لكي لا يلاحظ ذلك • لـم يتبادلا العناوين وأرقـام الهاتف ، إذ لم يجرؤ أي منهما عـلى اقتراح ذلك • لقد جاءت هذه اللحظة جد متأخرة في حياة كل منهما • وجد لها سيارة أقلتها الى البعيد باتجاه القوس العظيم المنير ، وسار هو وحيداً باتجاه البيت فوق شارع جوفروى•ماهو جبن في الشـباب حكمة في الشيوخ ، ولكن المرء ، على أية حال ، يستطيع أن يخجل بالحكمة •

★ ★ ★

عبرت ماري ـ كلير الابواب الآلية الانفتاح ٠ وفكرت ، كما اعتادت دائما ، بالمطارات وبسبل الهروب ٠ وفي الطابق السادس دخلت الشقة ٠ كانت ثمة لوحة تجريدية ذات ألوان قاسية ، قرمزية وصفراء ، تواجه الباب وتعاملها كغريبة ٠

دخلت مباشرة الى غرفتها بمنتهى النعومة ، وأقفلت الباب وجلست على سريرها الوحيد في الغرفة ٠ ومن خلال الجدار استطاعت أن تسمع صوت زوجها وضحكه ٠ تساءلت عمن كان معه في تلك الليلة ـ توني أو فرانسوا ٠ كان فرانسوا قد رسم اللوحة التجريدية ، وتوني ، راقص البالية ، كان يدعي دائماً ، ولا سيما أمام الغرباء ، أنه صمم التمثال الحجري ذا العينين المرسومتين ، الذي كان له مكان الشرف في غرفة الجلوس ٠ راحت تخلع ملابسها ٠ وبيما كان الصوت في الغرفة المجاورة يغزل نسيجه ، عاودتها صور المقعد في حديقة مونسو وصور عربة الخمر في مطعم اللورين ٠ لو أن زوجها قد سمعها حين دخلت لكان قد تقدم اليها : لقد أذهله أن يعرف أنها كانت احدى الشهود (على مقتل الحمامة ٠ المترجم) ٠ قال الصوت معنفاً ، « بيير ، بيير » ٠ كان بيير اسماً جديداً لها ٠ نشرت أصابعها على طاولة الملابس لتنزع خواتمها وفكرت بالقندس السكري المخصص للفريز ٠ ولكن لدى سماعها الصرخات والقهقهات الصغيرة المنبعثة من الغرفة المجاورة ، إنقلب القندس السكري الى تمثال ذي عينين مرسومتين ٠ اضطجعت وفي أذنيها حبيبات لولبية من الشمع ، وأغلقت عينيها وفكرت كيف كانت ستختلف الأشياء لو أنها قبل خمس عشرة سنة كانت قد جلست على مقعد في حديقة مونسو ، وهي تراقب رجلا يقتل حمامة باشفاق ٠

★ ★ ★

« أستطيع أن أشم امرأة عليك ، » قالت بيشنص غريفز بسرور ، وهي تجلس متكئة على مخدتين ٠ كانت المخدة العليا قد أتلفتها حروق السجاير ٠

« لا ، أبداً ، لا تستطيعين ٠ انه خيالك يا عزيزتي ٠ »

« قلت إنك ستعود الى البيت في العاشرة ٠ »

« ولكنها الآن العاشرة والثلث فقط ٠ »

« لقد كنت في شارع دواي ، أليس كذلك ؟ في احدى تلك الحانات ، تبحث عن فتاة • »

جلست في حديقة مونسو ، وبعدها تناولت الطعـام في مطعـم اللورين • أيمكنني أن أعطيك دواءك ؟ »

« تريدني أن أنام بحيث لا أعـود اتوقع أي شيء • هذا هو الأمر ، أليس كذلك ؟ انـك جـد عجوز الآن بحيث لا تستطيع أن تفعلها مرتين • »

مزج العقار في غرافة الماء على الطاولة القابعة بين السريرين المتماثلين • إن أي شيء قد يقوله سيكون خطأ حـين تكون بيشنص في حالة كهذه • بيشنص المسكينة ، قال لنفسه ، وهـو يقرب الدواء مـن الوجـه المتوّج بالخصل الحمراء ، كيف خسرت أمريكا ــ لن تصدق أبدأ أن الكوكا كولا لها الطعم نفسه هنا • لحسن الحظ لم تكن هذه أسوأ لياليهما ، لأنها شربت من الكأس دونما مزيـد من النقاش ، بينما جلس الى جوارها وتذكر الشارع الذي يمر من قرب المطعم ، وكيف أنه بالصدفة ــ بكل تأكيد ــ قد نودي بكلمة (أنت Tu) •

« بماذا تفكر ؟ » سألته زوجته • « أما زلت في شارع دواي ؟ »

« أفكر بأن الأشياء قـد تكون على غير ما هي عليه ، » قال •

كان ذلك أكبر احتجاج سمح لنفسه طوال حياته أن يطلقه ضد الحياة •

★ ★ ★

الحاجز

بقلم : جانيس اليوت

طوى نفسه كطائر النحـام المغموس في الماء ليدرس عـن كثب تلـك السن الذهبية التي تلتمع في مؤخرة فمها • وبدد صممه بتقريب قبضته من أذنه• كان ثمة حول ذلك الضرس شيء مترف وشهي الى حد لا يصدق • وتساءل عما إذا كانت لديـه بعض منـازع فتشية الأسنان • لقد اعتادت زوجته جوديث أن تمارس معـه الحب وفمها مغلق ، كأنما هي تخاف منأن يدخله شيء ما • لم يكن يعرف أسنانها •

كانت الفتـاة النحيلة تقف معتمدة على نفسها ، لوحدها ولكنها لم تكنعلى مايبدو منفردة•وراح الناس يرمقونها بالنظرات حين يمرون بها كما لو انها تمثال • شعرها الطويل الباهت يتدلى تحت ذقنها على شكل جناحين خائبين • كان هنالك حولها شيء فارغ أبيض ، أشبه بقطعة من الورق•وبدت مندهشة لايقاظها • وتساءل عما اذا كان من الممكن تخديرها •

وكررت : « انهـا حفلة رائعة • »

ابتسم ، وشعر بالاستغراب ، وبانه لايجد جواباً•وحينأغلقت فمها عانىمن لهفة حنين الى تلك السن الذهبية•وقال ليبقيها مواظبة على الكلام :

« أتحبين الحفلات ؟ »

« أحب مشاهدتها•» ومررتأصابعها فوق قمة نظارتيها • « من أنت ؟ »

« لا أدري • »

هزت رأسـها كما لو كانت هـــذه العبارةمجرد ابتذال • قال ،وهو شارد، ولكنه غير عازم على افتقادها :

« انك أصغر من أن تشاهدي • »

« أوه ، أنا » ، ابتسمت • « ليس هنالك الكثيرات ممن هن على شاكلتي•»

كان الناس يتجولون في الخارج على الأرصفة • بينما راح أحدهم يتدفعبين الحشود • ثم خرجا هما أيضاً•وبعدئذ نظر من خلال ثقب في تمثال برونزي•

« ان ما تحتاجه » ، قالت ، « هو أن يجيء شخص ما ليخبرك من أنت • »

كان للتمثال (ذكر ؟ أنثى ؟) حضن، فجلس عليـه • أما هي فقد استقرت بأناقة الى جواره • ان خنثوية التمثال قد خلصته من فعل غير محتشم •

« أعتقد أنني لهذا السبب أتيت •»

تربع وراح يعـدد الاعمال التي قـام بها خلال هـذا اليـوم • استيقظ في

السابعة ، خلص نفسه من ذراع جوديت الذي كان يرقد بثقل على صدره (كان قد حلم بالذبحة الصدرية) ، حلق ، نظف المطبخ ، أطعم الاطفال الأكبر سناً ، وغادر زوجته•لم يكن هو نفسه يعرف الى أية درجة ترك زوجته • قد يعود في نهاية المطاف ، ولكنه قانع بأن مغادرته لها طابع الفعل النهائي • كان قد أمضى النهار في حالة تصور مرفوع الىحد الغرابة (كلب بني خارج الكلية في شارع ثيوبالد له بياض سَلَطَة غدائه) • ولما كان قد ترك السيارة لجوديث ، فقد ذهب في نهاية النهار الى حفلة كارل •

قالت : « أذكر أم أنثى ؟ »

« سيمون كارتر »

« اسمي ، بولا ولكنني سألت عن التمثال • »

« تصعب معرفة ذلك • » قاللنفسه ان الناظر اليهما سيظنهما صديقين • كانت ثمة امرأة سمينة ترمي الزهور في حوض السباحة •

« مريح • »

وافقت • « لابد أنه أنثى • »

« لماذا ؟ »

« ألم تلاحظي؟ليس للرجالأحضان•»

نظر الى ركبتيه • كان كارل يسبح • يقال انه موهوب الى حد لا يصدق في مسألة إمتاع النساء • إعتاد سيمون أن يعتبره رجلاً شرقياً ، بالمعنى الذي يختاره لفهم تلك الكلمة • انه ناعم وسمين • وهو يدللهن على صدره• كان سيمون يرغب في أن يحدثه عن حاجزه • ولهذا السبب أتى • وربما يحدث بولا بدلاً منه •

« ظريف ، ألا تظنين ذلك ؟ »

« ولكن ماهو ؟ »

وقف كارل مندهلاً•« ألذلكأهمية؟»

« أعلم » ، قالت بولا • «انه •••»

« انه ماتصنع منه ، » قال كارل ، وأخذ بولا بعيداً •

أمسكها من نقطة ناتئة في أعلى عمودها الفقري • ألتفتت الى سيمون ولوحت له بيدها ، نادمة كما أحب أن يظن •

تجرع قدحين من الوسكي وسار الى حوض السباحة • وضعت بولي ، زوجة كارل ، مخلباً أبيضمضمداً على ذراعه• انها كارل المؤنث • وتخيل أنهما يغذي أحدهما الآخر بالبهجة •

« أين جوديث ؟ »

« الأطفال » ، قال بغموض •

« وأنت ياسيمون ، تبدو مرهقاً ؟ تعمل بقسوة ؟ »

« الكتاب • لاأستطيع التركيزعليه• يالجهنم ! الحقيقة ، يابولي ، انني تركتها • »

هزت بولي رأسها • « لن تذهب الى البيت • ستبقى معنا • في المساء كان وجه بولي كاسطوانة تدور • شعر بأنه ضعيف الى درجة انه لا يحتمل البقاء• وظنت بولي أن جوديث شيء رديء •

« انها فتاة عذبة • ولكنها لم تفهم•»

« لا • ترين يابولي ، انني لم أستطع الكتابة • »

ربتت على ذراعه من جديد • «ابق،» قالت ، « ابق معنا » • أراد أن يفسر الأمر •

سأفكر بالأمر ، « يابولي ، » قال • تحقق للمرة الاولى منذ خمس سنوات انه كان يعرفها كزوجة لناشر مؤلفاته ، وأنها كانت يهودية • وهذا مما جعل وجودها ، وبطريقة أدهشته ، أقل واقعية • تهادت مبتعدة مما أنساه أن يسألها عن بولا •

شرب المزيد • كان بعض الناس يرقصون زوجياً • وبقرب حوض السباحة كان ثمة فتاة ذات شعر بني مستعار (رجل ذو شعر بني نسائي مستعار ؟) تغني بنعومة لنفسها ، وقد وضعت أصبعاً على شفتيها وراحت تدور حول الحوض • كانت تلمس نهديها • لم يلاحظها أحد •

وجد سيمون شاعراً له به معرفة سطحية ويكنُ له بعض الكراهية ، وهو يجلس تحت شجرة وفي يده زجاجة • شربا بجد ، وحين أفرغت الزجاجة راح الشاعر يشتم بنعومة ولطف ولمدة طويلة • وتحقق سيمون من أن الشاعر ينتظر منه أن يتكلم :

« لقد تركت زوجتي هذا الصباح • أنا معلم لايستطيع أن يعلم • سبق لي أن كتبت روايتين والآن ، وبشكل مفاجيء ، لا أستطيع الكتابة • »

« يعترضك حاجز • »

« أتظن ذلك ؟ »

« ألا تشعر بأنك حقيقي ؟ »

« بشكل غريب تماماً ••• »

« عليك أن تشعر بأنك حقيقة • قبل أن تكتب ، عليك أن تعرف اسمك • »

« أنت على حق مطلق • ما أشعر به هو ••• »

تمايل الشاعر ونظر الى سيمون للمرة الاولى بشكل مباشر • كانت قسماته عدوانية • ثمة شعر بني على أنفه • لم يعد سيمون يحبه •

« أتظن أنك شخص خاص ؟ »

« لا ، أنا ••• »

« هل ذهبت الى محلل نفساني ؟ »
« لا · »
« ماتريده · » كان الشاعر منحنياً بقرب سيمون تماماً الى حد أن هـذا الأخير كان بوسعه أن يقبله ·
« نعم ؟ »
« هو أن تكوى · » كان الشاعرالآن يربت له على وجنته · شعر سيمون بأن الشاعر يعتني به ، مما يبرر لهشعوره بأن جهوده المبذولة في المجيء الى هذه الحفلة ستعوض برسالة كان قد أخفق الى حـد بعيد في الحصول عليهـا ·
« مثلي · »
« لست أعرف اسمك ؟ »
« هيبتش » صـرخ الشاعر للفتـاة الراقصة ، التيكانت تبسم لهما وتهمهم فوقهما كما لو كانت كاهنة · « خذي هذا المتسلل بعيداً عن ظهري· » وبعدئذ لسع سيمون ، بشكل مؤلم تماماً ، في بطنه ، وفجأة نام ·

وقف سيمون من أجل السيدة وهو يترنح على قدميه المتيبستين · لقدكانت نفس الفتاة التـي رقصت قرب حوض السباحة ، وهي ، بخلاف بولا ، فتاة جميلة حقاً · وتساءل عمـا اذا كان بوسعه أن يستخبر عن جنسها · ثابرت على تمايلها أمامه ، وبعد ذلك قبلته·

لقد كانت أشبه بفراشة عابرة ·
وبادرها قائلا : « اسمي سيمون ·»
« مرحبـاً ياسيمون · انني سـوف أسبح · »
تبعها الى حافـة حوض السباحة · ناولتـه الشـعر البني المسـتعار ، أو بالأحرى رمته اليـه فالتقطه كما لو كان خادمة لعروس · وبعد ذلك غاصت في الماء غوصاً جميلاً ، وهبطت حتى القعـر ·
وجد كارل وبولا · كان كارل ،الذي بدا أكثر رزانة يتسلم دفة الحديث ، بينما راحت بولا تهز رأسها · ظهرا، كأي شخص آخر ، غـير مكترثين بمـا يجري في المسبح · لم يكن سيمونيعرف السباحة ·
« يوجد شخص ما في الحوض · »
لوح كارل بيـده · « هناك دائماً شخص ما · »
حشد سيمون نصف دزينة منالناس· وقفوا بحزن عظيم حول الحوض ،وكان بعضهم يتحدث بأصوات خفيضة كما لو كانوا في كنيسة ·
« أخبركم ، قال ، « انها غاصتولم تعد تظهر · »
« ليس ثمة أحد هناك » · كان الماء أكدر معتماً · ولـم تزل الزهور التي

رمتها المرأةالسمينة طافية علىالسطح· أصبح الناس ضجرين وبدأوا يموؤن من أجل الشراب ·

قال سيمون : لقد حصلت علىشعرها المستعار · » ولكنه كان قد أسقطه في مكان ما ·

وجدته بولا يصرخ بقرب التمثال ·

« كنت أبحث عنك · »

« ظننتك كنت مع كارل »

« انه سمين · »

« تلك الفتاة ، » قال ، « كانت تغرق حقاً · »

« أنتتحلم ، » قالت بولا ، وتسلقت الى جانبه ·

« لماذا تملكين سناً ذهبية ؟ »

« ليس لي سن ذهبية ، » قالت · « لابد أنه الضوء · »

ولكنه استطاع في رحم التمثال أن يتلمسها دون أن تبدي استياء ·

« لقد كان مساء بشعاً · »

« هيا بنا ، » قالت وهي تهبط الى الاسفل ، وبصوت سحري له وقع الحقيقة ·

« أنت ، » كان عليه أن يسأل · « أنت حقيقية · »

« أخبرتك ، » قالت ، «انه أنثى ·» حين غادرا شعر بأنه رجل وقور ، يصون ويحب · قادها الى أقصى مكان ممكن عن الحوض · لابد من أن شيئاً ما قد ظهر على السطح ، فقد احتشد الجمهور ·

« سأراك ثانية ؟ »

« نعم ، » قالت ، «ستراني ثانية·»

كان للمنزل رائحة الاطفال والبصل· تعثر بدمية في القاعة فنادته جوديث من الطابق العلوي ، حيث جلست فيالفراش تشاهد التلفزيون الذي كان صوته خافتاً · بدأت أنيقة وذات كفاءة مما جعله يتساءل عما اذا كان قد تركها حقاً · راح يخلع ملابسه ·

« ذهبت الى حفلة كارل · أعلم أنك لا تحبينها · »

نظرت اليه بانشداه · تنهد واستقر على حافة السرير · وظهرت علىالشاشة امرأة شابة نصف عارية وهي تستمتع بهزة التهيج (Orgasm) (١)·حركت

(١) الاورغازم مصطلح سيكولوجي أوجدهفلهلم رايش ، بل هو أعظم اكتشافات رايش ، وقد اعتبره « الاقنوم الذي يفسر الكون كله » · ولقد عُرف الاورغازم بأنه«القدرة على التفريغ التام لكل الاثارة الجنسية المحبوسةخلال التقلصات اللذية اللا ارادية للجسد » ·

(المترجم)

جوديث لسانها فوق شفتيها • كان ثمة شيء غريب ، ومألوف بشكل غامض ، يذوب في وجه الفتاة • انها بولا •

« من هذه ؟ »

انتظرت حتى ظهرت فقرة أخرى من البرنامج ، وبعد ذلك ، وبزفير خافت، أجابته قائلة : « عشق بولا • »

« هذا ليس ممكنا • لقد كانت في الحفلة الليلة • »

« ولكن هذه الحلقة مسجلة من قبل ، » قالت جوديث وهي تضغط الزر لتطفيء الجهاز •

وفي الظلام قال :

« لا يمكن لهذا الاسم أن يكون اسمها الحقيقي • »

« لا أفترض أنه اسمها • » وبعد ذلك بقليل أضافت : « أتعني أنك حقاً لم تسمع من قبل بعشق بولا ؟ »

« لا • »

« كيف هي هذه الفتاة ؟ »

« لم تكن تبدو هكذا هناك • وخاصة في البداية • »

ولبرهة حمقى ، فانه قد عاد الى هذيانه ، لقد كانت بولا في الجهاز ، ولكنها لم تكن بولا في الحفلة ، بل كانت ظلها أو طيفها • انها المدلول الغامض لتلفزيون جوديث المحملق • أراد أن يخبرها ، كما سبق أن أخبرها ذات مرة ، وبدون خجل ، بأوهامه العميقة• لمس فخذها ، ولكنها لم تفهم :

« لقد تناولت حبة دواء • وفضلاً عن ذلك فانك مضطرب • »

« آسف • »

ولكنها نادته فيما بعد :

« سيمون ؟ »

« ممم ؟ »

« لقد كنت حمقاء بعض الشيء • آسفة • كنت مشحونة • كانت لدي فكرة سخيفة طيلة النهار ، مفادها أنك غادرتني نهائياً • »

وضع يده فوق كتفها وربت عليه مرتين •

« نامي • » ولكنها كانت هاجعة تشخر بنعومة •

نهض من الفراش ، وزحف الى الطابق الارضي وبدأ يكتب :

« طوى نفسه ، كطائر النحام المغموس في الماء ليدرس عن كثب تلك السن الذهبية التي تلتمع في مؤخرة فمها • » وبعدئذ كتب في أعلى قمة الصفحة :

العاجز

رکس وارنر

إ.م. فوستر

تنقيح : جون موريس
ترجمة : د . منير صلاحي الأصبحي

هذه ترجمة لكتيّب يحمل اسم الكاتب الانكليزي الشهير إ . م . فوستر E. M. Forster كعنوان له • وقد كتب ركس وارنر Rex Warner الكتيب عام ١٩٥٠ وأدخل عليه تعديلات بسيطة عام ١٩٥٤ • وكما تذكر ملاحظتان كتبتا في بداية الكتيب فان وارنر لم يستطع تنقيح الكتاب من جديد حين كانت هناك نية لاعادة طبعه في عام ١٩٦٠ ، لذلك عهد بالمهمة الى جون موريس John Morris الذي يقول في احدى الملاحظتين : « لقد تركت معظم المواد النقدية المتعلقة بالروايات الخمس كما كتبها السيد وارنر فيما عدا أنني وسعتها بعض الشيء وأشرت الى التغيرات في الموقف النقدي تجاه أعمال السيد فوستر التي طرأت بعد كتابة الكتيب • » وكذلك يبين موريس أنه أدخل بضعة تعديلات جديدة على الطبعة التي صدرت عام ١٩٦٤ والتي استخدمت كأساس لهذه الترجمة •

وقد كانت الطبعات المختلفة لهذا الكتيب جزءاً من سلسلة «الكتاب وأعمالهم» Writers and Their Work التي تنشر في انكلترا تحت رعاية المجمع البريطاني The British Council والعصبة القومية للكتب The National Book League .

وتنتوي « الآداب الأجنبية » نشر ترجمة لبعض قصص فوستر القصيرة في عددها القادم •

ولد ادوارد مورغان فوستر في ١٨٧٩ • وقد تلقى تعليمه في مدرسة تونبردج ، التي شعر نحوها بالكراهية ، وفي كينكز كوليدج في كامبردج ، التي شعر نحوها بمودة استمرت طيلة حياته ، والتي أصبح فيها لعدة سنوات عضواً مقيماً شرفياً • وفي ١٩٥٣ أصبح « رفيق شرف » •

وقد كتب مجموعتين من القصص القصيرة وأربعاً من رواياته الخمس قبل الحرب العالمية الأولى ، وظهرت آخرها وأفضلها ، « **ممر الى الهند** » A Passage to India* ، عام ١٩٢٤ ، حين لم يكن فوستر قد تخطى الخامسة والأربعين ، ومنذ ذلك الحين لم ينشر أي عمل قصصي • وهكذا ، بينما هو من الواضح أنه لم يكن كاتباً خصباً قط ، فليس من الصحيح كما يقال غالباً أنه لم يكتب شيئاً تقريباً خلال الأربعين عاماً التالية • فمنذ الروايات الخمس ظهرت له سيرتان («غولدزورزي لوز دكنسن » ، ١٩٣٤ ، و « ماريان ثورنتن » ،١٩٥٦) ، ومحاضرات كلارك في كامبردج (« وجوه الرواية » Aspects of the Novel ، ١٩٢٧)ونص أوبرا وضعها بنجامن بريتن («بيلي بد» ، ١٩٥١)،وبعض الذكريات عن الهند (« هضبة دِفي » ، ١٩٥٣) ومجموعتان ضخمتان من المقالات ومراجعات نقدية وأحاديث اذاعية (« حصاد أبنكر » ، ١٩٣٦ و « هتافان للديمقراطية » ، ١٩٥١) • وليست هذه القائمة شاملة ، ولكنها كافية لأن تبين في نفس الوقت تعدد اهتمامات السيد فوستر ونتاجه المستمر • واضافة الى ذلك ، وبالرغم من أن فوستر في مجرى حياة معمرة * كتب خمس روايات فقط ، فمن المهم أن نسجل أن أعماله اللاحقة تنصب بأكملها تقريباً على تطوير الموضوعين اللذين يلعبان الدور الرئيسي في أعماله القصصية بطريقة أو بأخرى • هذان الموضوعان ـ اللذان سيبُحثان فيما بعد بقدر أكبر من التفصيل ـ هما ضرورة التسامح وأهمية العلاقات الانسانية •

يقال أحياناً أن إ • م • فوستر هو في الأدب آخر من بقي من تراث ليبرالي مثقف جرفته الآن الحربان العالميتان ، والأحوال الاقتصادية والصراع الضروس بين أفكار دوغماتيه ومتضادة • واذا كانت الفكرة المكونة عن هذا التراث أنه لطيف ومتسامح وذكي ، أنه يحتوي حماساً شديداً للفنون وكراهية عارمة للامبريالية ، فانه من الصحيح أن السيد فوستر ينتمي اليه • ولكن يمكن له أن يقف خارجه • فهو مبدع بشكل يتعدى حدود التسامح المعتدل ، وتتأثر مشاعره بشكل أكثر عمقاً

★ يمكن ترجمة العنوان أيضاً بعبارة « عبور إلى الهند » • (المترجم)

★ توفي فوستر عام ١٩٧٠ • (المترجم)

ويؤثر في مشاعر الآخرين بشكل أكثر عمقاً من شخص يحمل شعلة موروثة لفترة قصيرة • ورغم أن الكثيرين تأثروا به ، فانه لا يبدي في أعماله هو أي تأثرات واضحة بالغير • وكتبه مليئة بتوق الى الصدق في الانفعالات والعلاقات الشخصية وبكراهية لما هو زائف ومعتز بالذات • وهو يقبل حجم العالم وروعته ، ثم يتوصل بتواضع مليء بالحيوية الى فهمه • وهكذا يتم خلق عالم من الفن ويقوم بدوره بتكوين وتغيير ما هو كائن •

قبل معالجة الروايات ، سيكون من المناسب التطرق الى مجموعتي القصص القصيرة ، التي كتبت جميعها قبل عام ١٩١٤ • واحدى هذه القصص ـ « قصة ذعر » ـ هي كما أخبرنا المؤلف أولى محاولاته في الفن القصصي • وفي هذه الفانتازيا يزور پان * مجموعة من الأشخاص الانكليز التقليديين المضجرين الذين يمضون اجازتهم في ايطاليا ويجعلهم بصورة تقليدية يلجأون الى الفرار • ويملؤهم الرعب جميعاً ؛ جميعهم ماعدا صبياً استطاع على نحو ما أن يتحاشى قبضة العرف التقليدي والأصول الحسنة • فهو وحده يرحب ببان وبهذا ينجو من المصير الذي يلقاه أولئك الذين يكبرونه • ونحن نرى هنا أول مثال على واحد من الموضوعات Themes التي توجد في كثير من أعمال فوستر اللاحقة • وهو موسع بشكل خاص في روايته الثانية ، «**أطول رحلة**» ، The Longest Journey التي ترتكز، وان يكن بشكل غير مباشر وعلى نحو معقد ، على مقابلة مع الاله الصغير Genius loci .

جميع قصص ا • م • فوستر القصيرة تقريباً وعظية على نحو صريح ومتأثرة بالأساطير والأفكار الاغريقية • فهو يؤمن كما آمن الاغريق القدامى أن عواطف الجسد وانفعالاته الطبيعية جيدة ، وأن العالم سيكون مكاناً أفضل لو أن الانسان يستمتع بها بصدق وبدون خجل • ان هذا موضوع متكرر في معظم أعمال فوستر ، ولكنه مبين في القصص القصيرة بشكل أكثر صراحة • ولكن احدى هذه القصص ـ « الآلة تتوقف ـ تختلف جداً عن الأخريات • فهي رد فعل على واحدة من أفكار هـ • ج • ولز الخالية المبكرة ، وهي قصة تثير الانتباه لكونها كتبت في وقت مبكر بهذا الشكل من هذا القرن •

لم تتلق قصص السيد فوستر القصيرة ما يكفي من المديح ، ويُنصح من يدرس أعماله بشدة ألا يهملها وأن لا تفوته قراءة بعضها على الأقل قبل البدء

★ بان Pan هو في الأساطير الاغريقية إله الغابات والمواشي والرعاة ، ويتميز بأن له قرون وحوافر جدي ، وهو يعادل الاله الروماني فاونس Faunus .

بالروايـــات • فهي ، بغض النظر عن قيمتهـا الجوهرية ، مشوقة الى حد زائـد فالموضوعات الرئيسية في الروايات تبدأ في الظهور ، رغم أنها تكون في شكل أكثـر شبهاً بالحلم وأكثر بعداً ، وهي بالتأكيد منذ ذلك الوقت أساس نظرة المؤلف الى الحيـــاة •

من بعض النواحي ، من المستغرب أن ا • م • فوستر اختار الرواية كشكل يستخدمه لشرح آرائه • فمن بين كل الأشكال الفنية ، تبدو الرواية أقلها تجريداً ؛ انها تتظاهر بأن الحياة هي مسألة مرتبة ومنظمة تنظيماً جيداً • ولكن حياة معظم شخصيات فوستر ليست جيدة التنظيم ؛ فهي شيء مشوش ، وهذا بالمناسبة تعبير وفكرة يبدو أنه مغرم بهما جداً • ان رواياته تهتم كثيراً بما أطلقت عليه شخصية احدى هذه الروايات اسم « مُسَكِّن التشوش » • مع ذلك فقد اختار الرواية ليعبر فيها عن أفكاره • وربما لاحظ هو نفسه الغرابة ، ففي مقطع كثر اقتباسه مـن « **وجوه الرواية** » ـ عمله الوحيد في النقد المتصل ـ أشار بتردد واشمئزاز ظاهرين الى أن « الرواية تحكي قصة ••• وانني أتمنى لو لم تكن كذلك ، لو أنها تستطيع أن تكون شيئاً مختلفاً ـ لحناً ، أو ادراكاً للحقيقة ، وليس هذا الشكل الرجوعي المتدني » •

والقصص القصيرة هي من بعض النواحي حل وسط بالنسبة لوجهة النظر هذه • وكان من الممكن لنا أن نتوقع أن تتوجه الأعمال اللاحقة في اتجاه الفانتازيا المحضة • ولكن الواقع هو أن ا • م • فوستر هو أشياء أخرى بالاضافة الى كونـه فناناً • فكما كتب پيتر بورا في عام ١٩٣٤ « هو فنان على حافة الاصلاح الاجتماعي • فهو مهتم بالقضايا • وهو لم يبتر نفسه قط ، كما يفعل معظم الفنانين عاجلا أو آجلا ، عن المسائل السياسية والاقتصادية الخاصة بالعالم الخارجي » • وقد قـال فوستر نفسه أن « اغلاق البوابة الى حد ما هو أمر محتم بعد سن الثلاثين اذا قدر للعقل نفســه أن يكون قوة خلاقة • » وعـلى الرغم من أن « الغاية » هي الشـيء المسيطر في معظم كتاباته اللاحقة الخاصة بالمناسبات ، فانه لم يحاول في أية من رواياته أن يلقي موعظة • وحتى « **ممر الى الهند** » ـ رغم أنها « كتاب لا يستطيع أي دارس للمسألة الهنـدية أن يتجاهله » ـ فهي أولا وأخيراً عمل من الابـداع الفنـي •

ولنلتفت الآن الى بحث الروايات الأ ربع التي نشرت قبل الحرب العالميـة الأولى ، أي بين ١٩٠٥ و ١٩١٠ • ان العالم الذي يجري وصفه هو بالطبع مختلف عن عالم يومنا هذا • ومع ذلـك فان المشاكل والصـراعات هي نفسها اليـوم •

وموضوع فوستر هو الطبقة الانكليزية الوسطى التي نشأ هو نفسه فيها وقد كتب عن أفرادها :

لقد كسبوا الثروة بواسطة الثورة الصناعية ، والقوة السياسية بواسطة قانون الاصلاح الصادر في عام ١٨٣٢ ؛ وهم ذوو علاقة بنشوء الامبراطورية البريطانية وتنظيمها ؛ وهم مسؤولون عن أدب القرن التاسع عشر • صلابة ، حذر ، استقامة ، فعالية • انعدام للمخيلة ، نفاق •

والصفتان الأخيرتان هما بشكل رئيسي موضع الهجاء في الروايات • فهما المسؤولتان عما سماه فوستر « القلب غير النامي » ، وهذا أحد المواضيع الأساسية في فكره • وقد أشار ، وهو يكتب عن هؤلاء الانكليز الذين تلقوا تعليمهم في معظم الحالات في المدارس الرسمية ، الى أنهم يخرجون الى العالم « بأجسام نامية نمواً جيداً وعقول نامية الى حد معقول وقلوب غير نامية • وهذا القلب غير النامي هو المسؤول الى حد كبير عن المصاعب التي يلقاها الانكليزي في الخارج • وهو قلب غير نام ــ وليس قلباً بارداً » •

انه مما ينسجم مع فوستر أن يكون هذا المقطع قد كتب فيما يتعلق بالمدارس الرسمية • فهو نفسه كان طالباً نهارياً (وهو يصر على هذا التمييز في المراجع) في تونبردج ، التي هي على ما يظهر النموذج الذي استُمدَّت منه «سوستن» في أول روايتين له • لقد كان دائماً يكره نظام المدارس الرسمية ولم يكن لديه الكثير من المديح لهذا النظام ، رغم أنه ليس من المعروف ما الذي يريده بدلا عنه • وهذا النظام ، أكثر من أي شيء آخر ، هو الذي يكاد أن يدمر البطل في « **أطول رحلة** » •

وفي كامبردج ، من ناحية أخرى ، (حيث درس الآثار الكلاسيكية والتاريخ) يبدو أن فوستر وجد نقيض المدارس الرسمية التام • ففي كامبردج ، وفي كنكز كوليدج بالذات ، يلقى الأفراد الاحترام ، بدلا من أن يحشروا معاً كالمواشي ؛ وتبحث الأفكار ، بدلا من أن تحشى في أفواههم بالقوة • وكما كتب في سيرة حياة لاوز ديكنسن (الذي كان أيضاً من طلبة كنكز كوليدج) « يبحث الشبان عن الحقيقة بدلا من النصر ، وهم راغبون في المناشدة للحصول على رأي حين يثبت أنه لا يمكن الدفاع عنه ، ولا يحاولون التفوق على بعضهم البعض ، ولا يشعرون أن الحياء هو ثمن باهظ للاستقامة » •

لكن كامبردج ، بالرغم من حرية الفكر والنقاش فيها ومن أبهتها وجمالها فيما يتعلق بالعلاقات الشخصية ، لم تكن تمثل عالماً كاملا • فخارج كامبردج لم

تكن هناك فقط سوستن تونبرج ، عالم التحاملات التافهة والاضطهاد والابتذال ، وانما عوالم أخرى كثيرة أيضاً . لقد كانت هناك على سبيل المثال اليونان ، وسيكون من المشوق متابعة التغـيرات والتطورات في نظـرة فوستر لهذا العالـم الحقيقي والمثالي . فهناك العالم نصف الصوفي ، عالـم حوريات الغابات وقوى الطبيعـة ، وهناك عالم التوازن والجمال الذي ندخله في عدة قصص من القصص القصيرة ؛ وهناك الاستمتاع بحقول التاريخ شبه المجهولة وكنتيجة مباشرة لخدمته المدنيـة في مصر خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، هناك الكتابان المتعلقان بالاسكنـدرية ، حيث قابل لأول مرة الشاعر س . ب . كافافي ، الذي تعتبر أعماله الآن كجزء من التراث الذي بدأ في الشعر الاغريقي الكلاسيكي . وبالتأكيد كنتيجة لثقافته وفيما بعد لخبرتـه ، عنت اليونان شيئاً كثـيراً لفوستر . وفي أعماله الأولى (وقـد تم ذكر القصص القصيرة) ثمة مثل أعلى يجب الاقتراب منه برهبة واجلال . ربما بقدر أكثر مما ينبغي من الرهبة والاجلال ؛ ففي الروايات نجد ايطاليا المعاصرة وليست اليونان القديمة ولا حتى الحديثة هي التي تزود فوستر بالعالم الذي يستخدمه للمقارنة مع صورته الانكليزية الخاضعة للتقاليد .

ظهرت الرواية الأولى ـ « **حيث تخاف الملائكة أن تخطو** » Where Angels **Fear to Tread** في عام ١٩٠٥ حين كان فوستر في السادسة والعشرين . ومعظم الكتاب الجيدين يكررون أنفسهـم على نحو مستمـر ، مع تعديلات متعـددة ، في أعمالهم المختلفة ، وليس فوستر استثناء لهذه القاعدة . ففي روايته الأولى نصادف معظم الموضوعات وقـدراً كبيراً من الطريقـة وحتى الكثير من الشخصيـات التي ستظهر في أعماله اللاحقة . فهناك طريقتان في الحياة متباينتان ، متمثلتان في هذه الحالة في سوستن وايطاليا ؛ وهناك حدة البديهة والطابع الملهاوي اللذان تستتـر وراءهما العواطف الجامحة ويقودان الى أفعـال تكاد تكون ميلودرامية ؛ وهنـاك البحث عن الخلاص . وهناك توازن التفكير واستقامته اللذان يمتاز بهما فوستر . فبالرغم من أن سوستن تدان هي وكل ما تمثله ، فان ايطاليا لا يجري تمجيدهـا على نحو عاطفي . وهناك نقد حاد ولامع للتكبرات المختلفة ، الاجتماعية والفكرية ؛ وهناك الاصرار عـلى كل من الحقيقة وصعوبـة اكتشافها . وهناك أيضاً ـ عـلى ما أعتقد ـ بعض العيوب التي تتكرر في الروايات الأخرى .

على حد قول الناقـد الأمريكي ليونل ترلِنغ ، « **حيث تخاف الملائكـة أن تخطو** » هي رواية عن الشـؤون الجنسية . وانني أعتقـد أن هذا الحكـم يبسط المسألة أكثر مما يجب ، ولكن من الصحيح أن الجنس يلعب دوراً كبيراً في القصة .

لذا فمن المؤسف أن فوستر يبدو مضطرباً على نحو يثير الاستغراب في تناوله لهذا الوجه من وجوه الواقع • فهو ، رغم كونه لامعاً في معالجته للنساء في جميع المناسبات ما عدا حين يكن عاشقات ، يبدو أنه يعالج مشاهدهن الغرامية وكأنها وباء لا مفر منه • وليس هو أكثر نجاحاً بكثير مع الرجال الذين يصبحون ، وهم يعانون الحب ، فجأة غير قابلين للتصديق • وانني لا أعتقد أن فوستر يقصد أن يحدث هذا • انه قد يوحي الى حد معقول بأن الحب بين الجنسين هو تجربة انتقالية يؤمل منها الشيء الكثير ولكن لا ينجم عنها سوى القليل • ولكن ليس هذا تماماً هو ما يوحي به **فعلا** • اذ يجد المرء نفسه مدفوعاً الى الاعتقاد بأن هذا واحد من الأشياء التي ينبغي له (لفوستر) أن يحبها ، ولكنه لا يحبها ، ونساؤه هن عادة اللواتي يتحملن مسؤولية ذلك • فحين يكن متمتعات بالراحة والدفء ، غالباً ما يكن صالحات • وحين يكن مسنات فانهن يعطين أحياناً نوعاً من الأهمية الخارقة للطبيعة والتي يصعب علينا رؤية ما يبررها • وحين يكن شابات ، فهن عادة والى درجة غير عادية حمقاوات أو مترددات أو شريرات • وهن على هذا الأساس يجري تصويرهن بشكل يدعو للاعجاب ؛ فالعذارى الحمقاوات يصورن بالتأكيد بتعاطف وكذلك بتفهم ــ دائماً ، باستثناء حين يكن عاشقات • وهناك عيوب مماثلة في العشاق الذكور ومرة أخرى لا يستطيع المرء أن يصدق أن هذه العيوب مقصودة •

وهناك نقطة أخرى حول طريقة فوستر يجب ايضاحها قبل الشروع في بحث الروايات • فهي على نحو ما ، طريقة رمزية • فالشخصيات تعني أكثر مما تقول ؛ والحبكة توحي بأكثر مما هو موجود فيها فعلياً • فالعنصر الرئيسي مثلا في قصة رواية « **حيث تخاف الملائكة أن تخطو** » هي محاولة استرداد طفل رضيع من بلدة ايطالية صغيرة • والطفل هو نصف انكليزي ونصف ايطالي • وهو يلقى حتفه على يد ممثل للحضارة السوستنية ★ • من الواضح أن فوستر ، بحبكة مثل هذه ، يلمح الى شيء أبعد من مجرد قضية غباء وقسوة • ان آفاقه تمتد الى ما وراء الحدود التي يضعها لها • فكتابته في الواقع شعرية وليست واقعية •

في « **حيث تخاف الملائكة أن تخطو** » تمثل عائلة هريتن الطبقات الانكليزية الوسطى • والسيدة هريتن ــ الأم ــ هي شخصية مرعبة • ووقارها هو قناعها التنكري • فتحت غطاء هذا القناع ، ومع كل مظاهر اللطف ، نجحت في التحكم بولديها واحباطهما وفي جعل أقربائها يخشونها • وحين تتعرض للخذلان ، تصبح لئيمة وجبانة • لقد حمت نفسها بصورة لا شعورية من الواقع ، وتأثيرها على الآخرين

★ نسبة إلى سوستن التي ذكرت أكثر من مرة أعلاه • (المترجم)

سيء دائماً • وابنتها هارييت هي واحدة من أقل الفتيات جاذبية في الأدب • فهي ضيقة التفكير ومتشبثة بآرائها ومبالغة في قناعاتها الحقيرة وقاسية وعمياء عن كل شيء خارج الأعراف السوستنية • وبالاضافة الى ذلك ، فانها تصور باستمرار وعيونها متدفقة وأنفها محمر • ويعامل فيليب ، شقيق هارييت ، بعطف ، رغم أنه بعيد عن أن يكون بطلا • فهو شخصية ضعيفة ، مثقف تتسم مفاهيمه الجمالية بالعاطفية ، وكلبي على نحو باهت ، وهو حسب تفكيره أعلى منزلة من الآخرين ، بينما هو في الواقع مبتور كلياً عن ينابيع الحياة الرئيسية ويلخّص تاريخ حياته بالشكل التالي :

في الثانية والعشرين ذهب إلى ايطاليا مع بعض أبناء عمومته ، وهناك تشرّب أشجار الزيتون والسماء الزرقاء واللوحات الجدارية والأنزال الريفية والقديسين والفلاحين والفسيفساء والتماثيل والشحاذين جاعلا منها كلا جمالياً واحداً • وعاد وعلائم النبوة تبدو عليه وكانه إما سيعيد تكوين سوستن او سيرفضها • وفي فترة قصيرة انتهى ذلك • فلا شيء حدث في سوستن ولا في داخله • لقد أحدث صدمة لدى نصف دزينة من البشر ، وتشاجر مع أخته ، وتشاحن مع أمه • واستنتج أنه لا يمكن حدوث شيء ، لعدم علمه أن الحب الانساني وحب الحقيقة ينتصران أحيانا حيث يفشل حب الجمال •

ومع ذلك فهذا الشخص الذي لا يعد بالكثير هو على نحو ما بطل الكتاب • فأحد موضوعاته الرئيسية نمو هذا القلب غير النامي بواسطة الاتصال مع ايطاليا من نوع مختلف حيث الحب الانساني أكثر تركيزاً من الجمال وحيث هناك فارق بين التماثيل والشحاذين • وتشاركه تجربته شخصية أخرى تكوّن هذه التجربة الى حد ما ، وهي تقف ـ ولكن بطريقة مختلفة ـ بين العالمين • هذه الشخصية هي الآنسة كارولين آبوت ، فتاة شابة ومحترمة من سوستن • وهي أيضاً تتغير في شخصيتها بواسطة ايطاليا ، ومرة أخرى يحدث هذا التغيير على مرحلتين •

ويتم الاتصال بين العالمين بواسطة زيارة لايطاليا تقوم بها ليليا ، أرملة ابن السيدة هيريتن • وليليا امرأة سخيفة ، رغم أنها تستدعي شيئاً من الرثاء • لقد قيل عنها أن « مؤهلها الوحيد للحياة هو نظرة مبتهجة متوردة ، تتحول الى المرح الصاخب أو الشجار حسب الظروف » • وقد تلقت الاضطهاد التام من حماتها (وكل ذلك مع أفضل النوايا) ، وتشعر بالسعادة لأنها ستقضي اجازة في ايطاليا ، بمصاحبة واشراف الآنسة آبوت •

وفي ايطاليا تقع في هوى جينو وتتزوجه • ويسمع آل هريتن فقط عن الخطبة ، ويُرسَل فيليب للاستقصاء • وبالطبع يعتبر أن الزواج غير ملائم • ففي الواقع ليس باستطاعته تخيل وجود أطباء أسنان في بلد هي بالنسبة له نوع من العالم الخرافي ، مزيج مركب من روما القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة • وهو يعرض نقوداً على جينو ليتخلى عن ليليا ، ولو أنه وصل في وقت أبكر ، لكان من المحتمل أن يفكر جينو بالعرض • ولكن الزواج قد تم بالفعل • ولا تبعث فيه رؤية وجه فيليب سوى الضحك الجامح وفي نوبة ضحكه يدفع فيليب ويوقعه على سرير في الفندق • ويعود فيليب الى انكلترا ، وقد جرحت كبرياؤه وحساسيته ، كارهاً ايطاليا والموقف الذي ليس في متناول فهمه بأكمله •

وبالتأكيد يثبت بعد فترة قصيرة أن الزواج فاشل • فليليا تشعر بالملل في المجتمع الريفي الصارم في أعرافه بقدر صرامة سوستن رغم اختلاف هذه الأعراف • وبالتأكيد ، بما أن أعراف مونتريانو تبدو مصنوعة للرجال وليس للنساء ، تبدأ في استرجاع عالم آل هريتن في فكرها بتوق ، علماً بأن هؤلاء قد قطعوا الآن جميع اتصالاتهم بها • ويبدأ جينو في التطور في اتجاهات لم تكن تتصورها • فبدلا من أن يبقى لعبة حلوة ، يصبح رجلا عادياً وضمن أعرافه يصبح أيضاً رجلا يحاول الى حد معقول فرض سيطرته • وهو قد توقف عن الشعور بالحب نحوها ، اذا كان قد أحبها يوماً ما • وهو غير مخلص تجاهها ، ورغبته الرئيسية هي أن يكون والداً لطفل يكون مثله •

وتلد ليليا صبياً وتموت أثناء الولادة • وكانت قد كتبت من قبل الى آل هريتن تصف تعاسة حياتها •

والسؤال الآن هو : ما الذي يجب القيام به تجاه الطفل ؟ ان غريزة آل هريتن تدفعهم لأن ينسوه كلياً • فهم يفترضون أن أباه وغد وأمه حمقاء • ولكنهم في هذا يلقون مقاومة من قبل الآنسة آبوت ، التي تصر أنه اذا لم يقوموا بأي شيء تجاه الطفل فانها ستقوم هي نفسها بتبنيه • وعند ذاك يخترع آل هريتن (أو على الأقل السيدة هريتن وهارييت) أسباباً أخلاقية مقنعة تجعل من واجبهم انقاذ الطفل من المصير الرهيب ، مصير العيش مع والده • ولا يخطر لأي منهم قط أن جينو قد يفضل الاحتفاظ بطفله •

وبطريقة ما (مراحل الحبكة معقدة في هذا الجزء) يصل فيليب وهارييت والآنسة آبوت جميعاً الى مونتريانو في طلب الطفل • وسرعان ما يكتشف فيليب

والآنسة آبوت أن جينو ليس بتاتاً الغول الذي تخيلاه . ويحضرون أداءً لا مبالياً ولكنه شديد المرح في دار الأوبرا المحلية . ويستقبل جينو وأصدقاؤه فيليب وكأنه أخ طال غيابه . ويلقى الطفل الاعجاب . لقد أعاد كل من فيليب والآنسة آبوت اكتشاف ايطاليا ـ ليس على نحو جمالي ولكن على نحو انساني . هارييت فقط ، التي ترفض بعناد الاستمتاع بأي شيء أو فهم شيء ، تبقى مخلصة كلياً لأسوأ مبادىء عالم سوستن .

ويبدو المشهد مهيأ لنهاية ملهاوية ، ولكن النهاية مختلفة . إذ تقوم هارييت ـ دون أن تدرك بتاتاً أنه يمكن لجينو أن يحب طفله، ومدفوعة بمعتقداتها الدينية ـ بسرقة الطفل وهي في طريقها إلى المحطة . ثم يقتل الطفل في حادثة . ويذهب فيليب ، وقد كسرت ذراعه في الحادثة ، الى جينو يحمل إليه الخبر ، ويتلمس جينو ، وقد انفجر في غضب عنيف ، طريقه مطارداً فيليب في غرفة مظلمة ، ثم يقوم بتعذيبه لاويا ذراعه المكسورة ويبدأ بخنقه على نحو منهجي . في اللحظة الأخيرة تصل الآنسة آبوت . وهي تظهر كالهة وبطريقة تكاد أن تكون معجزة تنقذ حياة فيليب وتجعل من الرجلين صديقين حميمين من جديد .

وتأتي مفاجأة أخيرة في نهاية الكتاب . لقد قربت التجربة الايطالية بأكملها بين فيليب والآنسة آبوت . ويكون فيليب ، أثناء عودتهما إلى انكلترا ، على وشك التقدم إليها بعرض زواج ، حين تخبره أنها كانت طيلة الوقت ، ودون أن تصرح لأحد بذلك ، تشعر بالحب الجسدي تجاه جينو . ولم يبادلها جينو الحب ، لأنه لم ينظر إليها كامرأة ، وإنما كالهة . وهي ستعود الآن إلى سوستن ، سعيدة إذا استطاعت في بعض الأحيان التحدث عنه إلى فيليب . وفي أثناء ذلك يكون جينو قد تزوج ثانية ، بعد أن وجد أن عدم زواجه سيكون باهظ التكاليف .

ليست أولى روايات فوستر أفضلها . ولكنها مع ذلك تبدو محتوية للصفات المميزة لفنه ، ولهذا السبب فقد تم وصفها هنا بتفصيل . لكن لا يمكن لأي وصف أن يعطي تداخلات الحبكة ، والتغييرات التدريجية في الشخصيات ،والتوقد الذهني والجمال والهجاء في مشاهد كثيرة ـ لا يمكن لأي وصف أن يعطيها حقها . ومما يستحق الذكر أيضاً في هذه النقطة أنه في الروايات الخمس جميعها هناك لجوء متكرر إلى غرس الدلائل كتحضير للأحداث اللاحقة . وهذه أعظم مهارات فوستر ، إذ عادة تقدم الدلائل على نحو عرضي تماماً بحيث أنها تصبح واضحة فقط أثناء قراءة ثانية . وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة لرواية « ممر إلى الهند » ، ولكن حتى في الرواية الأولى تظهر هذه الطريقة في المقطع الذي يصف الحادثة التي

تتسبب عاصفة بحدوثها والتي تنتهي بموت طفل جينو • لقد تم تحضير هذا بعناية قبل سبعين صفحة في نقاش حول الطقس ، ولكنه يتم بمهارة كبيرة إلى حد أنه لا يكون ظاهراً في البداية •

والرواية التالية ، التي نشرت عام ١٩٠٧ ، هي « **أطول رحلة** » • ولقد ذكر فوستر (في مقدمة لطبعة « إيفريمانز لايبراري » من رواية « ممر إلى الهند ») أن معظم القراء اعتبروها فاشلة ونبذوها • وهناك على ما يبدو ما يدعو إلى افتراض أن فوستر نفسه يحمل محبة خاصة لها ، ربما بسبب ارتباطها بكامبردج وبدخوله هو إلى الحياة المتمدنة ، وهي من بين رواياته الرواية التي اختارها بنفسه لتكون ممثلة له في سلسلة « الأعمال الكلاسيكية العالمية » •

وتهتم « **أطول رحلة** » ـ مثل سالفتها ـ إلى حد كبير بعالمين متناقضين وباستقصاء ما يمثل الحقيقة • انها تبدأ في كامبردج بمجموعة من الطلبة يتباحثون في الميتافيزيقيا (هل توجد بقرة ما حقاً حين لا يكون هناك من يراها ؟) • وتدخل إلى حماسة وود عالم كامبردج شابة من سوستن اسمها آغنس تنجح في إيقاع الفوضى في حياة ريكي ، المفكر الذي هو الشخصية الرئيسية في الكتاب • لكنه مثل بعض شخصيات فوستر الأخرى ليس مفكراً ممتازاً • فهو يجد صعوبة في فهم المناقشة الميتافيزيقية • وتتضخم حساسيته الشديدة بفعل كونه أعرج منذ ولادته ، وتبعث ذكرى أبيه الاشمئزاز في نفسه بقدر ما هو متعلق بذكرى أمه •

ويبدو أن الموضوع الرئيسي في الكتاب هو تهاوي ريكي إلى عالم اللا واقع (كما يتمثل في زوجته آغنس وفي عالم المدارس الرسمية في سوستن) وخروجه إلى النور من جديد بارشاد من صديقه الكامبردجي آنسل ، وأخيه ستيفن • ومرة أخرى تكون ذروة الرواية رمزية وعنيفة • فالمذهب العقلي لا يعوق ستيفن ، الذي غالباً ما يكون ثملاً بل وغير مهذب ، لكنه كريم بالنسبة للنقود وعلى صلة بعالم الريف بطريقة ليس في وسع الشخصيات الأخرى التوصل إليها •

وتكون خطبة ريكي وآغنس قد تمت حين يكتشف ريكي أن ستيفن ـ الذي نشأ في الريف بعيداً عن العائلة ـ هو أخوه غير الشرعي • ويقتنع ريكي ـ الذي يعتبر هذه الحقيقة مثالاً جديداً على فسوق أبيه ـ مع آغنس وأخيها مدير المدرسة أن ينكر القرابة وأن يعرض الرشوة للحصول على الكتمان • وتأتي الذروة حين يكشف آنسل ـ في خطاب متقد العاطفة وإن كان بعيداً عن الواقعية ، يجري في قاعة الطعام في المدرسة ـ أن آنسل ليس إبن والد ريكي ، وإنما إبن أمه • وسيدرك أي شخص لديه اطلاع ولو بسيط على الحياة الانكليزية على الفور أن

مدرسة يمكن أن يحدث فيها شيء كهذا لن تستطيع الاستمرار طويلاً بعد حدوث المشهد . فهو ببساطة غير واقعي . ونحن نعرف هذا والمؤلف يعرفه أيضاً ، ولكن إحدى الخصائص الغريبة هي أنه حين تجري قراءة هذا المقطع ضمن سياقه (في الرواية) فانه مقنع بشكل تام ؛ إنه مثل الحبكة البعيدة عن التصديق في أوبرا ، والتي لا نعترض عليها حين نكون داخل المسرح بسبب عظمة الموسيقى . وبالمناسبة، ليس هذا مثالاً مفرداً . فالصدمات المختلفة النوعية تحدث في جميع الروايات تقريباً . فهي جزء من خطة المؤلف المتعمدة . اننا نقرأ في مقطع كبير المغزى في « ممر إلى الهند » « أن معظم الحياة مضجر إلى حد أنه ليس هناك من شيء يقال حوله والكتب والأحاديث التي تصف الحياة بأنها مشوقة مضطرة للمغالاة ، على أمل تبرير وجودها . » اننا نبدأ في أن نرى ما الذي يعنيه السيد فوستر حين يتشكى أنه « نعم ــ يا إلهي نعم ، ان الرواية تحكي قصة » (« وجوه الرواية ») .

بعد ذروة رواية « **أطول رحلة** » يصمم ريكي أن يكرس نفسه لأخيه . فمطمحه هو أن ينقذه من الادمان على الشرب ؛ أن يقوم بما هو في وسعه كي يمدنه . ولكنه من جديد يجد ــ كما وجد بالنسبة لزواجه ــ أن محاولته لدخول عالم الواقع فاشلة . وهو يموت أثناء إنقاذه لحياة أخيه ، موافقاً أخيراً مع احد الشخصيات الذي قال له قبل الحادثة تماماً : « انني أوكد لك جاداً أن الأشياء الهامة في الحياة هي أشياء صغيرة ، وأن الناس ليسوا مهمين على الاطلاق . عد إلى زوجتك . »

من الواضح أن هذه الرواية أيضاً تتعلق بمفكر فاشل . ولا يمكن أن نقول أن ريكي هو شخصية محببة ، لكنه شخصية تتلقى الكثير من العطف ، وهو يكتسب قدراً من السمو من محاولاته لاكتشاف الحقيقة . وهجاء فوستر لعالم المدارس الرسمية في سوستن هجاء رائع ، ووصفه لتدهور شخصية ريكي في هذا العالم هو واحد من أفضل الأشياء التي كتبها . وبالتأكيد ليس الكتاب ككل خالياً من العيوب ، ولكنه ليس بتاتاً عملاً فاشلاً كما اعتبروه في الماضي . ففيه خاصة مؤثرة على نحو غريب وهو يكشف إلى حد كبير تفكير مؤلفه .

والرواية التالية أقل جدية وأقل عاطفية . وقد وضع مخطط « **غرفة ذات منظر** » A Room with a View ، التي نشرت عام ١٩٠٨ ، في عام ١٩٠٣ ، لذا فليس من المدهش أنها تشابه « حيث تخاف الملائكة أن تخطو » أكثر من « أطول رحلة » . وهي كتاب مليء بالملهاة المتقنة . والشخصيات النسائية ، أو معظمها ، بشكل خاص تعامل بمنتهى الرشاقة والظرف . ولكن ، مع الملهاة هناك

الموضوعات والطرق الجدية المعهودة • ومرة أخرى يُقَدَّم إلينا صراع بين الحقيقة والزيف ، بين الفن والحياة ، بين سوء فهم للفن وسوء فهم للحياة • وتلعب إيطاليا، أو ذكرى إيطاليا ، مرة أخرى شيئاً من الدور الذي لعبته في رواية فوستر الأولى• ويحرك فعل رمزي من العنف آلية الكتاب • إذ يطعن أحد الايطاليين إيطالياً آخر أثناء مشادة في الشارع ، ويجري بعض الدم على صور فوتوغرافية تخص لوسي هنيتشرتش ، التي تقع مغمى عليها بين ذراعي جورج إمرسن ـ وهذه الأحداث تمثل على نحو ما المشاكل المطروحة في الرواية تمثيلاً رمزياً • وإن محاولة تحديد معنى الرمز بالضبط سيكون الايحاء بأن هذا الرمز غير واف • لكن رموز فوستر تستحق بالفعل الدراسة • فهي التي تجعل كتابته شاعرية والتي تمنح أعماله اللاحقة تميزها الخاص • فالدم على الصور والرموز التقليدية إلى حد أكبر الخاصة بروابط الدم غير المتوقعة في « حيث تخاف الملائكة أن تخطو » و « أطول رحلة » تقود إلى الرمزية الأكثر جلالاً في « هواردز إند » Howards End وكهوف المارابار •

أما بالنسبة للوسي هنيتشرتش وجورج إمرسن فان مشكلتهما هي ببساطة أن يتزوجا ، ونحصل أخيراً على نهاية سعيدة • ولكن مرة أخرى ليس من السهل اكتشاف الموقع الذي يتخذه فوستر نفسه • حين تفسخ لوسي خطبتها لسيسيل ڤايس ـ واحد من مفكري فوستر القلائل الذين يجري تقديمهم على أن طبيعتهم الغالبة متزمتة ومغرورة ومنفرة ـ فانها لاتدرك أنها في الواقع مغرمة بجورج إمرسن • وكما يقول فوستر :

> **لقد تخلت عن محاولة فهم نفسها ، وانضمت الى الجيوش الجرارة من الجهلة، الذين لا يتبعون القلب ولا العقل ، ولا يسيرون الى مصيرهم وفقاً لشعارات معينة• هذه الجيوش هي أناس لطفاء وأتقياء • لكنهم استسلموا للعدو الوحيد ذي الأهمية ، العدو الداخلي • لقد أثموا بحق العاطفة والحقيقة ، وسيكون كدحهم بحثاً عن الفضيلة ضرباً من العبث •**

« القلب والعقل » ، « العاطفة والحقيقة » ، « إيروس وپالاس أثينه » ـ تبدو هذه بالتأكيد مثل فوستر العليا • ولكن الأمر ليس بهذه البساطة • ففي النهاية تدرك لوسي عواطفها الحقيقية وتستعد للزواج من جورج • وعند هذه النقطة فجأة ينقلب ـ السيد بيب ـ وهو من رجال الكنيسة وقد كان حتى هذه اللحظة بشكل قاطع إلى جانب الحياة ، وأبدى تسامحاً وتفهماً ، وحمل المحبة للايطاليين وأظهر استعداداً لأن يسبح عارياً ـ ضد الزواج •

لقد حير هذا التغير المفاجىء معظم النقاد • وقد فسره بعضهم بأن فوستر يكره رجال الكنيسة بشدة جعلته لا يستطيع تحمل وجود رجل كنيسة « صالح » في أي من كتبه • لكن فكرة المرء عن استقامة المؤلف الفنية تمنعه من قبول هذا الحال • ونحن نقرأ عن السيد بيب أن : « إيمانه بالعزوبية ، المخبأ بحذر شديد تحت تسامحه وثقافته ، طفا الآن على السطح وتوسع مثل زهرة دقيقة • » وشعوره القوي المؤيد « حاذق جداً وبعيد تماماً عن الدوغماتية » • وهو شعور يسبب شيئاً من الفساد للابتهاج العام الذي يشعر به القارىء العادي ، وفيه ـ كما أعتقد ـ يجد المرء مثالاً (ربما ليس مثالاً ناجحا جداً ، من وجهة نظر الرواية) على تردد فوستر في الالتزام على نحو نهائي حتى بشعارات مهيبة على نحو واضح مثل الحقيقة والحياة • ومن جهة يمكن لومه بسبب التردد ، ولكن من جهة أخرى قد يسمو قدره بسبب تشككه • وبالتأكيد الايمان والشك معاً ، الجرأة والجبن معاً ، هما من خواص فنه ، المبني بالتأكيد على صعوبة « التوفيق بين الأضداد • »

وهذه هي مشكلته مرة أخرى في « هواردز إند » ، التي نشرت عام ١٩١٠ • « فقط إربط » ـ هذا هو شعار الكتاب ، ولكن الواقع أن الربط يتحقق فقط من خلال ميتات وانهيارات في انتصار لنوع من الأنوثة المنعدمة الجنس •

هنا تقوم عائلتان بتمثيل العالمين • ففي أحد الجانبين هناك الأختان شلكل (وهما نصف انكليزيتين ونصف المانيتين) وفي الجانب الآخر عائلة ولككس ، الخشنة ، الماهرة ، الجبانة ، العديمة المخيلة • وتكرس مارغرت وهلن شلكل حياتهما « للثقافة » ، للحياة الداخلية ، للعلاقات الشخصية • لكنهما تعيان وجود « حياة خارجية » ، وهي شيء يختلف عما يظهر في الكتب التي تقرآنها وفي نقاشاتهما مع أصدقاء مصقولين مترفين • ومن جانب آخر ، نجد أن أفراد عائلة ولككس ، البارعين في شؤون « الحياة الخارجية » ، لا يعون وجود أية حياة أخرى على الاطلاق •

هذا هو الموضوع بشكل عام • وليس هناك حاجة للقول بأن تطويره يتم بمنتهى البراعة • فجهود « الربط » متنوعة وهي عادة فاشلة • ولكن تبدو الجهود بأنها تحمل طابعاً عاماً ملحاً وجاداً يجعلها تختلف عن مثيلاتها في الكتب السابقة • والكثيرون ، بما فيهم ليونيل ترلنغ ، يعتبرون هذا الكتاب تحفة فوستر • وهو يقف عند نهاية مرحلة ؛فلقد انقضى أربعة عشر عاماً قبل نشر « ممر إلى الهند » • ومع ذلك يبدو لي ، في العمق والجدية ، في نوع الرمزية الغزيرة أو المسيطرة ، أقرب إلى الكتاب اللاحق منه إلى الكتب السابقة • فهو ، مثل « ممر إلى الهند » ،

أكثر طموحاً بكثير في مداه مما كانت تلك الروايـات • ونستعير مرة أخرى من الكتاب الممتاز الذي كتبه ليونيل ترلنغ ـ وهو كتاب أنا مدين له بـاستمرار في كتابتي هذه المقالة ـ « هواردز إند » رواية عن مصير انكلترا • وهو كتاب عن حرب الطبقات • والحرب مستترة ولكنها حقيقية ـ حقيقية بالتأكيد إلى حد أن سيفاً يشهر حرفياً ويتم قتل رجل فعلاً • وتظهر انكلترا نفسها في الرواية بشكل ملموس ، إذ أن القصة تتحرك بواسطة الرموز وشخصياتها ليست الوحيدة التي « تمثل أشياء أبعد من ذواتها » ولكن هذا ينطبق أيضاً على « شجرة دردار وزواج وسيمفونية ومكتبة عالم » •

هذا صحيح ، وحبكة الرواية أكثر حذقاً من أن يكون من الممكن أن نتتبع هنا الرموز الموسعة التي يشير ليونيل ترلنغ إليها ، حالات نجاح وفشل الشرعية وعدم الشرعية • وهذه رواية تتحدى أكثر من أية رواية أخرى لفوستر أي نوع مـن التلخيص • فالكثير مـن العقـد الصعبة تُقطَع مـن جديد في مشـاهد من الميلودراما والعنف • ولكنها هنا أكثر نجاحاً مما هي عليه في الروايات السابقة ، ربما لأن ربطها برمزية الكتاب الأساسية هي أكثر صحة ودقـة • وهكذا يمكن للمرء التغاضي عن بعد احتمال علاقة هِلِن الغرامية القصيرة مع ليونارد باست ، وقيام تشارلز ويلككس بقتل ليونادر مرعَب حقاً •

أما بالنسبة لخاتمة الكتاب ، أي للنتائج النهائية لمحاولة « الربط » ، فقد لا يشعر المرء أنها مُرضية ، ولكن مـن العدل آن نقول أن قيمة الكتـاب هي في تحديده لمشكلة معينة وليس في حله لها • ففي النهاية يُنهزم آل ويلككس • واحد منهم في السجن ، والآخر يلجأ في حالة من القنوط إلى زوجته ، مارغريت شلكل ، التي ورثت في النهاية البيت الرمزي • ويمكن القول بأن هذا الانتصار للحياة الداخلية لم يكن هينـاً ، ولكن ، نستعير مرة أخرى قول ليونيـل ترلنغ : « ان الصورة التي يختتم فوستر بها ليست صورة سعيدة كلياً ، هـذا المشهد المصطنع إلى حد ما من الانهماك والقناعة في حقـل التبن ، فالذكر مخصي على نحو أكثر شمولاً ممـا يجب ، وبالنسبة للمرأتين ، تعترف هلن أنهـا لا تستطيع أن تحب أي رجل ، ومارغريت أنها لا تستطيع أن تحب أي طفل » •

هناك رمزان كبيران في هذا الكتاب سيظهران ثانية في أشكال مختلفة بعـد أربعة عشر عاماً في « ممر إلى الهند » • أحدهما هو رمز المرأة المسنة الحكيمة ، التي هي في هذه الحالة زوجة ويلككس الأولى • ويبدو أن خواصها الرئيسية هي نوع من عدم الاكتراث الارستقراطي بغرامات ومخاوف العالم العادي ، والحقائق

المحضة لأنوثتها ، وربما سنها • وبعد موتها تكتسب أهمية أكبر ، إذ تصبح ربة من نوع ما أو حكيمة قبيلة ممثلة للحكمة الأنثوية وغير المنطقية •

لقد أشار فوستر في مكان آخر (طبعة « إيفريمانز لايبرري » من « ممر إلى الهند ») إلى ايمانه بأن الموسيقى هي أعمق الفنون وأنها تقع « على عمق تحت الفنون » • وباستعماله موسيقى سيمفونية بيتهوفن الخامسة كرمز ، عبّر عن معرفته لخواء أساسي في عالم الواقع وعن خوفه منه لحاسة من الذعر وعدم الطمأنينة ، شيء يوسع على نحو شديد نطاق بحثه للطبقات الاجتماعية الانكليزية • والمقطع الذي يحقق فيه هذا في « هواردز إند » هو واحد من أهم المقاطع بين كل أعماله •

سيكون من المسلم به بشكل عام ان سيمفونية بيتهوفن الخامسة هي أكثر الضجات التي تخللت ابداً أذن الانسان سمواً • فجميع الأنواع والظروف تجدها مرضية • وإذا كنت مثل السيدة مَنت ، وتنقر بشكل مختلس حين يسمع اللحن ـ طبعاً لكيلا تزعج الآخرين ـ او مثل هلن ، التي تستطيع رؤية أبطال وحطام سفن في طوفان الموسيقى ؛ أو مثل مارغريت ، التي تستطيع فقط رؤية الموسيقى ؛ او مثل تبي ، صاحب العلم العميق بالطباق ، والذي يضع النوطة الكاملة مفتوحة فوق ركبته ؛ أو مثل قريبتهم ، فراولاين موزباتش ، التي تتذكر دائماً أن بيتهوفن « ألماني أصيل » ؛ أو مثل صديق فراولاين موزباتش الشاب ، الذي لا يستطيع أن يتذكر شيئاً سوى فراولاين موزباتش : في أية حالة ، تصبح العاطفة الأولى في حياتك أكثر حيوية ، وتضطر إلى الاعتراف بأن ضجة مثل هذه تكون رخيصة حين تباع بشلنين •

والمقطع أطول من أن نورده بأكمله ، ولكن نهايته ذات مغزى خاص • فهي تشير إلى حركة السيمفونية الأخيرة : « الحركة الرائعة : قبل كل شيء العفاريت ، ثم ثلاثي من الفيلة ترقص ؛ ويرجو تبي الجمع بشكل عام أن ينتبهوا إلى المقطع الانتقالي على الطبل » •

ويرفع تبي اصبعه حين يقترب مقطع الطبل :

لانه ، كما لو أن الامور كانت مغالية أكثر مما ينبغي ، أمسك بيتهوفن بالعفاريت وجعلها تقوم بما كان يريده • وظهر هو شخصياً • دفعها دفعة خفيفة وبدأت تمشي في سلم كبير بدلا من صغير ، ثم ـ نفخ بفمه مما جعلها تتبدد ! تفجرات من الروعة ، آلهة وانصاف آلهة تتبارز بسيوف هائلة ، عطر ملون ينتشر على حقل

المعركة ، انتصار بديع ، موت بديع ! آه ، لقد انفجر كل ذلك امام الفتاة ، بل ومدت يديها المكتسيتين قفازاً وكانه شيء ملموس • كان أي مصير مصيراً ضخماً ؛ أيةمباراة مباراةمرغوبة ؛ وستصفق الملائكة وأقصى النجوم بقدر مماثل للمنتصروالمهزوم•

والعفاريت ــ لم تكن هناك على الاطلاق ؟ لقد كانت مجرد أشباح الجبن وعدم الايمان ؟ حافز إنساني سليم واحد كفيل بان يبددها ؟ سيقول رجال مثل افراد عائلة ويلككس ، أو الرئيس روزفلت ، نعم • لكن بيتهوفن كان اكثر معرفة • لقد كان العفاريت حقاً هناك • وقد تعود ــ وعادت بالفعل • كان الأمر كما لو أن روعة الحياة قد تغلي وتفور وتضيع على شكل بخار وزبد • وفي دمارها كان المرء يسمع النغمة الرهيبة المنذرة بالسوء ، ومشى عفريت ، بحقد متزايد ، هادئة فوق الكون من طرف الى طرف • ذعر وخواء ! ذعر وخواء ! وحتى متاريس العالم الملتهبة قد تهوي •

وقد اختار بيتهوفن أن يجعل كل شيء على ما يرام في النهاية • فقد شيد المتاريس • ونفخ بفمه مرة ثانية ، ومن جديد تبدد العفاريت • وأعاد ثانية تفجرات الروعة ، البطولة ، الشباب ، بداعة الحياة والموت ، وفي وسط زمجرات هائلة من البهجة فوق البشرية ، سار بسيمفونيته الخامسة الى خاتمتها • لكن العفاريت كانت هناك • وبامكانها أن تعود • لقد قال هذا بشجاعة ، ولهذا السبب يمكن للمرء أن يثق ببيتهوفن حين يقول أشياء اخرى •

كان لا بد من مرور أربع عشرة سنة قبل أن يطور فوستر هذه الرموز في رواية أخرى • ففي عام ١٩١٢ ذهب إلى الهند للمرة الأولى ، وهناك وجد الرمز النهائي لرواياته ــ شيء هو بشكل اجمالي أكثر ضخامة من إيطاليا ، أكثر إبهاماً من المنزل الانكليزي • وبعد عودته بدأ العمل في « ممر إلى الهند » ، لكنها لم تسر سيراً حسناً وتركها مؤقتاً • بعد عشرة أعوام عاد إلى الهند لمدة ستة أشهر ، وأخذ معه الفصول الأولى (من روايته) بغية أن يستمر بها • « ولكن حال مقابلتها (هذه الفصول) للبلاد التي كانت تهدف لأن تصفها » ، يقول فوستر (في « هضبة دِفي ») ، « بدا أنها ذوت وماتت ولم يكن بامكاني فعل أي شيء بالنسبة لها • كانَ من عادتي أن أنظر إليها خلال المساء في غرفتي في ديواس ، ولا أشعر بغير النفور واليأس • لقد كانت الهوة بين الهند كما صورتها الذاكرة والهند كما عرفتها الخبرة أوسع مما يجب • وحين عدت إلى انكلترا تضاءلت الهوة ، وأصبح بامكاني العودة إلى العمل • لكن كنت لا أزال أعتقد أن الكتاب سيء ، وربما ما كنت لأتمه لولا تشجيع ليونارد ولف » •

من المحتمل أن التأخير كان من حسن الحظ • فقبل ذهاب فوستر إلى الهند للمرة الثانية ذهبت به حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ إلى مصر حيث اكتسب ، أثناء وجوده في عدد من الوظائف غير القتالية ، خبرة أوسع بالأجناس المختلفة وبطبقة الموظفين الأوربية • ولكن النسيان لم يطو الهند كما يظهر من عدد من المقالات التي أعيد نشرها فيما بعد في « حصاد أبنكر » •

ويعود عملان من أعماله إلى الفترة المصرية • أحدهما ـ الذي نشر محلياً عام ١٩٢٢ ، وهو « الاسكندرية : تاريخ ودليل » • والتاريخ فيه مشوق واستفزازي ؛ أما القسم المسمى دليلاً فهو واحد من أفضل الأدلة التي كتبت حول مدينة كبرى وأكثرها فعالية على الاطلاق • والعمل الآخر أقل قيمة ، لكنه يحتوي واحدة من أكثر مقالات فوستر حدة في البصيرة ، وهي المقالة التي تتناول شعر ك • ب • كافافي ، الذي لم يكن قبل ذلك معروفاً لدى أغلبية القراء الانكليز •

وقد نشرت « ممر إلى الهند » عام ١٩٢٤ • ولا شك أن بعض نجاحها في إنكلترا وأمريكا يعود الى حقيقة أن الرواية تبدو في ظاهرها دراسة واقعية للعلاقات الانكليزية ـ الهندية • ومن الصحيح أن الرواية تبدأ بمحاولات ، منها السخيف المضحك ومنها الجاد ، يقوم بها الهنود والانكليز لفهم بعضهم البعض ، وأنها تنتهي بفشل من طرف الشخصيتين المذكرتين الرئيسيتين ، عزيز وفيلدنغ ، في إنجاز الصداقة التي يرغبان بها • ولا مجال لانكار العنصر الدعاوي في الكتاب ولكن يصعب أن يستنتج المرء أنه كتب لذلك الغرض • ومع ذلك ، فبالرغم من أن هذا الجانب منه لم يعدله أكثر من أهمية تاريخية فقد كان مسؤولاً إلى حد كبير عن نجاح الكتاب الفوري في إنكلترا والولايات المتحدة ، اذ فيه أشياء كثيرة لكل من الامبرياليين وأعداء الامبريالية للنقاش حولها • ولكن الآن من الممكن أن يرى المرء بوضوح أن الكتاب أكثر بكثير جداً من دراسة للحكم البريطاني ، بل وأكثر من دراسة للمصاعب التي ترافق العلاقات الشخصية ؛ فهو في الواقع أكثر روايات فوستر فلسفة • ورغم أن القصة واضحة المعالم ، وأنها ذات خلفية واقعية ، وتحتوي على هجاء فذ للسلوك الذي يحمل طابع المدارس الرسمية الانكليزية الذي يمقته هذا المؤلف على هذا النحو الخاص ، فان ما يحرك العقل في هذا الكتاب هو التردد المألوف ، المباينة بين نوع من الأمل وبين « الذعر والخواء » اللذين يبدوان في الهند خلال تلك الفترة وكأنهما اكتسبا طابعاً حقيقياً يكاد أن يكون مادياً • هل تستطيع أية عقيدة أن توجد ،

بعد التسليم بهذا الذعر والخواء ؟ لا يريد فوستر أن يجيب بدقة على هذا السؤال · ونجاحه في كتابة آخر وأعظم رواياته هو في طرحه للسؤال ·

وبالنسبة لهذا السؤال الضمني ، فان شخصية السيدة مور ذات أهمية كبرى · فهي تأتي الى الهند مع ادِلا كوستدِ التي يتوقع أن تتزوج إبن السيدة مور ،روني ، وهو مسؤول بريطاني · وهي لطيفة ومتفهمة ، بل وقادرة على القيام باتصالات مع الهنود · وهي تقول ، والاخلاص يطبع كلامها ، « الله ··· هو ··· الحب » وتوصي ب « النية الطيبة وقدر أكبر من النية الطيبة وقدر أكبر من النية الطيبة » · وفيما يسير الكتاب قدماً ، فانها على نحو ما تكتسب خصائص من الحكمة تكاد أن تكون خارقة للطبيعة · ويربطها تعاطفها مع حشرة (دبّور) على نحو صوفي بالأستاذ غودبول الهندوسي · وتعاطفها المفترض مع عزيز يجعلها في النهاية ربة من نوع ما ، وتحت اسم « إسميس إسمور » * يهلل لها الجمهور في الشارع أثناء محاكاة عزيز · ومع ذلك ، فمن وجهة النظر التحررية (الليبرالية) والمسيحية ، تتغير شخصيتها خلال الرواية الى الأسوأ ·

أثناء حفلة شاي يغني الأستاذ غودبول أغنية دينية ، هي صلاة الى ربالكون:

« إنه يرفض المجيء · ويكرر هذا عدة مرات ، » أعلن الأستاذ « لكنه يأتي في أغنية أخرى ، كما آمل ؟ » قالت السيدة مور برفق ·

« أوه ، لا ، إنه يرفضالمجيء ، » كرر غودبول ، ربما دونأن يفهم سؤالها ·

« إنني أقول له : تعال ، تعال ، تعال ، تعال ، تعال تعال · لكنه يهمل المجيء · »

ان هذه رؤيا مختلفة تماماً عن الرؤيا المسيحية التحررية · وحين يأتي الطقس الحار ، وبينما يتشاجر الشابان ثم يتصالحان ثانية ، يبدو أنها تتحرك نحو عالم مختلف ، غير شخصي الى حد أكبر ، أكثر خواء · ويقال لنا أنها :

شعرت على نحو متزايد (رؤيا أم كابوس) أنه رغم اهمية الأشخاص فان العلاقات بينهم غير مهمة ، وان جلبة زائدة جداً قد اقيمت بشكل خاص حول الزواج ؛ قرون من العناق الجسدي ، لكن الانسان ليس أقرب إلى فهم الانسان ·

وتخطر نفس الفكرة فيما بعد ، بعد تجربتها المروعة في كهف المارابار · فهي تقول لابنها ، المقتنع أن محاولة قد تمت لاغتصاب خطيبته :

★ تحريف هندي لاسمها الأصلي : « مسز مور » ·

« لم كل هذا الزواج ، زواج ؟ ... كان الجنس البشري أصبح شخصاً مفرداً قبل قرون عديدة لو كان في الزواج اية فائدة . وكل هذا الهراء عن الحب ، الحب في الكنيسة ، كما لو ان ذلك يؤدي الى اقل قدر من الاختلاف . »

تبدو هذه الأفكار استثنائية الى حد أنها تستحق التعليق . فمن الصعب أن نصدق أن الكثير من العشاق ، أكانوا متزوجين أو غير متزوجين ، اعتبروا « عناقاتهم الجسدية » على أنها خطوات في اتجاه تشكيل الأمم المتحدة.لكن الايحاء هو أن هذا كان ما يجب أن ينتج . وربما ذكرتنا السيدة مورمن بعض الجوانب هنا بالسيد بيب الأكثر صوفية . ان عدم الثقة بالجنس هنا تعني كراهية له . فهو نزهة شديدة الخطورة أو شديدة الاضجار في « الحياة الخارجية » . ومما ينسجم مع موقف فوستر نفسه السؤال الموضوع بين قوسين : « رؤيا أم كابوس » ؟

قد يكون وصف زيارة كهوف المارابار والمشاهد الطبيعية التي تطبع في العقل احساساً طاغياً بالذعر والخواء مكتوباً بشكل يفوق روعة أي مقطع آخر في هذا الكتاب . ففي أحد هذه الكهوف يتغلب الذعر على السيدة مور . « لطم وجهها شيء عار قذر ما واستقر على فمها مثل لبادة . » هذا الشيء هو ، كما نعلم فيما بعد ، ليس سوى رضيع تحمله أمه على وركها . ثم هناك الصدى . وكما تتذكره فيما بعد فانها تفكر بالصوت « باوم » أو « آو ـ باوم » الذي « لأن مجيئه كان في لحظة صدق فيها أنها كانت مرهقة ... فقد نجح في أن يدمدم : الشعور بالرثاء ، التقوى ـ الشجاعة ـ هذه الأشياء موجودة ، لكنها متماثلة ، وكذلك القذارة . كل شيء موجود ، لاشيء له قيمة ؛ » ثم فجأة عند حافة عقلها ظهر الدين ، المسيحية الصغيرة الثرثارة المسكينة ، وعرفت أن كل كلماتها المقدسة من (ليكن هناك نور) ، الى (انتهى الأمر) لم تعادل أكثر من (باوم) . »

ومنذ هذه اللحظة ، وحسب كل المقاييس المنطقية ، تتدهور السيدة مور بشكل سريع . فهي تصبح نزقة سريعة الغضب ، وهي لاتود القيام بأي شيء لمساعدة عزيز البريء أو أدِلا الهيستيرية . وليس عدم اكتراثها عدم اكتراث القديسين ، ومع ذلك فانها بعد موتها تعيش ـ كما كانت الحال بالنسبة للسيدة ويلككس ـ كتأثير متغلغل في عقول وشخصيات الآخرين .

من منطلق العقلانية التحررية قد يبدو من المستحيل تبرير هذه الشخصية الغريبة ـ امرأة حكيمة دون أية حكمة ظاهرة ، مسيحية انحدرت الى الخواء ، أم كبيرة من نوع ما لكن صدى طلبها ليس ممتلئاً بالنشوة ، رغم أنها تبدو بأنها

تنتزع ممن يعبدها ـ عجزاً ارادياً أو متأرجحاً · وهذه عملية رأيناها تحدث في حالة مارغريت شلكل والسيد ويلككس · وهي عملية رأيناها في علاقات روتشستر وجين إير ·

ومن جانب آخر يمكن القول أن السيدة مور هي صلة بين المسيحية وجو الهندوسية التي تكاد تكون غير مفهومة والذي ينتهي الكتاب به · وهي ذكرى مقدسة لكل من المسلم عزيز وغودبول الهندوسي · وولداها ـ الابنة تتزوج فيلدنغ ، الانكليزي « الجيد » الوحيد ـ مهتمّان بالدين الهندوسي · من الصحيح أن فيدلنغ ليس سعيداً مع هذه الفتاة سعادة كلية · فهي كما يقول « تسعى وراء شيء ما » ، ويقال لنا أنه « كان يعرف أن زوجته لم تكن تحبه بمقدار حبه لها »· ومع ذلك يبدو أن الحالة ، ممزوجة بتفهم عام لبعض جوانب الصوفية الهندية ، تحظى بموافقة المؤلف · فهو يقول : « بلغة اللاهوت ، بورك اتحادهما · » ولا يبدو أن هذا الاتحاد هو آية طوبى كبيرة ؛ وبالتأكيد ، رغم أن أشياء كثيرة تلقى الادانة ، فان لا شيء « مبارك » حقاً في هذا الكتاب الرائع والمحير حيث تسير الرؤيا والكابوس في تقارب شديد ، بل غالباً ما يمضيان متشابكي اليدين ·

ويستحق جانبان ثانويان في « ممر الى الهند » ، ولكنهما مع ذلك يثيران بالغ الاهتمام ، الملاحظة · الأول ، الذي قد لا يلحظه سوى اولئك الذين عاشوا في الهند ، هو دقة ملاحظة السيد فوستر للواقع الهندي والدقة التي يسجل بها كلام شخصياته الهندية ، الذين يستعملون الانكليزية بايقاع يختلف عن أولئك الذين يتكلمونها كلغتهم الأم · والنقطة الثانية هي الطبيعية النبوئية للفقرة الأخيرة من الرواية ، التي لا بد أنها بدت ، عام ١٩٢٤ ، لأناس كثيرين غير واقعية على نحو جامح :

> **الهند أمة ! ياله من مطمح مجيد ! آخر القادمين إلى اخوة القرن التاسع عشر الكئيبة ! تدخل متهادية في ساعة العالم هذه لاحتلال مقعدها ! هي ، التي ندها الوحيد كان الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ربما ستكون في منزلة غواتيمالا وبلجيكا ! هزء فليدنغ مرة أخرى ، ورقص عزيز بغضب شنيع في هذا الاتجاه وذاك ، لا يدري ماذا يجب أن يفعل ، وصاح : « فليسقط الانكليز ، على كل حال · هذا مؤكد · انني اقول : اخرجوا أيها الأصحاب ، باقصى سرعة · وربما كنا نكره بعضنا البعض ، ولكن كراهيتنا الكبرى موجهة لكم · إذا لم اجعلكم تخرجون ، فان أحمد سيفعل ، كريم سيفعل ، * حتى ولو بعد خمسة آلاف وخمسمئة سنة ،**

★ أحمد وكريم هما إبنا عزيز في الرواية · **(المترجم)**

فاننا سنتخلص منكم ؛ نعم ، سندفع بكل انكليزي بغيض إلى البحر ، وعندها » ـ توجه على حصانه مقابلا له (لفيلدنغ) ـ « وعندها ، » ختم حديثه ، وهو يكاد أن يقبّله ، « سنكون أنت وأنا صديقين • »

« لم لا يكون بامكاننا ان نكون صديقين الآن ؟ » قال الآخر ، وهو يمسكه بمحبة • « هذا هو ما أريده • هذا هو ما تريده • »

لكن جواديهما لم يريدا ذلك ـ فقد انحرفا مفترقين عن بعضهما ؛ والأرض لم ترد ذلك ، فقد أرسلت صغوراً تضطر الراكبين أن يعبروها في رتل أحادي ؛ والمعابد والصهريج والسجن والقصر والطيور والجيفة وقصر الضيافة ، الذي بدا للنظر حين برزا من الهوة ورأيا ماو في الأسفل ؛ كلها لم ترد ذلك ، وقالته باصواتها المئة : « لا ، لم يحن الوقت ، » وقالت السماء : « لا ، ليس في ذلك المكان • »

يمكننا أن نلاحظ في « ممر الى الهند » جميع الخصائص التي تجعل الروايات السابقة روايات لا تنسى ، بشكل أكثر حدة وأقرب الى الكمال • وهي أيضاً تحتوي نظرة المؤلف المدروسة الى الحياة ، وهي نظرة لم تتغير تغيراً جوهرياً خلال الأربعين عاماً التي مضت منذ تم نشر الكتاب • وفهم هذا قد يعني فهم السبب الذي منع فوستر من كتابة أية روايات أخرى •

وقد نشرت « وجوه الرواية » ـ وهي النسخة المطبوعة من محاضرات كلارك ، التي ألقيت تحت رعاية ترينيتي كولدج في كامبردج ـ عام ١٩٢٧ • وهي تكشف كما يتوقع المرء ذهناً حاداً وفردياً ، وحباً للأدب العظيم ينجح فوستر في كشفه للقارىء • وهي تمثل موقفاً لا يحبذه الكثيرون من الجيل الشاب من نقاد يومنا هذا • ويمكن جداً ألا تكون « وجوه الرواية » « نقداً » من أفضل صنف ؛ لكنها مع ذلك ملأى بالسحر والتشويق والكياسة • ويشير فوستر في ملاحظة تمهيدية الى أن المحاضرات الأصلية كانت «غير رسمية» ، بل كأنها بسبب من لهجتها نوع من الثرثرة ، وقد بدا من الأسلم حين تقديمها على شكل كتاب عدم تخفيف الكلام العادي ، خشية ألا يبقى أي شيء على الاطلاق • » وقد كُتب هذا في أيام لم تكن الاذاعة فيها قد توصلت الى شموليتها الحاضرة ، لكنه إشارة مثيرة للاهتمام الى فوستر المبكر بالكلمة المحكية • »

ووجود فارق محدد بين الكلمة المكتوبة والكلمة المحكية شيء واضح جداً بحيث أنه يكاد لا يستحق الذكر لولا واقع أن الكثيرين من المؤلفين والآخرين اللامعي

الذكاء والموهوبين جداً في مجالات أخرى يبدون غير قادرين على التمييز بينهما • لكن ليس إ • م • فوستر ، الذي أظهر منذ البداية أنه إذاعي بالفطرة ، إذاعي أصبح الآن ـ مثل معاصره القريب السير ماكس بيربوم ـ معروفاً عبر هذه الوسيلة الاعلامية الجديدة من قبل جمهور كبير ، لم يكن الكثيرون من أفراده قد قرأوا رواياته من قبل • وقد نشر الكثير من أحاديثه الاذاعية في « حصاد أبنكر » و « هتافان للديمقراطية » • وتتميز هاتان المجموعتان بالفطرة السليمة ، والذكاء اللامع ، والعلم ، واذا كان عدد من هذه المواد يبدو حسب مقاييس اليوم نزوياً الى حد مفرط ، فقد كان لهذه المواد سحر متميز في زمنها • وحول الموضوعات التي يحمل فوستر شعوراً قوياً تجاهها ، يمكنه أن يكون متصلباً تماماً : هناك مثلاً عبارة كثر الاستشهاد بها من المقالة التي وصف فيها معتقداته (« انني أكره فكرة القضايا * ، واذا ما اضطررت الى الاختيار بين أن أخون وطني وأن أخون صديقي ، فانني آمل أن تكون لدي الشجاعة لأخون وطني • ») •

والسيرتان الذاتيتان اللتان كتبهما فوستر يفصل بينهما أكثر من عشرين سنة ، وكلتاهما ، من وجهة نظر معينة ، من أفعال الشفقة • وقد نشرت « غولد زورذي لوزدكنسن » عام ١٩٣٤ • وقد عرف فوستر لوزدكنسن الذي كان يكبره بسبع عشرة سنة ، واستمرت معرفته به خمساً وثلاثين سنة • والأجزاء في هذا الكتاب التي تعالج دكنسن كفيلسوف وكخبير في الشؤون العامة ليست مرضية كلياً ، كما لاحظ فوستر نفسه أثناء كتابتها ، فهي تعالج مواضيع تخرج عن مجال اهتماماته • ومع ذلك فالكتاب يعطي صورة حميمية بشكل رائع عن الحياة في كامبردج في السنوات الأولى من القرن • وهو أيضاً تقدير لتلك الروح الخاصة التي كانت دائماً من ملامح الحياة في كنكز كولدج ، حيث يجري تشجيع الشباب والكبار على التلاقي على أساس من المساواة ، ربما بسهولة أكبر مما نجده في أماكن أخرى • ولقد كان لوزدكنسن شخصية أسطورية في أيامه في كنكز كولدج ، مثلما أصبح الآن فوستر نفسه •

و « ماريان ثورنتن » ـ الكتاب الذي نشر في ١٩٥٦ ـ هو كتاب ذو اهتمام أضيق ، باعتباره سيرة حياة عمة المؤلف الكبرى التي ولدت عام ١٧٩٧ وماتت عام ١٨٨٧ • وأكثر فصوله قيمة هي الفصول القريبة من النهاية والتي تتضمن بعض ذكريات فوستر عن طفولته الباكرة ، لكن الكتاب ككل يعطي صورة سارة لامرأة رائعة جداً • حين توفيت ماريان ثورنتن ، خلفت ثمانية آلاف جنيه

★ المقصود هنا القضايا التي يتبناها المرء ويكافح من أجلها • (المترجم)

استرليني لفوستر كانت ـ كما يقول لنا ـ انقاذاً لحياته · « فبفضله (أي المبلغ)، تمكنت من الذهاب الى كامبردج ـ وهذا شيء كان لولا ذلك مستحيلا ، اذ أنني فشلت في الحصول على منحة · وتمكنت بعد كامبردج أن أسافر متجولا لمدة عامين تقريباً وقد دفعني السفر الى الكتابة ···· انني ممتن لماريان ثورنتن ، فهي ولا أحد غيرها جعلت احترافي للكتابة ممكناً ، وقد تبعني حبها ، بشكل ملموس الى درجة أكبر ، الى ما وراء القبر · »

وظهرت « هضبة دڤي » عام ١٩٥٣ · ويصف هذا الكتاب القصير وظيفة المؤلف غير العادية في بلاط مهراجا هندي ، كان ـ وهذا ما يصعب تصديقه ـ سكرتيراً خاصاً له لفترة ستة أشهر في عام ١٩٢١ · وهو يتألف جزئياً من رسائل كتبها في تلك الفترة لأمه وأصدقائه في الوطن ، بينما الجزء الآخر هو ذكرياته اللاحقة · وقد وجد بعض النقاد « هضبة دڤي » كتاباً مبهماً ، لكنه في ظاهره أحد أعمال فوستر الصريحة الى حد يفوق أية من الأعمال الأخرى · وهو ذو قيمة كبيرة كمرجع لرواية « ممر إلى الهند » ·

وبالرغم من كون كتابات فوستر المختلفة هامة وبالتأكيد ممتعة ، فانه يبدو من المحتمل أن شهرته النهائية ستستند الى الروايات الخمس · وسيكون واضحاً أن رسالة هذه الروايات ، ان أمكن القول أن لها رسالة ، ليست سهلة وليست تحررية (ليبرالية) كلياً · قد تبدو الفطرة السليمة والنية الحسنة هي مقاييسه ، وغالباً ما يبدو أنه يكتب ضمن التراث المحرّر لأولئك الذين آمنوا في الربع الأول من هذا القرن بالتغلب النهائي على الظلم وعدم التسامح والغباء التقليدي · لكن رواياته تذهب أبعد من هذا · انها تخترق حدود الاستياء واليأس العميقين ، ورغم أن ما تعود به لايبدو للوهلة الأولى قيماً على نحو براق أو مباشر، ولا تعود بمفتاح للفهم ، أو بأمل سريع في التحسن ، فان العقل الذي يزور عالمه يصبح مع ذلك أوسع بسبب خبرات الرؤيا أو الكابوس أو كليهما ·

★ ★ ★

السيدة پلام

بقلم : ايزيكيل مباهليلي (١)
ترجمة : نزار عيون السود

كانت ربة عملي تدعى السيدة پلام • وكانت تحب الكلاب والافريقيين ، وتؤكد باستمرار ، بأن احترام القانون واجب على كل انسان • وقد باشرت عملي لدى السيدة پلام في « غرينسايد » بالقرب من العاصمة يوهانسبورغ (٢) ، بعد أن عملت لدى عائلتين من عائلات البيض • وكانت الأسرة الأولى التي عملت لديها ، كطاهية وغاسلة ، تعيش في « براكتوان تورث » •

وكان رب الأسرة وزوجته يعاقران الخمرة باستمرار ، وينسيان دفع أجرتي • وبعد أن عملت لدى هذه الأسرة خمسة أشهر ، قلت في نفسي « كفى ! لا بد من مغادرة هذين السكيرين » •

---

(١) **إيزيكيل مباهليلي** **Mphahlele** : كاتب تقدمي بارز من جمهورية جنوب افريقيا وناقد أدبي • ولد سنة ١٩١٩ • عمل مدرساً ، غير أن نقده لسياسة الحكومة التعليمية تجاه الأفريقيين حرمه من مهنة التدريس • وفي سنة ١٩٥٧ هاجر الى نيجيريا ، هرباً من ملاحقة سلطات جنوب أفريقيا ومنها انتقل الى باريس ، حيث لا يزال يقيم فيها حتى الآن • وهو مؤلف الرواية الشهيرة (« في الأسفل في الشارع الثاني » Down second avenue 1959 ١٩٥٩) وعدد كبير من القصص • ويحتل موضوع التمييز العنصري وفضحه مكاناً بارزاً في أعماله الأدبية ، فهو عدو لدود للعرقية وللروح العنصرية • وتعتبر قصته هذه « السيدة پلام » ، حسب رأي النقاد ، تعرية لا هوادة فيها « لليبراليين » البيض في جنوب أفريقيا •

(٢) عاصمة جمهورية جنوب أفريقيا •

وكان لدى العائلة التالية التي عملت عندها خمسة أطفال أفسدهم الدلال الفاحش . وقد قطنت الأسرة في ضاحية بيلغرايف . وعندما كان الأطفال ينادونني « إيه ! أنت أيتها السوداء ! » كنت أركن الى الصمت ،لحداثة عهدي بمعاملة البيض ، ولحداثة مباشرتي العمل . لقد أردت أن أعرف البيض كي أعرف السلوك الواجب اتباعه معهم إذا ماقدّر لي العمل لدى أسر بيضاء أخرى .

وتركت هذه العائلة بسبب سلوك الشاب الأبيض الذي كان يتردد كثيراً إلى بيت الأسرة .

وكانوا يدعونه بابن العم . وكلما حل ضيفاً عليهم ، كان يتسلل إلى المطبخ ، ثم يبدأ بالتفاخر بصفاته الحميدة ، ويحاول إضحاكي ، وشرع بعد ذلك يربت على ردفي . شكوته إلى رب الأسرة ، لكن شكواي لم تغير من الأمر شيئاً . وعند ذلك طلبت من سيدة المنزل تسديد حسابي وتركت العمل .

غادرت « فوكنغ » متوجهة إلى يوهانسبورغ .

لقد كان عددنا كبيراً نحن الفتيات والشابات الأفريقيات القادمات من الضواحي إلى العاصمة طلباً للرزق .

ونصحتني فتاة واسمها « تشمين » بأن أعرض خدماتي على السيدة پلام.

وكانت هذه السيدة تقطن في البيت المجاور لبيت الأسرة التي تعمل لديها تشيمين . وتقبلت نصيحتها ، وها قد مضى علي ثلاث سنوات ، وأنا أعمل لدى السيدة پلام وأعيش معها ومع ابنتها « كيت » .

وعلى أية حال ، لم يكن عملي في « غرينسايد »أسوأ من أعمال الأخريات. كانوا يقدمون لنا غرفةصغيرة مستقلة ، ويطعموننا ويدفعون لنا ستة جنيهات في الشهر . وهكذا لم يكن باستطاعة أية فتاة منا أن تفتخر بأجرها الشهري الكبير .

وكنا نلتقي عصر كل يوم خميس ، وهذا وقت استراحة لجميع الخادمات الأفريقيات . وخلال لقاءاتنا كنا نتحدث كثيراً عن أهلنا وأمراضهم ومواسمهم السيئة ، وعن أخواتنا المحتاجات إلى الكتب والنقود من اجل المدرسة ، وعن أرباب أعمالنا ، وعن الأسر التي تقدم الطعام الجيد وتعطي الأجر الكبير وعن القتلة والمنتحرين والبوليس وعن ... وعن ...

وفي كل خميس بعد الظهر ، كنا نتوجه عادة إلى المدينة ونتجول بين المخازن ، ثم نعرج على النادي النسائي ، ونلتقي مع شبابنا ، وسعيدة الحظ من بيننا تلك التي تحضر فيلماً سينمائياً .

وكنا نحاول ارتداء الثياب الأنيقة ،

كي نعرض على الآخرين أزياءنا المشتراة من بائعي العربات الأفريقيين • وكنا نشتري منهم عدة حاجات دفعة واحدة وندفع ثمنها أقساطاً شهرية محدودة • وكنا نقلد النساء والفتيات البيضاوات ، ونضحك ، ونغرق في الضحك ، عندما نلاحظ نظراتهن الموجهة إلينا •

★ ★ ★

سألتني السيدة پلام في اليوم الأول من عملي عندها •

ـ بماذا تدعوك صديقتك ، التي تعمل في البيت المجاور ؟

ـ جين •

ـ هذا ليس إسماً افريقياً ، ما هو اسمك الأفريقي ؟

ـ كورابو •

ـ كورابو • حسناً ـ قالت السيدة ـ نحن أيضاً سوف ندعوك كورابو •

لقد دهشت من اهتمام السيدة پلام باسمي • لأنني عرفت الكثيرين من البيض ، الذين لم يبالوا باسمي الأفريقي ، وكان كل ما يهمهم أن يكون اسمي سهل اللفظ • ومع ذلك فقد سررت جداً لأن السيدة پلام سوف تدعوني باسمي الأصلي كورابو • وكان يطلق علي هذا الاسم أهلي وأقربائي وأصدقائي المقربون في بلدتي •

وحدثتني صديقتي « تشيمين » ، التي تعمل في البيت المجاور ، عن « كيت » ، ابنة السيدة پلام ، وعن اندفاعها وتهورها ؛ كما حدثتني عن أبيها السيد پلام الذي انتحر باطلاق الرصاص على نفسه •

أما السيدة پلام ، فهي امرأة طويلة القامة ، لا بالممتلئة ولا بالنحيفة ؛ تتحرك ببطء ، وبالبطء نفسه تنطق بالكلمات • ولا تخاف السيدة انساناً على وجه الأرض • وكانت أجفانها متورمة دوماً ، فتبدو مثل انسان أبيض لم يرقد ولم ينم ليالي طويلة • وذلك لأنها كانت تبث الدخان الكثيف من « السجاير » التي كانت تدخنها واحدة اثر الأخرى •

وعندما كانت السيدة تكلمني ، كانت تنظر الى عيني ، وقد لاحظت بأنها تتحدث مع الآخرين بالطريقة نفسها • وقد شعرت ، في البداية ، بشيء من الخوف من نظراتها ، أما الآن فقد ألفتها •

والسيدة پلام ليست امرأة كسلى ، فهي تعمل كثيراً خارج البيت ، في المدينة وفي الضواحي •

قالت لي ابنتها « كيت » بعد أن تعارفنا :

ـ لا تنزعجي من والدتي ، فهي قد تنهال على شخص ما بسيل من الشتائم لأتفه الأسباب ، ثم لا تلبث أن تتحدث بلطف وكأن شيئاً لم يكن •

إن « كيت » تروق لي جداً ، وأنا أيضاً حزت على أعجابها • فهي تقص علي أحاديث كثيرة ، لا يمكن لأية سيدة أو فتاة بيضاء أن تقولها لخادمة سوداء • فمثلاً ، كانت « كيت » تحدثني عن من تحبه وماذا تحبه ، وعن أعمال والدتها وغير ذلك من الأسرار الشخصية •

سألت « كيت » ذات يوم لماذا تذهب الى المدرسة وقد تجاوزت الآن سنوات الدراسة •

فضحكت « كيت » كثيراً ، ثم حاولت أن تشرح لي بأن مدرستها خاصة بالفتيات اللواتي أنهين المدرسة العادية ، وأنها تتلقى فيها أصول التدبير المنزلي وفن الطهي •

وبدأت « كيت » تعلمني ما تتلقاه في المدرسة ، ثم باشرت السيدة پلام أيضاً بتلقيني أصول الطهي ، ثم تدريسي كتب فن الطهي • وكانت عملية تعليمي تسير ببطء شديد ، أما الآن ، فقد حققت نجاحاً ملموساً • ولم تقتصر السيدة پلام على تعليمي أصول الطهي ، بل علمتني أيضاً اصول الضيافة وخلافاً للسيدات البيضاوات الأخريات اللواتي عملت عندهن ، كانت تمدحني وتشجعني عندما أقوم بعمل جيد •

وبالاضافة إلى ذلك ، كانت السيدة پلام تعلمنا ، نحن الخادمات الأفريقيات ، القراءة والكتابة مساء كل يوم في قاعة الكنيسة •

وكانت « كيت » تحدثني كثيراً عن والدتها • وقد قالت لي ذات يوم :

– ان أمي تشارك بنشاط في الأمسيات والاجتماعات المختلفة •

– لماذا ؟ – سألتها متعجبة •

–من أجل مصالح أقربائك •

فقلت لها :

– لكن أقربائي يعيشون بعيداً ، في « فوكنغ » ••• ثم إن لهم السنتهم الخاصة ! فلماذا تتحدث هي باسمهم؟وأنى لها أن تعرف ماذا يريد أن يقول أبي أو أمي ؟ ثم إنهم يستطيعون هم بأنفسهم الحديث عما يريدون وعندما يريدون •

هزت كيت كتفيها قائلة : كيف يمكنني أن أوضح لك هذا الأمر يا كورابو ؟ عندما قلت أقرباءك لم أقصد عائلتك فقط ، بل قصدتكم جميعاً أنتم السود •

فصرخت متعجبة : آه ! وماذا يريد السود أن يقولوا ؟

هزت « كيت » كتفيها وتنفست بعمق •

ثم ما لبثت أن سألتها : ومن يشترك معها في هذه المسيرات والاجتماعات ؟

– الذين يفكرون مثلها – أجابتني كيت •

ـ هل تقصدين بأن هناك أناساً على الأرض يفكرون بطريقة واحدة وبشيء واحد ٠

أو مأت كيت برأسها موافقة ٠
ثم سألتها ثانية :
ـ وبماذا يفكرون ؟
ـ يفكرون بأنه سيأتي يوم يدخل فيه رجل منكم في عداد الذين يديرون هذه البلاد ، وأن الأفريقيين يجب أن يحصلوا على رواتب أعلى لقاء الأعمال التي يؤدونها للبيض و٠٠٠
وماذا قالت أيضاً ؟ آه ٠ أجل لقد أخبرتني بأن والدتها ومن يفكرون مثلها يودون لو أن أحداً من أبناء شعبي تكلم باسم الزنوج جميعاً ٠

ثم قالت لي : أظن بأنه يجب أن يكون لديكم زعيم أو قائد ، مثل مختار قريتكم ٠

فأجبتها : لقد فهمت الآن ٠ ولكن أخبريني لماذا تضرب السيدة باستمرار على الآلة الكاتبة ؟
ـ إنها تؤلف الكتب ـ أجابتني كيت ٠
ـ كهذه ؟ وأشرت إلى الكتب الموجودة في المكتبة الحائطية ٠
ـ أجل ٠

وأخبرتني « كيت » بأن السيدة تؤلف الكتب وتحرر المقالات للصحف والمجلات كي تعبر عن تعاطفها مع الأفريقيين ، الذين يجب أن يحصلوا على رواتب أعلى ، ويعاملوا معاملة أفضل ، وأن يتعلموا القراءة والكتابة ، ويرشحوا من بينهم الأشخاص القادرين على الدفاع عن حقوق السود ٠

وقالت كيت أيضاً : إن أمي والنساء اللواتي يفكرن مثلها يضعن أشرطة سوداء على أكتافهن دلالة على الحداد ، وبذلك يعبرن للادارة البيضاء عن سخطهن على معاملة البيض للأفريقيين ؛ ثم يذهبن إلى مبنى الحكومة البيضاء ، ويشكلن طوابير وأفواجاً أمام المبنى دلالة على احتجاجهن ٠
فسألتها بفضول : وهل تصغي الحكومة إليهن وتقدم لهن الشاي و « الكاتو » ؟
ـ أوف ! ما هذا الغباء ياكارابو ؟

قالت « كيت » ممتعضة ٠

فقلت لها : لكن هذه عادات شعبي٠ فاذا ما وقف شخص ما أمام باب منزلي ، فانني أدعوه للدخول وأطعمه وأكرمه ٠ أما أنتم البيض فلكم شأن آخر ٠ كيف يقف الناس أمام مبنى الحكومة ، ولا تفكر هذه الحكومة باطعامهم وضيافتهم !

ـ غباء ـ صرخت « كيت » ثم نظرت إلي غاضبة وأضافت : لكنهن لا يقفن طوال اليوم أمام مبنى الحكومة ولا يطلبن الصدقة أو

الضيافة • يا إلهي ! ما هذا الغباء !

وكانت السيدة بلام بعد أن تقرأ الصحف كل يوم تقدمها لي كي أقرأها وأحسن لغتي الانكليزية •

ثم أصبحت ترغمني على سرد ما قرأت • وأخذت أكثر من القراءة والدراسة ، وبدأ أفقي يتسع ومعارفي تنمو • وأصبحت أدرك بشكل أفضل حياة الأفريقيين في المدينة والضواحي • وعندما كانت تصادفني كلمات صعبة، كنت أسأل السيدة بلام ، فتشرح لي بسرور كل ما صعب علي ، ثم تسألني :

ـ والآن ، هل فهمت أم لا ؟

وبالفعل ، كانت السيدة تكتب كثيراً من المقالات في الصحف والمجلات • وتنظر بمعاناة وألم الى مختلف النقائص والعيوب : فقد كانت تتألم من رجال البوليس البيض عندما كانوا يضربون الافريقيين ضرباً مبرحاً ؛ وتتألم عندما يرغم البيض الأفريقيين العاملين عندهم على الجلوس ساعات طويلة قرب البحيرة في حديقة الحيوانات ، كي لا يثيروا الضجيج عندما يود البيض أن يستريحوا ، في أيام الآحاد بعد الظهر في البيت أو في الحديقة •

ومنذ العام الأول ، سمحت لي السيدة بلام بالجلوس الى جانبها على مائدة الطعام ، وقد شعرت بالحرج ، لأنني لم أكن معتادة على استخدام الشوكة والسكين أثناء الطعام ، ولأنني لم أر مثل هذه المعاملة لخادمة سوداء • فكنت أخاف من كل شيء ، وخاصة من أن يراني ضيوف السيدة بلام بهذا الشكل غير اللائق • غير أن السيدة بلام كانت تقول لي : « لا تكوني غبية • عليك أن تبرهني وتثبتي أن الخادمة الأفريقية قادرة على تناول الطعام ، مثل البيض ، على الطاولة » • وأخيراً ، لم يكن باستطاعتي تناول أنواع الطعام الشعبية التي أحبها على الطاولة • ولا يشعر المرء بلذة أطعمتنا إلا إذا أكلها بالأيدي • فهي لذيذة وطيبة لدرجة أنها لا تقف في اليد ، بل تنزلق فوراً إلى الحنجرة •

* * *

إذا كانت ثمة امرأة أو فتاة افريقية لا تعرف نادي « الغراب الأسود » في « بري ستريت » ، فهذا يعني أنها لا تعرف شيئاً • ففي هذا النادي وفي ما يحيطه يمكن للمرء أن يجد كل شيء • فهذا المكان يقع في حي من أقذر أحياء المدينة ، مليء بالمصانع والأسواق •

والسيدة ، حسب أقوالها ، تعرف كثيراً من الافريقيين العاملين في نادي « الغراب الأسود » وهي مسرورة جداً لأني أقضي فيه أوقات فراغي في أيام

الخميس بعد الظهر ، حيث يمكنني أن أتعلم فيه الخياطة والحياكة وغيرها من الحرف النافعة • وقد سألتني سيدتي ذات مرة :

– هل تحبين الرقص ؟

– أجل • كم أتمنى لو أتعلم الرقص •

فوافقت السيدة على دفع « شلنين » شهرياً لتعليمي الرقص •

وفي ذلك اليوم اجتمعنا في الطابق الأول بانتظار وصول مدربة الرقص « ليليان نْغوي » • وكنا نتبادل الأحاديث الفكهة عن ربات وأرباب أعمالنا ، وعن أطفالهم وكلابهم وطيورهم البيتية ، ونتهامس فيما بيننا عن شبابنا وأصدقائنا •

وتأخرت المعلمة قليلاً من الوقت • وكانت امرأة تتمتع برجلين قويتين ، ووجه مليء بالحيوية ، وشعر قصير وعينين طيبتين • وكانت ترتدي ثوباً بسيطاً ملوناً • وكانت تمهد ، عادة ، لدروسها بالنوادر والفكاهات ثم تباشر دروسها بجد واهتمام • وفي نهاية أحد الدروس قررت المدربة أن تحدثنا عن بعض الأمور الهامة •

قالت لنا « ليليان نغوي » بأنه قد ولت إلى غير رجعة تلك الأزمنة التي كانت تكتفي فيها الفتيات الافريقيات بالعمل وإرسال النقود للأهل ، واللقاء مع الأقارب مرة واحدة في السنة •

وعلينا أن نتذكر بأن العالم لن يغدو آمناً بالنسبة لنا ، حتى نتوصل إلى الحصول على مقاعد في الحكومة ونكتسب حق إصدار القوانين • وهذا الحق يجب أن يُعطى لنا نحن الافريقيين ، لأننا نحن الأغلبية في البلاد وليس البيض •

وكنا نطرح عليها الأسئلة ، فتجيب عليها بذكاء ، وسأذكر بعض ما علق في ذهني من هذه الأسئلة والأجوبة :

– هل سنحتل مقاعد البيض في الحكومة ؟

– أجل ولكن ليس كل المقاعد • يجب أن نحتل مقاعد أكثر من مقاعد البيض لأننا نحن الأكثرية • وعلى الناس من مختلف العروق والأجناس أن يتعاونوا • ثمة أشخاص من البيض يمكننا أن نؤيدهم ، وهناك أفريقيون أكفاء يستطيع البيض اختيارهم للاشتراك في الحكومة •

– هناك ربات وأرباب عمل جيدون وسيئون • هل يمكننا اعتبار الجيدين منهم أصدقاء لنا ؟

– إن السيد والخادم لن يكونا أبداً صديقين • اطردن هذا الوهم من رؤوسكن • فأنتن غير متأكدات من طيبتهم • وقد يحاولون أن يظهروا أمامكن طيبين لأنهم لا يستطيعون العيش أو التنفس بدون

عمل أيديكن ٠ عليكن دائماً أن تتعلمن ، وتحصلن المزيد من المعارف وتقدمن المساعدة لنا عندما تدعوكن ٠

عندما كنت أصغي إلى حديث « ليليان نغوي » ، كنت أفكر دائماً بالسيدة پلام ، وأتساءل في نفسي : كيف تنظر سيدتي إلى أقوال المعلمة التالية : « يحصل الطفل الأبيض على الرعاية من المربية السوداء ومن أمه البيضاء ٠ وعندما يكبر تأخذ الحكومة البيضاء على عاتقها رعايته : فترسله إلى المدرسة ، وتقدم له كل ما تستطيع كي لا يعاني من الجوع ٠ وتوفر له الامكانيات الكبيرة لاختيار الحرفة المناسبة إذا مارغب في ترك المدرسة » ؟

وكانت « ليليان نغوي » تطرح التساؤلات التالية : « يولد الأطفال البيض في المستشفيات الخاصة ، ويترعرعون في الأحياء الراقية ، ويرفلون بالثياب الفاخرة ، ويرقدون على الأسرة الوثيرة ٠ ولكن إلى متى يستطيع البيض العيش في البيوت المنفردة ، المفصولة بجدران شاهقة عن أكواخ ذوي البشرة السوداء ؟ وكم سيبقى عددهم عندما يتعلم شعبنا طريقة التفكير السليم ، ويطرح تلك المسائل الكبيرة التي ستقضي على جميع هذه الامتيازات وأصحابها ؟ وكم سيبقى من هؤلاء البيض حينذاك؟ عدد قليل ، وقليل جداً ٠ ان من طرح على نفسه ، من البيض ، هذه الأسئلة ، واقتنع بصحتها فسيعيش معنا بسلام وصداقة ، ومن لم يفكر منهم ، بعد بهذه الأمور فقد فاته الأوان » ٠

سألتني سيدتي ذات يوم :

ـ وماذا يعلمونكن أيضاً في ناديكن « الغراب الأسود » ياكارابو ؟

ـ لا شيء ياسيدتي ـ أجبتها وتساءلت في نفسي « ولماذا تطرح السيدة مثل هذا السؤال ؟ » ٠

ـ لقد تغيرت ياكارابو !

ـ كلنا نتغير ، ياسيدتي ٠

فأدارت ظهرها بسرعة وخرجت من المطبخ ٠

* * *

عندما بدأت قصتي هذه ، كنت عازمة أن أتحدث فيها عن كَلبَيْ السيدة پلام ، لكنني وجدت نفسي منقادة للحديث عن الناس ٠

أعتقد بأن « ديك » ـ اسم عامل حديقة السيدة پلام ـ كان مصيباً عندما قال لي ذات مرة : « تصوري ! أنه لم يبق علي سوى الاهتمام بالكلاب ! » ٠ وبالفعل فقد كانت أعداد الكلاب في غرينسايد وبقية الضواحي كثيرة جداً ٠ بحيث من السهل جداً أن يتوارى كلبا السيدة پلام ويختفيا بين الكلاب الأخرى ٠

وكانت السيدة پلام تدعو كلبها الأول « مونتي » والثاني « مالان » ؛ وكان « ديك » يلاحظهما ويراقبهما • وعليه أيضاً أن يأخذهما إلى النزهة ويطعمهما ويلاطفهما بمختلف الوسائل • وعلى الرغم من إخلاصه في عمله وتنفيذه الدقيق لواجباته ، لم تكن السيدة پلام توليه ثقتها الكاملة• وبعد أن يطعم « ديك » الكلبين ويغسلهما بالماء الساخن ، تقترب السيدةمن الكلبين وتسألهما مستفسرة : « هل أطعمكما ديك ياعزيزيَّ ! » و « هل حمّمكما ديك ياحبيبيَّ ! »•

لقد كان « ديك » من عمرنا تقريباً ، ولذلك فعندما كان يقص علينا أحاديثه وفكاهاته ، كنا ، أنا وتشيمين ، نقاطعه بخشونة • وكان فمه الكبير يبدو وكأنه مستعد للضحك دائماً • غير أن هذه الصفة لم تحز على إعجاب السيدة • فكانت تسأله غالباً : مم تضحك أنت ثانية ؟ أو تقول له : انظر الى هذه الحديقة لقد أزهرت الوردة ولا شيء يضحك في أن عليك سقايتها ! ، أو تخاطبه ساخرة : لو أنك عملت أكثر ، وتوقفت عن ري حديقتي بضحكاتك ، لكان هذا أنفع وأجدى •

فينظر ديك إليها ويبتسم • لقد كان يخاف البيض ، على الرغم من محاولاته إخفاءه وكبته في داخل نفسه • وعندما تكون السيدة خارج المنزل كان يقلد حركاتها وطريقتها في الكلام • فيأخذ مزهريتين ويضمهما إلى صدره ، ثم يبدأ بمداعبتهما وملاطفتهما تماماً ، كما تفعل السيدة پلام مع كلبيها ؛ أو يجلس على أريكة السيدة وينظر إلينا من وراء كتفه ، مادّاً عنقه ، وموجهاً إلينا سيلاً من الأوامر ؛ أو يقلد طريقة السيدة في تناول الشاي مُمْسكاً الكأس باصبعين من أصابعه وبتأنق مصطنع • أما أنا ، فكنت ، في أثناء ذلك ، أكاد أسقط على الأرض من شدة الضحك •

ولكن كم كان « ديك » يرتجف ، وكم كان يتبدل ، عندما تبدأ السيدة پلام بتوبيخه • لقد كان الكلبان وطعامهما ومضجعهما ونزهتهما المصدر الوحيد لمتاعب ديك •

غالبا ما كانت السيدة پلام تقيم في بيتها حفلات واستقبالات وأمسيات ، وتدعو إليها الأفريقيين • وكانت « كيت » تشرح أسبابها ومناسباتها : كانتهاء السيدة من تأليف كتابها ونشره ، أو قدوم ضيف هام من دولة أجنبية ، أو لأسباب أخرى • ولم يحز الافريقيون الذين كانوا يحضرون لتناول المأكولات والمشروبات على اعجابي • فمن جهة ، كانت لغتهم الانكليزية صعبة على الفهم ،كصعوبة فهم الناس الذين قرأوا جميع كتب العالم ؛ ومن جهة أخرى كانوا ينظرون الي نظرة استعلاء وازدراء ،

كما ينظرون الى انسان حقير ، وأنا الافريقية مثلهم ·

سألت كيت أمها ذات يوم ، وكنت أسترق السمع الى حديثهما :

ـ لماذا تدعين هذا العدد الكبير من الافريقيين الى بيتك ؟

ـ لان واحداً من هؤلاء الافريقيين سوف يلعب يوماً ما دوراً هاماً ·

ثم أخبرتها بأشياء أخرى عن الحكومة لم أسمعها وتابعت اقناع ابنتها :

ـ أنت تعلمين بأن الكثير منهم ليست لديه حتى الآن امكانية اللقاء مع البيض ، وخاصة زيارتهم في بيوتهم ، ثم انهم يترددون الى بيتنا لا بحثاً عن الصداقة ، بل من أجل الجلوس وشرب الخمرة ·

فغلى دمي في عروقي وشعرت بأنني لم أعد أحتمل أن أكون خادمة سواء لدى البيض أو لدى السود ·

وكان شاب افريقي من المدعوين يتسلل الى المطبخ ليتحدث معي ويثرثر في المرة الأولى استقبلته بالحراب ،كما قالت لي ، بعد خروجه ، «كيت » ، التي كانت موجودة في المطبخ لسبب ما · أجل لقد كنت مغتاظة جداً ، وشعرت بالخجل والألم ، لادراكي بأن بيت البيض ، ليس أبداً ذلك المكان الذي يمكن أن أنشد فيه سعادتي في نظر الافريقيين الآخرين · ثم بدأت أسلك معه سلوكاً عادياً ·

وذات يوم ، قدم الشاب الافريقي الينا ، وكانت السيدة خارج المنزل · لن أنسى ما حييت تلك الأمسية · لقد قص علي الأحاديث اللطيفة وخاطبني بالكلمات العذبة ، وامتلأ قلبي بالسرور · وشعرت بالرجفة تسري الى جسدي · ثم تكرر لقاؤنا · ان نظرته الحقيقية اليّ كامرأة ستبقى سراً أبدياً ، لكنني أحببته · وحتى الآن عندما أتذكره أشعر بالألم ينهشني · لقد كان طبيباً ، وانساناً مثقفاً ، يتقن الانكليزية بطلاقة · وهل كان باستطاعتي أن أطمح الى مثله ·

لقد أدركت بأنه لن يستمر في اللقاء معي من أجل حبي له فقط · أما « كيت » فقد جنّ جنونها ، وكادت أن تفقد عقلها · وتحولت ، بدون سبب ، الى انسان آخر في سلوكها وفي تصرفاتها ·وبدأت تفتح جهاز الحاكي حتى النهاية ، فتنبعث من غرفتها الأصوات الموسيقية الوحشية العالية· وترقص « التويست » في غرفتها بجنون ، من الصباح وحتى المساء · وتركت مدرستها ولم تعد تتردد على حفلات ليلة السبت · وعندما كنت أنظر الى وجهها ، كنت أجد صعوبة في تحديد عمرها · فقد ظهرت في عينيها وحشية وغربة ، وعندما أفكر

بأنها لا تزال في مقتبل العمر ، ثم أنظر اليها أراها وقد بدت مثل امرأة هرمة عجوز ٠

لقد كانت مثلي في الثانية والعشرين من عمرها ، ويبدو لي بأنني قد فهمت أسباب اضطرابها ، أو بالأحرى أسباب معاناة والدتها ٠

وحدث أسوأ ما يمكن أن يحدث في أسرة السيدة پلام ٠ فقد تشاجرت الأم وابنتها ، وبدأتا تصرخان ، بلا حياء أو خجل ، الواحدة ضد الأخرى ٠ وكانت الأم وابنتها تبدآن الحديث ، عادة ، في غرفة الضيوف ، ثم تصعدان الى الغرفة العليا ، وتتبادلان بهيجان وانفعال ، العبارات اللاذعة التي لم أكن أفهمها جيداً ٠

لكن السيدة نفد صبرها ، في يوم من الأيام ، وقالت لي :

ـ أتعلمين ، ياكارابو ، بأن « كيت » قد أحبت ذلك الافريقي الطبيب ، الذي كان يتردد الى بيتنا ويتناول طعام العشاء ؟ وتقول «كيت» بأنه هو يحبها أيضاً ٠ والآن يريدان أن يتزوجا ويغادرا البلدة ٠ قولي لي ياكارابو ، كيف ينظر شعبك الى زواج افريقي من امرأة بيضاء ٠ ان هذا أمر غير طبيعي أليس كذلك ؟

فأجبتها والغيظ يقتلني

ـ لم أر مثل هذه الحالة في بلدتي ٠

ـ أنت على حق ياكاربو ٠ فهذا جنون مطلق ٠

وخرجت السيدة وكانت تبدو مثل حيوان أُطلقت عليه النار ٠

وهكذا أدركت الحقيقة ٠ ولم تعد لدي أية رغبة برؤية كيت أو التحدث معها ٠ لقد وقفت في طريقي كاللص ، كالذئب الذي يهجم على قطيع من الغنم في ليلة معتمة ٠ وشعرت نحوها بكراهية وحقد كبيرين ٠ فقد أغلقت أبواب هذا البيت أمامه ، ولن يظهر ثانية هنا ٠ ومع ذلك فقد سألتني « كيت » ذات يوم :

ـ لقد أخبرتني والدتي بأنك تستنكرين زواج الافريقي من فتاة بيضاء ٠ لكنني أشعر برغبة صادقة في مساعدته ٠

ـ مساعدته في أي شيء ؟

ـ في الصعود والارتقاء الى الأعلى، الى الأعلى حتى القمة ٠

شعرت بأني على وشك أن أقذفها بكل ما في صدري من حقد وكراهية نحوها ٠ لكنني تمالكت نفسي ولم أنبس ببنت شفة ٠

ثم سألتني ثانية :

ـ أنت لا زلت توافقين والدتي على رأيها ؟

فأجبتها بصعوبة ، وأنا أعتصر نفسي :

ـ لقد قلت لوالدتك بأنني لم أر

أسرة مكونة من زوج أسود وزوجة بيضاء • ثم انك استمعت الى حديثنا آنذاك • أما رأيي الشخصي حول هذا الموضوع ، فهو يخصني وحدي •

وأذكر بأنني كنت عازمة على كي ثوبي ، لكني درت على أعقابي وخرجت من المطبخ •

وجدد البوليس الحملة على غرف الخدم الافريقيين وأكواخهم ، وشرع بالبحث عن المتشردين والأشخاص الافريقيين غير الحائزين على تصاريح بالاقامة ، والمختبئين ، حسب رأي البوليس ، لدى أصدقائهم في ضواحي العاصمة •

وفي يوم من الأيام داهم رجلان من البوليس ، أبيض وأسود ، بيت السيدة پلام ، وأخبراها بضرورة تفتيش منزلها • ولم تسمح لهما السيدة بذلك • ألح البوليس على ضرورة التفتيش • فقالت السيدة بحزم : لا ! لن أسمح •

فدار رجلا البوليس حول البيت وشرعا يرقبان غرفتي وغرفة «ديك» • تناولت السيدة پلام خرطوم المياه وتبعتهما ، وسرت أنا خلفها كي أسمع ما ستقوله لهما • وكان رجلا البوليس قد شرعا بتوجيه الشتائم القذرة الشنيعة الى « ديك » • لكن السيدة لم تنتظر طويلا ، ووجهت خرطوم المياه نحوهما • فذهل الشرطيان من المفاجأة ودارا على عقبيهما بعد أن انصبت المياه على وجهيهما • ولم أستطع رؤيتهما ، لأنني كنت في تلك اللحظة في زاوية المنزل ، أفتح صنبور المياه حتى النهاية • وكدنا ، أنا وديك ، أن ننفجر من الضحك • صرخ الشرطيان وحاولا تجنب المياه ، لكن السيدة پلام تابعت توجيه خرطوم المياه نحوهما ، من الأسفل الى الأعلى • فلم يحتملا وأطلقا ساقيهما للريح •

قالت السيدة پلام : أعتقد بأنهما تلقيا درساً لن ينسياه بسهولة •

وفي اليوم التالي نشرت الصحيفة اليومية الصباحية ريبورتاجاً كاملا عن هذا الحادث •

لكن البوليس لم ينس الفضيحة • فبعد ظهر اليوم التالي ظهر الشرطيان السابقان ، اللذان عانيا الأمرين من « حمام » الأمس برفقة عناصر آخرين ، وأشارا الى السيدة پلام ، ثم اقترحا عليها الذهاب الى مخفر الشرطة بتهمة مضايقة رجال البوليس المقصودة وعرقلة تنفيذ مهامهم • وبعد عدة ساعات عادت السيدة وقالت بأنهم أطلقوا سراحها لقاء كفالة • ثم رُفعت القضية الى المحكمة ، فاعتبرت المحكمة تصرف السيدة پلام تصرفاً شائناً وحكمت عليها بالسجن أسبوعين أو بدفع غرامة مالية • فضلت السيدة الأمر الأول كي تثبت للجميع بأنها لم ترتكب أي ذنب •

وحاولت كيت اقناع والدتها بدفع الغرامة ، وأن تفضيلها للسجن بعيد عن الحكمة والتعقل · لكن السيدة عارضتها وذهبت الى السجن ·

وبعد مضي أسبوعين ، عادت منقبضة كئيبة · فتذكرت كلمات « ليليان نغوي » :

ـ عليكن أن تكنَّ مستعدات للذهاب الى السجن ،في سبيل عقائدكن وقناعاتكن ، التي تعتبرنها عادلة ، والتي يمكن أن يعتقلوكن من أجلها في كل وقت ·

مما هي قناعاتالسيدة پلام تجاهي وتجاه تشيمينوديكوجميع الافريقيين الآخرين ؟

ولم أجد جواباً على هذا السؤال ، غير أن السيدة پلام كانت تكتب في الصحف عن الظلم والاضطهاد ، وتساهم في جميع الاجتماعات والمسيرات التي كان يتحدث فيها البيض عن الوضع البائسللافريقيين، وعن معاملة الحكومة اللاانسانية لهم · كما كانت ، مع الآخرين ، ترتدي شريطاً أسود على كتفها تعبيراً عن احتجاجها ، وتقف مع الطوابير من المعارضين أمام الادارة البيضاء·· لا أعرف ·· لا أعرف ·· فهي تبدو وكأنها مهتمة جداًبنا نحن الافريقيين· فلماذا اذن تبدو مكبوتة ، وكئيبة ، ومنقبضة النفس ؟؟

وتابعت « كيت » اطلاق الموسيقى الصاخبة من جهاز الحاكي ، كما تابعت رقصها الجنوني من الصباح حتى المساء · وبعد فترة قصيرة ، بدأ يتردد عليها شاب أبيض · وقد راقبتهما من خلال شق الباب الواقع بين غرفة الضيوف والمطبخ · لقد كانا يتبادلان القبلات العنيفة والطويلة ····

وكانت تدعوه « جيم » · لقد تمالكت نفسي عن الضحك بصعوبة ، فالبيض يدعون جميع بائعي العربات الافريقيين باسم « جيم » ، وبدأت « كيت » تقيم علاقة حب مع « جيم » ؛ وفي الوقت ذاته التقيت أنا بانسان أحبَّني ، وأحببته أنا أيضاً · غير أن صورة الطبيب ظلت تراود ذاكرتي فترة طويلة من الوقت ، غير أنها لم تعد تسبب لي ذلك الألم كما في السابق ·

وتوقفت عن مراقبة « كيت » من شق الباب ، وبدأنا نتبادل الأحاديث، بشيء من المودة ، كما في السابق ·

وذات صباح ، سمعت صوت « تشيمين » يناديني ، عندما كنت أغسل صدارتي · وبعد أن نشرتها وعلقتها في حديقة المنزل ، توجهت الى السور ، حيث كانت تقف تشيمين متشوقة لتقص علي خبراً ما ·

ـ مرحباً ·

ـ مرحباً ياتشيمين ·

ـ كيف أحوالك ٠
ـ لا بأس ٠
ـ ما هي أخبار البلدة ؟
ـ لا تسأليني ، ان الجميع يموتون يهلكون ، فقد كتبت لي والدتي بأن وباءٍ قد تفشَّى في منطقتهم ٠
ـ وأهلك بخير ؟ أمك ، أبوك ، أخواتك ؟
ـ بخير والحمد لله ٠ أتعرفين « ماليبو » الذي كان يعيش وحيداً في بيت صغير ؟ لقد مات ٠

وكذلك المعلم « سيديمو » الذي كان دائماً ضعيفاً ويشكو من المرض ٠ كما توفيت صديقة والدتي أيضاً٠ وأهلك ماذا يكتبون ؟

هزت تشيمين رأسها ، فأدركت من نظرات عينيها بأنها لا تفكر بأهلها ، وانما بشيء آخر ، ثم قالت :

ـ كارابو ، انك لا تعرفين شيئاً ٠
ـ أجل لا أعرف ٠
ـ انني حبلى ٠
ـ أواه !!

وران علينا صمت ثقيل ، ثم سألتها :

ـ من « تيمي » ؟
ـ أجل من « تيمي » ، لقد عاد لكي يقدم لي هذه « المكافأة » !
ـ لكنه يحبك يا تشيمين ٠ هل أخبرته بذلك ؟ وما هو رأيه ؟
ـ أخبرته البارحة ، التقينا معاً في المدينة ٠

وتذكرت بأنني لم أشاهد تشيمين مساء البارحة في « الغراب الأسود » ، ثم سألتها :

ـ هل أنت متأكدة ياتشيمين؟ وهل انتهى ميعادك ؟

فهزت تشيمين رأسها بالايجاب ، والحزن يقطر من وجهها ٠

ـ وماذا قال لك « تيمي » ؟
ـ قال بأن أطمئن ، وأنه يستطيع أن يتزوجني ٠
ـ ان « تيمي » شاب جيد ، فأي شاب في هذه المدينة يستطيع أن يعلن بمثل هذه الجرأة والصراحة : « نعم ان هذا طفلي » ؟!٠

ـ آه يا كارابو ، انك تتحدثين عن شيء آخر تماماً ٠ أتعرفين بأنني لم أعمل بعد الا فترة قصيرة ، ولم أتمكن بعد من مساعدة أهلي ٠ واذا ما تزوجت الآن فمن سيساعد والديَّ العجوزين ؟ انني ابنتهما الوحيدة !

ـ حسناً ، تشيمين ، أنت محقة ٠

وافقتها ، ثم حاولت أن أجد العبارات المهدئة ثم قلت لها :

ـ تشيمين ، عليك أن تبحثي الأمر مع «تيمي» ٠ ويبدو لي أن من الأفضل أن تذهبي الى أهلك وتتزوجي « تيمي » ، وبعد أن يصبح عمر الطفل ثلاثة أشهر ، يمكنكما أن تعودا الى العاصمة ، وتعملا معاً ، وترسلا ما تستطيعان ارساله من النقود لمساعدة

أهلك ، وسيهتم والداك بتربية الطفل .

فقالت تشيمين :

ـ ومن سيقدم لنا لقمة العيش خلال فترة وجودي عند أهلي ؟ لقد انقضى ذلك الوقت الذي كنا نملك فيه الأرض ، وكانت والدتي تستطيع العمل من الصباح وحتى المساء !

لقد طارت أفكاري من رأسي ، ولم أعد أجد الجواب المناسب ، آه ! كم أصابني الذعر ، وكم سيطر علي الخوف من مثل هذه المصيبة . وحمداً لله أني تجنبتها حتى الآن . لقد كنا جميعاً نتجنب هذا الأمر .

ثم قالت لي تشيمين :

ـ كارابو ، يجب أن أذهب كي أعد الشاي لسيدتي ، فالساعة الآن العاشرة والنصف .

دخلت الى البيت ، وكانت السيدة پلام قد خرجت . فاستلقيت على الأريكة في غرفة الضيوف . وأسرع الكلب « ميلان » يتشمم قدمي ، ضربته برجلي على بطنه السمين ، فابتعد جانباً وهو ينتحب بصوت خافت . فقلت له :

ـ انتحب ! انتحب ! واعلم أخاك بما أصابك ، فقد يود هو أيضاً أن يجرب ، واخبر معلمتك المحسنة اذا شئت ، حالما تعود .

رفعت عيني ، فشاهدت « ديك » واقفاً على باب المطبخ ، ثم قال مستغرباً :

ـ هل أصبحت تتحدثين مع الكلاب ، وهبطت الى هذا المستوى ؟

لم أقل له شيئاً ، واكتفيت بالنظر الى فمه الكبير المفتوح مثل غطاء حقيبة السفر . ثم خرجت الى الحديقة ، ووقفت أتأمل ساحة البيت المجاور ، فاقترب هر" رمادي اللون ذو أرجل ثلاث من سور الحديقة ، ونظر الي ، فالتقت نظراتنا ، ولا أذكر كم من الوقت بقي كل منا يحدج الآخر ، ثم قلت له في نفسي : « ولماذا لا تذهب الى سيدتك وترمي عليها مثل هذه النظرات ؟ » فما كان من الهر الا أن عاد أدراجه ، وكأنه أدرك ما يجول في ذهني ، فسار على أرجله الثلاث وأخذ يموء بشكوى وكأنه يشاركني أحزاني ويتعاطف معي . وفي غرفتي الحقيرة ، نظرت طويلا الى نفسي في المرآة وتساءلت : « هل أنت كارابو ؟ » ..

ولم تحضر تشيمين بعد ظهر الخميس الى « الغراب الأسود » فساورني القلق . وفي البيت وجدت تحت الباب ورقة مكتوبة بخط يدها : « اذا لم أعد حتى المساء ، فابحثي عني في العنوان التالي : تاوتشيب ـ ألكسندرا ـ الشارع رقم ٣ ـ منزل رقم ٦٦٠ . لا تقولي شيئاً لربة عملي » . طلبت من « ديك » أن

يقودني الى « ألكسندرا » بعد أن أنتهي من غسل الصحون ·

وفي سيارة الباص قص علي «ديك» الكثير عن أخته الصغيرة التي كان يرسل لها النقود دائماً ، كي يساعدها على إتمام دراستها ، وتتخرج ممرضة أو قابلة · وكان يحبها كثيراً، ويتوسل إلى جميع الآلهة ليحفظوا له عمله ، ثم قال متأوها :

- ان ديوناً كثيرة علي أن أسددها ، فكثيراً ما كنت أفقد عملي ·

قلت له ناصحة :

- يجب أن تستمر في عملك لدى السيدة پلام ·

كم أنا آسفة لعدم إصغائي إلى « ديك » · لقد كانت أفكاري كلها متجهة نحو تشيمين : ماذا فعلت بنفسها ؟ وماذا حل بها ؟ ولماذا هذه الورقة المكتوبة ؟

وجدنا تشيمين في الفراش ، في ذلك الحي المرعب من المدينة ، حيث يكثر العراك والضرب بالسكاكين وبسلاسل الدراجات ، وحيث تنبح الكلاب الجائعة ، ويسيطر البؤس الأبدي الرهيب على قاطنيه السود · وانكمش قلبي عندما رأيتها ، فقد علت وجهها آثار الحزن والألم ، وحتى تحت ضوء الشمعة كان يبدو وجهها ترابياً رمادياً ·

وبالقرب منها جلست على الأريكة امرأة ممتلئة ، متكئة برأسها على راحة يدها · قالت المرأة فجأة : - هذه هي صديقتك ! صديقتك وابنة أختي · أختي التي حملتها في بطنها ، رفضت أن تأخذ الحليب من ثديي أمها كي توفره لي · اسأليها ، لماذا ارتكبت هذه الفعلة الشيطانية ؟ آه منكن ! أيتها الفتيات العصريات ! لحريٌ بكن أن تشكرن ربَّكن الذي أعطاكن القدرة على إنجاب الأطفال · ولو أنها أنجبت طفلاً لرعيته لها ، ولكانت أختي راضية جداً بأن تربي حفيدها · ولكن ما فائدة الحديث الآن ! ؟

أما تشيمين فقد كانت تتأوه من الألم · وتابعت المرأة حديثها دون توقف · لكن صوتها الرتيب لم يعد يصل إلى سمعي ، لأني كنت أفكر بشيء آخر ·

وأثناء جلوسي بالقرب من تشيمين، حاولت تذكر شيء ما يمكن أن يوحي إلي بطريقة أساعد بها صديقتي ، التي حلت في أقذر حي من أحياء المدينة · ولم تراودني أية فكرة · وماذا يمكن أن يخطر في ذهني من أفكار ؟ وأنا لست إلا خادمة سوداء ·

وعادت تشيمين في نهاية الأسبوع إلى عملها · فحمدت الله كثيراً ، وكانت لا تزال ضعيفة ، لكن شبح الموت قد ابتعد عنها · طمأنتها قائلة : لقد أخبرت ربة عملك بأنك كنت مريضة

وأن أخاك قد أخذك معه إلى « فوكنغ » ·

ولم أشعر بأي إثم للجوئي إلى الكذب · فهؤلاء الناس لم يحاولوا أبداً معرفة الحقيقة ، ونادراً ما كانوا يطمحون إليها · ويمكنك أن تكذب عليهم ما شئت ، فعلى أية حال لن يصدقوك ، حتى إذا قلت الحقيقة !

وفي مساء ذلك اليوم ، أثارت السيدة پلام مع ابنتها ، أثناء العشاء ، نقاشاً حول الكلاب · ولم أتمكن من فهم تفاصيل نقاشهما ، لكنني أدركت بأن الكلاب كانت موضوع الحديث · وكانت السيدة پلام تثبت لابنتها بأن مثل هذا العمل ينفذ في المدن الأمريكية منذ زمن طويل ، وهنا أيضاً يجب القيام بالعمل نفسه ، أما « كيت » فكانت تغرق في الضحك والسخرية · ثم سمعت بأنه قد أعدت للكلبين «مونتي» و «مالان» جنازة مهيبة في حال موتهما ·

وفي صباح اليوم التالي أيقظني صوت « تشيمين » من خلف سور المنزل ، وعندما اقتربت منها بادرتني بقولها : هل تعلمين ما حدث · لقد قرر هؤلاء البيض إثارة سخط الرب وغضبه · إنني لم أر في حياتي مثل هذه الوقاحة · فقد أعلنت ربة عملي بأن سكان « غرينسايد » عازمون على شراء قطعة أرض ، وبناء مقبرة للكلاب عليها · البارحة سمعتهم يتحدثون حول هذا الموضوع ·

قلت لها : وسيدتي أيضاً ناقشت هذا الموضوع البارحة مع ابنتها · وتعتقد والدتي بأن البيض سوف يجلسون الكلاب ، عما قريب ، إلى جانبهم على مائدة الطعام · وسيضعون أمامها الصحون والملاعق ·

فتنهدت «تشيمين» وقالت بحسرة :

ـ أليس من الأفضل ان يعطوني أجرة أكبر كي أشتري لنفسي جورباً · فهم ، على أية حال ، سوف يرمون النقود على الأرض من أجل مقابر الكلاب · أقسم بوالدتي أنني لا أملك شيئاً أرتديه ·

وعندما هممت بتوديع تشيمين ، تذكرت الجنيهات الخمسة التي جمعناها ، أنا وأربع من زميلاتي ، لكي تدفعها تشيمين إلى المرأة في « الكسندرا » لقاء عملية الاجهاض · على أن تعيد لنا تشيمين هذا المبلغ عندما يأتي دورها في « الصندوق الأسود » ·

لقد كنا عشر فتيات ، وكل واحدة منا كانت تدفع جنيهين شهرياً لهذا الصندوق · فكان باستطاعة كل فتاة من مجموعتنا أن تأخذ عشرين جنيهاً دفعة واحدة وفق دور معين ·

* * *

لم يقل أحد متى بدأت هذه الاشاعة ، ومن هو واضع هذه

الأكذوبة · قد يكون البوليس نفسه مؤلف هذه الاشاعة وواضعها ، وذلك تبريراً لحملاته الهجومية على مساكن الخدم : بحثاً عن الافريقيين العاملين، والعاطلين عن العمل ، والمختفين ، بدون تصاريح إقامة ، لدى أصدقائهم ·

وكانتشار النار في الهشيم ، انتشرت ، في يوهانسبرغ كلها ، شائعة تدعي بأن الخدم الافريقيين قد عزموا على تسميم جميع الكلاب الموجودة لدى أسيادهم ، وذلك لأنها تسبب لهم متاعب كثيرة · فما كان من البيض إلا أن ملأوا صفحات الجرائد بالرسائل ، التي تطالب البوليس بتوفير أمن الكلاب ، والقضاء على النوايا العدوانية للافريقيين وأغراضهم اللا أخلاقية ·

وقال آخرون بأن على البوليس أن يحذر شيئاً آخر ، هو أن لا يلجأ الخدم الأفريقيون إلى تسميم سادتهم ، وذلك لأن الزنوج ، وبعد أن سيطر عليهم الهيجان ، لن يستطيعوا تمييز المحق من المسيء ، والكلب من السيد · واعتقد آخرون بأن السود لا زالوا أطفالاً صغاراً من حيث تطورهم ·

وحسب أقوال السيدة پلام ، فقد كتبت هي أيضاً في الصحف عن هذا الموضوع ·

وبعد ذلك ، وكالجراد الزاحف على حقول الذرة ، زحف البوليس على غرفنا وأكواخنا ·

وبدأت عربات البوليس الشاحنة ، بشكل دوري ، وساعة إثر ساعة ، تنقل المعتقلين · وكانوا يطرحون على كل معتقل الأسئلة التالية :

- أين السم ؟
- أين أخفيته ؟
- ومن علمك تسميم الكلاب ؟
- إذا قلت الحقيقة سوف نطلق سراحك ، أتسمع ؟

أما ديك فكان يؤكد لي دائماً :

- إنه لأمر سيء ومؤسف حقاً إذا ما عزم أحد على القضاء على هذه الحيوانات البائسة · وما هو ذنبها كي نقتلها ؟ وهل الكلاب هي التي ترغمنا على حمل تصاريح الاقامة ؟ أم أن الكلاب هي التي تشرع القوانين الجائرة ضدنا !؟· لقد فقد الناس عقولهم ، واستسلموا للحماقات ·

لكن « ديك » عندما وقف أمام رجل البوليس ، نسي بسرعة أحاديثه السابقة الجريئة وسيطر التلعثم على لسانه وكأنه أخرس · وقف مرتجفاً خائفاً · وعندما بدأ رجل البوليس بتفتيش جيوبه ، ظل واقفاً ، رافعاً يديه ، إلى الأعلى كما طلب منه ، ولم يخفضهما إلا بعد أن أومأت له بذلك عدة مرات · وابتعد البوليس ، فعاد

« ديك » إلى عمله في الحديقة كالمعتاد •

قادت السيدة پلام كلبيها الى غرفة الضيوف وأجلستهما إلى جانبها • كانت تبدو مضطربة قلقة • ودعتني إليها مخاطبة :

ـ كارابوا ! اسمعي ! ما رأيك ، هل يمكننا نحن أن نثق بديك ؟

فذهلت من هذا السؤال وارتبكت ، ولم أدرك قصدها من كلمة « نحن » ، ثم أجبتها :

ـ لا أدري يا سيدتي •

ـ بل أنت تدرين !

نظرت إليها بحزم قائلة :

ـ لا أعرف بماذا تفكر سيدتي

فاستدركت السيدة پلام •

ـ إنني لا أفكر بشيء ، ولا أدري

لماذا طرحت عليك هذا السؤال •

وكادت أن تفلت مني ضحكة كبيرة • ففي هذه اللحظة كذبت السيدة ولم أكذب أنا • وكان من الممكن أن لا يثيرني كذبها كما أثارني الآن • وعلى أية حال كانت كل واحدة منا تكذب على الأخرى ، كما حدث يوم عودة السيدة من السجن بعد تنكيلها برجلَيْ البوليس • لقد قالت السيدة آنذاك بأنها قد أعجبت بحياة السجن ، غير أنني رأيت مدى خجلها من اعتقالها وزجها في السجن • فهي ليست بذلك الأفريقي الذي آلف السجون ، والذي ينظر إلى الاعتقال كما ينظر إلى دعابة سمجة شيطانية يقوم بها رجل أبيض •

وكانت « ليليان نغوي » قد حدثتنا كثيراً عن ذلك ، وها قد أثبتت السيدة پلام صحة كلامها •

وإنني على ثقة بأننا لم نحتمل بعضنا بعضاً إلا بفضل الكذب المتبادل • ولكن في الوقت ذاته ، ولدى استماعي الى السيدة پلام ، في ذلك اليوم ، لاحظت شيئاً في وجهها أرعبني ، وأثار ، في آن واحد ، الشفقة في نفسي • لقد رأيتها في مواقف مختلفة : رأيتها يوم خروجها من السجن ، ورأيتها بعد شجارها مع « كيت » ، لكن وجهها لم يكن أبداً على هذا الشكل ، كما هو الآن ، بعد أن انتشرت الاشاعة عن الابادة المعدة للكلاب ، فعيناها وأنفها ، وشفتاها وأسنانها ، وكل قطعة من وجهها كانت ملأى بالحقد والاعياء والاستعداد للاقدام على أي شر • وفي الوقت نفسه ، فان شيئاً ما في وجهها كان يومي إليَّ برغبتها في جذبي إلى ناحيتها •

وأخيراً ، قلت لها : يمكنك أن تطمئني إلى « ديك » ياسيدتي •

أمسكت السيدة بالكلبين وضمتهما

إلى صدرها ، وهي تداعب رأسيهما ، ثم قالت :

ـ حسناً ، يمكنك أن تنصرفي • ولكن أرجوك أن تبقي هذا الحديث سراً بيننا •

ورغم رجائها ، فقد نقلت الحديث كاملاً إلى « ديك » ، فأصابه القلق والهلع • قلت له مهدئة : لا تقلق ، ليس هذا إلا هراء •

فقال ديك : لقد قررت مسبقاً أن لا أتصل أبداً باولئك العازمين على تسميم الكلاب البائسة ؛ أما الآن ، وبعد تدخل البوليس في الموضوع ، فاني أريد أن ابقى جانباً •

ـولكن هل باستطاعتك تسميم الكلاب اذا ما أرغموك على ذلك ـ

سألته بخبث :

ـ كلا • وعلى أية حال ، فهذا الموضوع لا يهمني إطلاقاً ـ أجاب ديك بحزم •

وتابع البوليس حملته من جديد • فقد كانت هذه الاشاعة فرصة ذهبية له أصرَّ على استغلالها •

وقد لاحظ الجميعذلك وأدركوه •

وفي اليوم التالي أعلمت السيدة پلام « ديك » بأنها ليست في حاجة إلى خدماته بعد الآن •

وكاد ديك أنيبكي عندما غادرنا ، وقال متحسراً :

ـ هل من المعقول أن السيدة تشك بي ! إنني لم ألاحظ أبداً على نفسي القدرة على إدخال الرعب في قلوب البيض •

واستلمت بعد يومين من أهلي في « فوكنغ » الرسالة التالية : « لقد توفي خالك •••• » ، وذكرت في الرسالة أسماء الموتى الآخرين : « ومنهممن لا تذكرينهم جيداً ، لكنك تعرفين الكثير منهم حق المعرفة •••» وفي آخر الرسالة وردت قائمة بأسماء المرضى من أهل بلدتي • قررت أن أطلب من السيدة پلام اذناً بالسفر إلى بلدتي • وبعد أن أخبرتها بالرسالة وبعزمي على زيارة أهلي بهذه المناسبة ، سألتني السيدة پلام :

ـمتى توفي ؟

ـ منذ ثلاثة أيام •

ـ ألا تعتقدين بأنهم قد دفنوه ؟

ـ أجل يا سيدتي •

ـ إذن ، لماذا تودين الذهاب إلى بلدتك ؟

ـ لأن خالي كان يحبني كثيراً •

ـ وماذا ستفعلين هناك ؟

ـ سوف أنوح على قبره وأبكي ، وأعزي أرملته •

فقالت السيدة پلام : كلا لن أسمح لك بالذهاب يا كارابو ، ثم انك تعملين عندي أليس كذلك ؟

ـ أجل يا سيدتي •

ـ وأنا من يدفع لك النقود وليس أقرباؤك •

ـ ولكن ، يجب علي أن أذهب يا سيدتي ، فهذه عادة من عادات شعبي •

صمتت السيدة پلام وذهبت الى المطبخ وعادت وهي تقول :

ـ اذا كنت لا تزالين مصرة على رأيك يا كارابو ، فلن أدفع لك أجراً لقاء أيام غيابك عن العمل •

ـ ستحسمين من راتبي يا سيدتي ؟

ـ أجل يا كارابو •

وفي صباح اليوم التالي ، اقتربت من السيدة پلام وأخبرتها بقراري الرحيل إلى بلدتي « فوكنغ » ، وعدم العودة إلى العمل عندها • ورجوتها أن تحرر لي وثيقة تثبت أنني كنت أعمل عندها •

وبعد لحظات قصيرةسلمتني السيدة پلام الوثيقة المطلوبة ، وهي تضغط على شفتيها • فشعرت وكأن شيئاً ما لفحني ، ولفح السيدة پلام من الداخل ، وكأننا ابتلعنا قبضة من الفليفلة الحادة •

وقد جاء في الوثيقة أنني عملت لدى السيدة پلام ثلاث سنوات ولا شيء غير ذلك • وكان طرد السيدة پلام « لديك » من العمل ، لا يزال يحز في نفسي •

وفي المساء عشية رحيلي ، جاءتني تشيمين ، وكان لديها من الهموم والمتاعب ما يكفيها ، فقد هجرها « تيمي » لأنها قتلت الطفل ، كما ادعى ذلك • فسألتها :

ـ وهل آجريت عملية الاجهاض دون موافقته ؟

ـ أجل يا كارابو •

ـ ألم يشعر بالقلق عندما أخبرته بأنك حامل ؟

ـ لقد قلق مثلي إلا أنه قال لي الآن : بما أنك قد تخلصت من طفل واحد ، فهذا يعني أنك ستقتلين أطفالي الآخرين إذا ما تزوجنا •

ـ وهل هو جاد في قوله ؟

ـ أجل ، لقد قال لي بأن والديه لو علما بأن المرأة التي ستغدو زوجة ابنهما قادرة على انجاب الأطفال ، لكانا مسرورين جداً •

واستسلمت تشيمين للبكاء بصوت مخنوق • فحاولت تهدئتها ، وسردت عليها البراهين بأن تيمي لم يقرر

أصلاً الزواج منها وانه اتخذ عمليه الاجهاض ذريعة كي يهجرها ٠

لكن أقوالي لم تبد مقنعة لها ، ولم أجد العبارات المناسبة فأخذت أردد « باستمرار : لا تبكي يا أختي ، لا تبكي ، لاداع للبكاء ٠

وفي الصباح ، قدمت « كيت » ، وكانت مسافرة ، فرجت والدتها ، أن تبقيني ، لكن السيدة پلام لم تعرها أذناً صاغية : وأنا أيضاً لم أكن مكترثة ، ولم أرغب في البقاء لديها ٠

وبعد ساعة صعدت إلى سيارة الباص التي ستوصلني إلى فوكنغ ٠ في الطريق ، كنت أعيش حالة انتقالية ، وكانت أفكاري تتراقص وتقفز من السيدة پلام الى خالي ، إلى أهلي وفوكنغ ٠ وكنت أصحو ثم أغفو ثم أستيقظ ، ثم أستسلم للنوم من جديد ٠ وقد شاهدت ـ في الحلم أو الحقيقة ، لا أدري ـ سيارة حمراء كانت تبتعد عني ثم تتبعني من جديد ٠ وكانت أحلامي تراودني تارة وتختفي تارة أخرى ٠

وفجأة وصل إلى مسامعي صوت يردد :

« لقد قتلت نطفتي ، وأنا الذي قررت تقديمك إلى والدتي كالمرأة التي يمكن لبذرتي أن تنمو فيها ٠٠٠٠٠ قبل أن يعتقلك البوليس ، عليك أن تكوني واثقة من أنك تذهبين إلى السجن من أجل قضية عظيمة عادلة ، وإلا فستخرجين من السجن بقلب دام ووعي مسموم ٠٠٠ » ٠

وعندما وصلت إلى البيت سردت على أهلي أخباري ٠ فقال لي أبي :

« أنت لا زلت حية ترزقين ، وصحتك جيدة ، هذا هو المهم يا ابنتي ٠ والعمل باق ولا نهاية له ٠ منذ طفولتي ، أذكر بأنه كان يقال لي : إن الشيء الهام في الحياة هو الجسم السليم والعقل الناضج ٠ أما العمل فهو كثير وكثير جداً » ٠

فقلت له :

ـ لقد مضت تلك الأيام يا أبي ، وسأضطر للعودة إلى المدينة بحثاً عن عمل جديد ٠ سأستريح بعض الوقت عندكم ٠ وبعد ذلك علي أن أفكر بكم ، فالناس الآن فقراء ، وأفقر من أن يقدموا لكم المساعدة ٠

وكنت قد اتخذت قراراً ، عند رحيلي من غرينسايد ، بالعودة إلى العمل في يوهانسبرغ ٠ ومع أن البيض يدفعون رواتب ضئيلة ، لكن هذه الرواتب تبقى أفضل من الجلوس في فوكنغ أرقب شروق الشمس وغروبها ٠ كما طلبت من تشيمين أن تبحث لي عن عمل آخر ٠

ولم أقض في فوكنغ سوى أسبوع واحد ، عندما قدمت إلى فوكنغ سيارة

حمراء • وإلى جانب السائق جلست سيدة بيضاء هي السيدة پلام • لقد كادت نبضات قلبي أن تتوقف عندما خرجت السيدة من السيارة •

وكانت تعلو وجه السيدة پلام ابتسامةمضنية ، لكنها رقيقة • وخطر لي بأنها قد تود الجلوس فأسرعت إلى بيتنا وأحضرت مقعداً • وأخيراً ، قالت لي السيدة پلام :

ـ لقد جئت من أجلك يا كارابو • إني أرغب في أن تعودي إلينا • هل أنت موافقة ؟

فقلت لها :

ـ لا أعرف يا سيدتي • عليّأن أفكر بالموضوع •

ـ هل تستطيعين أن تفكري اليوم ؟ • سوف أقضي هذهالليلة في الفندق، وغداً صباحاً سأحضر إليك • وإذا ما وافقت فسنعود معاً فيالسيارة •

لقد وددت جداً إرغامها على الاعتراف بأسفها على تصرفها ، لكني لم أعرف كيفية الوصول إلى ذلك • فالبيض يعتقدون أن الانحطاط إلى مستوى الاعتذار أمام الافريقيين أمر غير مقبول •

وبما أنها لم تكن عازمة على الاعتذار ، فقد اختلقت سببين يعيقان السيدة پلام عن أخذي معها أو يجعلان من عودتي إليها أمراً مستحيلاً •

قلت لها : يجبعليك ، في البداية، أن تطلبي الموافقة من أبي • هل أدعوه ؟

فأجابت موافقة : أجل ، إدعيه •

خرج أبي وأمي وسلمّا على السيدة پلام • أحضرت لهما مقعداً كييجلسا، ثم أخبرتهما بهدف قدوم السيدة • فنظر أبي إلى أمي ، ثم أمي إلى أبي ، واتجه أبي الي • فقلت لهما :

ـ إذا كنتما موافقين ، فسأفكر أنا بالموضوع ، وغدا صباحاً سوف أخبر السيدة بقراري •

قال والدي : إفعلي ما يمليه عليك قلبك يا ابنتي •

اتجهت الى السيدة پلام قائلة :

ـ إذا كنت راغبة حقاً في عودتي إلى العمل لديك ، فلا بد أن أعرف فيما إذا كنت مستعدة لزيادة راتبي السابق • وحتى الآن كنت تدفعين لي أجراً زهيداً •

ـ ما هي الزيادة التي تريدينها ؟

ـ أربعة جنيهات •

أغلقت السيدة عينيها لحظة • فتابعت حديثي :

ـ وعلاوة على ذلك ، أريد أن تكون لدي عطلة لمدة أسبوعين في عيد الفصح من كل عام وليس يوماً واحداً •

وفكرت في نفسي : إنها إذا كانت مهتمة حقاً بعودتي فعليها أن تزيد راتبي ، ثم إن ذلك يظهر مدى أسفها على طردي وتصرفها السيء تجاهي ٠

وأخيراً قالت السيدة بلام :

ـ يمكنني أن أعطيك أسبوعاً واحداً في عيد الفصح ٠ أنت تعرفين يا كارابو ، بأن لديك عطلاً كثيرة ، أثناء سفري شتاء إلى « دوربان »٠

ـ حسناً ، سأفكر بالموضوع ٠

وفي صباح اليوم التالي ، وجدتني السيدة بلام متأهبة للسفر معها ٠

وبدت السيدة بلام راضية وطيبة جداً ٠ ولا أذكر أبداً أنني رأيتها ، في وقت من الأوقات ، بمثل هذه الوداعة ٠ وهذا ما أشعرني بثقة كبيرة في نفسي ، أكثر من أي وقت آخر ٠

قالت السيدة بحزن وأسى : لن تشاهدي « مونتي » و « مالان » بعد الآن ٠

ـ وماذا حدث لهما ؟ ـ سألتها بلهفة ٠

ـ لقد سرقا في اليوم التالي لرحيلك ٠ ولم يعثر لهما البوليس على أثر ٠ أعتقد بأنهما قد أصبحا في عداد الأموات ٠

وتذكرت ديك ! وهل يمكنه القيام بمثل هذه الفعلة ؟ ! وهذه السيدة ! هل جاءت لتأخذني فقط لأنها فقدت كلبيها الحبيبين ؟

ثم قالت السيدة بلام وهي غارقة في أفكارها ٠

ـ تعلمين ، يا كارابو ، بأنني أحب شعبكم ، أحب الأفريقيين ٠٠٠٠

ففكرت في نفسي : « وهل تحبني ! وهل تحب ديك أيضاً ! ! ! »

* * *

مطاردو الوظيفة

ترجمة : ميخائيل عيد
وليد داوود

ايفان فازوف

١٨٥٠ ـ ١٩٢١

شارك ايفان فازوف شعبه آلام العبودية وأفراح التحرر • وقد وجد ذلك الألم وتلك الأفراح أصداء لها في كل ما كتبه هذا المبدع الكبير • لقد خلف تراثاً أدبياً كبيراً فلم يترك صنفاً من صنوف الأدب لم يسهم فيه فقد أصدر عدة دواوين شعرية وعدة مسرحيات أشهرها « مطاردو الوظيفة » و « ثوار في المنفى » وأشهر رواياته « تحت النير » التي ترجمت الى أكثر لغات العالم •

وقد كتب المقالات الوصفية في ربوع وطنه الساحرة وأبدع العديد من القصص القصيرة •

مطاردو الوظيفة

« ستانتشو كفاسنيكوف في زيارة للوزير »

مسرحية هزلية من فصلين

ايفان فازوف

أشخاص المسرحية

نيقولاي بالتوف : وزير

انيتشكا : ابنتـه

الجدة دونـا : والـدة بالتوف

ستانتشو كفاسنيكوف : قريب بالتوف . عجوز تبدو الصحة على وجهه الاحمر.. يرتدي الزي الفرنسي .

جيكوخوروف : شاب ، مدع سطحي التفكير .

كاكافيدوف : انسان ضئيل الجسم ، رث الثياب .

بوزدوغانسكي : متوسط القامة ، كبير الشاربين .

السيدة تيرزيسكا : امرأة جميلة ترتدي الزي الحديث .

تشالكانوف : نائب .

درامكوف : صحفي .

ستويانكا : خادمة ريفية عند بالتوف .

ايليـــا : وصيف مسرح .

والحاجب .

تجري أحداثها في صوفيا .

الفصل الأول

مكتب الوزير بالتوف

طاولة عليها كتب • مزهرية ، كنبة من اليسار • أريكة • مرآة كبيرة من اليسار • بابان متقابلان أحدهما من اليسار والآخر من اليمين • في الصدر نافذة • هاتف •• أم الوزير (الجدة دونا) جالسة على الاريكة تحيك صوفاً • الخادمة ستويانكا واقفة •

المشهد الأول

الجدة دونا وستويانكا

الجدة دونا :	تنسين كل شيء ياستويانكا • أين عقلك ؟ اقول لك : اغلقي الابواب فتتركينها مفتوحة وكاننا في فندق • أرسلك الى السوق لتشتري لحم خروف فتشترين سمك الشبوط ••• وتقولين : هذا أيضاً لحم • هل غرقت سفنك في البحر ، اليس عقلك في مكانه •
ستويانكا :	نحن اناس بسطاء ياسيدتي ••• لو كان عقلي اكبر مما هو عليه لكنت اذن زوجة رائد •
الجدة دونا :	لك عقل ، ولكنه شيطاني • من هذا الوصيف الذي ياتيدائما لزيارتك ؟
ستويانكا :	انه وصيف النقيب شيكوف • لقد سرحوه اليوم •
الجدة دونا :	لماذا ياتي ؟
ستويانكا :	« بخفر » هكذا !!•••
الجدة دونا :	(باسمة) هل تنويان الزواج؟
ستويانكا :	كلا ••• يريد أن أجد له وظيفة •
الجدة دونا :	اعطه ••• ولكن ماذا يريد أن يعمل ؟
ستويانكا :	آذن ••• أرجو ياسيدتي أن تقولي لسيدي الوزير •
الجدة دونا :	ليس لدي سوى هذا العمل •• ان سيدك لا يرتاح للحظة من الباحثين عن عمل • سواء في الوزارة أو في البيت • كلهم يريدون عملا ••• وقلب سيدك طيب • من يسعل هناك ؟ لقد تركت الباب مفتوحا أيضاً ! (يدخل كاكا فيلوف منالجهة اليمنى) •

المشهد الثاني

الجدة دونا وستويانكا وكاكا فيدوف

كاكا فيدوف : (منحنيا) صباح الخير ياسيدتي المبجلة (يمد يده) .
الجدة دونا : أسعد الله صباحك ياسيد (تصافحه) من تكون حضرتك ؟
كاكا فيدوف : من ؟ أنا ؟
الجدة دونا : أجـــل .
كاكا فيدوف : (مبتسمة) أنك تعرفينني ياسيدتي .
الجدة دونا : من أين أعرفك ؟
كاكا فيدوف : التقينا هذا الربيع في كنياجيفو .
الجدة دونا : هكـذا ؟
كاكا فيدوف : كنتم في السيارة قرب النهر وكنت أجتاز الجسر فزلقت رجلي وسقطت في الماء ... وأذكر أنكم ضحكتم وقلتم : لقد استحم . ولقد انحنيت لكم عندئذ ... هل تذكرون ؟

الجدة دونا : (ضاحكة) لا ، لا أذكر .. من أنت ؟
كاكا فيدوف : من أنـا ؟
الجدة دونا : نعم ، أنت !
كاكا فيدوف : كاكا فيدوف ... اعذروني..لي خمسة أولاد وزوجتي حبلىوستلد قريبآ.
الجدة دونا : مـاذا ؟
كاكا فيدوف : السادس على الطريق .. اعذروني ..
ســــتويانكا : (تضحك)
كاكا فيدوف : (متابعآ) وبه سنصبح ثمانية أفواه وأنا كما ترون ولن أذهب ، مع ثقافتي ، لاحفر ... استعطفي ياسيدتي سيدي الوزير .. فانتم أمي وأبي (يحاول تقبيل يدها) .

الجدة دونا : (تسحب يدها) لا ... لا ... حسنآ . هل تعرف ابني ؟
كاكا فيدوف : من ؟ أنا ؟ طبعآ ، كيف لا ؟ أعرفه من كالكوفو . حين مر الوزراء من هناك استقبلتهم والقيت خطابا .
الجدة دونا : وهل حضرتك خطيب ؟

كاكا فيدوف : منحني الرب هذه الموهبة ••• وحينذاك سرحوني •
ستويانكا : (تخرج)
الجدة دونا : أكنت تعمل هناك ؟
كاكا فيدوف : معلم ومرتل • والآن كما ترون جائع •• هذا مكتوب علينا •• فالطيبون يتعذبون •
الجدة دونا : ما الوظيفة التي تريدها ؟
كاكا فيدوف : موظف الجمارك في خارمانلي مشرف على الموت •
الجدة دونا : لينقذه الرب ••• هل هو من أقربائك ؟
كاكا فيدوف : كلا •
الجدة دونا : ولكن ماذا تريد أن تشتغل ؟
كاكا فيدوف : أريد مكانه •
الجدة دونا : هكذا اذن !! وهل تستطيع القيام مقامه ؟!
كاكا فيدوف : بوسع الانسان أن يتعلم ياسيدتي •• الدب دب ومع ذلك يتعلم •• المهم الا نبقى دون عمل •
الجدة دونا : (تنهض) حسناً ساقول لابني •
كاكا فيدوف : أيتها السيدة المبجلة •• كوني لي بمثابة المنقذ والوالد (يقترب ليقبل يدها) •
الجدة دونا : حسناً ، حسناً •
كاكا فيدوف : شكراً (ينحني ويخرج)
الجدة دونا : (لنفسها) لا نهاية لهذا • نيقولا يشكو من المراجعين • وكلهم ياتون الى بيتي أول الامر •• لقد قال أول أمس : أريد أن أهرب الى مكان ما ••• أريد أن أترك كل شيء •

المشهد الثالث

الجدة دونا ، انيتشكا ، ثم ستويانكا

انيتشكا : أنا ذاهبة ياجدتي الى السيدة شيكوفا فاليوم هو موعد استقبالها لضيوفها • (تاخذ زهرة) أمي رفضت الذهاب • صحتها منحرفة • الا تاتين معي ؟

الجدة دونا : (مبتسمة) صارت أيام الاتسقبال « مودة » الآن •
انيتشـــكا : (مبتسمة) استقبال وليس اتسقبال •
الجدة دونا : كنت قديماً أقلد الاوروبيات •• ولقد صحبتك البارحة الى حفلة راقصة• من هو ذلك الشاب الذي رقصت معه كل ذلك الرقص ؟
انيتشـــكا : الفالس ؟
الجدة دونا : الفالس وسائر الرقصات
انيتشـــكا : انه السيد خوروف •
الجدة دونا : تصادقتما اذن !!
انيتشـــكا : انـه لجذاب

تدخل ستويانكا من اليمين •

ستويانكا : (للجدة دونا) أتى ضيف ودخل الى غرفتك يا سيدتي •
الجدة دونا : الى غرفتي مباشرة ؟ من هو ؟
ستويانكا : لا أدري •• يبدو وكانه غريب •
الجدة دونا : من تراه ؟ (تخرج من اليمين)
انيتشـــكا : (لنفسها وهي تعلق زهرة على صدرها) لقد لفت نظر جدتي أيضاً !••• شارباه جميـلان ••• لبـق •• جـذاب ••• ولكن علي أن أذهب • (لستويانكا) ما هذه البطاقة التي تحملينها ؟
ستويانكا : أعطانيها سيد شاب (تقدمها لها)
انيتشـــكا : (تنظر الى البطاقة) آه انه السيد خوروف • ادعيه الى الدخول (تخرج ستويانكا) اني مضطربة على مايبدو • لماذا دعوته مادام أبي مشغولا • (تقف ، يدخل خوروف)

المشهد الرابع

آنيتشكا ، خوروف

خوروف : (ينحني بأدب) قد أكون أزعجتكم ؟
انيتشـــكا : (وهي تمد يدها) ابداً ، ابداً • تفضل اجلس (تشير الى الكرسي)•
خوروف : شكراً (يجلسان) •
انيتشـــكا : أنت تسأل عن أبي حتماً •

خـــــوروف : عنك أولا • أشعر أن من واجبي أن أقدم لك احترامي • واني لاشكر هذه المصادفة التي أتاحت لي فرصة تقديم احترامي ••• كيف حالكم ؟ أظن أنكم متعبون منذ الليلة البارحة •

انيتشـــــكا : أبداً يا سيد خوروف • على العكس ، ان الرقص ينعشني ••• لكن أمي تشعر بتعب اليوم •

خـــــوروف : أجل ••• كانت سهرة رائعة • مجتمع •• وزينات براقة • وأنت ، اعذريني ، كنت فاتنة •

انيتشـــــكا : (مبتسمة) انك لبارع بالمجاملة • أنت تعرف جيداً طبيعة جنسنا الضعيف•

خـــــوروف : ليس ضعيفاً • المرأة اليوم هي الدنيا ••• هي التي تمنح الحياة الجمال والقوة • أية انسانية بدون المرأة ••• جسد بلا روح •• وطبعاً أنا أفهم الجميلات ••• أما القبيحات فغير موجودات بالنسبة لي •

انيتشـــــكا : (مبتسمة) أنت ظالم • قلت مرة ان السويسريات غير جميلات ؟

خـــــوروف : هم ! لم أرهن •• فتنت بغيرهن من الجميلات اللواتي أحببتهن •

انيتشـــــكا : أجنبيات ؟

خـــــوروف : من هناك • متباهيات •• بعيدات المنال • (يبتسم ابتسامة ذات معنى) ولكن بالنسبة لي ••• كان الوصول اليهن جميعاً سهلا •

انيتشـــــكا : (دهشة) نعم ؟

خـــــوروف : جبال الالب ! لقد فتنتني •

انيتشـــــكا : (مبتسمة) أوه ••• جبال الالب ؟ لقـد فكرت بالروعة هذا ؟! أنت شاعر بدون ريب ؟

خـــــوروف : (منحنياً) أحب ادعاء ذلك •

انيتشـــــكا : هل لك أشعار منشورة ؟

خـــــوروف : نعم في مجلة النور

انيتشـــــكا : عجباً ، كيف لم أقع على اسمك ؟!

خـــــوروف : نشرت باسم مستعار « بارون دوبورك »

انيتشـــــكا : (مبتسمة) آه •• لانك من بلدة بوركاس •• هل درست الأدب ؟

خـــــوروف : (متقبضاً) لا ••• انهيت المدرسة الزراعية •• درست رغماً عني •• ذلك كان نصيبي •• فلم تكن ثمة أماكن شاغرة • وقد أجبرني أبي على ذلك ، فهو يملك مزرعة •• الاعمال العضلية بغيضة الى نفسي •• وقد تلاحظين •• ثم الريف •• انه رهيب • في العاصمة وحدها يستطيع الانسان أن يعيش • أشعر منذ الامس انها منحتني قوة سحرية •

انيتشـــــكا : (مرتبكة) هل تسمح بان تقرأ لي شيئا •
خـــوروف : بكل سرور •• هل ترغبين في سماع قصيدة حزينة أهديتها للآنسة روزا اديلينا دو نوار فيل ؟
انيتشـــــكا : ومن تكون ؟
خـــوروف : شقيقة كونت ! قريبة الرئيس كارنو •• من الوسط الارستقراطي •• تعرفت اليها في قمة « مون بلان » •

انيتشـــــكا : أقرأ أيها السيد خوروف أرجوك •
خـــوروف : (ينهض ويخرج من جيبة ورقة) أرجو أن يكون في علمكم أن هـــذا محض تخيل • (يقرأ)

يا للحقارة ؟ ان روحي لمضطربة
وضعي يقتلني ، تلاشت قـواي
ماذا في قلبي ؟ مـاذا ؟
لا ينبس بكلمة
يصمت والدماء في سعار
يغيب ••• لا يطيق صبرا

★ ★ ★

لم أنجز شيئا حتى الآن •
كنت طفلاً بين الأطفال في السهل والغاب •
لا أحسب حسابا لشيء
ولم أعرف لشيء قيمة
لم أضارب بالجوع ولا البرد ولا القيظ •

★ ★ ★

يا جبال الالب الملهمة
حظي أسود ، أسود دائما
وأنت التي أحببتك
وضعتني في مرحلة سوداء
أحس تحولات لا متناهية
اتمنحينني ابتسامة كنجمة !!

انيتشـــــكا : (مبتسمة) جميل !

خـــــوروف : هو شعر غير واضح •

انيتشـــــكا : أجل ، مبهم حتى كلمة تحولات ثم يصبح واضحاً بعدها • ولكنني لست أهلاً للنقد •

خـــــوروف : الشعر العميق •• يبدو مبهماً • يجب أن يكون الشعر الحقيقي كذلك•• لقد أسرفت في مضايقتكم ••• ولكنني كنت مدفوعاً الى ذلك • (ينهض)

انيتشـــــكا : عفواً ، أبداً (تنهض)

خـــــوروف : عندما يزعج انسان آخر تكون غلاظة • أما اذا كان هذا الآخر ملاكاً ••• فتكون جريمة عفواً ، هل تحدثت الى السيد والدك ؟

انيتشـــــكا : نعم ، نعم ، ولقد رغب في رؤيتك • آسفة ، انه مشغول الآن • تفضل في الحادية عشرة •

خـــــوروف : شكراً •• الف شكر •• الى اللقاء (يقبل يدها ويخرج) •

انيتشـــــكا : (وحدها) ياله من لامع ! حقاً انه لجذاب •• من المؤسف أن يعمل شاب كهذا في مزرعة • (تطرق مفكرة) ولكن هل هي جميلة حقاً تلك الفتاة، نوارفيل ؟ أوه ••• لقد نسيت نفسي (تخرج من اليمين) يدخل بالتوف من اليسار •

المشهد الخامس

بالتـــــوف : (ملتفتاً نحو الباب) ستويانكا •• قولي للباقين أن ينتظروني في الوزارة• اغلقي الباب كيلا يدخل أحد (يجلس) اني مرهق فعلا ••• مراجعون ، مراجعون •• سيل من المراجعين •• حتى لكأن كل من في بلغاريا يبحث عن عمل •• لا أجد الراحة في بيتي ولا أستطيع العمل في الوزارة •• حالة لاأستطيع احتمالها ••• لو كنت أكثر جراة لاعتذرت منذ الاسبوع الاول •• لا يسمح لي الطبيب بالخروج اليوم ••• ولكنني مرهق هنا في البيت أيضاً •

يدخل كفاسنيكوف وفي يده سيجارة •

المشهد السادس

بالتوف وكفاسنيكوف

كفاســـــنيكوف : كان الله في عونك يانيقولا ٠

بالتــــوف : (ينهض) أو ، الجد ستانتشو ! أهلا وسهلا ! لم نلتق منذ عدةسنوات! (يتصافحان) اجلس ! (يشير الى المقعد) ٠

كفاســـــنيكوف : رأيناكم بخير يانيقولا ٠ جئت لرؤية صوفيا فقررت ان أمرّ وأراكم فنحن اقرباء وستسالني العجوز عنكم ٠ تحدثت في الداخل مع أختنا الكبرى دونا (يجلس ويضع قبعته على الطاولة) ٠

بالتــــوف : (يجلس) كيف صحتك ؟

كفاســـــنيكوف : (ممازحاً) الا ترى ! اصفر كالآجر في الماء ٠ (بجد) من هم هؤلاءالذين تحت ؟ في الممشى وفي الطريق ٠

بالتــــوف : (مؤكداً) مرشحون لمائدة الحكومة ، طالبو وظائف ٠

كفاســـــنيكوف : أهكذا تفسدون بلغارنا ! ليعملوا ويعيشوا !

بالتــــوف : قل لهم ذلك ، ينتظرون حتى في الشوارع ، يتزاحمون في ممرات الوزارة، يملؤن الحديقة ، يروحون ويجيئون أمام مائدتي وأنا أتناول الطعام ٠ لا آكل لقمة هانئة ٠ هذا فقط عندي وحدي فتخيل كم يوجد عندالآخرين! يتصل بكأقرباء واقرباء اقربائهم ، يظهر لكأصدقاء لا حصر لهم منالذين تسمع لاول مرة بخدماتهم التي قدمت في زمن ما ومكان ما ، أما لي أو لوالدي أو لجدي ٠٠ بطاقات توصية من النواب الذين وعدوهم بوظائف أثناء الانتخابات تتساقط اكواماً واجمعها كل يوم ، كيف لا ، وانا ادير مؤقتاً وزارتين ـ انه لامر مخيف ٠

كفاســـــنيكوف : (يدخن) سنواتكسل ، لا أحد يريد أن يعمل٠حتى ابني السافلبنتشو٠٠٠

بالتــــوف يقاطعــــه : اخاف حين أسير في الشارع ٠ ثمة رجل اسمه كاكا فيدوف : اعترضني أمس في شارع دوندوكوف بسرب كامل من الاطفال ، صرخوا ، شـــدوا أطراف ثوبي بتحريض وتدريب من والدهم ٠ ثمة آخر في الحديقة اسمه زورلوف ٠ اعرفه ٠ بربري ٠ جاء طالباً وظيفة حارس غابات أو محاسب

في ثانوية ديفيتش الداخلية • لماذا ؟ لانه حلق في احدى المرات لابي • وآخر صاحب بقالية لا يدعني أرتاح لانني أويت ، وكان المطر ينهمر ، الى دكانه • لقد أصبحت مديناً له • يريد ان يغلق دكانه ويصبح موظفاً• ثمة آخر ، فلاح ، من ناخبي ••• ترك حقله •• ويريد أن يصبح حاجباً ••• ولكن لماذا ياعم ستويتشو ؟ فيقول « أعرف الكتابة » لقد ضيعنا ياجد ستانتشو فضائلنا القديمة • تحررنا حقاً ولكننا تفككنا • نهرب من العمل ••• الغرباء يعملون ويغتنون عندنا ونصبح موظفين كي نصبح خدماً لهم •• كل يوم ياتيني ضيوف ، وكلهم من مطاردي الوظائف • قد تكون أول من ياتي لزيارتي دون غرض •

كفاسـنيكوف : (يدخن بشدة) لتعلم اني جئت شوقاً اليكم •

بالتـوف : أشكرك (يشد على يده) وكيف تعيشون في خارمانلي ؟

كفاسـنيكوف : آخ ، لو ترى الحقول هناك وأشجار الكرمة • نربي دود القز ، نتاجر، نجمع طرفي الامور •• ولكننا هرمنا • (تدخل الجدة دونا) •

المشهد السابع

بالتوف • الجدة دونا ، كفاسنيكوف ، ثم ستويانكا

كفاسـنيكوف : تعالي يا أختنا الكبيرة دونا • ما الذي قالته لك النساء في الغرفة ؟

الجدة دونا : (تبتسم) ألا تعرف ؟ لماذا أنا أم وزير ؟

كفاسـنيكوف : تماماً ، تماماً ، مثل القديسة والدة الاله لدى يسوع المسيح : شفيعة•••

الجدة دونا : جاءت السيدة تيرزيسكا ترجو شيئاً •

بالتـوف : كفى يا أماه ! أنت تعدينهم ولي وجع الرأس •

الجدة دونا : يوجد أناس لا تستطيع ردهم دون كلمة طيبة •

كفاسـنيكوف : هذا معروف • كلمة طيبة من الوزير تظل رطبة طوال ستة أشهر •

الجدة دونا : منذ فترة بكى أحدهم هنا •

بالتـوف : من هو ؟

الجدة دونا : كاكا فيدوف •

بالتـوف : هذا الكاكا فيدوف الرهيب !

الجدة دونا : وظفته

بالتــــوف : لا أستطيع فقد تصرف هذا الاحمق تصرفاً معيباً • وهو لا يصلح ليكون معلماً ولا يصلح حتى ليكون كناساً في مدرسة •

الجدة دونا : وماهي غلطته ؟

بالتــــوف : حين ذهبت وبقية الوزراء الى سامالكوف مررنا بقرية كالكوف فاستقبلنا مع الفلاحين والتلاميذ والقى كلمة فدعانا « ملائكة السيرافيم الستة المجنحين ! »

الجدة دونا : (تبتسم) امتدحكم قليلا •••

كفاســـنيكوف : وانا أرى أن « ملائكة السيرافيم الستة المجنحين » ليست شتيمة • ألا نرتل في الكنيسة « الملائكة الهيروفيم ، ألا يقاسون بالسيرافيم ؟ » وأنا أحياناً أفعل شيئاً كهذا •

بالتــــوف : رويدكما • ثم اطلق علينا ، قراصنة الشعب المجيدون » •

كفاســـنيكوف : آ ! الاخيرة سيئة • ماذا تدني قراصنة هذه ؟

بالتــــوف : « قراصنة » تعني لصوص البحر •

كفاســـنيكوف : آ ! يستحق الشنق لهذه •

الجدة دونا : ان هذا المسكين ينتقي هـذه الكلمات السياسية كما تفعل جدته دونا • يخيل الي انه ساذج •

بالتــــوف : أوجدت له عملا براتب سبعين ليرة شهرياً في مصنع التبغ في دجونيانوفا لكي أتخلص منه فلم يرض • لـم يشأ أن يهـان علمه ! اسـمح ياجد ستانتشو ان اقرأ لك هذه الرسائل (يخرج من عبه رسائل ويقرأ)

الجدة دونا : أذهلني هؤلاء يا ستانتشو فنسيت أن أسالك عن الأولاد •

كفاســـنيكوف : هم بحالة جيدة يا أخت دونا • أكبرهم تيودور ضابط وستيفان قاض مدني وخريستو كذلك • وسينهي بنتشو المدرسة الحرفية هذا العام •

الجـدة دونـا : ونيقولا ؟ أليس هو الخامس ؟

كفاســـنيكوف : نيقولا معلم ـ لا أعرف أي معلم هو : يهرب دائماً من المدرسة ويشنق القطط • لا يدع قطة في المحلة • وديمو كاتب عند الرئيس في مدينة سليفن • أمـا خطـه ، يا أخت دونـا ، فمن الرداءة بحيث أظل ساعة كاملة لاكمل قراءة رسالته •• أضع قلمي في ماء بارد (يبتسم

بالتوف) أما ابراهيم فيتعلم في المدرسة الروحية وسوف يصبح مطراناً. له صوت هرموني : حين يرتل يخرس مئة زورلا « آلة موسيقية ، هي نوع من الكلارينيت » .

الجـدة دونـا : جميل ، أنت من نسل كهنة .

كفاسـنيكوف : أجل ، عمدناه على اسم عمه الكاهن ابراهيم . أما أي كاهن سيكون ، فلا أدري ! جاء أثناء العطلة : ليقرأ كل غاريبالدي . وأنشد لبوتيف « مستقيمو الرأي البهائم » ودمغ صدر أمه بخاتم القديس ايفان ريلسكي . باختصار سيقودنا جميعاً الى جهنم .

الجـدة دونـا : حمقى .

كفاسـنيكوف : أما بافل فيعمل على الهاتف .

الجـدة دونـا : أيعمل أيضاً ؟ لديك معاونون .

كفاسـنيكوف : والثامن ـ سكوبيلتسو ، في القسم الرابع ، عقله قاطع كالموسى .. سيسنبل هذه السنة .

الجـدة دونـا : ماذا تقول ؟

كفاسـنيكوف : سيسنبل ، يعني سيعطي أول سنبلة . أما ماريا وكونكا فتذهبان بالقميص وتسبحان كالبط في السواقي .

الجـدة دونـا : « باسمة » آ ! ولديكم بنات !

كفاسـنيكوف : اثنتان فقط . انهما مثل يمامتين . كونكا تعرف جيداً كيف تصنع دمية من كل خرقة تجدها .

الجـدة دونـا : يالك من أب سعيد !

كفاسـنيكوف : علقي بي رأساً من الثوم كي لا أصاب بالعين . أما آسين فيشبه البندقية .

الجـدة دونـا : أوخ ، أوخ ، أوخ ، هذا زيادة !

كفاسـنيكوف : الرب حين يعطي لا يسال ابن من تكون . أما كروم ...

بالتـوف : (يترك الرسائل ويبتسم) الديك ايضا ياجد ستانشو ؟

الجـدة دونـا : (مبتسمة) مهلا ، انهم يشكلون مملكة .

كفاسـنيكوف : ولد ولد آخر بعد كروم وهو الاصغر ولا أعرف ان كان سيصبح نقيباً أم سيدة .. ماذا ترون ؟ نحن في الريف لا نعمل سوى هذا . سر في الشوارع تر الاولاد أكثر من الحصى . (تدخل ستويانكا) .

المشهد الثامن

نفس الأشخاص وستويانكا

ستويانكا : (لبالتوف) أحد السادة قدم هذه (تعطيه بطاقة) •

بالتوف : (ينظر الى البطاقة ويتجهم) من أين دخل ؟ ألم أقل لك : لا تسمحي لاحد؟

ستويانكا : الباب مقفل ولقد تسلل من الحاجز الخلفي من خلال لوح مخلوع •

بالتوف : قولي له اني غير موجود

ستويانكا : قالت له الجدة غونا انك هنا •

بالتوف : (غاضبا) ألم أصدر أوامري للطباخة بان تقول اني غير موجود ؟

ستويانكا : قلت لها ذلك ولكنها لم تجرؤ على الكذب فهي تستعد لتناول القربان المقدس•

بالتوف : (ينهض ، غاضبا) يا للشيطان ! فلقني هذا السيد بسبب الوظيفة • لا مهرب ••

كفاسنيكوف : من هو هذا الرجل ؟

بالتوف : رجل أرعن مسرف • قدم لي نفسه على انه محارب متطوع ولكن تبين أن الوثائق التي قدمها مزورة • كان مجرد رجل اطفاء في بودابست أثناء الحرب الروسية التركية •• ولكنه مقتنع بأنه سكب دمه من أجل بلغاريا وهو يتشكى دوما من أن الوطن لم يكافئه على خدماته • منذ شهر أشهر مسدسه في الوزارة لينتحر أمامي قائلا : « من الافضل أن أموت برصاصة بدلا من أن أموت جوعا » •

كفاسنيكوف : يا الهي ! وهل أنتحر ؟

بالتوف : أعطيته خمس ليفات فوافق على ألا ينتحر •

الجدة دونا : من يكون هذا ؟

بالتوف : (ينظر الى البطاقة) اسمه ستراخيل بوجيداروفيتش بوز دوغانسكي معنى الاسم بالعربية » : المخيف بوجبداروفيتش « الدبوسي » « من الدبوس الحربي » •

كفاسنيكوف : أسماء مخيفة •

الجدة دونا : هل جاء ثانية !

كفاسنيكوف : أرسلهم الى العمل !

بالتـــــوف : (باسمة) هل أتجاسر ؟ تجاسرت مرة وقلت لاحدهم : اشتغل فاشهر مسدسه •

كفاســــنيكوف : ليقتل نفسه ؟

بالتـــــوف : كلا ، بل صوبه الى صدري

كفاســــنيكوف : (يرسم اشارة الصليب) الله ينجينا ! الناس هنا من كل الاشكال • اشفق عليك يانيقولا • لماذا لا تطلق كلباً شرساً في الحديقة ؟

بالتـــــوف : (لستويانكا) هل عاد الحاجب ؟• قولي لهذا أن ياتي غداً الى الوزارة• اسمعي ! افتحي أذنيك جيداً : اليوم لا أستقبل أحداً • لا تدعوا أحداً يدخـــل •

ســـتويانكا : حاضر •••

بالتـــــوف : قولي اني غير موجود في البيت •

ســـتويانكا : ولكنهم لا يصدقون •

بالتـــــوف : قولي اني غير موجود في صوفيا • قولي اني ذهبت الى بلوفديف • الى أميركا ، الى بيت المقدس !

ســـتويانكا : (باسمة) هم شياطين ولن يصدقوا •

بالتـــــوف : (نافد الصبر) اذن قولي لهم انني مريض ، أو أنني مت ، وقد دفنت في أورلاندوفيتسي •

ســـتويانكا : (باسمة) واذا لم تمت ؟

كفاســــنيكوف : (لستويانكا) لا تكثري من الكلام • اسمعي مايقوله لك • ثم متى ستتناول غوتا القربان المقدس ؟ (تخرج ستويانكا • الى بالتوف) ساهرب قبل المساء •• ولكن أريد أن أقول كلمة واحدة يانيقولا •••

الجـدة دونـــا : ابق في صوفيا قليلا •

كفاســــنيكوف : اشتقت الى قريتنا يا أخت دونا ، انـا هنا في الغربة • أما قيل : « مسقط الرأس عزيز ؟ » ولكن مهلا ، هل جاءت صاحبتنا بوليكسينا ؟ هي هنـــا !

الجـدة دونـــا : أهي هنا ؟ لم تات الينا •

كفاســــنيكوف : أتت لتطلب تعيينها معلمة ••• ولكن أية معلمة ؟ ستخيف الاطفال •• الافضل لها أن تتزوج •• صارت عانسة •

الجـدة دونـــا : من سيتزوجها ؟
كفاســـنيكوف : لن يتزوجها أحد ... فهي كبيرة وعادية من جهة وهي قبيحة من جهة أخرى . لم يمنحها الله جمالا .. فهي مدورة كالبرميل . احدى عينيها سوداء والاخرى رمادية ، وهي حولاء تنظر اليك فتراني . وهي شريرة ! أفعى سامة . (نحو بالتوف) اقترح أن يزوجها نيقولا ما دام وزيراً .

بالتـــوف : (باسماً) ولكن من سينافسك على قريبتك ؟
كفاســـنيكوف : قريبتي وقريبتك أيضاً . اد خدمة لوالدها العجوز وزوجها . أهي مذنبة في كونها حولاء ؟ (تبتسم الجدة دونا) لماذا تبتسمين ؟ هذا ما يحدث : ألم يزوج السكير الاول لوكوف اخواتـه الست هكذا ؟ وظف رجالهن (تدخل انيتشكا من الباب الايمن) .

المشهد التاسع

بالتوف . الجدة دونا . كفاسنيكوف ، انيتشكا ثم ستويانكا

بالتـــوف : (لابنته) أتعرفين الجد ستانتشو يا انيتشكا ؟
انيتشـــكا : (بفرح) أهلا وسهلا ياجداه . لازلت شاباً (يتصافحان) .
كفاســـنيكوف : (ممازحاً) لو قلت انني عجوز لمـا صدقتك .. أما أنت فيالك من صبية ! يجب أن يبصق الانسان كي لا تصابي بالعين . أعرفك يوم كنت صغيرة ، هكذا ، تنامين مع اللمى .
انيتشـــكا : سنلتقي أيضاً ياجدي ستانتشو (تتجه الى اليسار) لا تنس ياأبي وعدك لي بشأن السيد خوروف ، مع أحر تمنياته لشخصك الكريم . سيأتي.
بالتـــوف : حسناً (تخرج انيتشكا) .
كفاســـنيكوف : (يلاحقها بنظراته) ابن ملك فقط ، جدير بهذه الفتاة . ألم يعجبها أحـد بعد ؟
بالتـــوف : أطلقت لها كامل الحرية في هذا المجال ياجد ستانتشو . وقلت لها : حين تختارين أوافق . لا أريد أن أقسر قلبها . لتر من يطلب يدها ، وليكن من أجلها هي لا لكون والدها وزيراً . وهي ذكية فلتفتح عينيها .
كفاســـنيكوف : لا أوافقك على هذا . فاعقل النساء حمقاوات . ما أن ترى عيونهن خرقة ملونة حتى تلتمع نظراتهن . شعورهن طويلة وعقولهن قصيرة . هكـذا

يقول الناس • اتعرف كيف اخذتني زوجتي نونكا ؟ يضربها والدها وتلحقني • أبوها ينتقي لها الأفضل فتجن باحد الخلعاء الذي يمد الآن يده ـ والآن هنيئاً لجدك ستانتشو ـ فهو الاول في خارمانلي حيث له اثنا عشر ولداً •

بالتـــــوف : (ضاحكا) عددناهم ثلاثة عشر ياجد ستانتشو •

كفاســـــنيكوف : لقد نسيت عددهم •

بالتـــوف : (ضاحكا) يحفظهم الرب ياجد ستانتشو (يعتذر ويخرج) •

الجـدة دونــا : (تلاحقه بنظرها) لحق به بعضهم في الممر • نيقولا اليوم مريض ولديه عمل كثير • ولا يدعونه يتنفس • عقوبة حقيقية •

كفاســـــنيكوف : هل لي عشرة أولاد أم أحد عشر ، أم ترى كم عددهم •• حين ساعود سآخذ وعداً بان لا يصبح أحد منهم وزيراً •
(تدخل السيدة تيرزيسكا)

المشهد العاشر

الجدة دونا • كفاسنيكوف ، السيدة تيرزيسكا ثم ستويانكا

الجـدة دونــا : تفضلي يا سيدة •

السيدة تيرزيســكا : أزعجكم دائماً • هل الآنسة هنا ؟

الجـدة دونــا : هي هنا • اجلسي (الى كفاسنيكوف) السيدة تيرزيسكا صديقة انيتشكا منذ المدرسة (تحني السيدة تيرزيسكا رأسها وتجلس) •

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) ليست سيئة •

الجـدة دونــا : ابني مشغول جداً • يكون عند الظهر حراً • هل زوجك بدون وظيفة ؟

السيدة تيرزيســكا : أجل ياسيدتي • تصوري وضعنا المبكي • ولنا أطفال (تتابع كلامها بصوت خافت) •

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) لم تر وضعها المبكي حين حبلت ••• ولكن من يعلم••• فالمظهر خداع • أليس ثمة قول مأثور : يرتدي الحرير ويأكل القُرّاص• عالمنا الذي نعيش فيه مخادع •

الجـدة دونـــا : (بصوت عال) سارجو نيقولا • سننهي الامر ، لا تقلقي •

السيدة تيرزيســكا : (تمسح عينيها بمنديل) •

كفاســـنيكوف : لا تبكي ياسيدتي (بصوت خافت) • حين أرى امرأة شابة تبكي تتسرب الدموع الى حلقي فلا أستطيع أن أرد لها طلباً •

السيدة تيرزيســكا : جئت وحيدة لاطرق بابكم • لـم يحصل لي شرف التعرف على سـيادة الوزير ولكني أعرف أنه عظيم الشفقة على التعساء • وأنا أحمل بطاقات من عدد من النواب المتنفذين (تمسح عينها ثانية) •

كفاســـنيكوف : (بصوت خافت) أنا واثق من أنها شيطانة وستجد وظيفة لزوجها • رجل لديه امرأة جميلة لا يُرمى على الطريق • (تدخل ستويانكا حاملة القهوة وثلاثة كؤوس من الخمر) •

الجـدة دونـــا : (الى السيدة تيرزيسكا) هل لك أخت ؟ أين هي ؟

السيدة تيرزيســكا : (تتناول القهوة) السيدة دوموزوفا ؟ انها معلمة في ترن •

كفاســـنيكوف : أيسمح القانون بوجود اسم دوموزوفا في المدرسة ؟ (يشرب كاس الخمر ويتناول القهوة) •

السيدة تيرزيســكا : (مبتسمة) هذا لايعيق •

كفاســـنيكوف : (يحك رأسه) أعرف واحدة من خارمانلي تحمل اسماً عجيباً الى حـد مخجـل •

السيدة تيرزيســكا : (تبتسم) •

كفاســـنيكوف : أرغمتها البلدية على تغييره (يهز فنجان القهوة ويرتشف منه) ولكن أين السيد دوموزوف •

السيدة تيرزيســكا : يعمل منذ ثلاث سنوات في دوبريتش •

كفاســـنيكوف : هو في دوبريتش وهي في ترن • على الطرفين • هل يلتقيان أحيانا ؟

السيدة تيرزيســكا : يتبادلان الرسائل •
(تخرج ستويانكا) •

كفاســـنيكوف : يركضان وراء الكسب • كيف يمكن ذلك ؟ أنا لا أترك عجوزي منالعتبة الى الداخل ـ كما يقال ـ لا أستطيع البقاء من دونها يومأ واحداً •

السيدة تيرزيســكا : (تبتسم) انك سيء الظن جداً بالنساء •

كفاســـنيكوف : لا أثق بهن والحقيقة تقال • المرأة والدجاجة لا يحجزهما حاجز •

السيدة تيرزيسكا : (تبتسم) هكذا ، هكذا ، ياسيدي • ولكن ثمة مثل آخر : « ان كنت تحبها فلا تتركها عند العتبة » كان ذلك في الزمن الغابر •

كفاسنيكوف : كيف في الزمن الغابر ؟

السيدة تيرزيسكا : عندما كانت النساء إماء •• اما الآن فنحن في عصر جديد • صارت فيه النساء بشراً أحراراً •

كفاسنيكوف : المعذرة ياسيدة تيرزيسكا • أليس ضرورية وجود كمامات ؟

السيدة تيرزيسكا : لماذا ؟

كفاسنيكوف : لانني أرى الدجاجة تصيح عندنا •

السيدة تيرزيسكا : (مبتسمة) كفى الديوك صياحاً •

كفاسنيكوف : أي ، أنا لا أدع زوجتي تذهب لتبحث لي عن وظيفة • لو فعلت لذبحتها •••

السيدة تيرزيسكا : (تبتسم) أنت غيور مثل تركي •

كفاسنيكوف : المرأة تحت القفل • تحت القفل !

السيدة تيرزيسكا : أوخ ، وهل سياكلها الرجال ؟

كفاسنيكوف : (يدخن) لن ياكلوها • فمن أكلوا ؟

الجدة دونا : (لكفاسنيكوف) الآن الدنيا غير الدنيا ياستانتشو • ونحن لانزال معجبين بالماضي •

السيدة تيرزيسكا : (تنهض) ساعود بعد الظهر يا سيدتي وسارى انيتشكا • وداعاً (تسير الى عند الباب وتلتفت نحو كفاسنيكوف) وداعاً ياسيد كفاسنيكوف توسط لنا أنت أيضاً عند سيادة الوزير •

كفاسنيكوف : حسناً ، حسناً ياسيدتي (يحني راسه) •

الجدة دونا : ساشيعك (تخرج مع تيرزيسكا) •

المشهد الحادي عشر

كفاسنيكوف وستويانكا

كفاسنيكوف : (لنفسه) يبدو لي انني قد نظرت كثيراً اليها • ستقول الاخت دونا : « عين الثور دائمة على الذرة » (يشرب كاساً ثانياً من الخمر) تسه !

هذا الشيء يكوي من جهة ويدغدغ الحلق وينعش الروح من جهة أخرى (يرفع الكاس) هذا العالم مثل كهرمان قبر الرب (يشرب الكاس) تسه ! ساشتري زجاجة وأقدمها هدية لعجوزي • أهي غالية الثمن ؟

ستويانكا : (تدخل من اليمين) أعطاني سيد هذه البطاقة (تقدمها له) •
كفاسنيكوف : أليس ممنوعاً ادخال أحد ؟
ستويانكا : (وهي ترفع الصينية) أوصتنا الآنسة أن ندخله حين ياتي •

كفاسنيكوف : (ينظر الى البطاقة) هي بالفرنسية • دعي الصينية هنا كي لا ينسكب ما عليها (يتناول الصينية من ستويانكا ويعيدها الى الطاولة) سيعين فتاك الشجاع حاجبا كما أخبرتني الجدة دونا • لماذا صار لونك أحمر• مثل تفاحة من كوستنديل ؟ انه ليحلو للمرء أن يقضمها • (تتراجع ستويانكا خجلى) لا تخافي يا ابنتي ! سوف تتزوجان ، أليس كذلك ؟

ستويانكا : (بمكر) وهل أعرف ؟

كفاسنيكوف : لتعملن قدر استطاعتكن ، فلا بد للمملكة من جنود • أعطى الرب لجدك ستانتشو اثني عشر ولداً ولكن جدك ستانتشو لا يغفو • (تهرب ستويانكا) الفلاحات لسن بحاجة للنصائح : قرأت أمس في جريدة أن واحدة من رادومير قد ولدت ثلاثة توائم دفعة واحدة • (ينظر نحو الباب) آ ، ادخلوا ! ادخلوا ! (يدخل خوروف) •

المشهد الثاني عشر

كفاسنيكوف وخوروف

خوروف : (ينحني باحترام) لي الشرف بان امثل امامكم •
كفاسنيكوف : (ينظر اليه) الست جيتشكو بن ديمتر بوخلات ؟
خوروف : (بصوت خافت) هل يعرف أبي ! يتكلم دون تكلف •
كفاسنيكوف : (يجلس) لقد كبرت !
خوروف : (بصوت خافت) لم يمد يده !
كفاسنيكوف : أما زال والدك محتفظا بالمزرعة ؟

خــــــوروف : يحتفظ بها (بصوت خافت) لم يدعني للجلوس !

كفاســــنيكوف : كيف هي المزرعة ؟ (يشرب الكأس الثالث) •

خــــــوروف : لم أذهب الى بورغاز بل أنا آت من النمسا مباشرة الى سيادة الوزير •

كفاســــنيكوف : (يبتسم ، بصوت خافت) يظن أنني الوزير !
(بصوت عال) ماذا درستم هناك ؟

خــــــوروف : (بصوت خافت) عجباً ، قالت لي انها أخبرته (بصوت عال) أنهيت كما تعلمون المدرسة الزراعية في لوزان •

كفاســــنيكوف : (بسرور) آ ! هذا جيد ، جيد ! ذلك أفضل من المحاماة • أنا أكره المحامين • كلهم ثرثارون ، يصنعون من القشة جبلا (يشير الى الكرسي) اجلس •

خــــــوروف : شكراً (يجلس) •

كفاســــنيكوف : (يدخن مراراً) هل وسائل المعيشة رخيصة هناك ؟

خــــــوروف : لم أعر الامر اهتماماً • النمسا كما تعلمون بلاد جبلية •

كفاســــنيكوف : أعرف ، أعرف (يدخن ويفكر) والآن أنت عائد لتذهب الى المزرعة لمساعدة والدتك ؟ يفرحني ذلك •

خــــــوروف : (مشمئزاً) أنا خاصة •••

كفاســــنيكوف : (مقاطعاً) أحترم أولئك الشباب الذين يبتعدون عن الوظائف • العاجز والمشوه هما اللذان يحبان الوظيفة ، أليس كذلك ؟

خــــــوروف : (مشمئزاً) أنا أفكر بشكل خاص •••

كفاســــنيكوف : (يقاطعه) أعرف • أنت تفكر مثلي • لهذا أحترمك ولكن هناك اخرين كلمتهم قبل قليل هنا : حلاق ترك الحلاقة وتاجر ترك التجارة وفلاح ترك المحراث وكلهم يريدون التوظف • كلهم يريدون أن يصيروا عالة على الشعب •• ولكن من سيعمل ؟ من سيسند الدولة ؟ بلغ سلامي الى والدك •

خــــــوروف : أنا سأذهب في المستقبل اليه •• أما الآن فاريد البقاء هنا •

كفاســــنيكوف : ستبقى هنا ؟

خــــــوروف : هكذا ارتأيت • كل ما قلتموه صحيح ••• ولكني لا أشعر بميل نحو ذلك فأنا راغب في البقاء في صوفيا على اعتبارها مركزاً ثقافياً وأنتم تعلمون •••
(يمسح جبينه)

كفاســــنيكوف : هل لشأن يخص الزراعة ؟
خـــوروف : كيف ، يخص الزراعة ؟
كفاســــنيكوف : هكذا ، عمل زراعي ٠
خـــوروف : (بصوت خافت) كيف يتباله ! (بصوت عال) كلا ، وانما أبحث عن وظيفة تناسب طبيعتي (بصوت خافت) قالت لي انهـا أخبرتـه ! (يجفف عرقه) ٠
كفاســــنيكوف : (بصوت خافت) يريد وظيفة ويظن أنني الوزير وهذا طريف ! لن اخبره٠ لاسمع مايقوله هذا اللورد غورتشاكوف ٠ (بصوت عال) وما الوظيفة التي تريدها ياسيد دفوريانسكي ؟
خـــوروف : كيف ؟
كفاســــنيكوف : غلطت ٠٠ ماهي الوظيفة التي تريد أن أعطيها لك ؟
خـــوروف : توجد حاجة لرئيس فرع حرية المعتقد الذي تديره وزارة الخارجية ٠
كفاســــنيكوف : توجد حاجة ٠ هل أعجبتك هذه الوظيفة ؟
خـــوروف : حتى الآن جيدة ٠ (مبتسماً) في المجال الروحي ٠ وهذا ليس بالقليل ٠
كفاســــنيكوف : ولكن ، هل ستصبح روحياً ؟ هل درستم الروحيات ؟
خـــوروف : (مبتسماً) يبدو أن المزاح يروق لكم ياسيادة الوزير (بصوت خافت) من قال لي انه سمج ؟ هذا صحيح ٠٠٠
كفاســــنيكوف : لا يمكن ٠٠ سنضع في هذا المجال الروحي انساناً روحياً ٠
خـــوروف : انسان روحي ؟
كفاســــنيكوف : نعـم ٠
خـــوروف : هذا غير ضروري في رأيي ٠
كفاســــنيكوف : ضروري ، ضروري ، اطلب وظيفة غيرها ٠
خـــوروف : (بصوت خافت) من نصب هذه الخشبة وزيراً ؟ (بصوت عال) سمعت أن مركز مدير المطبعة الحكومية شاغر ٠ أنـا مستعد لقبوله ٠
كفاســــنيكوف : (يدخن) وهل تعرف شيئاً عن الطباعة ؟
خـــوروف : وهل ذلك ضروري ؟

كفاســـــنيكوف : يلزم للمطبعة الحكومية مدير طبّاع • هذا ما أعرفه • للحلاقة ـ حلاق • وللعمل الروحي روحاني • اما انتم فكيف ترون ؟ تعلمت الزراعة وتريد عملا روحيا • أيجوز هذا ؟ كما لو أنني اريد أن أصير رقيبا أول أو مساعدا •

خـــــوروف : (مهانا) قل لي : نعم ، أو لاتتلاعب بي (ينهض) •

كفاســـــنيكوف : اذهب ياعزيزي الى والدك • اسمع نصيحتي •

خـــــوروف : (حردا) احتفظ بنصائحك (يتناول قبعته) •

كفاســـــنيكوف : (ينهض) أقلت مايسيء لك يافتى ؟ لك طبع معين • تريد أن تكون انسانا غير منتج • اذهب الى المزرعة • اعتن بها • اشتغل • امسك المحراث وارشد الفلاحين البسطاء ليحرثوا حقولهم بالاساليب الحديثة

خـــــوروف : (غاضبا) أنت تنسى !

كفاســـــنيكوف : وهل ساتحفظ معكم ؟ لقد حفرت ثقبا في البحر حين كنت في أوروبا •

خـــــوروف : تتعلمون بشكل معيب !

كفاســـــنيكوف : (غاضبا) أأنت أحمق ؟

خـــــوروف : (يتجه نحو الباب) متوحش •

كفاســـــنيكوف : لا تصرخ أيها الصبي الاحمق (يتبعه) •

خـــــوروف : عقل صدىء ! ظلامي ! بومة !

كفاســـــنيكوف : دعي ! أبوك هو البومة ! أهكذا تخاطب رجلا مسنا ؟ (يرفع كتابا مجلدا فوق رأسه) اخرج • أنا السيد هنا !

خـــــوروف : أبله (ينظر اليه بضراوة ويصفق الباب) •

كفاســـــنيكوف : (وحيدا) أرأيتم ابن الدب ! لحسن الحظ أني لم أرمه بهذا •• (يبتسم) صرت عظيما لمرة في حياتي • ماذا دفعني الى ذلك ؟ كان ثمة شيء يرقص في عقلي ويهتف بي « لا تخبره من انت « لا تخبره من انت لا تقل له ! صر وزيرا ! » (يبتسم) أنا انسان سيء • لو كان نيقولا هنا لما فعل ذلك ! لهذا لا نزال بهذه العادات البدائية ياستانتشو كفاسنيكوف •• أما قيل : « البقرة التي تنطح لا يرزقها الله قرونا » (يدخل ايليا من اليمين مرتدية ثيابا فلاحية ، وعلى رأسه قبعة عسكرية)•

المشهد الثالث عشر

كفاسنيكوف • ايليا

كفاســـــنيكوف : عمن تبحث ؟

ايليـــــا : (مضطرباً) ابحث عن الآنسة • (ينظر حوله) •

كفاســـــنيكوف : من أنت ؟

ايليـــــا : كنت حاجب الرائد شيبكوف وقد سرحت اليوم •

كفاســـــنيكوف : أنت الذي قالوا لي انك تبحث عن وظيفة حاجب ؟ أنت فلاح فلماذا لا تذهب وتفلح حقول والدك ؟

ايليـــــا : (يبتسم خجلا ، يدير القبعة) لا نستطيع في القرية •

كفاســـــنيكوف : أمر جميل • لو أراد كـل الفلاحين أن يصيروا حجابة ووزراء ويتركوا المحراث ، ألن نموت جوعاً نحن المدنيين ؟

ايليـــــا : هذا صحيح •

كفاســـــنيكوف : صحيح • ما اسمك ؟

ايليـــــا : (ينتصب مستقيماً وبنبرة عسكرية) ايليا بيتروف ، جندي استكشاف في البطارية الثالثة من فوج توروفو الرابع للمدفعية ، الذي يقوده الامير الكسندر ، الكتيبة الاولى •

كفاســـــنيكوف : أوخ ! أوخ ! أوخ ! من هنا الى لوفيش مسافة كبيرة ! (بصوت خافت) هوذا فلاح آخر يطارد الوظيفة • يتعبه المحراث : من يعرف فقد يجول في أعماقه أن يصبح وزيراً ذات يوم ! ولماذا لايصبح ؟ لا يولد الناس وزراء بل يصيرون كذلك • لاتناول عصا وأقول له : « صر وزيراً » فيصير • ولكن عليّ أن أتصل هاتفياً بعجوزي ، ثم أعود لارى نيقولا بعد الظهر • (يخرج من اليمين وتدخل انيتشكا من اليسار) •

المشهد الرابع عشر

انيتشكا وايليـا

انيتشـــــكا : (دون أن ترى ايليا الذي يقف وقفة عسكرية) اني مستثارة جداً • والسيدة شيبكوفا مسرورة منه ــ هما قريبان • الكل يمتدحونه كمرافق جيد (كافالير) •• أشعر ، أشعر ولكنني لا أستطيع تحديد شعوري

جيداً ولا أستطيع مناداته باسمه (تفكر) كم يحيط بي من الشباب ؟ كم من المعجبين ؟ أما أنا فاشعر أن الجميع يفعلون ذلك لانني ابنة وزير وليس من أجلي أما هذا ••• أنا أحتاج الى السكينة •• وأن أستجمع أفكاري • (تفكر) أأنا أحب ميغار ؟ (ترى ايليا) ماذا تريد يا ايليا؟

ايليـــــا : أرسلتني سيدتي لاوصل لك هذه الرسالة (ينزل قبعته ويخرج رسالة)•

انيتشـــكا : (تاخذ الرسالة) هل تحب ستويانكا ؟

ايليـــــا : (يبتسم بخجل ويدير قبعته) لا أجرؤ على التصريح ياسيادة الرا ••

انيتشـــكا : اعرف ، أعرف ، وهي تحبك •

ايليـــــا : هـذا صحيح •

انيتشـــكا : أتريد أن تصبح حاجبا ؟

ايليـــــا : هذا صحيح ، ياسيدي الرائد •

انيتشـــكا : هذه الخدمة ستكون لصالح ستويانكا وما عليك الا أن تحبها فهي فتاة طيبة (تفتح الغلاف بهدوء) •

ايليـــــا : أمـرك •

انيتشـــكا : (بصوت خافت) ها همـا قلبان سعيدان لايعذبهما الشك • المستقبل لديهما واضح والحياة بسيطة وسهلة (بصوت عال وقد فتحت الرسالة، باسمة) هل الرائد صارم ؟

ايليـــــا : انه طيب •

انيتشـــكا : والسيدة ؟

ايليـــــا : (غير جازم) وهي جيدة •

انيتشـــكا : تكذب ، هي تضرب •

ايليـــــا : مرة واحدة فقط • حين أضعت لها منديل الحمام الحريري •

انيتشـــكا : (لنفسها) ما الذي كتبته لي السيدة شييكوفا ؟ قبـل ساعتين كنت عندها • (تنظر في الغلاف فترى غلافاً آخر) ماهذا ؟ (تفتح الغلاف الداخلي) أوه ! من السيد خوروف ! (تقرأ بعض الوقت) يبوح لي بحبه ! (تخرج مسرعة من اليسار) •

ايليـــــا : قررت الآنسة أن ترد الجواب كتابـة فلأنتظرهـا • (يخرج من عبه علبة فيها مرآة ، يتمرای ويفرك أعلى أنفـه) ساشتري ، قبـل كل شيء لستويانكا خفاً له شراريب لتفرح ثم ساشتري لها فستانا ! لا أريدها

أن ترتدي ثياب فلاحة . كم سيدهش والدي حين يراني على هذا الشكل. أزرار لامعة ، لقد أعجب الرائد بها . (يفكر) ولكن الن أدخل الى المكتب بهذه القبعة الممزقة والخفين الباليين حين أصير محاسباً في الوزارة!.. لا لن أفعل ذلك فاخجل ... ليحدث بعدها ... ماذا ساصبح ؟ سكرتير لا . أريد أن أصبح مدير هذه النواحي ، سيف وشرائط على الكتف ... عندها ، حين سياتي والدي الى زيارتي سيقول : « أهذا انت يا ايليا ؟ » (يفكر) ثم ساتقاعد . ساشتري لها مظلة من الحرير ذات مقبض أبيض من العاج . ساوصيها بالعناية بها كي لا تنكسر فاضربها .. وحين تنهب الى السوق يوم الجمعة فان جماعتنا ... (ينظر الى المزهرية) يالجمال هذه الازهار (يشم الازهار) اآخذ زهره لستويانكا ؟ (يهم باخذ زهرة ، تدخل ستويانكا) .

المشهد الخامس عشر

ايليا ، ستويانكا

ستويانكا : (تندفع نحوه) ايليا ، ماذا تفعل ؟ دعها (تمسك يده) .

ايليا : (ضاحكاً) لك ، لك !

ستويانكا : اخرج . سيراك السيد (تسحبه نحو الباب ضاحكة) .

ايليا : انتبه ! عدواً سر ! (يديرها ويقبلها) .

ستويانكا : (متجهمة) انصرف . هنا ! اوف يا للطاعون ! وهو سيصير مدنيا ! يليق ذلك بك كما يليق الجرس بالخنزير . هيا الى المطبخ لتاكل فقد أبقيت لك بعض البقلاوة منذ البارحة (تدفعه نحو الباب الايمن ، يضحكان ويخرجان) .

الفصل الثاني

المشهد الأول

انيتشكا ثم ستويانكا

انيتشكا : (تذهب وتنظر من النافذة) تاخر أبي مع بعض الضيوف في القاعة . ولم يات قبل الظهر . سياتي الآن . انا واثقة من ذلك لانني مضطربة.

أية مشاعر متقدة ! (تتناول الرسالة من زنارها وتقرأ) • روح شاعر••• يحدثني عن جبال الالب يرغب في أن يتسلق معي الى الارتفاعات السماوية، الى الغبطة ، والمستقبل السعيد المضاء بانوار الحب ••• ثمة قصائد ••• حب ! لاول مرة ، لاول مرة أعاني مشاعر من هذا النوع • اثق دون وجل : انها الاناقة المجردة ••• (تنظر الى المرآة) أخاف أن يراني شاحبة جداً • بولكسينا عندي منذ ساعة وهي تثرثر وتثرثر بشكل مخيف دون أن تكون لدي رغبة بالاستماع اليها (تدخل ستويانكا وفي يدها بطاقة) ياستويانكا ! سيأتي الآن السيد خوروف فدعيه يدخل الى هنا • ماذا تحملين ؟

ســـــتويانكا : جاءت السيدة الشابة مرة أخرى (تعطيها البطاقة) •

انيتشـــــكا : (تنظر الى البطاقة) أوه ، يا الهي ، السـيدة تيرزيسكا ! فلتدخل (تخرج ستويانكا من اليمين) منذ متى لم أر الينكا ، تزوجت حين كانت في الصف الرابع • ألا تزال جميلة ؟ لحسن الحظ انها جاءت لتنقذني من ثرثرة بولكسينا (تخرج من اليسار وتدخل السيدة تيرزيسكا من اليمين) •

المشهد الثاني

تيرزيسـكا

تيرزيســـــكا : هل ستعرفني انيتشكا ؟ (تنظر الى المرآة) سمنت • عيناي تشعان جمالا لقد قال لي الآخرون ذلك ••• أما الابتسامة ! (تبتسم) ففاتنة •• العظماء لا يردون طلباً لهاتين العينين وهذه الابتسامة (تستدير)أوه، يا الهي أصلح لاكون وزيـرة ، ولكني أجر هــذا العاري ! دبرت لــه ثلاث وظائف وضيعها بحماقاته •• وماذا الآن ••• مع السيد بالتوف ؟ سأبكي أول الامر وسيترك ذلك أثـره • (تستدير نحو أريكة صغيرة) « أوه ، ياسيادة الوزير أنا تعيسة ! » (تمسح عينيها تمثيلا تقلد صوت رجل) « قري بالاً ياسيدتي ، ماذا ترغبون ؟ (تمسح عينيها) قولي ياسيدتي ! » وحين ينظر اليّ ساحكي له ••• « سافعل كل ما أستطيعه لخدمتكم » ويرتعش صوته • امسك يده « شكراً ياسيادة الوزير • أنت منقذنا » لا أترك يـده ولا يسحبها •• تلتمع عيناه (بصوت غليظ)

« أليس من الافضل أن تنتقل السيدة تيرزيسكا الى هنا ؟ » « أوه ، كم أنا معترفة بجميلك ! لقد نصحني الاطباء بمغادرة بلوفديف فجوها يضر بي » « المناخ هنا اكثر ملاءمة للصحة ياسيدتي » لا أترك يده • (تقلد صوت رجل طروباً ولطيفاً) « هكذا سيدات حسناوات يجب أن يبقين في العاصمة » « انك تجاملني ! » « لا أجاملك مطلقا ! » يدانا لا تزالان متشابكتين • يده ساخنة كالجمر • قال لي الوزير بيبروف ذات مرة : « سيدتي ! أنا ظريف دائماً مع الظرفاء » وهكذا دواليك(ترتعش) لقد ذهلت ونسيت (تلقي نظرة على المرآة وتخرج من اليسار •• يدخل بوز دوغانسكي من اليمين مرتدياً سترة فراك رسمية قديمة) •

المشهد الثالث

بوز دوغانسكي وحيداً

بــوز دوغانســكي : استقبلتني الخادمة بحرارة وطلبت مني أن أنتظر الآنسة هنا • ماذا يعني هذا ؟ (يتمشى ويداه خلف ظهره) سيدبر لي بالتوف وظيفةالآن• ثمة ضرورة ماسة لاقدم خدماتي الى الوطن • الى الجحيم أيها البؤس والشقاء • ساصبح انساناً منذ الآن • أتقن لغتين وأنا أهل لكل شيء • لي عقل يدير مملكة ومع ذلك أموت جوعاً • شقاء ! عملت كل شيء وفشلت في كل شيء • صرت صحفياً • لم يمش الحال • اوقفنا الجريدة منذ العدد الثاني • ماذا ربحت ؟ سبعة اشتراكات لا غير • وامتهنت الادب ـ دون جدوى ـ الثقافة وسيلة للموت البطيء جوعاً •• تزوجت فتركتني زوجتي في الاسبوع الثاني ، لم تستطع تقديري حق قدري ••• (يفكر) يحزنني التفكير بهذا ، آلاف وآلاف الوظائف في بلغاريا وليس لي وظيفة • (يضرب الارض عابساً) ولكني لن أموت جوعاً ! أم تراني ساذهب لاعمل رغم علمي ومواهبي ؟ أنا خادم لبلغاريا ! أعطني عملا ياسيد بالتوف ! ثلاث وزارات في يدك الآن ! الوظيفة أو الموت ! وظفني معلماً ، وظفني في البوليس ، أتقبل كل شيء ••• وفي أسوأ الاحـوال شغلني في الهندسة ، سكرتيرا عند موظف ديبلوماسي • رئيس الاطفاء•• لا يوجد ! « اذن توجد وظيفة شاغرة ، انها وظيفة مدير تحرير الجريدة

الرسمية » لقد ناضلت وضحيت في سبيل الشعب (ينظر نحو الباب الايسر) أوه ، يالها من امرأة فاتنة ! افتوس بيوس ؟ من تراهـا ؟ (يسند بطنه بيديه) آه ، ليس لي زوجة تخفف عني ••• (ينظر من الباب الايمن) انسان بائس (يجلس على الكرسي) يخرج جريدة من عبه ويقرأ يدخل كفاسنيكوف) •

المشهد الرابع

بوز دوغانسكي وكفاسنيكوف

كفاسنيكوف : (دون أن يرى بوز دوغانسكي) أرسلت برقية لاخبرهم انني ساصل غداً • ستقرأها العجوز • رأيت صوفيا ، غنية : قصور ، حدائق ،عربات، أرتال ، وقد أصم أذني اطلاق النار • عندنا هدوء • هناك أفضل بالنسبة لي • اربط كيسك هنا عند كل خطوة • (بوز دوغانسكي يهز رأسه من حين لآخر ويتطلع اليه) لم أشتر للعجوز من الصفراوات • يريدون سبع ليفات ثمناً للواحدة • عملتنا تساوي اثنين وأربعين قرشاً • ساشتري بها أحذية للأولاد • فلنشرب حساء الخضار فهو : يصلح المعدة ولايسكر• (ينظر الى بوز دوغانسكي) من تكون حضرتكم ؟

بوز دوغانسكي : أنت فضولي جداً ياسيد •• (يتابع القراءة) •

كفاسنيكوف : (بصوت خافت) هو هنا من أجل وظيفة (بصوت عال) هل تنتظر السيد بالتوف ؟

بوز دوغانسكي : نعم (يتابع القراءة) •

كفاسنيكوف : لماذا تلاحقه ؟

بوز دوغانسكي : (عابسة) ساحكي له ماسوف أحكيه ياسيد •

كفاسنيكوف : (بصوت خافت) ياله من فظ ! يضايقني وجوده هنا • (بصوت عال) سيتاخر • من أنت لاقول له ؟

بوز دوغانسكي : (يترك الجريدة وينهض) بحيث انك تريد ، بمثل هذه أن تعرف من أنا ، فانا ستراخيل بوجيداروفيتش بوز دوغانسكي •

كفاسنيكوف : (يرتعد ، بصوت خافت) أوه ، انه صاحب المسدس •

بوز دوغانسكي : لماذا تنظر الي هكذا ؟

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) ماجاء لغير •

بــوز دوغانســكي : (بصوت خافت) لا شك انه من أحد الاقاليم (بصوت عال) أنت تشبه فلاحاً غنياً « شوربجي » وهــؤلاء يعيشون من عرق الفقراء • لهــذا لا أحبهــم •

كفاســـــنيكوف : (ينظر اليه بازدراء)

بــوز دوغانســكي : لماذا تنظر الي هكذا ؟ أنا لا أتحمل نظرات الشوربجيين •

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) يجب أن أستدعي الشرطة فقد يشهر مسدسه ويطلق النار • (بصوت عال مبتسما) أنا أنظر الى هذا (يشير الى وسام معلق بسلسلة ساعته) •

بــوز دوغانســكي : (باعتداد) نلت هذا الوسام في بودابست عن حريق •

كفاســـــنيكوف : عن حريق ؟

بــوز دوغانســكي : نعم ياسيدي كنت أعمل حينذاك في الاطفاء • أمر مخجل ، ولكن مالعمل؟ الحاجة تدفع الانسان الى كل شيء • أليس كذلك ؟ كتبت الصحف اني القيت بنفسي في اللهب وحملت كونتيسه فاتنة كانت تحتضر ••• نسيت في تلك اللحظة حقدي على الارستقراطية • أليس كذلك ؟

كفاســـــنيكوف : (يتلفت حوله ، بصوت خافت) لا لم يات أحد •

بــوز دوغانســكي : من أنت ؟

كفاســـــنيكوف : كفاسنيكوف من خارمانلي •

بــوز دوغانســكي : بما أنك من الضواحي ، فانا على ثقة من انك لم تقرأ البيان الشيق حول : الجبرية ودوس الحقوق واضطهاد المواهب في أواخر القرن التاسع عشر (يخرج كتاباً من عبه ويقدمه له) •

كفاســـــنيكوف : ما هــذا ؟

بــوز دوغانســكي : مؤلفي • ليفا •

كفاســـــنيكوف : لــم أفهم •

بــوز دوغانســكي : (متجهماً) أعطني ليفا ولا توقظ أسد الغضب الغافي في صدري !

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) كيف تركني نيقولا وحيداً مــع هــذا ؟ (يعطيه ليفا وياخذ الكتاب) •

بــوز دوغانســكي : لم تكرمني وانما أكرمت نفسك •

كفاسـنيكوف : (بصوت خافت) أوقيتان من اللحم مع الخضار ··· احترقت نفسي ·

بـوز دوغانسـكي : هل سياتي السيد الوزير وشيكاً ؟ (يفتش في عبه) ساحضر بطاقات التوصية من جيب المعطف · (يخرج من اليمين) ·

كفاسـنيكوف : (وحيداً) ضاعت الليفا ! من أين أتى هذا المحتال ؟· فلارحل من هنا فمن يعلم بأي ناس سالتقي · ولكن سانهي ذلك العمل أولا ··· سيصرخ لماذا ؟ لقد اشتغلنا نحن أيضا ··· حين مر بينكوفسكي في خارمانلي قال : « خميرة ! أعط للشجعان عشرين زوجاً من الخفاف وحين تتحرر بلغاريا ستصير قائمقاماً » خبات مرة متمرداً ·· وحيث أنني قمت بهذه التضحية يتوجب أن يرتبوا لي معاشاً تقاعدياً · (ينظر عبر النافذة) رجل ! (ينسحب) حرامي ! يا أخت دونا ! (يندفع عبر الغرفة) سيقتلونني بدلا من نيقولا ! سيجعلون أولادي أيتاماً · (يقفز كاكا فيدوف من النافذة) ·

المشهد الخامس

كفاسنيكوف وكاكا فيدوف

كفاسـنيكوف : (متخذاً وضعية الدفاع حاملا ساطوراً) من أنت ؟

كـاكـا فيـدوف : (يضم يديه مترجية) سبعة حلوق ! أنا كاكا فيدوف !

كفاسـنيكوف : (متنهداً) ماذا تريد ؟ أخفتني ! اذهب !

كـاكـا فيـدوف : نبلكم ! الباب مقفل ·· لم يرني الحارس · شغرت وظيفة لفقيرمثلي··· قد يأخذها غيري غداً ! سمعت أن بوز دوغانسكي جاء يطلبها · ليعطكم المعطي العظيم ! توسطوا لي عند السيد الوزير · شتمه بوز دوغانسكي البارحة في الخمارة · أنا مع الحكومة ·

كفاسـنيكوف : لماذا لا تبحث عن عمل لا عن وظيفة ؟

كـاكـا فيـدوف : من ، أنا ؟

كفاسـنيكوف : أنت ·

كـاكـا فيـدوف : أليس ذلك مخجلا مع التعلم ؟

كفاسنيكوف : المخجل أن تقفز من نافذة الوزير وتخيفني مثل لص .

كاكا فيدوف : أنت لست لصاً ، أنت أبوه العظيم !

كفاسنيكوف : أين الهراوة ! وماهي هذه الوظيفة المستعجلة الى هذا الحد ؟

كاكا فيدوف : مستعجلة ، مستعجلة . المدير المسؤول للجريدة الرسمية .

كفاسنيكوف : أنت مدير ! الجرس للخنزير ... هل تكتب ؟ ستبحث عن بعض«القراصنة» ليطاردوك .

كاكا فيدوف : لن أكتب . سأنام في السجن وستأخذ زوجتي راتبي الشهري .

كفاسنيكوف : رئيس تحرير لا يكتب وينام في السجن .. لئن كنت افهم شيئاً ... فانت مجنون ! (يصغي) عساه نيقولا . ليات ويستقبل ضيوفه الداخلين من الباب والشباك . ينسربون من كل مكان .. وقد يتدلى أحدهم من السطح (ينظر الى الاعلى) لم أسمع بمثل هذه الاعاجيب ولم أر ! (يدخل بوز دوغانسكي) .

المشهد السادس

كفاسنيكوف . كاكا فيدوف بوز دوغانسكي

بوز دوغانسكي : (ينظر الى كاكا فيدوف) متى دخل هذا الصديق ؟

كفاسنيكوف : جاء من النافذة .

بوز دوغانسكي : (عابساً) أجب بانسانية ياسيد كاشكافالوف !

كفاسنيكوف : (بصوت خافت) هاهو ذا المسدس تحت سترته !
(يدخل ايليا)

المشهد السابع

كفاسنيكو . كاكا فيدوف بوز دوغانسكي ، ايليا

كفاسنيكوف : ألا تستطيع الانتظار في الخارج . لا تبق هنا ! (بصوت خافت) الافضل أن يوجد هنا هذا العسكري . كاكا فيدوف لا يستطيع مساعدتي في شيء .

ايليا : (ينظر قلقة الى الباب ويختبيء خلف بوز دوغانسكي) .

كفاسنيكوف : ممن تختبي ؟

ايليــــــا : جاء أخي الاكبر ليأخذني الى القرية •
كفاســـــنيكوف : اذهب الى هناك يافتى ! ما حاجتك لان تبقى خادماً ! اعمل في حقول أبيك •
بــوز دوغانســـكي : (لكفاسنيكوف) أنت ياسيد انسان تفوح منه رائحة العفونة !
كفاســـــنيكوف : عفونة ؟
بــوز دوغانســـكي : أأنت ترغم هذا الفتى على أن يصير فلاحاً ؟
كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) يريد مخاصمتي • (بصوت عال) أنا لا أرغمه •• أبوه يبحث عنه •
بــوز دوغانســـكي : وأنت تستحسن أن يصبح مثل أبيه ؟
كفاســـــنيكوف : من يستحسن ؟
بــوز دوغانســـكي : (الى ايليا) ما درجة تعليمك ؟
ايليــــــا : أنهيت الصف الثالث •
بــوز دوغانســـكي : الصف الثالث ؟ متعلم ! ومــع ذلك يستدعونــه للعمــل في الارض ! (لكفاسنيكوف) أتريد أن يكون العمل المنحط للمتعلمين ؟
كفاســـــنيكوف : من يعرف • نحن جميعاً نعمل لبعضنا •
بــوز دوغانســـكي : وأنت تريد أن تظل فلاحاً متحجراً ؟
كفاســـــنيكوف : من يريد ؟ لا أحد يريد • (بصوت خافت) حامض مثل التركي في رمضان •
بــوز دوغانســـكي : هــذا مايبدو لي على الاقل من أفكارك العتيقة • فانت تريد ياسيد كاشكافالوف عبيداً فقط • حضرته سيعمل الآن مستخدماً وغــداً يصبح كاتباً ثم قد يصير وزيراً • واذا ظل في القرية سيبقى بهيماً • أليس كذلك ؟
كــاكــا فيــدوف : من المخجل أن يعمل الانسان المتعلم • الافضل أن يموت جوعاً •
كفاســـــنيكوف : (بحزم لكاكا فيدوف) ومن يسالك انت ؟ أقاض بلا لحية ؟
بــوز دوغانســـكي : (لكاكا فيدوف) ومن أنت ؟
كــاكــا فيــدوف : لنتعارف (يمد له يده) •
بــوز دوغانســـكي : (يستدير نحو كفاسنيكوف) هذا يعني انك وحدك تخالفني في الرأي !
كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) ها هوذا يريد التحرش (بصوت مرتفع) أنا ؟
بــوز دوغانســـكي : لديك نفس شوربجي •
كفاســـــنيكوف : ليحفظني الرب • أنا موافق على أن يصير حضرته •• وزيراً • ولكن •••
بــوز دوغانســـكي : ولكن ؟
كفاســـــنيكوف : ولكن حين يفصل من الوظيفة سيخجل من العودة الى الحراثة وسيصبح سافلا كالآخرين •

بـــوز دوغانســـكي : أتريد أن تهينني بهذه الكلمات ؟

كفاســـــنيكوف : أنت ؟ انني أحترمك منذ !

بـــوز دوغانســـكي : هل قرأت كتابي ؟

كفاســـــنيكوف : حين سأذهب الى البيت سأقرأه قبل أن أقوم بأي عمل •

بـــوز دوغانســـكي : اقرأ عن الحريق الهائل الذي •••

كفاســـــنيكوف : الذي أخمدته ؟

بـــوز دوغانســـكي : الحريق الاجتماعي الذي سيكنس كل شيء • هل تفهم ؟

كفاســـــنيكوف : أفهم (بصوت خافت) لا أفهم شيئاً •

بـــوز دوغانســـكي : (لايليا) تمسك بالوظيفة يافتى ! (لكفاسنيكوف) أليس كذلك ياسيد؟

كفاســـــنيكوف : (لايليا) تمسك بالوظيفة يافتى !

بـــوز دوغانســـكي : (لايليا) ليحرث أبوك وأخوك الحقول وحدهما • (لكفاسنيكوف) أليس كذلك ياسيد ؟

كفاســـــنيكوف : (لايليا) ليحرث أبوك وأخوك الحقول ! (بصوت خافت) ساعزف على مزماره ، ماذا أفعل ؟ انحن لشره وكانك تنحني لصلاحه •

ايليـــــــا : أخي لا يستطيع فهو يعمل في الجباية •

بـــوز دوغانســـكي : وهل صحة والدك جيدة ؟

ايليـــــــا : صحته جيدة •

بـــوز دوغانســـكي : فليعمل هو •

ايليـــــــا : انه يعمل مراقب طرق •

كفاســـــنيكوف : أوف ! والحقل ؟

بـــوز دوغانســـكي : بدأت أحترم هؤلاء الفلاحين !

كـــاكـــا فيـــدوف : (لكفاسنيكوف) أرجوك أن تسترحم الوزير ياسيد كاشكافالوف •

كفاســـــنيكوف : (غاضباً) أي كاشكافالوف تكلم ؟ (لبوز دوغانسكي) وهذا قد دخل من النافذة •

بـــوز دوغانســـكي : (متعجباً) حقاً ؟

كفاســـــنيكوف : يريد أن يصير مديراً •

كـــاكـــا فيـــدوف : لا ! المدير المسؤول عن « الجريدة الرسمية » •

بـــوز دوغانســـكي : (ينظر باحتقار الى كاكا فيدوف) يا للتعس ! هل خدعوك ! لا يوجد مدير مسؤول للجريدة الرسمية وانما يوجد مدير عام •

كـــاكـــا فيـــدوف : وأنا أصلح لذلك !

بـــوز دوغانســـكي : أنت أحمق (لكفاسنيكوف) هل حضرتكم من أقرباء السيد الوزير ؟

كفاســـــنيكوف : أجل قريبه

بـــوز دوغانســـكي : اذن سترجو منه (بحرارة) أنا مؤيد متحمس للحكومة (بصوت خافت) لم أكن أعرف • أكان يجب أن أكون أكثر لطفاً ؟

كفاســـــنيكوف : وأنت تريد نفس الوظيفة : مدير الجريدة الرسمية ؟

بـــوز دوغانســـكي : الآن توجد وظيفة رئيس جمارك • ولكنها مع الاسف في الضواحي • في خارمانلي •

كفاســـــنيكوف : اياك أن تذهب الى خارمانلي ! خطرة ! ثمة أتراك وقطـاع طرق على الحدود ! يذبحون ويقتلون ! سيئة !

بـــوز دوغانســـكي : يا للعجب ! لم أسمع شيئاً من ذلك • ألم يمت موظف الجمارك كوركافوف ؟

كفاســـــنيكوف : لم يمت ولا يفكر بالموت •• ابحث عن مكان آخر •••

بـــوز دوغانســـكي : ثمة وظيفة أخرى ولكنها أيضاً في الضواحي • مفتش في علم قمل النبات في فيدن •

كفاســـــنيكوف : ها ! اذهب الى هناك ! فمن جهة ستكافحون قمل النبات ومن جهة أخرى ستاكلون الكافيار الاسود • أنت انسان مجتمعي ••

بـــوز دوغانســـكي : أنا لست أرمل ولكني مطلق •

كفاســـــنيكوف : ألن تتزوج ؟

بـــوز دوغانســـكي : أريد الزواج • ولكن ماذا ساطعم زوجتي ؟

كفاســـــنيكوف : (يدخن ويفكر بعض الوقت ، بصوت خافت) فلا دفعه صوب قريبتنا بونيكسينا (لايليا) اخرج يافتى ! (يخرج ايليا) •

المشهد الثامن

كفاسنيكوف وبوز دوغانسكي

كفاســـــنيكوف : لقد أعجبت بك ياسيد بوز دوغانسكي • سادبر لك وظيفة وزوجة : لي قريبة تليق بك •• وهي أيضاً مطلقة •

بـــوز دوغانســـكي : (دهشا وفرحا) أوه ! أشكرك • لا أريد أكثر من ذلك • (يشد علي يده) •
كفاســـــنيكوف : وبما أن بولكسينا قريبتي فهذا يعني انها قريبة الوزير طبعاً ؟
بـــوز دوغانســـكي : أنا مدين لك ياسيد كاشكافالوف •
كفاســـــنيكوف : يدعونني كفاسنيكوف •
بـــوز دوغانســـكي : آ ، المعذرة ••• أين هي الآن ؟
كفاســـــنيكوف : هنا • ستصبح معلمة •
بـــوز دوغانســـكي : هل هي شابة جداً ؟
كفاســـــنيكوف : ليست صغيرة السن جداً • في مثل سنك تقريباً •
بـــوز دوغانســـكي : هذا يعني انها صغيرة ••• وكيف مظهرها ؟
كفاســـــنيكوف : عن الجمال ؟ لماذا يلزمك المزيد من الجمال •• ليحيط بها الاوغاد •
بـــوز دوغانســـكي : أهي قبيحة ؟
كفاســـــنيكوف : لا أستطيع القول انها قبيحة • وليست حورية • جمالها ••• وسط • ولكنها ذكية جداً • أقول لك : هي ليست امرأة بل ماسة •••

بـــوز دوغانســـكي : (بصوت خافت) لم اكن احلم بسعادة كهذه : ان أصير من اقرباء وزير • الآن ـ مراسل • ابتسم لي القدر • (بصوت عال) هـــل أستطيع رؤيتها اليوم ؟

كفاســـــنيكوف : بل الآن • وساكون شاهد زواجكما • (يفتل بوز دوغانسكي شاربيه امام المرآة) لا تكن عابساً أمامها كما كنت قبلا •• تحدث بتودد « أنت مثيرة يا آنسة •• لي الشرف •• متى جئت ؟ » واذا كنت تحمل سلاحاً فاتركه خارجاً : تخاف كثيراً من السلاح ، ترتعد كالطائر •• هي الآن هنا عند الآنسة (يشير الى اليسار) •

بـــوز دوغانســـكي : (بفرح) هذا يعني أنني قد رايتها من هذا الباب !
كفاســـــنيكوف : أي !
بـــوز دوغانســـكي : رائعة ، رائعة !
كفاســـــنيكوف : رائعة ؟
بـــوز دوغانســـكي : أليست سوداء العينين ؟
كفاســـــنيكوف : أجل ، أجل ، لها عين سوداء من هذه الناحية • هل أعجبتك ؟
بـــوز دوغانســـكي : خنزير هو الذي لا تعجبه •
كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) لياخذه الشيطان •••

بــوز دوغانســكي : بدت لي شابة جداً .
كفاســنيكوف : وهل قلت لك انها عجوز ؟
بــوز دوغانســكي : لدي الآن سؤال آخر : هل ساعجبها أنا ؟
كفاســنيكوف : أوقع لك على ذلك ! (ينظر اليـه مكشـراً) أتت غاربالدي بعينه . (يحتضنه بوز دوغانسكي) لقد أخطأت : تحتضنني أنا . (يتراجع) .
بــوز دوغانســكي : طبعاً أحتضنك تعبيراً عن شكري لك .
كفاســنيكوف : الشكر الناشف لا يشبع الحلق . أعطيك وظيفة وامرأة ودفعة الى الامام وحياة سعيدة .. وأنت مـاذا تعطيني ؟.. اسمع ، سترسل كل شهر لاشبينك علبة كافيار جيد من فيدن ! هذا شرطي .

بــوز دوغانســكي : (فرحاً) أوافق ! (يشد على يده) متى ستقدمني لها ؟
كفاســنيكوف : الآن . دعني أراها أولا لاخبرها فهي خجول جداً . (يذهب الى الباب الايسر ويستدير) ولكن لا تنس الكافيار الاسود . هذا شرطنا .

بــوز دوغانســكي : اتفقنا . مادام المرء كاهناً فهو مستعد . (يخرج كفاسنيكوف ، يفتل بوز دوغانسكي شاربيه أمـام المرآة عدة مرات) لست سيئاً . دعاني غاريبالدي . من أين والى أين ؟ (يبتسم) ما يشدني هو : انها جميلة ... لكي يعطوا بهذه السهولة قريبة وزير ، لابد من أن يكون ثمة قبح خفي (يعبس) حين يهدى الحمار لا ينظر الى حلوتـه . (يروح ويجيء عدة مرات . يفكر . يقف ويتمرأى ، يفتل شاربيه طويلا) أشعر بقشعريرة في جسدي (يرجع ، تدخل تيرزيسكا من اليسار).

المشهد التاسع

بوز دوغانسكي وتيرزيسكا

السيدة تيرزيســكا : (تتجه مسرعة نحـو بوز دوغانسكي ، تنحني أمامـه وتمد له يدهـا) تيرزيسكا .
بــوز دوغانســكي : (يمسك يدها) أنا سعيد ياسيدتي .
السيدة تيرزيســكا : (لا تترك يده) أنت دمث جداً (تنظر اليه برقة) .
بــوز دوغانســكي : ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا قلت ؟ أنا سعيد جداً أن .. (يشد على يدها بلطف).

السيدة تيرزيسكا : كلا ، بل أنا السعيدة (تمسح بيدها اليسرى عينيها) •

بوز دوغانسكي : ستكونين سعيدة • أنت لي منذ الآن •

السيدة تيرزيسكا : (تتنهد بارتياح) كم تمنيت لو أكون هنا • طقس بلوفديف يضر بصحتي•

بوز دوغانسكي : ملعون طقس بلوفديف (ينزل يدها اليسرى عن عينيها ويمسكها) لاأحب أن تذرفي الدموع فانا شديد التاثر • كوني مسرورة وانظري الي بهاتين العينين الرائعتين يابولكسينا • انا لك وانت لي !

السيدة تيرزيسكا : اسمي الينكا •

بوز دوغانسكي : أوه ، يا الينكا ! أجل ، أجل الينكا !

السيدة تيرزيسكا : أنا شاكرة لكم الى الابد • يعني أن الامر قد تم ؟

بوز دوغانسكي : حين قال لي السيد كشكا ••• كفاسنيكوف قبلت بابتهاج • أتقدم منك باحتفاء طالباً يدك •

السيدة تيرزيسكا : وأنا مبتهجة جداً • يالك من انسان فائق الطيبة !

بوز دوغانسكي : أيها الطائر العذب (يقبل يدها) •

السيدة تيرزيسكا : لا يجوز ، قد يرانا احدهم (تسحب يدها) •

بوز دوغانسكي : (بشغف) ليرنا كل العالم • أنت لي منذ الآن (يقبل بشغف كلتا يديها)•

السيدة تيرزيسكا : (بصوت خافت) يا الهي ، هل جن ؟ (بصوت عال) لا يجوز هنا •

بوز دوغانسكي : أنت على صواب يا ملاكي ••• هذا المكان غير لائق • ولكنني أتحرق شوقا •• لن نفترق بعد الآن • هل سبق لك أن ذهبت الى فيدن !

السيدة تيرزيسكا : لم أذهب •

بوز دوغانسكي : المناخ جيد هناك • الدانوب •• النهر ، رائع ! سيعجبك •

السيدة تيرزيسكا : (دهشة) كيف سنكون في فيدن ؟

بوز دوغانسكي : في فيدن ، في فيدن ، يايمامتي !

السيدة تيرزيسكا : أليس في صوفيا ؟

بوز دوغانسكي : كرهت صوفيا • غبار وضجيج وجوع ولصوصية • لنهرب من هنا • وعدت السيد كفاسنيكوف بأن أرسل له كل شهر الكافيار الاسود • هكذا اتفقنا هل فهمت ؟

السيدة تيرزيسكا : (ضاحكة) وكيف ستذهب الى فيدن ؟

بوز دوغانسكي : ماذا سألت ؟ نعم ، نعم ، نعم ! لا أنا من دونك ولا أنت من دوني •

تيرزيسكا : (بصوت خافت) يا الهي ، أأنا في حلم أم تراه قد جن ! (بصوت عال) لماذا تقول هذا ؟ وزوجتك ؟ أنت متزوج •

بـــوز دوغانســـكي : أأنت لاتعرفين ؟ أنا مطلق يا الينكا •
السيدة تيرزيســـكا : مطلق ؟
بـــوز دوغانســـكي : منذ سبعة أشهر • وأنت منذ متى ؟
السيدة تيرزيســـكا : أنا ؟ أتلهو بي ياسيادة الوزير ؟
بـــوز دوغانســـكي : (يمسك جبينه بيـده ، بصوت خافت) تظن أنني الوزير • هـو ! (بصوت عال) منحتني شرفا كبـيراً : أنا لست الوزير وأعتذر بصدق عما جرى •• اسمحي لي أن أقدم نفسي : بوز دوغانسكي •

السيدة تيرزيســـكا : (تحول نظرها وتهرب من اليمين) •
بـــوز دوغانســـكي : (يظل فترة شارداً ويداه مضمومتان) افتوس بيوس ؟ (يتمايل لبعض الوقت ويركض على المسرح • يدخل كفاسنيكوف من اليسار) •

المشهد العاشر

بوز دوغانسكي • كفاسنيكوف • وثم كاكا فيدوف

كفاســـــنيكوف : (ينظر بعض الوقت الى بوز دوغانسكي دهشا) لماذا تضحك ؟
بـــوز دوغانســـكي : (يركض على المسرح ويضحك) •
كفاســـــنيكوف : (يشرع في الضحك) قف ! قف ! (يضحك) أأنت مسرور لانك ستتزوج؟ لقد وافقت • قدم الضيافة (يبتسم) •
بـــوز دوغانســـكي : (يتمايل) •
كـــاكـــا فيـــدوف : (يدخل من اليمين) نسيت قبعتي (يتجه الى النافذة) ويبحث ، يرى أن بوز ودغانسكي وكفاسنيكوف يضحكان فيشرع في الضحك) •
كفاســـــنيكوف : (لبوز دوغانسكي) لقد وافقت •
بـــوز دوغانســـكي : (يكف عـن الضحك) على أن لا تكون جميلـة ؟ لا أريدهـا جميلة (يضحك) •
كفاســـــنيكوف : من قال لك انها جميلة جداً (يضحك أيضا) •
بـــوز دوغانســـكي : الافضل أن تكون قبيحة •
كفاســـــنيكوف : لا تحزن • أعرف ذوقك • استعد ! (يضحك ببلاهة) •
بـــوز دوغانســـكي : (لكفاسنكوف مجفلا) كيف ، ولكنها لم ترني ؟

كفاســــــنيكوف : رأتك في اليوم في الممر • ولقد امتدحتك حتى ارتمت على عنقي وقالت « أرضى به زوجاً ، انه‌نصيبي » وقد ذهبت الى البيت لتعد نفسها وستأتي الى عند الجدة دونا في الاسفل لتتقابلا • (ينظر من النافذة) هاهي ذي ذاهبة •

بــوز دوغانســكي : (يندفع الى النافذة وينظر) أهذه هي ؟ أهذه القردة ؟ أهذه الفزاعة ؟

كفاســــــنيكوف : كيف هذا ؟ قلت قبل قليل انها « رائعة » وتقول الآن انها « فزاعة ! » هذا ماتراه نهاراً •

بــوز دوغانســكي : (محتداً ومحملقاً) من تظنني ياسيد ؟ أتعلم أن حياة الانسان بالنسبة لي تساوي لا شيء ؟ (يندفع بشكل مخيف نحو كفاسنيكوف • يركض في الغرفة • يدخل الحاجب) •

المشهد الحادي عشر

بوز دوغانسكي • كفاسنيكوف • الحاجب

الحـــــاجب : جاء السيد الوزير فارجو أن تذهبوا الى الممر • (يخرج بوز دوغانسكي من اليمين وهو ينظر شزراً الى كفاسنيكوف • كاكا فيدوف يفتش عن قبعته بسرعة ويتحرك نحو الباب الايمن • يدخل بالتوف من اليسار) •

المشهد الثاني عشر

كفاسنيكوف • بالتوف • كاكا فيدوف

كفاســــــنيكوف : (لبالتوف) تعال ، يالله • تعال يالله !

بالتـــــوف : (ينظر الى كاكا فيدوف) من سمح لحضرته بالمجيء الى هنا ؟

كفاســــــنيكوف : لم يسمح له أحد • جاء من هنا • (يشير بيده الى النافذة) •

بالتـــــوف : (دهشة) كيف ؟ من النافذة ؟

كفاســــــنيكوف : انسل كالسنونوة !

كـــاكـــا فيــدوف : (يرفع يديه راجياً) لتتعظم ياسيادة الوزير !

بالتـــــوف : (للحاجب) ادع الحارس !

كـــاكــــا فيـــدوف : (مضطرباً وجلاً) لثات الشرطة ومعها مئة ألف مدفع وبندقية فلن أخرج الا ميتاً من هنا ! (يركع) اما الوظيفة واما أن يموت هذا القلب كمداً وحزناً عند قدميك المجيدين !

بالتـــــــوف : (للحاجب) قف ! (لكاكا فيدوف) كيف تجاسرت على الدخول من النافذة؟

كـــاكــــا فيـــدوف : لست أنا الذي دخل وانما سبعة أفواه جائعة وواحد على وشك ، فاعذروني.

بالتـــــــوف : قلت لك : أذهب الى المعمل !

كـــاكــــا فيـــدوف : إطعني بمدية كبيرة بدلاً من أن تقول لي هذه الكلمة !

كفاســــنيكوف : هه ، هذا مابقي علينا !

بالتـــــــوف : اخرج (يسحب الحاجب كاكا فيدوف نحو الباب) .

كـــاكــــا فيـــدوف : وارغم دون مقابل على امتداح « القديسة بينكا » (يجره الحاجب ويغلق الباب خلفه) .

كفاســــنيكوف : (لبالتوف) وبوز دوغانسكي أيضاً هنا !

بالتـــــــوف : بوز دوغانسكي ؟ مخيف ! من سمح له ؟

كفاســــنيكوف : أقول لك كرة أخرى : يجب أن تطلق كلباً في الحديقة .

الحـــــاجب : لم أكن موجـوداً . ستويانكا هـي التي سمحت لبوز دوغانسكي بأمر من الآنسة .

بالتـــــــوف : (دهشاً) ماذا يعني هذا ؟ (يرى الرسائل عـلى الطاولة ويتصفحها) رسائل تهنئة . وتوصيات . دائماً توصيات ! (يفتح رسالة دون صوت ثـم بصـوت) « لا ترفضـه يا عزيزي الســيد بالتـوف فهـذا الانسان رجلنا المخلص » (متلمظاً) رجلنا ! هـذه كل جدارتـه ! ولانه رجلنا يجب أن أعطيه وظيفة انسان آخر جدير ولكنه ليس رجلنا وانما هو انسان . (يفتح رسالة ثانية ويقرأ) « الودود بالتوف ! اطلب منكم بحرارة تلبية رجاء السيد ايفان غيورغيف مؤيدنا الذي أسهم في انتخابات الحزب الى حد أصيب معه بالخبال فترك تجارته ... » هذه الرسالة من ممثل الشعب ديمتروف . (يرمي الرسالة على الطاولة) يعني انه ضحية الحزب ! يا للشهيد ! (يفتح رسالة أخرى) نائب آخر يطلب مني توظيف السيد ميخائيلوفيتش. لقد قضى سنتين في السجن بسبب سرقة أو اغتصاب .. لا يتذكر جيداً .. وهو شهيد الحزب ! مقرف ! (يقرأ رسالة أخرى ثم بصوت مرتفع « السيد داتشف الذي سياتي اليكم

شخصياً أوقف جريدته وقرر أن يصبح موالياً بعد أن كان معارضاً • وليس من العقل أن نترك قوة كهذه • إنه لمن الحكمة السياسية أن تدبر له وظيفة » (يرمي الرسالة على الطاولة ويفتح أخرى) من النائب كيريلوف (يقرأ) « حامل هذه الرسالة (يقرأ بصوت خافت فترة ثم يرتفع صوته وهو يقرأ) لا ترد عنه هذه الوظيفة حيث انه فقد اثنتين من أسنانه الامامية وكسر له ضلع في احدى المعارك الانتخابية في العام الماضي • وأنا مدين له أساساً بانتخابي » (يأخذ رسالة أخرى) من رئيس القاعة ! يتشفع ببوز دوغانسكي (يبتسم بمرارة) أكيد أن بوز دوغانسكي قد صوب مسدسه اليه أيضا • (يقرأ رسالة أخرى بصمت، يضرب الطاولة بيده) يخنقونني بكل بساطة ! فساد ! أين هي مصلحة الوظيفة ، مصالح الوطن ؟ وأما الاضرار الخطير بالمجتمع فمن يفكر به ؟ لدى كل حزب آلاف الجياع ، آلاف من « الذين لنا » الذين يجب أن تعد لهم مائدة الدولة • وحين يصل هذا الحزب الى السلطة يجب ابعاد آلاف الموظفين وعليهم أن ينتظروا تغيراً سياسياً جديداً ليتكوموا ثانية حول العظيم • لدى كل حزب جيش من الطفيليين المنفصمين عن الحياة وغير المنتجين في المجتمع الذين لا يعيشون الا من ظهر الشعب ••• هؤلاء الرعاع يزدادون وينمو عددهم كل يوم وكل ساعة • هكذا كان الامر حتى الآن وهكذا سيستمر في المستقبل • هذا مخيف ! هذه العاهة الازلية للحياة البرلمانية عندنا • كلنا نسهم في نشر عدوى التقاعس وافساد روح الشعب ، نضيع كل الجيل بجعله غير قادر على العمل الشريف ! أمر مثير للسخط ! (كفاسنيكوف طوال هذه الفترة ينظر من النافذة • يدخل الحاجب من اليمين) •

المشهد الثالث عشر

كفاسنيكوف • بالتوف ، الحاجب ثم الجدة دونا وآنيتشكا

بالتـــــوف : (للحاجب) متى أحضروا هذه الرسائل ؟

الحـــــاجب : حملها الناس الذين ينتظرون خارجاً ياسيادة الوزير • ثمة سيدان ينتظران أمام الباب وقد أعطياني هاتين البطاقتين • (يقدم له البطاقتين) •

بالتـــــوف : (ينظر الى البطاقتين) عجيب ! أحدهما نائب والآخر صحفي وهما من المعارضة • (للحاجب) افتح لهما ليدخلا • (يخرج الحاجب تدخل انيتشكا والجدة دونا من اليسار) •

بالتـــــوف : (ينظر الى انيتشكا) اكتشاف جديد هام ساخبرك به حول الذي توصين به ، خوروف : له خطيبة في النمسا وقد تركها • (يتقدم كفاسنيكوف)•

انيتشـــــكا : كيف ؟

كفاســــنيكوف : أهكذا ؟ هذا وحده ماكان ينقص البغل ! (يبتسم) أوف ، انتظر يانيقولا لاخبرك بما جرى لي معه اليوم •

بالتـــــوف : (يقاطعه وينظر الى انيتشكا) تلقيت هــذه الرسالة الآن من الملحق الدبلوماسي الفرنسي هنا • ابلغنا اعلامة عـن البعض • (يقرأ في الرسالة) روزا اديلينا ـ فتاة ابنة مؤجرته البيت في لوزان • وهي آتية في أثره الآن •

انيتشـــــكا : (ماخوذة) أوه ! (تغطي وجهها) •

كفاســــنيكوف : « باسماً » لياخذ الشيطان شباب اليوم ! أفسدوا الكون • وهذا لايعد شيئاً • لو رأيت المحامي ميخائيل دادولوف من خارمانلي الذي أتى بزوجته من أوروبا فرأت زوجته الاخرى •••! اذن لرأيت الغرائب !

الجـدة دونـا : وماذا حدث حينذاك ؟

كفاســــنيكوف : هربت الفرنسية وتركته البلغارية وبقي لـــه اسم « ميخائيل صاحب الزوجتين » وهو بدون أية امرأة !

بالتـــــوف : دع هذا الآن (للحاجب الذي ظهر على الباب) ليدخلا إلى هنا (يخرج الحاجب) أمر محير ، لماذا آتيا !

انيتشـــــكا : (بصوت خافت) أوه ، يا للفاســد ! له خطيبة في النمســا ويكتب لي رسائل غرامية ! في أية أيد قذرة كنت أوشك أن أرمي قلبي ! (يدخل درامكوف وتشالكانوف) •

المشهد الرابع عشر

بالتوف • كفاسنيكوف • الحاجب • الجدة دونا • آنيتشكا • درامكوف وتشالكانوف

بالتـــــوف : ما الذي أوجب هذا التشريف ؟

تشـــالكانـــوف : جئنا ياسيد بالتوف بشان قضية شرف •

بالتـــــوف : قضية شرف ؟
تشـــالكانـــوف : أجل ، من قبل السيد خوروف •
درامكـــــوف : نحن شاهداه للمبارزة •
بالتـــــوف : مبارزة ؟ لماذا ؟
كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) قد يكون قد طلب منه احدهم أن يعمل •
الجـدة دونـــا : (خائفة) أية مبارزة ؟ أنصرفا ! انصرفا !
بالتـــــوف : تمهلي يا أماه ؟ أنا لا أفهمكما أيها السيدان !
تشـــالكانـــوف : نحن لا نصدق ياسيد بالتوف انك تريد الاحتماء خلف منصبك الرسمي لترفض رغبة انسان مثقف ، أهنتموه بفظاظة •

بالتـــــوف : هذا أمر يعود لي تقييمه •• ولكنني لا أعرف خوروف هذا •
درامكـــــوف : كيف ! لقد الحقت به اهانة في بيتك اليوم !
بالتـــــوف : (مستغربا) اليوم !
درامكـــــوف : كان عندكم قبل الظهر ، في تمام الحادية عشرة •
بالتـــــوف : أنتما واهمان أيها السيدان !

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) أليس هو ابن بوخالوف ؟ أهو الذي يدعونه خوروف ؟ قضي عليّ ! (يدنو من بالتوف ويهمس له بعض الوقت ويقوم بحركات معبرة بيديه) •

بالتـــــوف : (مستغرباً) كيف ؟
كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) تصرف يانيقولاي حسب معرفتك ولا تورطني فلدي اثنا عشر ولـداً •

بالتـــــوف : (للشاهدين اللذين يتهامسان) اخطاتما العنوان أيها السيدان • ثمة سوء تفاهم هنا • تخاصم خوروف مع احد ضيوفي في غيابي وقد حسبه خطأ أنا •

تشالكانوف ودرامكوف : مع أي ضيف ؟
بالتـــــوف : (يشير نحو كفاسنيكوف باسماً) مع حضرته •
كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) نيقولا ! ازهقت روحي!
درامكـــــوف : حضرته ؟ (ينظر بكراهية الى كفاسنيكوف) •
بالتـــــوف : سمع حضرته كل شيء •

كفاسـنيكوف : (بصوت خافت) أوه ، خفف عني (بصوت عال) تماماً ، لقد سمعت كل شيء • وقفت عند الباب وخيل للسيد انه الوزير •

تشـالكانـوف : أتعرف من هو ؟

درامكـوف : هو التباس على الارجح ؟

كفاسـنيكوف : هو ذو شاربين ، شارباه هكذا •

درامكـوف : ماهو شكله ، من حيث الحجم؟

كفاسـنيكوف : الحجم ؟ أطول مني بمرتين •

تشـالكانـوف : (لبالتوف) المعذرة اذن ياسيادة الوزير •

بالتـوف : (لكفاسنيكوف) ولكن ، ما الذي أزعجه ؟

كفاسـنيكوف : تفوه باقبح الكلمات • قال : أنت متوحش ! أنت بوم ، وقال ان رأسك صدىء وأنت ظلامي ••

بالتـوف : من الذي قال ذلك ؟

كفاسـنيكوف : هو الذي قاله ، ذاك •

تشـالكانـوف : لذي الشاربين ؟ قل ما الذي قاله لذي الشاربين ؟

كفاسـنيكوف : ماذا قال له ؟ لم يقل شيئاً • قال له أحمق

درامكـوف : وغير ذلك ؟

كفاسـنيكوف : قال له : بغل ، سافل ، لئيم وهو كذلك •

تشـالكانـوف : (لدرامكوف) لم يحك لنا خوروف بدقة •

درامكـوف : (لكفاسنيكوف) وغير ذلك ؟ وغير ذلك ؟

كفاسـنيكوف : وماذا غير ذلك ؟ طرده •

درامكـوف : (لتشالكانوف) لم يقل لنا خوروف هذا •

تشـالكانـوف : (لكفاسنيكوف) ألم يقل له أن يذهب ويفلح ؟

كفاسـنيكوف : قال له ذلك قبل أي شيء آخر •

ادرامكوف وتشالكانوف : (بحيوية) أحقاً ؟

كفاسـنيكوف : وهل هذا مسبة ؟ أبوه صاحب مزرعة •

درامكـوف : خوروف حامل شهادة ياسيدي •

بالتـوف : (مبتسماً) أتعرف ياجد ستانتشو ان أكبر اهانة تلحقها بانسان في بلغاريا هي أن تقول له : اذهب واشتغل • وهذه الوصمة لا يغسلها غير الـدم •

تشـــالكانــــوف : (لبالتوف) انكم لا تظهروون أية محبة للناس !

بالتـــــوف : المعذرة أيها السيدان ، لقد انتهت مهمتكما • (ينحني لهمـا قليـلا يخرج الشاهدان) •

المشهد الخامس عشر

نفس الاشخاص بدون الشاهدين ثم الحاجب

بالتـــــــوف : (لكفاسنيكوف) أية طبخة خلطت ياجد ستانتشو ؟

كفاســـــنيكوف : (ضاحكاً) أية تجارب تعرضت لها اليوم ! ثمة ما سأحكيه للعجوز • لن تستطيع أن تفهم كم من الصعب أن تصير وزيراً ولو على سبيل المزاح•

بالتـــــوف : (ينصت) ما هذا الصخب في الممر ؟ (يدخل الحاجب من اليمين) •

الحـــــاجب : سيدي الوزير ! حين أوصلت ذاك الى المدخل اندفع حشد كبير من الناس فلم أستطع وقفهم •

بالتـــــوف : مخيف !

كفاســـــنيكوف : (لبالتوف) هل أنت عبد ، يا الهي ؟ (يعطي الحاجب رسائل لبالتوف)•

بالتـــــوف : (ينظر الى الرسائل) وأيضاً توصيات ! وخوروف يطلب السماح بالمثول ويطلب المسامحة وقبول الاعتذار • عرف خطاه •

كفاســـــنيكوف : أأختبىء اذن ؟

بالتـــــوف : لا حاجة لذلك • لن أستقبله (ينظر الى رسالة أخرى) وهذه الرسالة ؟ مقرفـة !

الجـدة دونـــا : ماذا جرى يانيقولا ؟

بالتـــــوف : كسول رفض عدة وظائف ويكتب لي انه قانط وسوف يقتلني ويقتل نفسه مالم أوظفه حتى مساء الغد • لقد استلمت العديد من هذه التهديدات•• سفالة (يتمشى متجهماً) •

كفاســـــنيكوف : (بصوت خافت) لا ، لا لن أصير وزيراً ! صرته على سبيل المزاح فنلت الكثير من المخاوف • يجب أن أرحل فقد اقترب موعد سفر القطار (يمد يده الى الجدة دونا) •

الجـدة دونـــا : (تنهض) المزيد من التحيات الى زوجتك وأولادك •

بالتـــــوف : (بتوكيد) أعطني يدك ياجد ستانتشو (يمسك يد كفاسنيكوف) اشكرك من القلب : أنت الوحيد الذي لم يات من أجل طلب وظيفة من بين مئات الضيوف (يشد على يده بحرارة)

كفاســـــنيكوف : جئت من شوقي اليكم ••• (ياخذ منديلا ويمسح وجهه به) •

بالتـــــوف : هل لديك صورة شخصية كبيرة ؟ أعطني واحدة ؟

كفاســـــنيكوف : لدي في البيت •

بالتـــــوف : (لكفاسنيكوف) أرسلها لي •

كفاســـــنيكوف : سارسلها لك على أن لا تريها للناس • المصورون عندنا يعملون دائمة من أجـل تجميل الانسان دون جدوى • قبـل ثلاث سنوات أخذت صورة فوتوغرافية • أدار رأسي المصـور مراراً وأرغمني مراراً على الابتسام والحملقة وعصرني مراراً وحين خرجت من عند المصور لم يعرفني أحد • قال بعضهم : هو بسمارك ! وقال آخرون : ياله من لص ؟ وما حاجتك اليها؟

بالتـــــوف : ساعلقها هنا لاتذكر دائمة انك الاستثناء الوحيد اذ زرتني في البيت دون غاية ••• (يشد ثانية على يده) •

كفاســـــنيكوف : عفواً (يفرك بالمنديل) كدت أنسى كلمة صغيرة ••

بالتـــــوف : قـل •

كفاســـــنيكوف : سجلها ملاحظة

بالتـــــوف : أية ملاحظة هي ؟

كفاســـــنيكوف : عمل لبنتشو

بالتـــــوف : أي عمل ؟

كفاســـــنيكوف : ثمة مكان شاغر في مركز بريد خارمانلي •

بالتـــــوف : هل هناك عمل لمثله ؟

كفاســـــنيكوف : يوجد ، يوجد فارز •

بالتـــــوف : (ساخطا) أحتى أنت ياجد ستانتشو ؟ من أجل ماذا أعددته ؟

كفاســـــنيكوف : يريد عملاً سهلا •

بالتـــــوف : (غاضباً) علمته حرفة وتريده أن يعمل في البريد !

كفاســـــنيكوف : أنحن سنصلح بلغاريا ؟

الجـدة دونـــا : (باسمة) هاي ، ستانتشو منا •

بالتـــــوف : (ينظر اليه طويلا بصرامة) كيف أرد طلبك ! (يجلس قرب الطاولة ويكتب) •

كفاســـــنيكوف : (يوصوص من فوق كتفه) مهلاً ، لا تكتب بنتشو « كفاسنيكوف » بل اكتبه « دفوريانسكي » •

بالتـــــوف : (دهشا) دفوريانسكي ؟ من أين الى اين ؟

كفاســـــنيكوف : هكذا اسموا ابن الحمار ليصير نبيلا (تبتسم انيتشكا) هذا هو الدارج• ولقد أسموا ابن ايفان كراستاتا « بلواورلوفسكي » على اسم جنرال روسي ! رفض التسمي باسم والده !

بالتـــــوف : (مبتسمة) كتبت (ينهض) •

كفاســـــنيكوف : (مبتسما) واحد آخر يانيقولا •

بالتـــــوف : واحد آخر ؟ ظننت انك أتيت لترى صوفيا •

كفاســـــنيكوف : اكتب ، اكتب الغرباء هم غرباء • أما أنا فلا ترفض طلبي •

بالتـــــوف : لمن تريد أيضا وظيفة ؟

كفاســـــنيكوف : لابننا كريستو فهو بلا عمل •

بالتـــــوف : أليس كريستو حذاء ؟ أين صارت مبادؤك ياجد ستانتشو ؟

كفاســـــنيكوف : علقتها على المسمار ! هو لا يريد أن يكون حذاء بل يريد أن يصبح قاطع تذاكر •

بالتـــــوف : ألا يحتاج لتدريب !

كفاســـــنيكوف : لديه ، لديه ميل فطري نحو الخطوط الحديدية : حين يسمع الصافرة يندفع ليرى • (تبتسم انيتشكا) كريستو متعلم • انهى الصف الثالث•

بالتـــــوف : (يفكر) الافضل أن نعينه اذن معلمة أصيلا ؟

كفاســـــنيكوف : لا يريد • يكره المعلمين ••• لا يذهبون الى الكنيسة ، لا يحترمون العجائز ، لا يعرفون المسيح •• وظفه قاطع تذاكر •••

بالتـــــوف : ولكنه ليس كفؤاً !

كفاســـــنيكوف : وماهي الكفاءة ؟

بالتـــــوف : ليس لديه المؤهلات التي يحددها القانون من أجل وظيفة حكومية كهذه••

كفاســـــنيكوف : ليس كفؤاً ؟ ولكننا نفوز حين يقود خمسمئة فلاح على موسيقا الغايدا الى الانتخابات ؟ أية مؤهلات أكبر من هذه ؟

بالتـــــوف : (يدلك جبينه ، يبتسم) هاي ، اذن ـ وظيفة ضابط بوليس اكثرملاءمة لموهبته • ماذا أفعل لك ؟ كانت لائحتك اليوم معبرة (يكتب) •

كفاســـــنيكوف : (ينتظر قليلا) هل انتهيت يانيقولا ؟

بالتـــــوف	:	انتهيت وقلت : آمين • (يقف) •
كفاســـــنيكوف	:	لا يجوز قول آمين الآن (للجدة دونا) هل تتذكرين يا أخت دونا ايفان كروشاتا ؟ ليغفر له الله • ابنه تشونو فقير جداً وله أطفال • جياع •• لو أخبرتك عن حياتهم القاسية لبكيت • انهم يسترحمونك (لبالتوف) وظفه حارساً في خارمانلي يانيقولا : ثمة مكان شاغر • هو من الحزب•
بالتـــــوف	:	(يبتسم) ما اختصاصه ؟
كفاســـــنيكوف	:	كان بنّاء
بالتـــــوف	:	فليعمل في البناء
كفاســـــنيكوف	:	لقد وعدته • فلا ترد طلبي
بالتـــــوف	:	سابقاً كان الطلب يتعلق بخاصتك أما الآن فمن أجل الغرباء ؟
كفاســـــنيكوف	:	ليسوا غرباء الى هذا الحد : أخت زوجة جده كانت عمة خالة جدتك
بالتـــــوف	:	(مبتسماً) لفحتهما شمس واحدة !
كفاســـــنيكوف	:	وهو من جماعتنا • لا تضحك • اذا رفضت سابقي هنا واذهب أنت الى خارمانلي لتراه وتشفق عليه (يشير الى الجدة دونا لتسهم في الرجاء)•
الجـدة دونـــا	:	وأنا أرجوك يانيقولا • والد تشونو صنع لنا وجاقاً ، رحمه الله !
بالتـــــوف	:	وليكن هذا أيضاً (يكتب ويقرأ بعض الرسائل) •
كفاســـــنيكوف	:	(بصوت خافت) هكذا ساحصل على ديوني من هذا الوغد والا فلا سبيل للحصول على النقود • ساحصل منه على تفويض بأن أقبض راتبه • اذا استلمه فسيشرب به ابن الكلب ••• كم تحملت بسببه ، وجعلته من أقربائي !••• لِمَ لم أصبح نائباً ؟ كنت حصلت على أرباح جيدة ••• فالنائب عندنا حين يتوسط لانسان فهو يقدم له خدمة « الاشهر الستة الاول لي والباقي لكم ! » يبني بيتاً !
بالتـــــوف	:	هيا وليصبح تشونو البناء موظفاً (يقرأ أيضاً) •
كفاســـــنيكوف	:	(ينتحي جانباً ، بصوت خافت) ومن أيضاً ؟ (يخرج قطعة ورق وينظر اليها) ثمة أيضا ثمانية أشخاص ••• أنا خجل ، فنظرات نيقولا تذبحني• هاي فقط هذا ••• (لبالتوف) مات عندنا البارحة مساء كوركانوف يانيقولا •••
بالتـــــوف	:	ومن يكون ؟
كفاســـــنيكوف	:	مدير الجمارك في خارمانلي ، ومكانه شاغر •

بالتوف : لا تخف . ثمة مئة رجل ينتظرون .

كفاسنيكوف : (وكانه يمسح وجهه) سجل يانيقولا .

بالتوف : (متجهماً) ماذا ؟ أيضاً ؟

كفاسنيكوف : (مبتسماً) لا تعبس هكذا ! حين توجد ثمار القرانيا ياكل الحاضرون !

بالتوف : (غاضبة) أتريد أن توظف كل أهالي خارمانلي ؟

كفاسنيكوف : لا ، وانما واحد وهو الاخير .

بالتوف : هذا هو الفساد بعينه ! لا ترسل لي صورتك .

كفاسنيكوف : وهذا الرجاء يانيقولا !

بالتوف : خيبت ظنوني تماماً ياستانتشو !

كفاسنيكوف : هيا ياملاكي ! (يربت على كتفه ويشير للجدة كي تؤازره) .

الجدة دونا : وانا أرجوك يانيقولا . من أجل خاطري .

بالتوف : من هو ؟ أهو جدير بهذه الوظيفة ؟

كفاسنيكوف : مولود من أجلها . وقد لعب دائماً بالنقود . ظل خازنا ثلاث سنوات في العهد التركي وكان يقدم لوائح نظيفة دائماً ... ليس فتى غراً ، لتقول انه سينفق أموال المملكة في القمار أو الحانات (يشير لانيتشكا) .

انيتشكا : (تبتسم ، لوالدها) وانا أرجوك . وظفه . أنا متاكدة من أنني لن أخجل هذه المرة مع أنني لا أعرف الذي أتوسط له .

بالتوف : (بكآبة) أنتم الثلاثة تخنقونني (لكفاسنيكوف) قل من هو .

كفاسنيكوف : اجلس .

بالتوف : (يجلس) من ؟

كفاسنيكوف : (يسعل) أكتب ، أكتب يانيقولا .

بالتوف : (بنفاد صبر) اسم من ساكتب ؟

كفاسنيكوف : (مشيراً له) ستانتشو كفاسنيكوف .

بالتوف : (يثب حانقاً ويشبك يديه . تدخل ستويانكا) .

المشهد السادس عشر

نفس الاشخاص وستويانكا

ستويانكا : سيدي ! ثمة أناس في الحديقة • تسللوا من خلال اللوح الخشبي المخلوع في الحاجز الخلفي ويقف آخرون أمام المدخل والشارع مكتظ •

بالتوف : (ينظر من النافذة) فيضان ! طوفان ! ياللهول !

كفاسنيكوف : (يصرخ من النافذة) اذهبوا اعملوا • ألا تريدون سوى الوظائف ؟ يا للعار ! (يدق جرس الهاتف) •

بالتوف : (يذهب الى قرب الهاتف • يرفعه ويسأل •) ألو ؟ من ؟ (يصغي) هنا الوزير بالتوف (يصغي لعدة ثوان) رائع ! موافق • (يصغي لبعض الوقت) مدهش • لن أعاني من شيء بعد الآن • أهنيء نفسي • وداعاً! (يغلق الهاتف ويتقدم مسرعاً) المجد لك ياالله !

كفاسنيكوف : ولكن عم تكلمت هناك مع الجدار ؟

بالتوف : (للحاجب) دعهم يدخلوا جميعاً (يخرج من اليسار) •

الحاجب : (ينظر الى الباب الايمن) ادخلوا واحداً فواحداً • (يدخلون بالدور وينحنون • بوز دوغانسكي ، ايليا ، كاكا فيدوف تتبعه امرأة وستة اطفال• تيرزيسكا تنظر شزراً الى بوز دوغانسكي الذي ينظر الى الناحية الثانية وعشرات المواطنين • فلاحتان شابتان • خوروف ينحني كثيراً باحترام لانيتشكا التي تدير له ظهرها باحتقار يقف أمامه كفاسنيكوف وهو يتكلم بصوت خافت مع الجدة دونا ثم يهرب ويختفي خلف الآخرين • يحتشد أناس عند الباب • يسود الصمت دقيقة على المسرح ••

بالتوف : (يدخل ، للحاضرين) أيها السادة ! ساخبركم خبراً مفرحاً : تخلصتم مني وتخلصت منكم ! لقد سقطت الوزارة •

تمـت

كانون الثاني ١٩٠٠

الواقعية والواقع*

بقلم : بوريس سوتشكوف
ترجمة : حنا عبود

إن العملية الخلاقة في الفن ، وهي أهم النشاطات العقلية لدى الانسان ، تستلزم التفكير بلغة الصور • وتلك الصور ، حسب الطبيعة الحقيقية لادراكنا ، يولدها العالم الخارجي في ذهن الفنان •

وحتى عندما يبتكر الفنان شيئاً ما ، وكل ظنه أنه يقع بعيداً عن كل احتمال، لا يكون ، في حقيقة الامر ، قد قام بأكثر من اعادة تنظيم الأجزاء المكونة لكل ما نسميه الواقع ، في شكل جديد ، واعادة تركيب هذه العناصر تركيباً جديداً •

عندما رسم الفنان هيرونيموس بوش لوحة « تجربة القديس أنطونيوس » استخدم كل المواد التي يقدمها الواقع بوفرة ، في تصوير الأشباح التي انطلقت من الجحيم للاجهاز على الناسك في صومعته•وفي واقع الأمر ، كانت الأبالسة والعفاريت في اختبارها صبر الناسك وإيمانه ، تتكون من مادة طبيعية مألوفة تماماً ، رغم مظهرها السحري • وقد جمع بوش فيها العناصر المرئية للكائنات الطبيعية والأشياء التي صنعتها يد البشر ، تلك التي كان يراها حوله كل يوم • لقد غيّر ببساطة نسبها الطبيعية ، فوضع أجزاء العضوية الحية في أغرب تجميع ، مسنداً الأشياء اليومية مثل الأوعية والصواني والسكاكين والخوذات إلى أذيال الحشرات ومجساتها ، ومضفياً على الحيوانات أجساد العناكب والجنادب ، وقد جعل تلك الأشباح شاكية

★ الفصل الأول من كتاب « تاريخ الواقعية » •

السلاح ، مانحاً ابداعات خياله الجريء عواطف إنسانية ، وجعل أبالسة الجحيم تتصرف تصرف المهرجين الخبثاء • وهكذا ، بينما تفاجئك صوره أول الأمر وكأنها تخالف التجربة اليومية ، فانها في الواقع متلائمة تماماً مع القيم والمفاهيم اليومية لعصره •

إن صور كالوت الخيالية أو رسوم غويا ، أو تلك الأعمال التي تحرر فيها الفنان ، عن وعي وقصد ، من المشابهة السطحية للواقع ، إنما هي مبنية على عناصر الانطباعات الفكرية والعاطفية والمرئية التي يولدها الواقع بصورة موضوعية •

وحتى عندما حاول الانسان البدائي أن يضفي على ثمرة خياله سمات الالوهية، ويعبر عن فهمه وادراكه للاله ، بوسائل الفن ، لم يستطع تجاوز حدود هذه الأرض، في تشخيصه لابداع خياله• إن النظرة البسيطة سوف تميز العناصر الأولية للمفاهيم الواقعية للعالم ،وقد انعكست في الفكر البشري ، في الأوثان والطواطم كما ظهرت في الشعوب البدائية ، والآلهة الظالمة المرعبة والرموز الطقسية والأقنعة في الحضارات البائدة • وعلاوة على ذلك ، وحتى لو اعتبرنا الشكل « المجرد » للفن زينة وزخرفاً ، فانه يقوم على تركيب للأشكال الهندسيةالتي تعكس العلاقات الموضوعية للأشياء ، أو يرسم الحيوانات والنباتات رسماً تقليدياً ، أو الجمع بينهما •

ومن الجدير بالذكر بالملاحظة أن منظري الفن التجريدي « ونتروبسارجنت » و « أندريو ريتشي » و « ريجينالد » ، وقبلهم عميد الرسم التجريدي « ڤاسيلي كاندنسكي » ، حاولوا تبرير هذا الاتجاه في الفن الحديث ، بالزعم أن لوحة الفنان التجريدية تعكس أدق الاكتشافات في الفيزياء النووية ، ولذلك فانها تخترقالجوهر الحقيقي للكون • وهكذا اضطر هؤلاء المعادون للواقع ، إلى استلهام الواقع لدعم نظرياتهم الجمالية ، لأن الفيزياء النووية وتحول الطاقة لهما من الواقعية مثل ما للأشجار والثمار والجبال والمساكن والناس والازهار ومثل أي شيء آخر تتناوله ريشة الرسامين العباقرة ، الذين يغرقهم أبطال الفن التجريدي بازدراء حاقد ، موجهين إليهم تهمة التجريبية العمياء • هذا الاستلهام للعالم الدقيق ، لواقع غير منظور ، ولكن الفكر البشري يدركه ، ليس سوى محض هراء • وليس ثمة رابطة بين التطبيق المتعسف لمعنى اللون في تمثيل العمليات التي تأخذ مجراها في دنيا الاشياء الدقيقة ، والواقع البين الواضح • بيد أن طبيعة الحجج التي يستخدمها أنصار الفن التجريدي لتبرير نظرياتهم لا تستحق شيئاً : فهم في نضالهم ضد الواقع يستسلمون له •

ليس الفن تمثيلاً تاماً للواقع الواضح • فالعمل الفني ليس نسخة طبق الأصل عن الواقع • والابداعات الفنية تختلف كل الاختلاف عن أشياء العالم الخارجي ، فكما أنها تتمثل الانطباعات والمفاهيم المنتزعة من الواقع ، تعكس أيضاً العالم الداخلي للانسان ، وتجربته ، وشخصيته ، وموقفه من العالم المحيط به • والفن ، باعتباره شكلاً خاصاً من النشاط الروحي والفكري ، وتعبيراً قوياً عن قوى الانسان الخلاقة ، إذ يؤخذ بصورة مطلقة ، من الواقع ، فانه الى حد ما مستقل عنه• وقد أبرز غوته بحذاقة هذه العلاقة الديالكتيكية الفنية والمعقدة بين الواقع والفن• وقد كتب غوته ، أثناء جداله مع ديدرو ، الذي أرجع هدف الفن الى تمثيل مظاهر الطبيعة تمثيلاً دقيقاً :

« لا يحاول الفن منافسة الطبيعة في اتساعها وعمقها ، بل يبقى على سطح الظواهر الطبيعية • إن للفن عمقه الخاص ، وقوته الخاصة • انه يقتنص المظاهر الفائقة لهذه الظواهر السطحية ، ويبتعد عما هو نظامي فيها ـ الكمال المعقول للنسب ، وذروة الجمال ، والمعاني الشريفة ، والعواطف النبيلة •

« إننا نرى الطبيعة تعمل على طريقتها الخاصة ، بينما يعمل الفنان كانسان ـ على طريقته الخاصة • ومما تقدمه لنا الطبيعة لا نأخذ في حياتنا سوى كمية صغيرة، وهي تلك التي تستحث الرغبة وتمنح المسرة ، أما مايقدمه الفنان للانسان فسهل المنال ومبهج للمشاعر ، يمنح المسرة وله مفعول مهدىء ، ويقدم الغذاء للروح فيربي ويهذب ، والفنان ممتن من الطبيعة التي أوجدته ، فيعيد اليها بهذه الطريقة نوعاً ما الطبيعة الثانية : الطبيعة المولودة من المشاعر والأفكار ، الطبيعة التي أكملتها يد الانسان •

« ولكن لو كانت الأمور كلها هكذا ، لكان على الفنان ، حسب مهمته ، أن يعمل وفقاً للقوانين والأحكام التي تضعها الطبيعة نفسها ، القوانين التي لا تتناقض معها، والتي تشكل ثروته الكبرى ، إذ بمساعدة هذه القوانين يتعلم كيف يتقن ويجسد ثروة موهبته والغنى الكبير للطبيعة »(١) •

إن الواقع هو أساس كل تصور • هذا أمر طبيعي لأن الفن نوع من اللغة الخاصة تتحدثها البشرية منذ العصور القديمة ، وكما أن الكلمة لا يمكن أن توجد من دون مفهوم متبادل ، كذلك لا يمكن أن ينتزع الفن الواقعي صورة واحدة من

(١) غوته « Diderots versuch uber die Molerei » ليبزيغ ص ١٠٠ ـ ١٠١ •

مضمونه ، أي من علاقته مع ماهو موجود موضوعياً ، سواء في مملكة الطبيعة ، أم في مملكة الفكر البشري والشعور الانساني التي هي جزء من الواقع مثلها مثل العالم المادي ٠

لقد كان الفن الصديق المخلص للانسان عبر التاريخ ، يتطور ويتقدم معتطور الفكر البشري وتقدمه ٠ وهذا هو السبب في أن الفن لا يستطيع أن يكون لهواً يملأ ساعات الفراغ ، أو مصدراً للمتعة السعيدة ، أو وسيلة راحة تلبي المطاليب الجمالية فقط ٠ إن الوظيفة المزدوجة للفن ــ المعرفية والجمالية ، وقد اتحدت الاثنتان بحيث لا يمكن الفصل بينهما ــ كانت منذ البدء ، منذ اللحظة التي ظهر فيها الفن ٠

إن الأمثلة المبكرة لرسوم الكهف ومشاهد الصيد التي وضعت بدقة ملحوظة وتعبير واضح ، تجمع بين هذين المظهرين للفن ٠ إن الفنانين البدائيين ، في خلقهم هذه الأعمال ، قد استسلموا لقوة الفرح وسحر الخط واللون ، ناقشين على الصخر العنيد الصور والانطباعات التي تجيش في نفوسهم ٠ ولا جدال في أن أولئكالفنانين المجهولين ليسوا وحدهم فقط الذين حرضهم ابداعهم ٠ ويمكن أن نفترض أنرفاقهم ذوي الشعور الطويلة في القبيلة كانوا أيضاً يتمتعون ببريق الفن في دجوة التاريخ القبلي القديم ٠ وقد كانت رسوم الكهف أيضاًجزءاً من طقس سحري يرتبط بالعمل ، من طقس سحري عاطفي ــ ضراعة للظلام ، وللقوى التي تهدد الأرض والسماء ، وتتحكم في حياة القبيلة ٠ يكتب جورج طومسون ، الخبير الحديث في ثقافة ما قبل التاريخ فيقول : « لقد كانت عادة الاستراليين تزيين الصخور والكهوف بأشكال البشر والحيوانات ٠٠٠

« والأشكال البشرية هي من الجنسين ، مع مبالغة في ابراز المعالم الجنسية المؤنثة ٠ وبما أن الحيوانات والنباتات موحدة ، فانها جميعاً أنواع صالحة للأكل ــ الكونغر والسحالي وثمار النالغو ٠٠٠

« ولشرح هذه الاشارات يمكن أن نلجأ إلى المواطنين أنفسهم ٠ ففي مطلع فصل الاخصاب يعاد رسم الصور أو تنقيحها بغية استسقاء المطر أو الدعاية للأنواع التي تمثلها ٠ وبهذه الطريقة يمكن تأمين وفرة من الكونغر وثمار النالغو ، وجعل

النساء مخصبات »(١) وبالاعتماد على عدد من الاشكال الشائعة في الفن البوشماني ورسوم الكهف في العصر الحجري الأخير في فرنسا واسبانيا يقول طومسون متابعاً : « والمشابهة قريبة جداً بحيث أن بعض المختصين اعتبروها من عمل شعب واحد ... إن كل علماء الآثار الآن يوافقون على أن الهدف الأول لهـذه الرسوم كان هدفاً سحرياً »(٢) . وحول تكوين الفن يدلي بالتصريح التوكيدي التالي : « لقد نشأ الفن من الطقوس . إنها فرضية لا يرفضها أي دارس جدي »(٣) .

وهكذا عندما أصبح فكر الانسان واعياً للصور الفنية ، منذ فجر التاريخ ، نجد أن للخبرة الاجتماعية كلمتها في المسألة . إن رغبة الفنان البدائي في التعبير عن انطباعاته عن الحياة تسير يداً بيد مع محاولة فهم الحياة وشرحها .

هذه السمة النفيسة للفن ، المتمثلة منذ البدء ، هي التي تجعل من الفن تاريخاً عظيماً ، تاريخاً المجنس البشري يروى بكلمات ، سطرها أو رسمها مؤرخون متطوعون ، تضمنوا أحداث الحضارات البائدة وروحها أكثر بكثير من قماطير الرقاق التي تحمل قوانين الحكام وتعليماتهم أو من الآثار الصامتة للحضارة المادية التي يشرحها لنا الأثريون والمؤرخون .

إننا لا نزال نفهم أفكار مواطني دولة اليونان أو روما ومشاعرهم بفضل مآسي اسخيلوس وملاهي ارستوفان واشعار كاتولوس المؤثرة . إن عشبة بلاد الدون أزهرت وذبلت مرات لا تحصى ، وتحولت عظام الروس من بونتاف وخزر إلى رماد منذ أمد بعيد ومـع هذا فان أصوات المحاربين الروس الذين غرفوا ميـاه الدون الصافية بخوذاتهم لا تزال تقرع في قلوبنا ، سجلها لذراريهم مؤلف « دفن ضيف ايغور » المجهول . إن العواطف السياسية العاصفة التي اجتاحت المدن الايطالية في الوقت الذي اكتشفت فيه أوروبا الوسيطية التراث الثقافي الخالد لشعب صغير عاش في الشريط الجنوبي لشبه جزيرة البلقان ، قدمتها لنا موشحات الكوميديا الالهية لدانتي ولوحة مايكلانجلو « الدينونة الأخيرة » .

لقد سجل الأدب والفن ، بوجودهما ، بمقياس حساس دقيق ، كل التغيرات

---

(١) جورج طومسون : دراسات في المجتمع اليوناني القديم . الايجيون في فترة ما قبـل التاريـخ لندن ١٩٥٤ ص ٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) المصدر السابق ٥٤ ـ ٥٥ .
(٣) المصدر السابق ٤٦٣ .

في مجرى التطور البشري العاصف · إن انهيار المثل الانسانية العليا لعصر النهضة، التي سحقت تحت أقدام العلاقات الاجتماعية البرجوازية الوليدة ، قد انعكس في مآسي شكسبير المتأخرة ، وفي الحزن الرزين لدون كيشوت ، وفي مأساة كالديرون « الحياة حلم » التي قرعت ناقوس الموت لثقافة عصر النهضة الحيوية المتفائلة · إن هجاء سويفت المرير ، والدوافع التراجيدية المنفجرة في سيمفونيات موزارت أشبه بفصل افتتاحي للقرن التاسع عشر « عصر الحديد » بكل تناقضاته الاجتماعية المنفجرة·

ليست صورة العالم التي تقدمها الأعمال الفنية نسخة ذليلة للواقع ، إنها تحتفظ بألوان العالم وروائحه لسبب بسيط هو أن الفن في كل الأزمان والعصور يتعامل مع المظاهر الاساسية للطبيعة والحياة البشرية · إن الفن لا يستطيع أن يساعد النظام العظيم للواقع بل يخضع له ، بيد أن هذا لايعني أن الفن كان واقعياً دائماً وفي كل الأزمان ·

إن الواقعية ، كطريقة خلاقة ، ظاهرة تاريخة نشأت في الوقت الذي طفق فيه الناس يشعرون بالحاجة الملحة لفهم الطبيعة ومنحى التطور الاجتماعي ، عندما طفق الناس يتحققون ، بغموض أولاً ثم بوضوح ، أن الأعمال والمشاعر الانسانية ليست وليدة العواطف الهوجاء أو الشارة المقدسة ، بل هي وليدة الواقع ، أو بدقة أكثر ، وليدة الأسباب المادية ·

لقد ظهرت الطريقة الواقعية في الفن والأدب عندما واجه أعضاء المجتمع مهمة فهم القوى الخبيئة التي تقرر عمل ميكانيكية العلاقات الاجتماعية ·

إن ثمة معالم من الواقع في كتابات القدماء ، وفي الفن الغوطي ، الباروكي والروكوكي ، أو في مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين ، ولكن دراسة حياة المجتمع والأفراد في كل علاقاتهم المعقدة لا تكون إلا عن طريق الواقعية فقط · ان مؤلفات الواقعيين الأوائل تقدم لنا صورة حقيقية لحياة المجتمع وللمصالح والمطالب التي تشغل أذهان الناس من شتى الفئات والطبقات في الماضي · إنهم يطلعوننا على تطور يقظة الانسان الاجتماعية ، وكيف يعيش الناس في مجتمع قائم على الملكية الخاصة المتصارعة مع ذلك النظام الاجتماعي غير الانساني · ومن بينهم الكتاب الواقعيون الذين أنتجوا ملحمة العصر الحديث · وفي عدة حالات ، وعن طريق تصويرهم الموضوعي الرزين للحياة التي يرون ، أدانوا شرور حضارة أصحاب الملكية الخاصة ، هذه الحضارة غير المعقولة ·

لقد طفقت الواقعية تشق طريقها في ميدان الحياة اليومية • فتصوير الحياة التي يراها المرء حوله ظهر في قصص الفكاهة والخرافة والشوانك « Schwanke » وقصص المتشردين فيما بعد ، وقد تولدت من هياج التمردات الشعبية ، وانتفاضات الفلاحين والحروب الدينية الدامية في القرنين السادس عشر والسابع عشر • وعلى كل حال فان هذه الواقعية لم تكن واقعية بالمعنى الدقيق للكلمة • إنها ، بالأحرى ، تمهيد للواقعية •

بيد أن الفكر الفلسفي أيضاً ، في صراعه مع قضايا الوجود في بداية العصر الحديث ، ونضاله لتحرير نفسه من المفاهيم الروحية التي بثها اللاهوت والاسكولائية عميقاً في أذهان الناس ، كان فقط يحبو لفهم العالم كوحدة مادية •

إن ديكارت بفكرته عن عدم انفصال الوجود والفكر ، وفرانسيس بيكون ، الذي لفت الانظار الى أهمية التجربة في معرفة العالم ، جعلا الفكر العلمي ثورياً ، ففتحا له الطريق لينفذ الى طبيعة الأشياء •

وعلى الرغم من أصالة حدسهما وحدته ، ظلا مقيدين بصورة كبيرة بمستوى الفكر الذي وصل اليه عصرهما • إن الثنائية الترانسندنتالية والفهم الميكانيكي في آراء ديكارت عن العالم الحي منعاه من تقديم صورة ديالكتيكية عن الواقع • وبطرح قضية تلاحم الفكر والوجود شجع على البحث في علاقتهما • وتوفرت لدى معاصره الاكبر بيكون عبقرية فهم المطلب الرئيسي لفكر العصر الجديد ـ الحاجة إلى البحث التحليلي للواقع •

كتب هرزن في « رسائل في دراسة الطبيعة » أن المبدأ الأساسي لفلسفة بيكون هو « أنه يبدأ من الخاص ، من التجربة ، من ملاحظة الظواهر ، ويصل إلى التعميم ، الى جمع كل ماحصل عليه • إن التجربة ، بالنسبة لبيكون ، ليست فهماً سلبياً للعالم الخارجي مع ظروفه الملازمة • بل العكس تماماً إنها التفاعل الواعي للفكر والأشياء الخارجية ، إنها نشاطهما معاً ، هـذا النشاط الذي بتطوره ، لا يسمح للفكر أن يستخلص النتائج التي لم تهيئها التجربة ، ولا يسمح للتجربة أن تبقى تجميعاً آلياً لوقائع آلية لم يهضمها الفكر • وبقدر ما يكون مجموع الملاحظات كبيراً وغنياً ، يكون حق استقراء الاحكام العامة منها عن طريق الاستنتاج أكثر تماسكاً ، ولكن بيكون حالما يكتشفها ، وهو الشكاك الحذر ، يطلب الغوص مرة أخرى في حزمة الظواهر ، بحثاً عن تعميم أو تصنيف •

« كانت التجربة قبل بيكون صدفة ، كانت تستخدم كقاعدة بأندر مما تستخدم كعرف ، دع جانباً التأمل العقلي • لقد قلبها بيكون إلى عامل أولي أساسي للمعرفة ، يصحبه بالنتيجة التطور الشامل للمعرفة ، الذي يفرض ، بصورة سابقة، اثباتاً دائماً ، وبواسطة دقتها التي لا تدحض وشموليتها الملموسة ، فانها فعلت فعل الكابح على ميل العقول المجردة ، لتنقي جو التعميمات الميتافيزيقية • لقد آمن بيكون بالعقل كما آمن بالطبيعة ، ولكن ثقته كانت عظيمة عندما شكلا شيئاً واحداً، لأنه تنبأ بوحدتهما • لقد قال إن الفكر في اعتماده على التجربة ، سوف ينجح يداً بيد مع الطبيعة ، تلك الطبيعة التي ترشد الفكر كتلميذ لها حتى يصبح في حالة تقود الطبيعة الى الوضوح الكامل في الفكر •

لقد كان ذلك جديداً ، جديداً جداً ورائعاً ••• »(١) •

لقد اتخذ البحث في العالم الخارجي عدة طرق • وقد امتصت الفلسفة أكثر فأكثر من المعرفة التي جمعها العلم الطبيعي ، الذي كان يعد العدة بالتدريج للثورة الصناعية الكبرى • وأثناء ذلك ، وبينما تطورت العلاقات البرجوازية ، وغدت الصراعات الطبقية حادة جداً ، قوي الاتجاه الى تحليل الواقع أكثر فأكثر في الفن والأدب أيضاً ، وهذا يعني ، قبل كل شيء وبصورة طبيعية ، تحليل البيئة الانسانية•

والتحليل ، الذي هو واحد من السمات الأساسية للواقعية ، شرع يتطور في فن النهضة ، هذا الفن الذي أظهر عدة أنماط ، مع الأشكال الغوطية القائمة جنباً إلى جنب مع القصة الأسلوبية والقصة الطريفة ، كما تعكسها أعمال بوغيو براشيليني ومازوشيو دي ساليرنو ، حيث تحولت أقصوصة الحركة التي سادت في العصور الوسطى الى الشعر الساخر لبولشي ، أو البسالة البطولية لملحمة أريوستو « Orlando Furioso » حيث حلت ذاتية الأفلاطونيين الجدد ، والطرائقية والروح الباروكية تدريجياً محل التقليد الشعري الخالص المنحدر من بترارك •

وقد ظهرت الخطوة التحليلية من قبل في مؤلفات أغلبية كتاب عصر النهضة ـ رابليه وسرفانتس وشكسبير • إن القصة الرابلية ، التي قربت الصلات مع الأدب الشعبي والأسطورة ، وأهملت المنطق الخارجي العقلي في القص ، قد حلت مشكلة جمالية جديدة وهامة في ذلك الوقت • إن الشخصيات في قصته غارغانتوا وبانتاغريل ، رغم المبالغة والأوضاع الغريبة ، كانت قريبة الى الحياة جداً • إن

(١) أليكساندر هرزن « المؤلفات الفلسفية المختارة » موسكو ١٩٥٦ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ •

القصة لا شك تتضمن فهماً تحليلياً ، وقد ترعرعت في أحضان الميثولوجيا ، ولكنها ـ والحق يقال ـ كافية لتمكن الكاتب من الاحاطة بالسمات الاجتماعية للبابوية والسكولائية والحكم الاقطاعي للدولة والأخلاق ، وأهم من ذلك كله ، سمات الانسان الجديد ، مشروطة بالنظرة المبكرة للبرجوازية الآخذة في التكون • ومن بين الشخصيات الرئيسية ، شخصية بانورج ، الذي قال إنه يعرف عدة طرق للوصول الى الثروة ، وبهذه الطرق يكون أعظم شريف عبارة عن لص في وضح النهار ، فهي تمثل بسحرها العجيب عنصراً تدميرياً ، وتجسد القوى الاجتماعية الجديدة الآخذة بالنضج في قلب النظام الاقطاعي • إن ديرتيلما ، الذي يمثل الفكرة الانسانية لعصر النهضة عن اليوتوبيا ، لا يتفق أبداً مع البانورجية ، مع العلاقات الانسانية الواقعية ، التي لم تكن تتطور كما تمنى رابليه والانسانيون الآخرون • إن ظهور هذا الصراع في القصة يدل على أن رابليه قد أحس بالتناقض الأساسي في الحياة الاجتماعية ، دون أن يكون حذراً من طبيعتها الحقيقية أو كفة ميزاتها • وعلى كل حال ، إن ثمة حقيقة واقعية هي أن رابليه بكشفه هذا الصراع كان خطوة هامة نحو الواقعية •

وبعد خمسين عاماً يشكل هذا الصراع نفسه أساس دون كيشوت ، الكتاب الذي استرفد العناصر من عدة أنواع مختلفة من العصر ، من النثر الرعوي الفخم ومن الاشعار الساخرة لأقصوصة الحركة حتى القصة السلوكية Tale of manner ورغم واقع أنه خلال تجوال دون كيشوت في الطرقات العارية الصخرية ، يقابل عملياً أناساً من كل مستوى من مستويات المجتمع ، وتسوقه نزهاته الى الفنادق الريفية والقصور الدوقية ، فان القصة لا تقدم صورة كاملة عن اسبانيا في ذلك الوقت • والقصة ، إذا نظرنا الى التفصيلات ، تقدم لنا الأخلاق والحياة اليومية ، إلا أنها أقل أهمية من كتاب مجهول الكاتب يدور حول رحلات الشريد لازاريلو دي تورمي • بيد أن القصة تتسنم قمة أدب ذلك العصر بفضل صفاتها الأدبية وشمولها ، وصراعها الذي يعكس الهوة المأساوية بين الطموح النبيل للانسان من أجل الخير والعدالة ، والحياة كما هي في الواقع •

إن الاتجاه التحليلي ظاهر في قصة سرفانتس أكثر من قصة رابليه ، مع أن العنصر الوهمي يلعب دوراً بارزاً فيها • إن تحليل سرفانتس للمجتمع أكثر دقة من سلفه • إنه يحلل العلاقات الانسانية بصورة أكمل ، وينفذ بعمق أكثر الى الأسباب الجذرية للتباين بين المثل الانسانية والواقع • وهذا بسبب أنه يلجأ ، في تحليله جوهر تناقضات عصره ، الى حكمة الشعب ، التي صيغت صياغة شعرية في

شخص سانشو بانزا · ولو أن رابليه آمن بحق أن الانسجام يمكن أن يتحقق في الحياة ، ويمكن أن تحصل يوثوبياتيلما على حكمة دون كيشوت المبثوثة في مكان آخر ، لكانت طريقته كطريقة سرفانتس ، الذي ، بينما يمجد الخير ، يدمر الوهم الذي يزعم إن انتصار الخير ممكن في الأوضاع القائمة ·

لقد حاز الناس في فجر العصر الحديث ، على خبرة مرموقة للحياة في مجتمع قائم على الملكية الخاصة · لقد انحنى الأسياد الاقطاعيون أنفسهم ، الذين كانوا يضطهدون العبيد ، للملكية المطلقة · لقد كانت الثروة المتجمعة في الكنوز الملكية تجري وإن ببطء ، إلى صناديق المصرفيين والمرابين ·

ولم يكن للفوغريين تأثيراً في شؤون الدولة أقل من عدة رؤوس متوجة في أوروبا ، وقد شنت البرجوازية صراعاً وحشياً لا هوادة فيه ضد النبلاء من أجل مكان لها تحت الشمس ·ومخر جمهور كبير من المغامرين عبر المحيطات الهائلةالمجهولة بحثاً عن الدورادو (الذهب) ، لأن الذهب بات مقياس الفضيلة والنظام والحرية والسعادة · وكما كتب شكسبير في مسرحيته « سيد من أثينا » :

الذهب ؟ الذهب الأصفر الرنان البراق ؟

إن كثيراً منه يجعل الأسود أبيض والأحمق ذكياً ·

والخطأ صواباً ، والوضيع نبيلاً ، والشيخ فتى والجريء جبانا ···

وخلف جدران المدن الطحلبية المرتفعة ، حيث ينتج الصناع المهرة أعمالاً جميلة أخاذة ، انتشرت الأبنية الهزيلة المنخفضة للمانيفاكتورات حاشدة مجمعاتها· وقسم التفاوت المادي أبناء الشعب · وأصبحت العواطف الأنانية والتعطش للثروة جزءاً من لحمهم ودمهم ، والعامل الأساسي لسيكولوجيتهم الاجتماعية ·

وقد صاحب انهيار الأخلاق البطريركية القديمة والتلاؤم مع الأوضاع التاريخية الجديدة ، تعاظم السمات العضوية المستمرة لمجتمع الملكية الخاصة الذي نجم عن البناء الطبقي · لقد عبر ميكلانجلو ، بكلمات نفاذة تدل على طراز المفكرين السابقين للعصر ، عن احساسه بالنصر النهائي للنظام البرجوازي ·

ايه ، في هذا العصر الشيطاني المشين ، ألا تعيش
وألا تشعر هو نصيب تحسد عليه
وأعظم شيء هو أن تنام ، وأن تكون كالحجر ·

وكما أخذ العلم يقدم للبشرية أعظم معرفة بقوانين الطبيعة ، كذلك الفن والأدب الواقعيان ، ببحثهما في أعمال الانسان وحياته الاجتماعية والروحية ، وأفكاره ومشاعره ، أخذا يلقيان الضوء على طبيعة التقدم التاريخي • إن تصوير شكسبير المتعدد المستويات للحياة قام على أساس الجوهر الحقيقي للعلاقات الاجتماعية • إن الصراع الذي يعتبر مركزياً وأساسياً في مؤلفات رابليه وسرفانتس ، هو نفسه الصراع الموجود في مؤلفات شكسبير ، بعد أن فقد هذا الصراع لونه العادي والخيالي ، واكتسب شكلاً تاريخياً ملموساً ، دون أن يفقد شموليته في العملية ، لأن شكسبير كان مفكراً وفناناً عبقرياً عمّم السمات الأساسية والمستمرة لنظرة الناس الاجتماعية في مجتمع الملكية الخاصة • هذا هو في الحقيقة السبب الرئيسي في أن مؤلفاته واجهت اختبار الزمن •

وعلى كل حال ، فحتى رأي شكسبير في العالم لا يخلو تماماً من المفاهيم الصوفية والوهمية • إن شكسبير غاص في أغوار النفس البشرية ، ومع ذلك تعرض للعديد من الأوهام السائدة في زمنه وعصره • إن فنه توفيقي ، مع عناصر واقعية وغير واقعية متداخلة • ولكن الشيء السائد في أدب شكسبير هو رسم الشخصيات رسماً واقعياً ، والتصوير الحقيقي الأصيل للبيئة التي ولدت التصادمات الأخلاقية التي تحيط بأبطاله ، وكذلك – وهذا أهم شيء – فهمه الواقعي للعلاقة بين الانسان والمجتمع • إن الأوضاع التراجيدية التي يجد أبطاله أنفسهم فيها لا ترجع الى القضاء أو القدر • إنها دائماً محددة بأسباب مادية ، وأولاً وقبل كل شيء ، بظروف الحياة نفسها • إن مصير روميو وجوليت ، والدراما الروحية لهاملت ، ونفور تيمون من العالم ، وفقدان الايمان بالبشر لدى الملك لير أو عطيل ، كل ذلك نتيجة التناقضات الموضوعية في الحياة نفسها • إن الحياة ينبوع التراجيديا •

لقد رأى شكسبير من خلال وصفه آلام أبطاله والصراعات العاطفية الداخلية وتحليل أفكارهم وعواطفهم ، كل التمثيلية الحرة للمصالح المادية ، التي تكبح طبائع الناس ، وتهز الايمان الانساني الذي تدفعه فوضى الحياة إلى حالة من الانسجام • إن الذم المرير الذي وجهه ميكلانجلو لعصره كان ، ولا شك مفهوماً تماماً من قبل شكسبير • ولكن شكسبير لم يفهم فهماً بسيطاً دراما العصر التي كانت « خارج كل رابطة » بالالتفات الى الينابيع الحقيقية للمشاعر والأفكار والأفعال الانسانية ، فقد بين أن فقدان الانسجام ناجم عن بناء المجتمع نفسه • واذا كان قد مال بعواطفه الى بروسبيرو ، فقد فطن بعقله الى أن شيلوخ يمكن أن يكون تماماً رجل المستقبل •

وحتى يصور المجتمع كمسرح حرب بين المصالح المادية المتصارعة ، فقد ذهب الى الدراسة التحليلية للمجتمع ، فأرسى بذلك حجر الأساس للواقعية ٠

وبعد شكسبير ظهر في الساحة تدريجياً الاتجاه نحو دراسة الحياة الاجتماعية دراسة تحليلية ، رغم حقيقة أن ثمة فترات كاملة احتلت فيها الساحة الاتجاهات غير الواقعية الأخرى أمثال الباروكية والسلوكية والكلاسيكية ٠ إن هذا الاتجاه يتفق وروح العصر ٠ وعندما أثبت جون لوك أن ليست هناك أفكار فطرية في الفكر البشري ، تلقاها من قوة خارجية عليا ، أجبر التفكير الاجتماعي على البحث في بيئة الانسان ، التي هي القوة المحرضة الأساسية التي تحدد طريقته في التفكير وتقيد أفعاله ٠ لقد رأى لوك في بيئة الانسان أولاً وقبل كل شيء مجالا لممارسته الاجتماعية ، هذه البيئة التي عليه أن يعرفها بصورة أساسية ، وإلا بات معدوم الحول في مواجهة قوى مجهولة تهيمن على حياته ٠ إن بحث الفن في النشاط الانساني بمعناه الواسع أدى أخيراً في الواقعية الى اكتساب سمات متميزة واضحة وظهور الواقعية كطريقة خلاقة ٠

في القرن الثامن عشر ، في الفترة التي أدت الى الثورة الفرنسية ، حيث تم الانهيار النهائي لبناء الاقطاعية الاقتصادي والايديولوجي ، حققت الواقعية خطوة الى الامام ، من تصوير الحياة اليومية والسلوك الذي يرسم الوجود الاجتماعي ٠

إن مؤلفات الكتاب الواقعيين الأوائل ، الكبار والصغار ـ أمثال ريتشاردسن وديفو وسموليت وفلدينغ وسويفت وستيل وديدرو وغوته وليسنغ وميرسيه وماريفو والكثير غيرهم ـ تمكننا من تحديد السمة البارزة الأساسية للطريقة الجديدة ، وهي الفرق الأساسي بينها وبين بقية الحركات الأدبية الأخرى ٠

كان جوهر الواقعية التحليل الاجتماعي ، أي دراسة حياة الانسان في المجتمع وتصويرها ، ودراسة العلاقات الاجتماعية ، والعلاقة بين الفرد والمجتمع ، وبناء المجتمع نفسه ٠

لقد أخذت الواقعية مضمون كل الفنون والآداب ـ تصوير العالم والأفكار والمشاعر الانسانية ـ وجعلته مبدأ ، وبذلك ارتفع فوق النسخ الحرفي للواقع والتمثيل الذاتي للطبيعة الانسانية كملعب للعواطف الطليقة ٠ إن الواقعية لا تعزل الانسان عن البيئة الاجتماعية التي يعيش ويعمل فيها ، ولكنها بدلاً من ذلك تتصدى لفهم ديالكتيك العلاقات الاجتماعية مع تناقضاتها الواقعية وتصويره ٠ وتماماً كما

أن التحليل الطيفي يمكن الفيزيائي من اكتشاف أسرار حركة المادة ، كذلك التحليل الاجتماعي ، الذي هو جوهر الواقعية ، يمكن الكاتب أو الفنان من ادراك السمات الجوهرية للحياة والسعي الى فهم قوانينها • وكلما أمعن الواقعي في فحص الواقع والبحث في الروابط بين الأحداث التي يصفها في أثره ، ازداد الواقع الذي يعيد انتاجه حيوية واقناعاً ، لأنه لم يفهمه عاطفياً فقط ، بل شرحه وعممه أيضاً •

إن الكاتب الواقعي يفحص النموذج العام للحركات والحركات المضادة لشتى القوى الاجتماعية وراء الأحداث والظواهر الفردية • وهكذا نجد أن الواقعية تقوم على معرفة الكاتب للواقع • وكما وضع شللي القضية مرة : « حتى ينتزع المرء الظاهرة السائبة ، عليه أن يربطها بعظام القانون ، أن يقطع الجسد الجميل الى مفاهيم ويحافظ على روحه الحية في اطار العمل المفظي » • إن العنصر الثقافي الذي يتخلل المؤلفات الواقعية يتطلب من الكاتب أن يكون ذا نظرة ثاقبة لا لبس فيها في الحياة ، لأن تعميم الحياة والناس كما هم تماماً أمر مستحيل اذا كان الكاتب يقدم بديلاً للواقع ، أو إذا كان يعامل جوهر الاحداث والظواهر التي يفحصها بطريقة تعسفية وذاتية • إذا كان التحليل الاجتماعي للبيئة التي تتحرك فيها الشخصيات واقعياً ، فان على الكاتب أن يرى وأن يصور الواقع في مظاهره المحددة النموذجية التي تقدم موضوعياً في ميدان العلاقات الاجتماعية الانسانية ، منكسرة خلال موشور التشخيصات الفردية • ولقد ألح انجلز على أن هذا كان المطلب الرئيسي للطريقة الواقعيـة •

إن المبدأ الواقعي للنموذجية يشـمل السببية التي توجد في عالم الظواهر الاجتماعية • وبما أن الحياة الانسانية وحياة المجتمع هي التي تشكل المادة الأساسية للعمل ، فان العالم الداخلي للبطل ، ومجموع سماته الفردية التي ندعوها شخصية، يفحصها الكاتب الواقعي ويصفها على اعتبارها انتاجاً لظروف عديـدة نموذجية ، ترتبط بعلاقة سببية مع المصير الشخصي للبطل • وهكذا فان الشخصية النموذجية نوع من الاشتقاق من القوى الاجتماعية • ان الشخصية النموذجية للبطل تجمـع السمات المحددة الرئيسية للبيئة التي أنتجته ، ومن خلاله وخلال حظوظه الشخصية تتجلى سمات تلك البيئة •

إننا لانجد هذه النموذجية للشخصيات في المؤلفات غير الواقعية • وهكذا فان راسين ، أستاذ تصوير الشخصية ، كان ـ مثل موليير ـ كلاسيكياً في نظراته الجمالية وطريقة الخلق الفني • الا أن كلاسيكية موليير كانت تقوم على روابط وثيقة مـع

العنصر الشعبي ، ولشخصياته سمات تاريخية ملموسة شرحها الى حد ما بالتحليل الاجتماعي • لقد بالغ في شخصياته الى حد الكاريكاتير ، فينقصها العمق لتكون واقعية تماماً • انها أحادية الجانب ، تسيطر عليها عاطفة واحدة ـ مثال ذلك ، الجشع في شخصية هرباغون ، والنفاق في شخصية تارتوف • إن هذه الشخصيات أحادية الجانب لأن موليير كان يسترشد بعلم الجمال والفلسفة العقلية الخاضعين للكلاسيكية • ومع هذا فان عند شخصياته ، التي أصبحت لفظية ، شيئاً ما تفتقر اليه شخصيات راسين • هذا « الشيء ما » هو نتيجة المحاولة المحددة لاستيعاب السمات الشاملة مثل الجشع والنفاق في سياق المشهد الاجتماعي المعاصر • وهذا هو السبب في أن موليير ، رغم أنه كلاسيكي ، يعتبر بشيراً للواقعية في الأدب الفرنسي الحديث•

لقد ركز تلميذبورت رويال ،من جهة أخرى ، على تحليل العواطف والمشاعر الانسانية • ولكن لافيدرا ولا هيرميون ولا روكسانا ولا افيجيني ، ولا أي شخصية أخرى من شخصيات راسين ، على غناها وامتلائها ، قد أصبحت نموذجية • إن الرجال والنساء عنده قد انتزعوا وفصلوا عن المجتمع ، عن الحياة الفجة الظالمة للمجتمع الفرنسي في فترة الحكم المطلق • وكما قال المؤرخ الأدبي السوفياتي المشهور ف ـ غريب : « إن مؤلفات موليير تعكس الصراعات والقضايا الرئيسية للقرن السابع عشر • أما كورنيل وراسين فقد استوعبا النتائج النفسية لقضايا عصرهما الاجتماعية الكبرى • ان من المستحيل أن تشير بالاعتماد على راسين الى هذه القضايا وماذا كانت في الواقع التاريخي الحقيقي ، أو ماذا كانت المادة الحقيقية للحياة التي أخذت طريقها الى مسرحه »(١) • ومن الطبيعي أن شخصيات مآسي راسين ، والعواطف التي تعذب نفوسهم كانت نتاج عصره • ولكن شعورهم كما رسمه راسين كان مصفى وساميا الى درجة تجريده من الحياة • لقد جردت من مادة الحياةالحقيقية الأصيلة ، وهكذا رغم احتمال وجود الشخصيات والاحداث نجد أن مسرحياته ليست من حيث الأساس واقعية •

إن مسرحيات راسين تعتبر من عيون الأدب • فقد احتفظ بحدود الكلاسيكية ، وأجاد استخدام الوسائل التي وضعتها تحت تصرفه ، وأبدع مؤلفات على درجة كبيرة من الجمال والانسجام الداخلي ، رسمت العواطف التي تتحكم بالعلاقات الانسانية ، والتناقضات والتصادمات في العالم الأخلاقي للفرد • ولا شيء غير نظامي حول هذا ، لأن التأثير الجمالي يمكن أن يتحقق في الأدب بشتى الوسائل ،

(١) ف غريب ـ المؤلفات المختارة الطبعة الروسية موسكو ١٩٥٨ ص ٣٥٧ •

وهذا التأثير هو سر القدرة على التطور ، ووجود مختلف الاتجاهات والحركات ، وكل اتجاه يختلف في مبادئه الجمالية ، وفهمه الايديولوجي والجمالي لادراك الواقع وتصويره ٠

من الطبيعي أن ينجم عن وجود مختلف الاتجاهات والحركات جنباً الى جنب عداء وصراع بينها ، وكذلك تأثير متبادل في العديد من الحالات ٠ وخلف تنوع المبادىء الجمالية التي تأخذ بها شتى الحركات الأدبية (وغالباً اطار حركة محددة) يكمن ديالكتيك التناقضات الاجتماعية ، إن تباين المنازع الاجتماعية تجد تعبيرها الجمالي في الفن ٠ ليس تاريخ الفن والأدب أنشودة ريفية هادئة : إن هناك تضارباً عنيفاً للأذواق والآراء والمفاهيم الجمالية تسير عبر مجراه ٠

وبارساء ليسنغ علم الجمال الواقعي ، الذي يرفض كلاً من النسخ الطبيعي للواقع والتعميم المجرد لظواهر الحياة ، قدم مجهودات كبرى في كتابيه (laocoon) و (die Hamburgische Dramaturgie) ليثبت أن مضمون المؤلفات الكلاسيكية وشكلها لا حياة فيهما ، وأن العواطف قدمت بطريقة رنانة ، وأن الاسلوب كان خطابياً ، وأن المثل الاجتماعية كانت عقيمة ٠

« إن راسين يتحدث بلغة المشاعر ٠ وبالطبع اذا نحن وافقنا على تلك الفرضية فلا شيء عليه ٠ ولكني لا أدري أين ومتى تتحدث المشاعر بمثل هذه اللغة ٠ إن هذا تصوير مستهلك للمشاعر ، ولكنه لا يكون أبداً أو قلما يكون حركات غير مزوقة وحيوية وفورية للروح ، بحثاً عن الكلمات وايجادها » (١) ٠ وهكذا دافع هردر عن مبادىء الفن الواقعي ٠ ورغم الطبيعة الجدلية الحادة لهذه الكلمات الصادرة عن مفكر وديمقراطي عظيم ، فانها قائمة على أسباب تاريخية موزونة وليس على نزعة ذاتية ٠

على الرغم من أن الرومانسيين السابقين في القرن التاسع عشر ساهموا مساهمة كبيرة للأدب العالمي ، فانهم لم يخلقوا شخصية نموذجية واحدة ٠ ففي أشعار بايرون، باحتجاجها الاجتماعي العنيف ، ليس البطل سوى تجسيد لعواطف الكاتب وآرائه السياسية أكثر من أن يكون شخصية بالمعنى الحقيقي للكلمة ٠ إن السمات النموذجية في شخصية البطل أخذت بالظهور مع بيبو ، أي بطل القصيدة التي حددت انتقال بايرون من الرومانسية الى الواقعية ٠

(١) هردر « شكسبير » ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

لا الرومانسيون الفرنسيون ولا الرومانسيون الانكليز قدموا أي شيء يمكن أن يقارن بالكمية الكبيرة للشخصيات النموذجية التي نجدها في مؤلفات الكتاب الواقعيين ، الذين تتضمن قصصهم الملحمية تحليلاً عميقاً نفاذاً للبيئة الاجتماعية ، للظروف النموذجية التي تحدد نصيب أبطالهم • وعلى كل حال فان الرومانسيين فهموا وقدموا سمات محددة وتناقضات المجتمع البرجوازي الذي لم يكن الكتاب الواقعيون قد وعوه مباشرة • ولن يستطيع الواقعيون ، لولا مساهمة الرومانسيين قبلهم ، أن يحققوا مثل هذا التقدم في تحري التاريخ الحي لعصرهم •

وإذ تمكن الواقعية من تصوير الواقع تصويراً موضوعياً ، باعتبارها طريقة خلاقة تجعل في الامكان تحليل البيئة الاجتماعية والعلاقات السببية التي تنشأ ، فان لكل كاتب واقعي نظرته الفردية الخاصة في العالم • إن نظرته في الأحداث وفهمه للحياة والتاريخ يعكسان موقفه من الصراع الاجتماعي المعاصر الذي يشارك فيه بصورة حتمية •

إن الأثر الأدبي الذي يصور الواقع مضطر الى أن يعكس أيضاً نظرة الكاتب الشخصية ، والكاتب ليس مؤرخاً حيادياً لعصره ، بل إنه دائماً يرود المثل التي تجسد في رأيه حكمة عصره • ومن الطبيعي أن فهم التاريخ عند الكاتب فهماً ذاتياً يتطابق بصورة مطلقة مع مادته الموضوعية •

وعلى كل حال ، فان الكتاب الواقعيين ، بتحريهم تطور الواقع الدائم التغير وتحليل العلاقات الاجتماعية ، أنتجوا صورة جمالية للحياة الاجتماعية والفردية المعاصرة ، طالما أن المبدأ الأساسي للطريقة الواقعية ، أي المعرفة الفعالة ، قد قدم منجزات جديدة هامة • كان الواقعيون قادرين على تصوير الصراعات الأساسية لعصرهم ، المشروطة بالعالم الداخلي لأبطالهم ، لطريقة تفكيرهم • وسلوكهم ، ورؤية منابع الاثم الاجتماعي الذي له تأثير مدمر على الشخصية الانسانية • ولذلك فان الادراك الانساني للواقع يبرز الواقعيين الذين قاموا بتحليل اجتماعي للحياة في عصرهم طبقاً لفلسفة فردية في الحياة •

هذه السمة المميزة لواقعية ما قبل الاشتراكية كانت واضحة في المراحل المبكرة لظهور الطريقة في فترة الثورات الفرنسية والانكليزية •

كان شعار القرن الثامن عشر هو شعار التقدم البرجوازي ، الذي كان منفذاً لتدمير البناء الاقتصادي والاخلاقي للنظام الاقطاعي • كانت المهمة التاريخية

الرئيسية للعصر هي تحويل المجتمع . وكانت أفكار الحرية المدنية تهب مع الريح، وكانت أفكاراً عظمية ، تبشر بمرحلة جديدة في تطور المجتمع الانساني .

وإلى أن كشف المجتمع البرجوازي الوليد عن تناقضاته ، كان يجري الترحيب به من قبل الفلاسفة والكتاب المرتبطين بالحركة الديمقراطية للعصر كشكل مثالي وكامل للحضارة ، يؤمن انسجام المصالح الفردية . وصعدت الى المقدمة فكرة الحرية أو الانسان « الطبيعي » ، الانسان المستقل عن الأخلاقية المطلقة والمفهوم الكهنوتي والاقطاعي للواجب تجاه السلطة الاقطاعية ، تجاه الفرضيات الأخلاقية والسياسية للنظام الاقطاعي المحتضر .

كان الانسان « الطبيعي » حراً من عقائد الملكية المطلقة التي تدعو اليها الكلاسيكية . لقد كان ايديولوجيو الطبقة الثالثة يعتبرونه كائناً يتمتع بصورة طبيعية بمثل هذه الفضائل الجديدة كالشرف والمغامرة والمثابرة . لقد كانوا يعتبرون جوهره الداخلي ، وليس ذلك الذي يأتي من الخارج ، أي الذي تزرعه فيه الأخلاق الاقطاعية .

إن أبطال فيلدنغ الصاخبين باندفاعهم المتمتع بالحياة ، وروبنسون كروزر الحكيم العملي كانوا ممتلئين بنعمة التفاؤل التاريخي . إن توم جونس يتصرف كما تملي عليه طبيعته ، واذا كانت طبيعته أحياناً تتخلى عنه ، فتدفعه الى التصرف بلا تفكير أو بصورة خاطئة ، فانه ولا شك يعتمد على فضيلته الحقيقية : إنه يكشف الطبيعة الانسانية كما هي بكل بساطة .

وعندما ترك روبنسون كروزو وحيداً ليعارك العناصر ويبني حضارة كاملة في جزيرته ـ ولكن لنعلم أنه استفاد من الخبرة المجمعة السابقة للبشرية ـ وتبقى روحه « الطبيعية » الأساسية سليمة ، وتخرج منتصرة من كل التجارب .

إن الواقعيين الأوائل ، بشخصياتهم الفعّالة المستقلة التي تتمتع بالاندفاع الشديد والتماسك ، عكسوا في مؤلفاتهم السمة الرئيسية لعصرهم ـ ظهور انسان جديد ، يختلف اختلافاً أساسياً عن البطل المصفى للكلاسيكية . لقد كان خلق انسان جديد انتصاراً كبيراً للواقعية ، انتصاراً لا يستطيع انجازه في الحقيقة سوى الواقعيين، لأنهم كانوا يبحثون ويحللون البيئة الاجتماعية .

وعلى كل حال ، بينما حقق الواقعيون الاوائل نجاحات مرموقة في رسم

الشخصيات الجديدة ، فان وصفهم للبيئة كان تجريبياً في عدة وجوه • إنهم لم يستخلصوا روح العالم المحيط بهم ، الذي كان بالنسبة إليهم ليس موضوعاً جمالياً مستقلاً كما هو في الواقعية الحديثة • لقد كان نثرهم دقيقاً ومصنفاً ، وقد أبرزوا المواقف ، ولكن بغير ظلال ماهرة ولا تفصيلات • إن قصة روبنسون كروزو في جزيرته هي استقصاء حقيقي رزين لرحلة عمل أكثر من أن تكون وصفاً أدبياً لعالم زاهٍ • وهذا الفهم العملي الرزين يميز أيضاً نثر سموليت وسويفت ، وقد أصبح عند الأخير بدعة أسلوبية أصيلة ، تنسجم تماماً مع الذوق الجمالي للعصر •

إن التجريبية هي أهم سمة تميز الأوصاف الواقعية الأولى للبيئة • ويمكن أن نلمس هذا في ابراز نفسية الأبطال ، الذين ينكشفون من خلال أعمالهم أكثر من أعمال عقولهم وقلوبهم الداخلية • لقد كان القارىء يتوقع أن نمجد حياة البطل الداخلية من أفعاله ، لأنها ليست شخصية مثل السمات الشاملة التي كانت تهيمن على سيكولوجية الشخصية إن الحياة الروحية للشخصيات لم تكن قد خضعت بعد للتحليل العميق في النثر الواقعي المقرن الثامن عشر ـ دعك عن جوانب عديدة أخرى • ولم يكن ميدان الحياة الشخصية قد جرى البحث فيه الى أن حل القرن التاسع عشر •

في الواقعية المبكرة ، سارت التجريبية في رسم الواقع يداً بيد مع الاتجاه الواضح لجعل البطل مثالياً • وليس هذا ، للوهلة الأولى ، أكثر من تناقض غريب نشأ من مفهوم الحرية الذي تبنته الواقعية ، التي كانت قائمة على الأخلاق والفلسفة التنويرية •

إن كلمات روسو « خلق الانسان حراً ، ومع هذا فهو مكبل بالأصفاد في كل مكان » قرعت في منتصف القرن مثل ناقوس الخطر • هذه الصيغة القوية التي أعلنت أن الحرية حق طبيعي للانسان الطبيعي ، عبرت عن جوهر العصر الحقيقي ، ونجمت عن الاختمار الثوري الذي اجتاح أوروبا عشية الثورة الفرنسية • لقد استوجب الانعتاق من المبادىء الأساسية الخانقة للاقطاعية التي كانت تزيد بؤس الشعب ، وظهرت الحاجة الى تغيير بنية المجتمع • إن ايديولوجيي الطبقة الثالثة لم يأخذوا بعين الاعتبار المظهر العملي للقضية • إن كل شيء يبدو بسيطاً تماماً : تحرر الانسان من الأصفاد ، وسوف يصبح أبداً المواطن الحر للمجتمع المنسجم ، ما دمنا نعتبر كل الناس ، من وجهة القانون المجرد ، متساوين منذ الولادة •

في الحقيقة ، لم يكن الانسان حراً منذ الولادة ، أو حتى قبل ولادته • لقد

تجاوز روسو واقعاً بسيطاً هو أن الطفل الذي يطلق صيحته الأولى في زريبة الفلاح الوضيعة ، ليس حراً ، مادام يرث حتماً ، ليس فقط بمظهر والديه ، بل أيضاً وضعهما المادي • والطفل الذي يولد في قصر نبيل أو منزل تاجر محترم اكثر حرية منذ البداية •

لم يكن الانسان يولد حراً ، ما دام المجتمع الذي عاش فيه والموجود قبله ، يصون التفاوت المادي ،ولذلك لا يمكن أن يحوز مساواة الحرية الحقيقية •

لقد بحثت البرجوازية عن حريتها الخاصة من أجل نفسها ، وعندما كسبتها أخيراً ، حصرتها بقوانين غدت قدس أقداس الديمقراطية البرجوازية • وقد قدمت المادة السادسة من الدستور الفرنسي ١٧٩٣ ، الذي وضعته الثورة البرجوازية ، تعريفاً كلاسيكياً للحرية كما فهمتها الطبقة الثالثة التي استولت على السلطة : « الحرية هي حق الانسان في أن يفعل أي شيء لا يضر بحقوق الآخرين » • وفي المادة السادسة عشرة تلقت هذه الأطروحه الأخلاقية دعماً سوسيولوجياً واضحاً • فقد سمحت للانسان « الطبيعي » أن « يستخدم ويتصرف بممتلكاته ودخله كما يراه مناسباً » • وهكذا فان حرية الانسان في أن يفعل ما لايضر بمصالح الآخرين ، المثال الأخلاقي الذي أعلن في الميثاق ، قد شرعت حرية غامضة ، لأنها ثبتت عدم خرق مبدأ الملكية الخاصة ، المبدأ الأساسي لمجتمع قائم على الاستغلال • وبهذه الطريقة وقف الانسان ، في الحقيقة ، بعيداً عن المجتمع ، ويكتسب ضمناً حق شن الحرب على جاره وكل المجتمع ، لأن « ما يعتقده مناسباً » مرتبط بالصراع مع « ما يعتقده مناسباً » أعضاء آخرون من المجتمع •

لقد كشف ماركس بصورة رائعة الفتوى المعقدة لفكرة البرجوازية عن الحرية• فقد كتب مقابلاً الحرية الحقيقية مع مفهوم الاجبار الاجتماعي للمواطن كما هو مجسد في دستور ١٧٩٣ : « ••• وهكذا فان حق الحرية ليس قائماً على الوحدة الانسانية ، بل على العكس ، انه قائم على العزلة الانسانية • إنه حق هذه العزلة ، حق الفرد المحدود » ويتابع « حق الانسان في الملكية الخاصة هو حق استخدام ممتلكاته والتصرف بها كما يرغب ، من دون النظر الى الآخرين ، إنه حق الأنانية »(١) ••

وهكذا نجد أن حقوق الانسان الطبيعي ، أي « الحر » ، التي يفترض أن تكون الطبيعة هي التي منحتها له ، قد سيجت الآن باطار حديدي من القانون ، الذي

(١) ماركس وانجلز : المؤلفات • الجزء الاول ص ٣٦٤ •

لجأ ، من أجل الحفاظ على مبادئه من أولئك الذين قد يرغبون في تقديم الحرية الحقيقية للجميع ، وليس فقط للانسان صاحب الملكية ، الى آلات من أمثال المقصلة (في حالة البرجوازية الفرنسية الأكثر تقدمية) والمشنقة (التي تفضلها البرجوازية الانكليزية الأكثر محافظة) •

كانت المقصلة في انتظار البابوفيين ، أعضاء مؤامرة المتساوين الذين أعلنوا الحرية للجميع ، وكانوا رواد فكرة التنظيم الشيوعي للعلاقات الاجتماعية • لقد رأت البرجوازية الفرنسية في كراشوس بابوف عدواً مخيفاً أكثر من كل المهاجرين الى كوبلنز •

وقد اختصر قانون البرجوازية المنتصرة الجزء الثاني أيضاً من صيغة روسو • لقد أزيلت حقاً أصفاد الاقطاعية ، ولكن الانسان « الطبيعي » وجد نفسه ، وكله خوف وحيرة ، وقد ناء بأغلال أكثر أناقة ودقة في الصنع من الأصفاد القديمة الجلفة التي كان يصنعها الرق الحداد في مستودع السيد •

إن منطق التاريخ الذي لا يرحم كشف القناع عن الانسان « الطبيعي » ليفضح البرجوازي النبيل المثالي ، فاذا هو عبد مصالحه الشخصية الأنانية •
كان هذا ، اذن ، الديالكتيك الواقعي لتطور المجتمع الطبقي البرجوازي ، الذي ظهر في مملكة الأيديولوجيا والوعي الاجتماعي على شكل تناقض بين فكرة الانسان « الطبيعي » كما ظهر لمفكري عصر التنوير الثوريين ، والمضمون العملي لهذه الفكرة •

كان البرجوازي الواقعي منشغلا بالمضاربة والصفقات المالية المنظمة ، ويقرض المال بالفائدة للارستقراطي الطائش المبذر الذي لا يفكر في الغد • لقد عبد الطرقات وبنى السفن التي أرسلها الى بلاد نائية عجيبة فاح منها عبير أحمال الذهب وجوز الهند والحرير المسكر الذي أدار رأس الـ (Pater Familias) المحترمة ، فشجعه هذا على القيام بمشاريع خطرة • واستوعب البرجوازي الواقعي فوراً الامكانات التي تقدمها الآلات بالمقارنة مع الايدي البشرية ، فنظم المشاغل متعلماً كيف يحول طيبة العمال الى محفظة نقود قاسية •

إن التناقض بين الفكرة الاجتماعية عن الحرية والواقع كان لغزاً بالنسبة للعديد من الكتاب الواقعيين ، ما داموا قد رغبوا بجد ، في انعكاس طريقة الجماهير الديمقراطية العامة ، أن يروا المجتمع الجديد مجتمعاً منسجماً • ومع أنهم كانوا

منكرين برجوازيين ، بالحدود التي تتضمنها البرجوازية فانهم أبرزوا في مؤلفاتهم التباين الاجتماعي الحاد للعصر والنقص الكبير للنظام الاجتماعي ، لذلك تركوا الدلالات التافهة ٠

ولكن الواقعيين الأوائل كانوا ميالين الى أن يعزوا نقائص التنظيم الاجتماعي الى نقص الطبيعة الانسانية ، والصفات الطبيعية التي تحتاج الى تصحيح وتثقيف بروح العقل ٠ هذا الاتجاه الطبيعي الى جعل البطل مثالياً عكس الاندفاع الثوري الموضوعي للعصر والايمان بالجماهير الشعبية وتعليق الآمال عليها ، وكان الفن الواقعي قد صاغ معتقداتها بأن الانعتاق من المؤسسات الاقطاعية يمكن أن يحرر الشعب كله تحريراً تاماً ٠

إن الميل الى جعل البطل مثالياً كان أيضاً تعبيراً عن الأهداف الديالكتيكية للأيديولوجية التقدمية التي أنتجت الانسيكلوبيديا ونظام الطبيعة لهولباخ واليوثوبيا التربوية لكتاب أميل على أمل أنه اذا تغيرت الآراء والأفكار السائدة في المجتمع ، فان المجتمع نفسه يمكن أن يتغير نتيجة ذلك ويكتسب ما كان ينقصه من انسجام وعدالة ٠ فلو زرعنا ، على حد إيمان التنويريين ، أفكاراً عقلية في أذهانالناس ، لأمكن تحويل المصالح الآنانية الدخيلة الى مصالح عضوية منسجمة ، وعندئذ يساهم الأدب والفن ، بما لهما من قوة تأثير عن طريق الصور الحية ، في ثقافة المجتمع ٠ وهذا هو السبب في أننا نجد في مؤلفات واقعيي القرن الثامن عشر نزعة تعليمية وعنصراً أخلاقياً قوياً ٠ وهذا لا ينطبق فقط على الأمثلة الواضحة ، مثل كانديد لفولتير ، حيث تتقابل أخلاق العقل والأخلاق غير المعقولة السائدة في المجتمع ٠ هناك أيضاً عنصر ديالكتيكي قوي مصنوع في فبارك من نوع مؤلفات مول فلاندر لديفو وبرية يوناثان لفيلدنغ ، وكذلك في روايات ريتشاردسن ٠ وحتى في مسرحيات بومارشيه ، التي تتدفق بالتمتع بالحياة (Joie de Vivre) هذا التمتع الثوري العامي ، وتمجد مهارة الطبقة الثالثة وحذرها وطاقتها ومهارتها العملية ، أدينت الأخلاق الاقطاعية من وجهة نظر أخلاق البرجوازية الثورية ٠

في الواقعية المبكرة ، سارت الحملة الأخلاقية يداً بيد مع نقد الأخلاق الاجتماعية ٠ وكان هذا طبيعياً تماماً ، لأن العالم الاقطاعي والوعي الاقطاعي إذ يعكسان انحطاط النظام القديم ، كانا على الأقل يحافظان ويدعمان المبادىء الأخلاقية ٠ وبينما كان المقلدون المحزنون للمسرحيين الكبار في القرن الثامن عشر يحاولون رفع فكرة السيطرة الاقطاعية ، مع تيار من التراجيديات المفخمة البراقة

الطنانة ، مصعدين العواطف البائسة للنبلاء المتفسخين ، كانت بقية الأدب الارستقراطي تمثل الابيقورية المبتذلة والطيش السخيف • لقد كان العالم الاقطاعي يقترب من نهايته في جـو بعيد عن الوقار • لقد حلت ملذات الجسد محل المفاهيم الدقيقة للأخلاق التي كانت تؤلف العمـود الفقري للتراجيديا الكورنيليـة • لقد أخفت الأرستقراطية فسادها وافلاسها الروح وراء سـتار الدماثـة ، وتحت أطباق من المساحيق والزخارف والتجميلات • وقد سخر الشعر التافه وكوميديات الصالون في مواقف تقرب من قلة الحياء من المبادىء التي كانت البرجوازية تقدسها وتصونها ، مثل الحياة العائلية ، والأسرة ، والثقة الزوجية ، والتوفير والاقتصاد ، واحترام الصغير للكبير ••• وهلمجرا •

إن الأدب الديمقراطي الثوري ، في فقده الأخلاق الاقطاعية الارستقراطية ، لم يحصر نفسه في نطاق فضح الأسس الأخلاقية للمجتمع القديم • وقد ساهمت آثـار عديدة مثـل Kabale und lieble لشللر ، و le Neveu de Rameau لديدرو ، وقصص غودوين وكريبلون ، ومقالات ستيل وأهاجيه ، في كشف نقائص النظام الاجتماعي القائم ، من خلال نقد الأخلاق • ولكن بينما حققت الواقعية المبكرة بعض المنجزات الكبرى لصالحها نظراً لادانتها النظام القديم واتجاهه الاخلاقي ، ولاقت تأييداً في التخمر الثوري للعصر ، وبينما ألهمت مواقف المعارضة الاجتماعية آثار كبار الكتاب والمفكرين في القرن الثامن عشر ، ورافق ذلك نضال الجماهير الاجتماعي ، فان الأدب البرجوازي الوليد عكس التنافر بين الفكرة المثالية الاجتماعية عن الحرية وتحقيقها العملي بدقة وثائقية • وجنباً الى جنب ، مع تطور الرواية ، ملحمة العصر الجديد ، تطورت الدراما ، التي طردت بالتدريج كلاً من التراجيديا « الراقية » والكوميديا ، اللتين كانتا النوعين السائدين في القسم الأول من القرن ، كما كانتا تلبيان مطالب المجتمع الاقطاعي • وقد حملت الدراما ، أو « الكوميديا المنتحبة » أو « تراجيديا الطبقة الوسطى » كما كانت تدعى يومئذ ، العلائم المميزة لنشأتها البرجوازية •

إن الأساس الواقعي للدراما الجديدة يكمن في تصويرها الاصيل الدقيق للحياة البرجوازية ، وصراع الطبقة الثالثة لتحتل مكاناً تحت الشمس ، في وقت كانت السلطة والمراكز العليا لا تزال في أيدي الطبقات صاحبة الامتياز • إن موضوعها المألوف هـو تصوير الصراع الناشب بين المجتمع البرجوازي والمجتمع الاقطاعي ، والتشخيص الأدبي لهذا الصراع استوجب البحث في البيئة وتحليلها • إن الطبيعة

الواقعية للصراع الرئيسي في الدراما البرجوازيــة كانت تتسم بالدقة في تقديم تفصيلات الحياة اليومية ، وطريقة حياة الأسرة البرجوازية ، والبيئة الاجتماعية · وعلى كل حال ، كانت « الكوميديــا المنتجة » لا تزال تتسم بالعقلانية أكثر من الأبطال « الأصليين » مع ميل الى الفلسفة ، والأخلاقية الواضحة الطويلة النفس · إن مبدعي الدراما الأخلاقيــة ــ ليلوديستوتش ونيقودي لاشوسي وحتى ديدرو ولسنغ ــ لم ينجحوا في التغلب على الطبيعة الفجة الطبيعية لـ « الانسان الطبيعي »، أي البرجوازي ، رغم المبالغة المتعمدة في ابراز صفاته الايجابية · إن التناقضات الجمالية للدراما البرجوازية كانت تناقضات ايديولوجية ، لأن الهدف الذي تصدى له مبدعوها ، وهو جعل الانسان الفردية انساناً شاعرياً ، كان هدفاً مستحيلاً · لم يكن البطل الواقعي لـ « الكوميديا المنتحبة » موضوعاً ملائماً للشاعرية · إن نشاطاته العملية كانت تقوم على المصلحة الأنانية ، وكان وجهه الحقيقي أقصى مايكون عن الشكل المثالي الذي تخيله مبدعو الدراما البرجوازية · وباعتبارهم واقعيين ، ومراقبين حذرين للواقع ، لم يولوا اهتماماً بالمظاهر السلبية لأبطالهم ، لأنانيتهم ، لقساوتهم ، لضيق تفكيرهم · ولكن بما أن التطور البرجوازي لم يكشف نقائصه الرئيسية ، فان السمات السلبية لأبطال دراما الطبقة الوسطى كانت تعزى بالتدريج، حسب الأوضاع السائدة في تلك الأيام ، الى نقائص الطبيعة البشرية ، التي يمكن أن تتغلب عليها وتصلحها بتوالي الأزمان ·

وعلى كل حال ، فان الزمن دمر ورفض هذا النموذج الوهمي للواقعية المبكرة· إن العملية التاريخية لم تتسم فقط بانهيار الروابط الاقطاعية وظهور المعارضــة الثورية من طرف الجماهير المضطهده ، بل اتسمت أيضاً بتوطيد العلاقات الاجتماعية البرجوازية · إن السمات الجديدة للحياة أجبرت الشعب على النظر بعين الاعتبار الى أسئلة أمثال : ألا يمكن أن تكون الظروف الجديدة سبب النقائص والضعف في الطبيعة البشرية ؟ هل يمكن التغلب على السقطات الانسانية عن طريق المقاييس الدعائية والثقافية ، التي تعمل ، حسب رأي المتنورين الثوريين ، دون فشــل ، مع أنها أظهرت في التطبيق العملي نجاحاً هامشياً محضاً ، وإن لم تفشل كلها معاً ؟

إن التناحر بين التطور الروحي للانسان والتطور الاجتماعي ، الذي يعكس التناقضات الاجتماعية ويشعر به مفكرو العصر وكتابه ، استدعى الشرح والتفسير · فاذا كانت الطبيعة البشرية ناقصة وغير قابلة تماماً للتأثير بالفكر المستنير ، فان الحاجة عندئذٍ تستدعي البحث أكثر فأكثر في الطبيعة البشرية نفسها وفي سيكولوجية

الانسان • لقد نجمت الأزمة في مفهوم الانسان الحديث باعتباره انساناً «طبيعياً» ، عن التطور البرجوازي الذي غرس الأفكار والعادات المناقضة لمبادىء الفضيلة الانسانية المدنية المثالية التي صاغتها أخلاقية عصر التنوير ، فأدى ذلك الى اتجاه بسيكولوجي في النثر الواقعي ، ظهر أولاً في آثار بريفوست وشترن وغوته في فترة كتابه « فرتر » وفيما بعد في آثار شودرلوس دي لاكلوس • لقد اختبر هؤلاء الكتاب مظاهر الروح البشرية التي فشلت الرواية التنويرية في ملاحظتها أو تجاهلتها عن عمد •

لقد أدرك لورنس شترن وكشف التعقيد الحقيقي للقلب البشري • إن أحداً من قبل لم يخضع حركات الروح البشرية لمثل هذا البحث الدقيق • لقد اختبر القلب البشري ، مثل العالم الطبيعي المجد ، من خلال عدسة مكبرة ولم ير فقط جوانبه البراقة ، بل رأى التناقضات التي كان من الصعب أن نجد لها تفسيراً معقولاً • إن كآبة غريبة خيّمت على آثاره • إن العالم الداخلي لشخصياته هو عالم صحي بصورة بارزة • لا شيء يتعلق بالأمراض حولهم ، ولا انحرافات عن الخط السوي • ومع ذلك ، فانهم جميعاً ـ وعلى الأخص القصاص ـ ينقصهم ثقة بالنفس كثقة توم جونس أو بيرغرين بيكل ، اللذين لم يكونا مترددين ، وأبحرا بحبور عبر أشد أوضاع الحياة تعقيداً • لقد كانت الحياة بالنسبة اليهما كتاباً ، قرآ فيه دون خوف ، وعانيا نزوات الحظ والعديد من تقلبات الحياة ارتفاعاً وانخفاضاً •

إن أبطال شترن وجدوا الأشياء أقل وضوحاً وبساطة بكثير من أبطال القصص التنويرية • إن أدنى فعل من الافعال كان يتضمن كثيراً من التفكير والتردد • وبينما يتشبث أبطال فيلدنغ وسموليت بالعالم بشجاعة ، ويسيرون مرحين مبتهجين واثقين في شعاب انكلترا ، يقتحمون الفنادق والساحات العامة يمازحون الخادمات البدينات، باحثين عن الشجار والعراك ،ويشقون طريقهم عبر القنال الى مواخير الاثم في العاصمة الفرنسية أيجدوا سبيلهم محفوفاً بالمشقات والمخاطر فيخوضوها بعزيمة لا تعرف الكلل ، فان أبطال شترن الهامشيين كانوا مشدودين الى عالم أنانيتهم والمحيط الصغير لأصدقائهم ، تزعجهم وتربكهم الحياة •

كان شترن ، مثل غيره من ممثلي الاتجاه البسيكولوجي في القرن الثامن عشر، واعياً حذراً لتعقيدات الروابط بين الانسان وبيئته الاجتماعية ، ويشعر أن هذه البيئة ، هذا الواقع ، الذي صاغه التاريخ ليس حسب قوانين الفلسفة ، والأخلاق في عصر التنوير ، بل حسب قوانينه الخاصة ، كان أكثر تعقيداً مما بدا لأنصار

واقعية الأنوار العقلية • وفي الوقت الذي يقوم بتحليل شعور أبطاله تحليلاً دقيقاً ، يبرز جانباً السمة السائدة ممثلة بتفاعلها الأصيل مع السمات الأخرى الأقل أهمية• إن ما كان يميز شتيرن عن معاصريه ، ليس التركيب الأصيل لتريسترام شاندي ، أو المزاج السوداوي الذي أضفى على نثره سحراً فريداً ، بقدر ما كان فهمه العلاقة بين ماهو شخصي وماهو اجتماعي في الحياة • وبينما رفض كوندرسيه أي تناقض بين المصالح الشخصية والمصالح الاجتماعية ، ورأى صيانة التقدم في انسجام هذه المصالح ، ولذا تجاهل فقدان الانسجام الطبقي وفشل في التحقق أن أية محاولة لتوحيد المصالح المختلفة مبدئياً يمكن أن تعني فقط الحرية العشواء للمصالح الشخصية ، أظهر شتيرن التباين بين الفرد والمجتمع • إن سخرية شتيرن العنيفة يمكن أن تخفف وتكسر حدة مرارة هذا التباين ، وتموه أسبابه ، بيد أن أبطاله كانوا محصورين بعالمهم الخاص الصغير ، لسبب بسيط هو أنهم رأوا أن العالم الخارجي ليس مجالاً ملائماً لنشاطهم •

لقد كشف غوته الجذور الاجتماعية لحتمية التباين بين الشخصي والاجتماعي بوضوح جذاب في كتابه آلام فرتر ، حيث يقدم الحياة الروحية والعالم العاطفي للانسان مع غنائية لا نظير لها تردفها فطنة تحليلية •

لقد اعترف غوته ، هذا العبقري العالمي ، بقوة الطريقة الواقعية بصورة مبكرة نسبياً • وإذ اكتشف لنفسه (وللأدب ككل) الامكانات التي تقدمها الطريقة الجديدة، التفت هذا الكاتب اليافع أولاً وقبل كل شيء الى درس شكسبير وطيلة القرن الثامن عشر ظهرت فائدة هذا المسرحي الانكليزي العظيم إلا أن غوته اليافع فهم ، أكثر من كل أنصار شكسبير والمعجبين به السمة الأساسية لفنه ، وهذا ما جعله يعتبر مؤسس الواقعية •

لقد كتب غوته خطابه « Zum Shakespeare tag » قبل قليل من مباشرته العمل في تراجيديته « غوتس ذو القبضة الحديدية » ــ وهي عمل من أعظم منجزات واقعية القرن الثامن عشر ، والفضل في ذلك يعود الى مسرحيات شكسبير التاريخية ــ التي تضمنت صياغة دقيقة للعقيدة الأساسية للمذهب الواقعي • لقد أبرز غوته أن تراجيديات شكسبير « تدور حول نقطة خافية ••• حيث كل ماهو أصيل في أنانيتنا والحرية الجريئة لارادتنا سينجرف كل ذلك في المجرى العام العنيد »(١) • إن القوانين الطبيعية لـ « المجرى العام العنيد » ، أي ، المجرى والتطور العام للعلاقات الاجتماعية، يمكن أن تظهر بصورة طبيعية عن طريق المذهب الواقعي فقط ، الذي يتيح تحليل

(١) غوته (Zum Shakespeare tag) .

الظواهر والبحث عن أسبابها ونتائجها · ولقد تحقق غوته من أن شخصية الانسان والبسيكولوجية الفردية لا يمكن أن يفهما ويشرحا ما لم يجر الكشف أولا عن الاسرار الفنية المعقدة لـ « المجرى العام العنيد » ·

عندما أبدع القس بريفو مانون ليسكو المحيرة ، وجد نفسه ، على الرغم من أنه عالم نفسي ذكي ومسجل بارع للسلوك ، مرتبكاً في شرح التناقضات الداخلية لبطلته ، التي تجمع بصورة واضحة صفات يستحيل تمازجها : الثقة بالحب والتقلب الشديد ، تقوى النفس والطيش الذي يقرب من حدود اللا أخلاقيـة في أفعالها ، الرفعة والوضاعة ، الطيش والطبيعة الجديـة وهلمجرا · ان الأب بريڤو يشبه كيميائياً قديماً يمزج مـواد مختلفة يتصور أنهـا لا يمكن أن تمتزج في دورقه ، ويالعجبه إذ يرى هذه المواد قد أنتجت مركباً جديداً غير معروف حتى الآن · إن الظروف الجديدة لم تغير فقط العلاقات الاجتماعية في المجتمع الطبقي ، بل أعطت شكلا لعلم النفس الجديد ، وهي خصائص أدهشت القس بريڤو ·

وقد اعترى العجب غوته طيلة حياته من جوهر « المجرى العام العنيد » وهدفه الأخير · وقد كشف الغطاء بجرأة في كتابه « آلام فرتر » عن العالم الخفي للمشاعر الانسانية وربط مجال العواطف بواقع العالم الخارجي · لقد أذهلت قصته معاصريه، والسبب في هذا لا يعود إلى سـلطة الحب فقط ـ وغالباً ما أقيـم هذا على قاعدة التراجيديا ، أو الزخرفة بالعاطفية ، أو التبسيط وابراز « النار العارية للرغبة » ـ بل أيضاً لأن القصة حققت شاعرية البساطة والطبيعية ، وانغمست في مجال الحياة اليومية · ومع الوصف الغنائي للمشاعر البشرية المعقدة ، هناك اشارات قوية في إدانة الطغيان ، وأهم من ذلك أن القصة كشفت التناقض بين شوق الانسان الى الحرية وامكانية تحقيقها · هذا التناقض المصيري الذي عذب روح الفتى فرتر كان الموضوع الشاغل في ذلك الوقت · إن واقعيي القرن الثامن عشر ، بكشفهم الواقـع الجديد ، ونفوذهم وتحريهم في مظاهره العديدة ، واخضاعهم مبادىء الاقطاعية ، وسلوكها وأخلاقها لنقد لا يرحم ، دون أن يتوقفوا عن نقد الجوانب السـلبية في تطور المجتمع البرجوازي ، أظهروا أنهم عاجزون عن تقديم أية حلول للصراع الأساسي للعصر · والحقيقة أنه جرياً مع التغيرات في الوعي الاجتماعي وتحت ضغط الطرائق الأدبية الأخرى ، قد بدأ التحول يدب في الواقعية ·

إن الفكر الاجتماعي الديمقراطي الثوري في القرن الثامن عشر والأيديولوجيا البرجوازية الناشئة ، أوجدا الشعور العام باقتراب الثورة التي أخذت أنفاسها النارية

تلفح كل القارة ، وكان كل منهما يحارب من أجل التطبيق العملي للحرية الانسانية. وكانت الظروف المادية والروحية للثورة قد نضجت ، ومثل أي ثورة ، جذبت اليها العديد من العقول ، وبثت الرعب في قلوب أولئك الذين كانوا ضد أي تغير في النظام الاجتماعي القائم . وكانت ، مثل أي ثورة برجوازية ، تتضمن تناقضاً لا يمكن تحويله عن مجراه : فبينما كانت تعلق الحرية ، كانت في الوقت نفسه توطد شكلا جديداً للاستغلال . إن اجتياح الباستيل ، والأحداث اللاحقة للثورة الفرنسية ، التي أصبحت وحشية أكثر فأكثر كلما تعمقت الأزمة الثورية ، بينما ألهمت الفكر الثوري ، غيرت الأهداف الاجتماعية ، والجمالية بالتالي ، للأدب والفن الديمقراطيين، اللذين لم يرتفعا حتى يصلا الى مرتبة الثورية . وكما كتب ماركس في مقالته « النقد الأخلاقي والأخلاق النقدية » : « إن عهد الارهاب في فرنسا استطاع فقط... أن يخدم في أن يمسح من الوجود مسحاً سحرياً كل دمار فرنسا الاقطاعي بضربات مطرقته المخيفة . إن البرجوازية بحذرها ما كانت لتستطيع القيام بمثل هذا العمل حتى لعشرات السنين . إن أعمال الشعب الدموية لم تفعل سوى أنها مهدت الطريق أمام البرجوازية »(١) . إذا كان الفن والأدب الديمقراطيين الثوريين في ذلك الوقت (فورستر ، شوربات ، جوزيف شينيه ، راديشتشيف ، والرسام دافيد والملحن غوزيك وغيرهم وغيرهم) قد استلهما الثورة ، دون أن يرتعبا مما يدعى «افراطات» الثورة ، فان الأدب والفن الديمقراطيين ، دون أن نقول البرجوازيين ، مع أنهما كانا يفوران بالأفكار والعواطف المدنية ، ويعتبران انعتاق الانسان من عبء العلاقات الاقطاعية ضرورة تاريخية ، قد ارتعبا من « التخدير الجبان » .

إن سمة تطور الفكر في نهاية القرن الثامن عشر حددتها حقيقة أن النظرة التنويرية التي دعاها الى الحياة نضج الوضع الثوري ، لم تكن قادرة على أن تحرر نفسها من تناقضاتها الداخلية. ولذلك فان ايديولوجيي الطبقة الثالثة والديمقراطيين الثوريين ، المعبرين عن المصالح الحقيقية للجماهير المضطهدة ، والدوافع الجذرية للعملية التاريخية وتوقعاتها الحقيقية ، ظلوا لغزاً من الألغاز . فلم يكن هناك مذهب واقعي في مركز يمكنه من اخراجهم الى النور ، لأن قوته وضعفه كامنان في التحليل الاجتماعي للواقع ، الذي كان يتغير باستمرار ويفعم دائماً باتجاهات وسمات للتطور خفية وجديدة كل الجدة .

وفي وصف المنجزات النظرية للفكر الاجتماعي في القرن الثامن عشر في تعميم

(١) ماركس وانجلز « المؤلفات المختارة » مجلد ٤ ص ٣٢٩ .

الخبرة والمتطلبات العملية للبرجوازية ، كتب انجلز في مؤلفه : « هوامش على نقد الاقتصاد السياسي » :

« إن القرن الثامن عشر ، قرن الثورة ، هو أيضاً قرن تثوير الاقتصاد • ولكن كما أن كل ثورات هذا القرن كانت أحادية الجانب تغوص في مستنقع الطباق ـ تماماً كما لو وضعنا المادية المجردة مقابل الروحية المجردة ، والجمهورية مقابل الملكية ، والعقد الاجتماعي مقابل الحق المقدس ـ كذلك فان الثـورة الاقتصادية لم تجتز الطباق • وقد ظلت الشروط قوية في كل مكان : المادية لا ترضى بالازدراء المسيحي للانسان ومذلته ، ولم تفعل سوى أن وضعت الطبيعة مكان الاله المسيحي باعتباره المطلق الذي يواجه الانسان • وفي السياسة لم يحلم أحد في اختبار شروط الدولة• ولم يخطر على بال الاقتصـاد أن يسأل عن حقيقة الملكيـة الخاصة • ولذلك فان الاقتصاد الجديد لم يكن إلا في منتصف طريقه فقط • لقد كان مضطراً أن يخون وأن يتنصل من شروطه الخاصة ، أن يلجأ الى السفسطة والنفاق تغطية للتناقضات التي غرق فيها ، بحيث يصل الى النتائج التي دفع إليها لامن قبل شروطه الخاصة بل من قبـل روح القرن الانسانية ••• كل شيء كان عظيماً تماماً ورائعاً ـ ومـع هذا فقد أكدت المقدمات المنطقية ذاتها بصورة كامنة ، وأنتجت مقابل هذه الأخوة الانسانية الزائفة نظريـة السكان المالتوسية ـ وهي أظلم وأكثر نظرية بربرية وجدت ، انهـا نظام من اليأس يعصف بالمقاطع الجميلة عـن حب الجار والمواطنة العالمية • وقد أنتجت هذه الشروط وأقامت نظام المشغل والعبودية الحديثة ، التي لم تقدم جديداً من حيث الظلم واللا انسانية الى العبودية القديمة • ويكشف الاقتصاد الحديث ـ نظام التجارة الحرة القائم على أساس كتاب آدم سميث « **ثروة الأمم** » ـ فاذا هو النفاق والتفكك واللا أخلاقية ذاتها التي تواجهها الانسانية الحرة في كل ميدان »(١) • هذا التحليل لتناقضات الفكر الاجتماعي في القرن الثامن عشر ، يوضح لنا أيضاً لماذا كانت الواقعية عاجزة عن تلبية متطلبات العصر ، ولم تستطع أن « تجتاز الطباق » ، وقد أخرجها من الميدان تدريجياً نمط جديد من الكلاسيكية، التي تمثل محاولة ، عن طريق الأدب والفن ، لحل التناقضات الأساسية المتطورة في الحياة • إن الاتجاه الجديد ، الذي يختلف اختلافاً أساسياً عن النوع الكورنيلي القديم للكلاسيكية ، كان يتمتع بميزة واحدة مشتركة معها ، وهي أنـه كان يمثل الروح المدنية •

---

(١) ماركس : المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام ١٨٤٤ •

لقد نهضت الكلاسيكية كطريقة في الأدب ، في الفترة التي كانت فيها الأقطار الاوروبية قد أسست الدول القومية ، عندما اضطهدت السلطة المركزية الحريات الاقطاعية (وكان هذا ولا شك في صالح البرجوازية) ومن أجل هـذا قامت الايديولوجيا الأساسية للكلاسيكية على أساس مدني ، على مطلقية الواجب الملكي ، الذي كان فوق المصالح الشخصية • وفي عصر الثورة البرجوازية ، اتخذت الكلاسيكية وعبرت عن العواطف والميول المدنية ، وعن اليقظة المدنيـة ، ولكنها الآن جعلت **الواجب الشعبي** هو المطلق وليس الواجب الملكي • لقد كان اليعاقبة ، أشد الثوريين وأعظمهم ، أشد الكلاسيكيين وأعظمهم أيضاً ، وهذا طبيعي ما دامت قضية الواجب المدني والروحية ــ الجماهيرية بالنسبة إليهم قضية حياة أو موت • ومن خـلال الكلاسيكية أيضاً أثبت الوعي الديمقراطي والبرجوازي فهماً لواجب الانسان تجاه المجتمع في الظروف الجديدة التي خلقتها الأزمة الثورية •

لقد كان لسنغ وديدرو ، وحتى روسـو ، يميلون بتعاطف الى الكلاسيكية الثورية بسبب مضمونها الاجتماعي ، لأن الديمقراطيين الثوريين رسموا خطاً فاصلاً بين المصالح الاجتماعية (من حيث المبدأ : مصالح الشعب ككل) والمصالح الأنانية الاستبدادية الشخصية • إن الايديولوجيا البرجوازية المعتدلة للطبقة الثالثة المتسمة بـ «الحذر الجبان» ــ حسب تعبير ماركس ــ اعتبرت الكلاسيكية ، أولاً وقبل كل شيء ، وسيلة مساومة مع الواقع ، مع أن نظريي الكلاسيكية البرجوازية آكدوا أيضاً على مبدأ الحرية ، باعتبـاره الشرط السابق لكل تقدم بشري • إن ونكلمان ، الذي سعى حثيثاً للارتقاء بدراسـة الفن العريق ، قد أعلن في كتابه (Geschichte der Kunst des Altertums) ملاحظـة هامـة في تطـور الفكر الاجتماعي للقرن الثامن عشر « الهدوء هو أعظم صفة من صفات الجمال » ، تعبر من خـلال النظرية الجمالية عن المطالب السياسية للبرجوازية المعتدلة ، وتصوغ برنامجاً من أجل تطور الفن الجديد •

لم يرغب ونكلمان أن يربط الفن الجديد مباشرة بالنضال الاجتماعي • كتب : « إن في عقل الكائن المفكر توقاً الى مادة سامية في مملكة الأفكار المجردة » إن هذا التعريف يمكن أن يقال لوصف الايديولوجيا الألمانية ككل مع قابليتها لانجاز الثورات التاريخية العالمية في مملكة الفكر المجرد • إنه يكشف بوضوح عجز مواطني ألمانيا (وليس ألمانيا وحدها) عن الايغال في نقد الواقع بطرائق عملية واقعية ، كنقيض للطرائق النظرية • وفي السنوات التي صاغ فيهـا ونكلمان العقيـدة السياسية

ـ الجمالية للكلاسيكية البرجوازية ، كان « الكائن المفكر » وهو أبعد ما يكون عن استلهام « مملكة الفكر » ، يحاول بطريقة عنيدة أن يجعل المطالب الفكرية للأيديولوجيا تدخل الحياة اليومية • لقد كان ونكلمان من حيث الأساس يصالح نفسه مع الواقع ، ويقدس مصالحته مع الجمالية المحددة المشوبة بروح العراقة •

إن الاتجاهات الكلاسيكية المختلفة ، في القرن الثامن عشر ، مع كل اختلافاتهم الهامة ، كلها قامت من أجل أسباب منطقية تماماً ، على اعتبار أن هذه الاسباب انعكاسات للتغيرات في الوعي الاجتماعي • إن منطق ظهور الاتجاهات الكلاسيكية تمكن رؤيته واضحاً بصورة خاصة في التطور الروحي لغوته وشللر اللذين تمثل أعمالهما تكملة للأبحاث الاجتماعية والجمالية في أدب القرن الثامن عشر الذي يعتبر مرحلة مستقلة في تطور الأدب العالمي •

إن كلاً من غوته ومعاصره الشاب ، مبدعي واقعية القرن الثامن عشر وخير ممثليها ، كان يملك ادراكاً غريباً لجوهر عصره التاريخي • وكان كل واحد منهما يتخذ مواقف ابداعية جديدة عامداً متعمداً ، متحققاً أن الوسائل الواقعية الموجودة القائمة على فهم ناقص لقوانين التطور الاجتماعي ، لم تكن تسمح بحل العقبات التي ظهرت بظهور العلاقات الاجتماعية البرجوازية • وبالعودة الى الكلاسيكية ومحاولة احياء الروح النبيلة المنسجمة للفن القديم ، بشكله الكامل ، والاحساس العظيم بالنسبة الفنية التي فيه ، كان شللر وغوته يحلان بصورة أساسية القضايا الانسانية ذاتها كما طرحاها في مؤلفاتهما السابقة على الكلاسيكية •

وعلى نقيض الكلاسيكية اليعقوبية ، التي أيدت فكرة الثورة في كل شيء ، انطلقت كلاسيكية غوته وشللر من رفض الارهاب كطريقة لغرس العلاقات الاجتماعية الجديدة • ولكن إذا كانت كلاسيكيتهما رد فعل لأحداث الثورة ، فانها بكل بساطة قد انحطت الى اعتذار مبتذل عقيم عن الواقع ، أو الى شكلية محضة تعالج الدوافع المستعارة من العراقة الكلاسيكية ، وبصورة جوهرية العراقة الانتقائية والعقيمة • وكما هو الأمر ، فان كلاسيكيتهما بنيت على نتائج التغيرات الثورية التي فشلت في أن تكون مرشداً في عصر السعادة الانسانية الأصيلة • طبعاً إن غوتز وفرتر وكابال وليب ، رغم احتجاجهم العنيف ضد شواذ العلاقات الاجتماعية ، كان يخالجهم الشك في امكانية تحولهم بواسطة الثورة • إن النظام العالمي الذي أقيم عقب انتصار الثورة الفرنسية ، وعلى الأخص بعد الترميدور* ، لم يكن فقط أبعد من أن يزيل تناقضات

★ الشهر الأخير عن السنة حسب تقويم الثورة الفرنسية ويمتد من ١٩ تموز حتى ١٧ آب •

(المترجم)

المجتمع الطبقي الموروثة فقط ، بل كان يزيدها تفاقماً • وفيما يتعلق بالفن الجميل ـ والأخلاقي أيضاً ـ القائم على النماذج الكلاسيكية التامة كطريقة لتثقيف الانسان وتحطيم الأنانية وتنافر النفس ، كان غوته وشللر يتابعان مبدئياً دعم مثل عصر التنوير ، ناشرين الايمان الانساني الحكيم بفكرة امكانية كمال الطبيعة الانسانية ، وكمال المجتمع • إن كلاسيكيتهما ، على عكس كلاسيكية ونكلمان ، لم تكن تمثل حلاً وسطاً • إنها ، ، وقد اتسمت بشمولية الواجب الأخلاقي الانساني، تمثل بالأحرى محاولة لحل القضايا الاجتماعية والأخلاقية الجديدة بطريقة جديدة، تلك القضايا التي كشفها مجرى التقدم التاريخي ، والتي قامت على أساس منجزات الواقعية • ومع أن أدب القرن الثامن عشر كان يتسم بالتراجع عن الواقعية وولادة الاتجاهات الرومنتيكية وما قبل الرومنتيكية ، فان هذه الاتجاهات كانت عاجزة عن التطور من غير أن تأخذ في حسابها منجزات الواقعية •

لقد كان غوته وشللر واعيين لعقم العبادة الفردية البرجوازية للارادة الذاتية التي كانت تدعو إليها مدرسة العاصفة والاندفاع • لقد وجد كل منهما أنه لايوافق على محاولات معاصريهم الرومانتيكيين وماقبل الرومانتيكيين في ايجاد طرق جديدة تعكس الواقع ، هؤلاء الذين أخذوا يفهمون الحياة على أنها مصنع الأوهام المتشابكة، تهجر عالم الواقع الى عالم الوهم ، ولم يكونا ، على سبيل الافتراض ، مثل نوفاليس في كتابه (Die christenheit Oder Europa) ينويان بعث النظام القديم الذي دمره التاريخ•ولم يكن الوقت قد حان لتحتل الرومانتيكية الثورية مكانهاعلىالمسرح•

وفي نهاية القرن ، كان الأدب الذي عكس نتائج الأزمة الثورية مثل الفكر الفلسفي ، يقوم بمحاولة جدية لفهم ما حدث وما نشأ على ركام الآمال المحطمة والأوهام المبعثرة ، إنها نظرة جديدة وفهم جديد للطبيعة والمجتمع والوعي الانساني•

وبينما كان الاقتصاديون البرجوازيون منهمكين في تبرير التقدم البرجوازي مثبتين حتميته بغبطة واضحة ، وبينما ركز الفلاسفة المثاليون والفلاسفة الطبيعيون همهم على نقد المادية الميكانيكية لعصر الأنوار ، وكانت الرومانتيكية الوليدة ، الواعية بصورة مؤلمة للاختلاف المتعاظم بين الفرد والمجتمع ، عاجزة عن إلقاء أي ضوء على أصل هذا الاختلاف ، في وسط هذه المرحلة المضطربة للغاية ، كانت هناك فكرة تأخذ بالظهور لتثور الفكر ـ **إنها فكرة التطور** • في نهاية القرن ، صيغت مجموعة القضايا الأساسية من قبل هيغل في كتابه الفينومينولوجيا (اثبات الديالكتيك ـ تعريف قانون نفي النفي ،والاهتمام بالتاريخ) لنظرة أخذت تتشكل • وعند هذه

النقطة أخذت عدة نظريات جديدة تتطور ، نظريات اجتماعية تقترح حلاً غير متوقع لمسألة الحرية الانسانية المستعصية ، التي فشل في حلها مفكرو عصر التنوير، نظريات تنطلق من رفض علاقات الملكية الخاصة الرأسمالية ، وتثبت بالوقائع صحة قانون هيغل في نفي النفي . وعلى أطلال النظام الاقطاعي ، ومن ضراوة النظام الرأسمالي ، قامت الاشتراكية الخيالية ، محاولة تطبيق فكرة التطور على التاريخ ، باحثة عن منطق لسريان هذا التطور .

أشار فورييه بحكمة في كتابه « نظرية الحركات الاربع » الذي ظهر بعد عام من ظهور كتاب هيغل الفينومينولوجيا ، الى الحاجة الى عصر جديد من أجل تركيب روحي جديد قائم على أساس اجتماعي وأيديولوجي آخر أكثر من الأيديولوجيا الديمقراطية لعصر الأنوار ، دون الاشارة تماماً الى الاقتصاد السياسي البرجوازي والفلسفة البرجوازية . « بعد كارثة ١٧٩٣ تمزقت كل الأوهام ، فقد كانت العلوم السياسية والأخلاقية في وضع مخز ، وقد فقد الناس الايمان فيها مطلقاً . ولذلك صار الناس يرون أن السعادة لا يمكن أن نتوقعها من أية معرفة مكتسبة ، ذلك أن الرخاء الاقتصادي يجب أن يبحث عنه في بعض العلوم الجديدة والسبل الجديدة التي تمهد للروح السياسية ؛ إذ كان من الواضح أنه لا الفلاسفة ولا منافسوهم يعرفون علاج الآلام الاجتماعية ، وانه تحت غطاء عقائدهما كليهما ستستمر الى الأبد الأمراض المرعبة بما فيها البؤس »(١) . هذه الحاجة الى تركيب وتعميم التجربة الاجتماعية اللذين حصلا في ابان الثورة البرجوازية وبعدها شعر بهما أيضاً هيغل ، الذي أقام صرح نظام فلسفي موسوعي ، وسان سيمون بفكرته الجديدة عن موسوعة جديدة ، وأيضاً المفكر البرجوازي المتحذلق المحدود أوغست كونت ، الذي جعل الجوهر الثوري الاشتراكي عند سان سيمون عقيماً ، مستعيراً من نظريته المظهر الفكري الايجابي فقط .

إن الحاجة الى امتلاك فهم الواقع الاجتماعي الجديد الذي كان يتخذ شكلاً أدى بصورة طبيعية الى اهتمام بالغ بالتاريخ ، الذي كان يبرز الحياة الفكرية لبداية القرن التاسع عشر .

إن عباقرة من أمثال غوته وشللر قد وجهوا اهتمامهم الى التاريخ أيضاً وحاولوا فهم دروس الثورة الفرنسية من خلال أحداثها ونتائجها . إن شللر ،

---

(١) فورييه « المؤلفات الكاملة » ج١ « نظرية الحركات الاربع » الطبعة الرابعة باريس ١٨٤٦ ص ٢ ـ ٣ .

صاحب المؤلفات عن تمرد نايزلاند وحرب الثلاثين عاماً والنضال السياسي في فرنسا في عهد هنري الرابع ، وهي مؤلفات فنان أكثر منها مؤلفات أستاذ مختص ، أدرك أن المحرك الرئيسي المستتر للأفعال والعواطف البشرية كامن في المصالح المادية، أو بكلمات أخرى تبنى الفهم الواقعي في تحليله للأحداث • إن النظرة الواقعية للحياة التي مكنت شللر من التحليق فوق نظريات الكلاسيكية ومبادئها ، هي ذاتها التي تظهر في كتابه « الحب والمكيدة » • في مسرحياته المتأخرة ؛ في ثلاثية ولنشتاين وماري ستيوارت ، وعلى الأخص في وليم تل ، يخضع كل عمله لهذا المبدأ • إن شللر لم يرجع الى التاريخ فقط بحثاً عن موضوعات وأشكال عظيمة من أجل الدراما والتراجيديا • لقد اعتبر التاريخ نضالاً بين المبادىء الأخلاقية المختلفة ، وكانت تلك الدراسة للتاريخ هي التي دفعته الى الاعتقاد بفكرة حكم الشعب في سنواته الأخيرة مع أنه كان قد رفض من قبل الطريقة اليعقوبية في تحويل المجتمع •

لقد ظهرت سمات الطوباوية أيضاً في نظرته بصورة واضحة ، لأن الأساس الموضوعي للتغيرات التاريخية بقي سراً بالنسبة إليه ، سراً كان سيحله في المستقبل العاجل الفكر الاجتماعي والفن والأدب ، حالما تصبح تناقضات النظام الرأسمالي واضحة •

إن شللر في كتابه « رسائل حول التربية الجمالية » ، حيث يعبر عن أمله الكبير في قدرة الفن على تغيير الانسان ، وبالتالي المجتمع ، وفي تراجيدياته الأخيرة ، تمسك بالقانون الجمالي لكلاسيكيته ، مبالغاً في قدرة جوهر الانسان الاخلاقي الداخلي دون أن يولي سوى اهتمام قليل لدراسة وتحليل العوامل الكامنة الواقعية للعملية التاريخية • ولذلك فان تدخلات القدر في حظوظ أبطاله ليس الا الضرورة التاريخية الخفية المشروطة التي فشل المؤلف في فهمها (ولنشتاين) • وتصويره العواطف الشخصية والأفكار والشعور يدخل في خلفية البيئة التي تتحرك فيها الشخصية وتعمل « خلفية فالستافية »(١) يمكن أن تنقل الكمال الواقعي الى بنية تراجيدياته • وشللر يجْنف عادة عن الموضوعية ، فيجعل بطله حامل أفكاره ، ويلجأ الى التمجيد وشيء من البلاغة المجردة • كل سمات دراما شللر هذه لها شرح تاريخي منطقي ، وتضيف شهادة الى الواقعة التي تقول إنه كان باستمرار يتطور كفنان ، باذلاً جهده لتجسيد الواقع الجديد في صور فنية ، هذا الواقع الذي لا يمكن أن يستوعب ويقدم في شكل ألفاظ الا بواسطة الواقعية ، وليس بتلك الكلاسيكية

(١) فالستاف من شخصيات شكسبير (المترجم)

المنبعثة التي أعلن الشاعر مراراً انتماءه إليها • وعلى كل حال ، فان مسرحيات شللر الأخيرة تشمل حباً طافحاً للانسان ، للشخصيات الجذابة ، وملأى ، بصورة ملحوظة ، بتقديم دقيق للعالم الداخلي للشخصيات ، والصراعات الأصيلة الكثيفة بصورة فائقة • وأهم من كل ماسبق أن شللر اقترب من التحقق أن النتيجة العملية للثورة الفرنسية ، النظام الجديد الذي وطد نفسه مكان العالم القديم الذي دمرته الثورة ، هي أن هذا النظام ليس النتيجة النهائية للتطور الاجتماعي ، وأن التاريخ كان عملية في مجرى تتنحى فيه الطرق القديمة للحياة والأشكال الاجتماعية القديمة وتخلي مكانها لطرق وأشكال جديدة • إن فكرة حكم الشعب التي وصل إليها شللر ، في « وليم تل » ، بعد تغلبه على مخاوفه البرجوازية من التمرد الشعبي ، تظهر أنه تحقق من أن المستقبل وحده فقط سيكون قادراً على حل تناقضات عصره المستعصية •

إذا كان شللر قد رجع الى التاريخ ليفهم معنى الثورة الاجتماعية التي يشاهدها ، فان مؤلفات غوته وتطوره الروحي عكست جوهر العصر بصورة أكثر مباشرة الى حد ما • لقد قدم شللر في كتابه **(في الشعر الساذج والشعر العاطفي)** تحديداً قاطعاً للسمة الرئيسية لعبقرية غوته الأصيلة ، التي عبر عنها بصورة عفوية في فهمه الواقعي القوي للحياة • لقد أبدى غوته استياءه من شتى أشكال الذاتية في الفن والفلسفة وغالباً ما عبر عن احتقاره لها • وقدر موضوعية العالم والطبيعة فوق كل شيء آخر ، وشعر باستمرار بنبض الوجود الحيوي : فضل التركيب السبينوزي للحتمية على محاولات الفلسفة الطبيعية المعاصرة لاستخلاص قوانين الطبيعة من الفكر البشري ، بعيداً عن الطبيعة • وقد اعتبر غوته **التطور** سمة طبيعية للطبيعة ، ووسع هذا المفهوم حتى شمل التاريخ ، مستخدماً ومطبقاً آراء هردر في كتابه « أفكار في فلسفة تاريخ الجنس البشري » •

وشارك كتاب « محاولة لتفسير تحول النباتات » الذي يشبه مؤلفات جيو فروي سانت هيلير ، في فكرة التطور ، وتعم في « فاوست » تلك الترنيمة الجريئة المنتصرة الداعية الى الفكر البشري الخلاق البناء ، فكرة التطور ، فكرة الحركة الدائبة للحياة ، المتغيرة باستمرار •

كان غوته يرى دائماً أن الانسان مثل طفل الطبيعة الدفاقة الدائمة التغير ، مثل ورقة في شجرة الأبدية الدائمة الاخضرار • وبينما يثير فاوست روح الأرض ويعرف قوتها ، يشعر في الوقت نفسه أنه هو نفسه جزء من الكون ، الذي من أجل معرفته كرس كل قواه العقلية •

ولكن إذا كانت موضوعية الطبيعة وقوانينها واضحة لغوته واذا كان قادراً على استيعاب السمات الحسية لتطور الكائن الحي (يكفي أن نتذكر اكتشافه لعظم الفك الوسطي) ، إذا وافقنا على قول الشاعر الروسي : « كتاب النجوم تجلى له ، وموجة الملح حادثته » فان فكرة التطور التي كانت جزءاً عضوياً من كتاب غوته Weltanschanung ، لم تستلزم معاينة حقيقية في مؤلفاته الأخيرة عندما طبقها في الميدان الاجتماعي ، الميدان الذي يسود تاريخ الأحياء • إن غوته الذي حذا حذو هردر فوافق على أن التاريخ ، مثل الطبيعة ، يعمل حسب قوانين معينة ، كان عاجزاً عن اكتشاف القوى التي تحدد العلاقات الانسانية الاجتماعية • لقد وضع الزمن أصفاداً حتى على عقله الذي لا يُقهر •

وعلى الرغم من الاختلافات المبدئية بين الكاتبين العظيمين ، نجد ثمة تشابهاً واضحاً في تقديم التاريخ ، وهذا يعزى الى الظروف الاجتماعية الواحدة التي نضج فيها فنهما • وإذ يسير ولنشتاين بصورة محتومة نحو مصيره ، فان مصير التعاسة حل على نظيره أغمون الذي يرمي نفسه بعاطفة وغبطة مماثلتين في الملذات الحسية والنضال الاجتماعي • وحين صور غوته أغمون مساهماً فعالاً في حركة التحرر الوطني ، ركز اهتمامه على العماء السياسي المثالي لبطله ، على التقدم الحتمي نحو نطع الجلاد ، أكثر من تركيزه على الصراع بين القوى الاجتماعية ، التي تدنت الى الخلفية • ولم يكن هذا محض صدفة : فقد جعل غوته تحليل العالم الروحي لبطله التراجيدي يحل محل ديالكتيك التناقضات التاريخية للمنشأ الطبقي الذي حدد سلوك أغمون باعتباره نموذجاً تاريخياً ، وهكذا تبدو القدرية ، التحديد المسبق للقضاء ، تماماً كما في ثلاثية شللر ، دليلاً على جهل الشاعر لطبيعة الضرورة التاريخية •

إن غوته ، مثل شللر ، لم يرحب بالثورة الفرنسية واندفع بالاتجاه المعاكس ليعارض العواطف السياسية الهوجاء المتأججة في فرنسا ليؤيد الوجود البرجوازي المعتدل والمحدود والنظامي ويطريه ويجعله مثالياً في مقاطع شعرية جميلة في هيرمان ودوروته • ومرة أخرى مثل شللر أيضاً ، قد فهم تماماً أن نتائج الثورة لا تمثل المرحلة النهائية في التطور التاريخي للبشرية •

واتبع غوته ، في سنيه الأخيرة ، نجاحات الفكر الاجتماعي والسياسي والجمالي المعاصر • وفي الفترة التي أعقبت ثورة ١٧٨٩ ، الفترة المليئة بأحداث هامة وخطيرة ، استطاع غوته أن يلاحظ الكثير مما كان مجهولاً بالنسبة للقرن الثامن

عشر ، وأخذت العناصر الطوباوية تبرز بصورة واضحة أكثر فأكثر في نظرته ومؤلفاته الأدبية ·

كانت فكرة التربية كوسيلة لخلق الفرد المنسجم أولاً ثم المجتمع المنسجم ثانياً تسم بطابعها كلاسيكية فيمار أيضاً ، وتشكل محور وليم ميستر · بيد أن العصر الجديد كان قد أدخل عناصر جديدة في البرنامج الايجابي لاتمام العلاقات الاجتماعية المعروضة في القصة · إن موضوع الجزء الثاني ، تجوال وليم ميستر ، يفصح عن تشابه واضح للأفكار العملية من أجل اعادة تنظيم المجتمع الذي قام بالدعاية له فورييه وسان سيمون · كانت أفكار غوته ترجع خاصة الى الأفكار التي اتخذت تعبيرها النهائي في أطروحة سان سيمون « آراء أدبية وفلسفية وصناعية » متضمنة المقطع المشهور : « سيأتي العصر الذهبي الذي سيكون فيه التقليد الأعمى محصوراً في الماضي» ·

كتب سان سيمون : « سيقوم الآن فلاسفة القرن التاسع عشر بمهمتهم التي تختلف اختلافاً كلياً عن تلك التي حققها فلاسفة القرن الثامن عشر ·

« سوف يتحد فلاسفة القرن التاسع عشر ليعرضوا تماماً وباستيعاب أنه في الحالة الراهنة للمعرفة والحضارة يمكن للمبادىء العلمية والصناعية أن تستخدم كأساس للتنظيم الاجتماعي ، أو تظهر أنه في الحالة الراهنة للمعرفة والحضارة يمكن تنظيم المجتمع بطريقة تجعله يميل مباشرة نحو تحسين رفاهه المادي والأخلاقي ·

« لقد أوجد فلاسفة القرن الثامن عشر الانسيكلوبيديا ليدحضوا النظام اللاهوتي والاقطاعي · وسوف يوجد فلاسفة القرن التاسع عشر بدورهم انسيكلوبيديتهم لاقامة النظام العلمي والصناعي ·

« وهناك سوف تخضع كل الأفكار للتحليل بغية اثبات أن الرفاه العام سوف يكون النتيجة الضرورية للتأثير الذي تمارسه المبادىء الصناعية والعلمية بدلاً من التأثير الذي مارسته في المجتمع حتى الآن المبادىء اللاهوتية والاقطاعية »(١) ·

وفي حين تنبأ غوته في كتابه « تجوال وليم ميستر » بالدور الجبار الذي ستلعبه الصناعة في حياة البشرية ، وافق على إقامة قسم كبير من الفراغ وانعكاسات تنظيم الصناعة على نوع من الأساس التعاوني · وأولى أهمية مماثلة للعمل التعاوني في الأرض ، وجعلها ملكاً للجميع · وكان العمل بالنسبة لغوته لا ينفصل عن مشكلة

(١) سان سيمون · آراء أدبية وفلسفية وصناعية · باريس ١٨٢٥ ص ٨٣ ـ ٨٤ ·

التربية واعداد الانســان للنشاط الاجتماعي الفعال • « عالم التربية » ، تلك الطوباوية الاجتماعية التربوية ، مثل النظام العام لتنظيم الحياة الذي جاء وصفه في القصة ، يستخدم طرفاً واحداً ـ المستقبل ، تأكيد ودعاية لنظام أكثر عقلانيـة للعلاقات الاجتماعية من ذلك الذي نجم عن الثورة الفرنسية •

وفي فلسفة فاوست أيضاً نجد عنصراً طوباوياً • إن المرتكز الروحي للتراجيديا هو ولا شك منظر الكفارة ، منظر انتصار فاوست على مفيستوفيلس ، حين انقلبت رغبة فاوست الجامحة في المعرفة إلى خيرٍ للآخرين ، وحين أخذ على عاتقه ، وقد أتم دورة وجوده الأرضي وخبر كل المباهج والأحزان البشرية ، التعهد باعادة خلق كل الأرض ، وفي العمل باسم السعادة والحرية الانسانية يجد السعادة لنفسه ويحقق دورة وجوده الأرضي وخبر كل المباهج والأحزان البشرية ، التعهد باعادة خلق كل هذا المشهد حيث غبطة الانسان المبدع ، لدى اكتشافه معنى الحياة في العمل المثمر، والرغبة العارمة تملأ أجواز الفضاء ، ويتلاشى صوت جرس الأرض في الضريح الذي يقوم أتباع مفيستوفيلس المخلصون بحفره لفاوست • إن التفاؤلية التاريخية في المناجاة الأخيرة حيث يقول :

يستحق الحياة والحرية

فقط أولئك الذين يحاربون من أجلهما كل يوم

تثير جواً تراجيديا قاتماً للمشهد ، ولكنها ليست الصعوبة الحقيقية في تحقيق المثل الأعلى المحرية الذي مجده غوته في فاوست •

وقد فهم الشاعر العظيم ، إذ قبل فكرة التطور باعتبارها حتمية شرعية بصورة تاريخية ، أن التقدم الاجتماعي الضخم الذي واكب الثورة لن يكتمل ، لأن الثورة تستدعي أيضاً قوى تحد من تقدم البشرية نحو العلاقات الاجتماعية العقلية • لقد رأى غوته أن الأنانية والرغائب الفردية تلتهم المثل الانساني الأعلى للسعادة العامة وتمنعها من أن تمد جذرها في تربة الحياة ، التي حرثتها الثورة ، وسوف تروى بالدم البشري في الحروب الأوروبية التي تلت • ولكنه لم يكشف الأسـباب الحقيقية للأنانية الاجتماعية ولا القوى المحركة للعملية التاريخية ، وهكذا بينما يتطور باتجاه الاشتراكية الطوباوية كان يتفق في الرأي دائماً معها في كل شيء •

طبق فورييه وسان سيمون فكرة التطور على التاريخ واقتربا من النتيجة أن

القوة المحركة في العملية التاريخية كانت الصراع الطبقي • إن سان سيمون على الرغم من مصلحته في نظريته عن المسيحية الجديدة ، شرع يتحدث في أواخر حياته باسم « الطبقة الدنيا » ، القوة ألتي تشكلت في أعماق المجتمع البرجوازي ، أي باسم البروليتاريا • إن التنظيم الاجتماعي الذي سوف يحل حسب رأيه محل الحضارة الأنانيـة التي قامت على انقاض النظام الاقطاعي ، سـوف يعزز « تزايد رفاه البروليتاريين »(١) • و لايزال سان سيمون ، مثل فورييه وروبرت أوين ، يحمل أوهاماً حول طرق ووسائل تنظيم المجتمع ، ولكنه سبق وتحدث بايمان تام عن قدرة البروليتاريا على المساهمة في حكومة « نظام الرفاه الاجتماعي » وتنظيمه ، ولذلك أظهر حذاقة تاريخية وتنبؤاً مسبقاً • إن الجمع بين فكرة التطور ونظرية الصراع الطبقي واكتشـاف قوانين التاريخ التي تتحكم بالعلاقات الاجتماعية قاد الى ظهور الاشتراكية العلمية ، التي أحدثت ثورة كبرى في الفكر البشري والحياة الاجتماعية• ولكن هذا الاكتشاف ذا الأهمية التاريخية العالمية كان قد جرى مؤخراً ، وفي السنوات المبكرة من القرن التاسع عشر كان الفكر الاجتماعي التقدمي قد بدأ بالتعرف على الواقع الجديد ، بحيث أن من الطبيعي جداً أن نجد سان سيمون ، الذي تابع تقليد مفكري القرن الثامن عشر المشهورين أمثال مورلي ومابلي ،وتابع تقليد كراشوس بابوف باعتباره أقرب أسلافه اليه ، قد قطع أشواطاً أبعد منغوته في آرائهالتاريخية• إن الخط الفاصل بين آراء غوته الديمقراطية والانسانية والنظريات الاشتراكيـة للطوباويين ، ظهر بسبب بسيط هو أن Weltanschanung الذي ألفـه الشاعر العظيم قد تشكل في قطر متخلف مع برجوازية جبانة مساومة ، تلك التي أظهرت أكثر من « تحذير جبان » تجاه الثورة • ورغم أن غوته كان عبقرياً إلا أنه كان سليل الطبقة المتوسطة الألمانية ، وهذا يعني أنها تترك شارتها في موقفه من التاريخ •

إن تطور آراء غوته الاجتماعية في الجزء الأخير من حياته ، استلزم تغيرات مقابلة في مبادئه الجمالية الأساسية • وأخذت العناصر الكلاسيكية في عمله تتقلص فقد غدا يبحث بامعان أكثر فأكثر عن طرق ووسائل فنية جديدة لتقديم « الطريقة الصلبة الشاملة » • لقد اغتنى وليم ميستر من حيث التجربة سواء من جهة المضمون الروحي الداخلي ، أم من جهـة الطريقة التي يعبر بها • وكانت صور الحيـاة وطرائقها تتغير واقعياً بتغير المشاهد الرومانسية التي كان غوته يسمح لها بالتسلل الى قصته ، وغالباً دون قصد ، رغم موقفه من الرومانسية ، بينما يمثـل الجزء

(١) المرجع السابق ١٥٨ ـ ١٥٩ •

الأخير حقاً أطروحة فلسفية اجتماعية • لقد كان غوته يبحث عن اصطلاح أدبي جديد يمكنه من التعبير عن الأفكار التي وصل إليها ويحمل سمتها التاريخية الموضوعية • ولكن جهله بالأسباب التي تحدد « الطريقة الصلبة الشاملة » حال دون تجسيد هذه الأفكار تجسيداً واقعياً •

إن الكتاب الذي يتوج أعمال غوته الأدبية هو مأساة الدكتور فاوست الذي باع نفسه للشيطان في سبيل معرفة كنه الأشياء وبعد معاناة طويلة وآلام مريرة من جراء البحث الشخصي الفردي عن معنى الحياة لتقدير قيمة الصالح العام وخدمة الأصدقاء ، كان كتاباً توفيقياً في الشكل • إن أسطورة الساحر والعرّاف ، التي عليها قامت عقدة التراجيديا ، هـذه الاسطورة الشعبية قدمت لوناً تاريخياً لماضي ألمانيا السحيق ، ووردت في شعر هانس ساخس ، وقد أدخل موضوع الفتاة العذراء الدراماتيكي ، هذه الفتاة المغوية التي انقلبت الى قاتلة أطفال ، تياراً فولكلورياً في التراجيديا ، وتتوازى اللغة المجازية الظليلة للميثولوجيا الشمالية مع عناصر من الميثولوجيا القديمة متلائمة ومتطورة في شيء من التعقيد ؛ إن الروعة الباروكيـة لمشاهد البلاط اجتمعت مع الصرامة الكلاسيكية لموضوع هيلين ، إن العرض الشعري لنظريات العلوم الطبيعية لم يحل دون تضمين التراجيديا وقار الخاتمة الطقوسية ؛ إن مجاز مشاهد ولبورجنخت متداخل تماماً مـع الرموز الرفيعة ، والعمل كله ، مع غناه بالعناصر الفنية وتعقيده يذكرنا ببناء المسرحيات الدينية القديمة ومرتبط بمسرح الدمى ، أي بالتقليد الفولكلوري ، بالحكايات والأساطير الفولكلورية • لقد خلق غوته عالماً خيالياً غريباً ملوناً ، والفضل في كماله يعود الى الوحدة بين المضمون وطريقة الأداء • ومادام القدر الشخصي للبطل يمثل قدر البشرية كلها في بحثها عن الصراط المستقيم في الحياة والتاريخ لاكتشاف أسرار الكون والدعوة ، حسب رأي غوته ، الى تذليل العقبات الجمة في طريقه التاريخية وتقديم أساس عقلي للحياة ، فان فاوست وخصمه مفيستوفيلس ليسا غير رمزيين • إن الرمزية (وعادة تكون سديمية للغاية) والمجاز يتصلان أيضاً بشخصيات أخرى في التراجيديا •

إن من طبيعة الصـورة الفنية أن تخضع لتفسـيرات مختلفة (بما في ذلك التفسيرات الرمزية) لأن الفن لا يعكس الواقع بدقة المرآة ، إلا إذا كان نسخة واضحة تماماً عن دنيا الأشياء والظواهر • وحتى هـذا لا يقدر عليه لأن الذهن البشري لا يعكس الواقع الموضوع مثل مرآة سلبية • يمكن أن توجد هناك مبادىء شتى تخضع لها الصورة الفنية : يمكن أن تقوم على التآزر أو التشابه أو المقارنة ، يمكن أن

تكون صارمة أو خيالية أو كاريكاتورية ؛ ويمكن أن تكون مجازية ، وتشكيلية ذات أبعاد ثلاثة ، وحرفية وشكلية ، في الوقت نفسه ، ولكن مهما كانت بنيتها وسماتها السائدة ـ العقلية والعاطفية ـ فانها تقوم دائماً على طريقة خاصة في فهم الواقع اعتماداً على الطبيعة الاجتماعية لنظرة الكاتب ٠

لقد بدأ علم جمال المدرسة الطبيعية بالظهور في أواسط القرن التاسع عشر عندما أخذت تغيرات عميقة تحدث في الوعي الاجتماعي البرجوازي القائم على الفهم التجريبي للواقع ، الذي اعتبره منظرو الطبيعية وشراحها مقولة ثابتة لا تخضع للتطور ٠ وتبنت الطبيعية مبدأ نسخ الواقع وتصوير الصور التي لا يمكن تعميمها تصويراً فوتوغرافياً لتعبر عن جوهر الاشياء ٠ وهكذا لم يفقر علم جمال المذهب الطبيعي الفن والأدب فقط بل قلل من القيمة المعرفية للصورة ، وبذلك قلل من القيمة المعرفية للفن نفسه ٠

إن الواقعية ، خلافاً للاتجاهات الأخرى ، تستخدم استخداماً جيداً كل امكانيات التفكير على شكل صور ، التي تساعد في التعبير عن جوهر الموضوع المطروح ٠ إن الواقعية تتمثل كل المبادىء القيمة في خلق الصورة ، وتكشف مزايا وسمات الواقع ٠ وبهذا المعنى فان الصورة الواقعية تجسد الواقع تجسيداً موضوعياً وهي مساوية له بحسب طبيعتها ٠ إن الواقعية تنقل جوهر الأشياء وليس مظهرها السطحي كما تفعل الطبيعية ولذا فان علم جمالها غني حقاً ومتنوع ٠ إن القوة الملحمية لتصور تولستوي الذي يعيد خلق النسيج المادي المحسوس للوجود ، هي نموذج للواقعية مثل تصور ستندال العقلي والثقافي المنصاع له ؛ والتصور الانفعالي العاطفي العصبي لقصص دوستويفسكي قدمت أيضاً صورة واقعية لحياة عصره ، تماماً كما قدم نثر تشيخوف الموجز الدقيق بايقاعاته المعقدة التي تحمل أعمق تيارات الأحداث ٠ لقد استخدم سالنيكوف شيدرن ، الساخر الروسي ، الرمزية والتشويش الخيالي في نقده المرير للبنية الاجتماعية لمجتمع روسيا الاقطاعي ـ الرأسمالي ٠ إن كتابه « تاريخ مدينة غلوبوف » ، مع أنه يتجنب التبسيط والمجاز التعليمي ، مليء بالرمزية ، وشخصياته أيضاً رمزية هي الأخرى ٠ ولكن تقديمه الرمزي لموظفي المدينة ، وهو بعيد عن أن يختلف عن الواقعية ، ينبع تماماً من التقليد الواقعي ، لأن المؤلف يجسد في تلك الشخصيات السمات التاريخية الحسية والنموذجية للواقع الاجتماعي ٠ وخلف السطح الوهمي لسخرية شيدرن يكمن واقع الحياة الروسية شبه الاقطاعية ، ورؤيا

الكاتب لطريق المستقبل والمصير المحتوم للنظام القائم • لقد لجأ شيدرن الى الرمزية باعتبارها أفضل وسيلة وجدها لتقديم السمات العامة للنظام الاجتماعي بصورة نموذجية •

إن الاتجاهات الذاتية التي نشأت في بداية هذا القرن كان ينقصها النظرة الشاملة للحياة فتطرفت أكثر من الطبيعية فيما يتعلق بتحطيم الوظيفة المعرفية للصورة • فالسيرياليون ، مثلاً ، حطموا الرابط بين الصورة والواقع وعالجوا الصورة وكأنها شكل ليس له مضمون موضوعي ، واستخدموها كأداة نقل لمشاعرهم وعواطفهم المشوشة ، وتداعي المعاني والاحاسيس التي تنشأ في نفس الشاعر ، والتي يفترضون أنها مستقلة عن العالم الخارجي غير عابئة بمنطقه • ويبدو نظريو السيريالية (أندريه بريتون وأصحابه) وكأنهم غير عابئين بحقيقة أن الروح « الغامضة » للشاعر والعواطف التي تعبر عنها قد تشربت تشويش العالم الخارجي• إن الرمزيين ، أولئك الذين كان جوهر الواقع معتماً وغامضاً بالنسبة اليهم ، قدموا مفهومهم عن الواقع بغموض وبأوهام واهية • لقد عرف فياشسلاف ايفانوف ، أحد النظريين الرواد وشراح الرمزية ، طبيعة التصور الرمزي على النحو التالي : « لا يكون الرمز حقيقياً إلا عندما يكون محدداً ومفهوماً في معناه ، عندما يعبر بلغته السرية (الموروثة والسحرية) عن الوهم ويقترح شيئاً ثابتاً وطيداً ، أي إنه ليس مساوياً للكلمات الخارجية • إنه قابل للتأويل المتعدد وهو معتم دائماً في أعماقه السحيقة • إنه تشكيل عضوي ، مثل الكريستال • إنه موناد (ذرة) ولهذا فانه يختلف عن الانشاء المركب في الاستعارة والأمثال والتشبيه • الاستعارة تعليم بينما الرمز إشارة »(١) • إن فياشسلاف ايفانوف وبقية الرمزيين (ميترلنك وهوفمانستال وبيلي) أقاموا حداً عسير العبور بين الأدب والواقع ، رافضين فهم الواقع ومعلنين أن الرمز وحده وسيلة التعبير عن جوهر الحياة • لقد أسندوا ، بتبنيهم نظرة حدسية ، الى الأدب الدور البائس لعراف الأسرار المقدسة المنتشرة في الكون عن طريق قوة عليا فائقة أسموها ، كما أملاها ذوقهم ، ونزعتهم الشخصية ، وكما قرؤوا في الأدب الفلسفي واللاهوتي بالروح الكونية أو الارادة أو الحافز الحياتي ، أو الموت أو شيء ما أكثر وضوحاً هو ـ المبدأ المقدس •

ليست الرمزية في فاوست سوى نتاج الخيال الشعري : إنها نتيجة فهم ناقص للأشكال الحسية للعملية التاريخية ، ولأسسها وأسبابها الجذرية • وقد تجلى التجريد

(١) فياشسلاف ايفانوف : من نجم الى نجم ١٩٠٩ ص ٣٩ (بالروسية) •

الفلسفي والمجاز والرمز في تراجيديا غوته في الأماكن التي لم يكن قادراً على نقل جوهر الحياة الحقيقية الجمالية الى إنعكاساته عن المصير التاريخي للانسان والمجتمع البشري· ولكن غوته ، مثل بطله ، طمح في تخطي الجهل الى المعرفة ، الى ادراك معنى التطور الاجتماعي للانسان والهدف منه · وغوته ، مثل كل المفكرين التقدميين في زمنه ، اقترب من الاستنتاج القائل إن العصر الذهبي ليس في الماضي بل في المستقبل · ان المثل الأعلى النبيل للبشرية الذي يحقق في يوم من الأيام سعادة أرضية والذي أضاء جوانب كتابه الأخير ، هذا الكتاب العظيم ، والذي نجد فيه التناقض بين فكرة الحرية وطرق تحقيقها ، ومع أنه تناقض لم يحل ، كان على الأقل عملية تأخذ بالتصاعد · لقد كانت هذه الفكرة فعّالة للغاية ، تضرب بجذورها في أعماق تربة الحياة ، وتلبي المطاليب القائلة إن التاريخ منتوج في قلب الجماهير الشعبية ، هذه الجماهير التي كان تغير شكل الاستغلال ، وهو النتيجة الرئيسية للثورة البرجوازية، يعني بالنسبة إليها بداية مرحلة جديدة في النضال من أجل التحرر · إن تراجيديا غوته تتوج فترة كاملة في تطور الفن والأدب العالميين ، مؤكدة أن حل المسائل التي نجمت عن الثورة البرجوازية ، يجب أن نبحث عنه في التاريخ نفسه ·

إن ما حدث هو بالضبط ما يلي : مع تفاقم تناقضات المجتمع البرجوازي التي برزت في الساعات الأولى لانتصاره على الاقطاعية ، أصبح التاريخ بالضرورة موضوع ادراك الأدب والفن والتحري عنهما ·

★ ★ ★

في المكتبات

قصص من الأدب الفارسي المعاصر

■ أبو الفتح محمد أديب عزت ■

« ٩ نيسان ١٩٥١ » ٠٠ وكالات الأنباء :

اقتحم البوليس الفرنسي شقة واقعة في شارع « سان ميشال » ، في باريس ، بعد أن أخبر الجيران البوليس بتصاعد رائحة جثة بشرية متعفنة ، ووجد البوليس في الشقة جثة رجل ، وأثبتت التحقيقات أن الرجل قد انتحر بالغاز ، وأنه ليست في الأمر أية جريمة ، كما أثبتت تحقيقات البوليس الفرنسي أن الرجل المنتحر هو الكاتب الايراني المعروف « صادق هدايت » ، وقد تم دفن الكاتب المذكور في مقبرة الأب لاشيز في « باريس » ٠٠

و ٠٠ بهذا النبأ الذي أوردته وكالات الأنباء ، تم إلقاء الستار على حياة حافلة بالعطاءات وبالعذاب عاشها الكاتب والقاص الايراني « صادق هدايت » ، الذي يعتبر أحد كبار الكتاب العالميين الذين سخروا أدبهم ووضعوا كل طاقاتهم في خدمة شرفاء الناس من مناضلين وطليعيين وعمال وكادحين وفلاحين فقراء « في أوطانهم وفي شتى أقطار العالم » ٠

وقد خصص الكاتب والباحث والمؤرخ الفرنسي « أندريه روسو » فصلاً كاملاً وخاصاً بأدب « صادق هدايت » في كتابه المعروف : « أدب القرن العشرين » ـ المجلد الخامس ، كما أصدر الكاتب الفرنسي « فنسان مونتييه » كتاباً عنه بعنوان « صادق هدايت » ، وفي « موسكو » صدر كتاب بالروسية لـ « ت كشلاوا » وتحت عنوان « النثر الفني عند صادق هدايت» ٠٠ كما أن الكاتب الايراني « حسان كمشاد » كتب عنه عدة فصول في رسالته التي قدمها الى جامعة « كمبردج » عام « ١٩٦٦ » عن « النثر الفني في الأدب الايراني المعاصر » ، وقد ترجمت قصص عديدة له إلى اللغات الفرنسية والانكليزية والتشيكية والألمانية والروسية ٠

و ٠٠ أهمية هذا الكاتب الايراني الكبير أنه قد حوّل الأدب الايراني من أدب تهويمات صوفية ورومانسية لاتقدم أي شيء للناس ، ولا تخدم أية قضية، أو تضييء أية فكرة إلى أدب إشتراكي، أدب في خدمة الناس وقضاياهم ومعاناتهم وتطلعاتهم ٠٠

وقد صدرت مؤخراً في جمهورية مصر العربية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب مجموعة مختارة من الأعمال القصصية لهذا الكاتب الايراني ، وعنوان المجموعة « قصص من الأدب الفارسي المعاصر » ، وقد ترجم القصص ودرسها ، ودرس حياة الكاتب « د٠ إبراهيم الدسوقي شتا » وراجعها « محمد رشاد إسماعيل زادة » وقدم لها : د٠ يحيى الخشاب عميد كلية الآداب في جامعة القاهرة ورئيس قسم اللغات الشرقية فيها سابقاً ٠٠

و ٠٠ في مقدمته لهذه المختارات ــ القصص يقول د٠ خشاب ، بعد أن يتحدث عن نشأة الكاتب البرجوازية في أسرة إيرانية عريقة :

« وقد ذهب الشاب الى أوروبا ليتم تعليمه العالي في الهندسة ، ولكن الميل الأدبي يصرفه عن الهندسة ويجعله يتبحر في الثقافة الفرنسية ، ثم ينصرف الى الأدب ويعيش فترة من حياته في « باريس » في الثلاثينات ، حيث كانت باريس تحوي خلايا الشباب الأذكياء الشرقيين ، ولأن هدايت يرفض أسرته وبرجوازيتها ، فانه يضطر الى ترك باريس ليعمل في طهران ٠٠ فلم تكن موارده تسمح له بأن يظل في باريس ولم يكن له من المؤهلات الجامعية ما يتيح له حياة يرضاها في باريس فيعود الى طهران وقلة من المثقفين يتحدثون عن العدالة الاجتماعية ويناضلون من أجلها ٠٠ ولكنه يترك طهران بعد فترة ويعود الى باريس ثم يسافر الى موسكو، ويظل في أذربيجان ثلاثة أشهر ٠٠ ولم يكن هدايت يتكسب من كتاباته ، بل كان يكتب للذين يستطيعون أن يبثوا رسالته بين الشعب ، وكان أصدقاؤه يعرفون عنه ذلك ، ولم يكد « هدايت » يموت حتى قام أصدقاؤه ودور النشر بطبع عشرات الألوف من مجموعاته القصصية واذا بالاقبال عليها يجعل من إسمه علماً من أعلام الأدب الايراني الحديث ، ويقبل المستشرقون على كتاباته فيترجمونها الى اللغات الأوروبية المختلفة ، ويكتبون عنه ، ويصبح « هدايت » الذي كتب للشعب الايراني واحداً من كتّاب الانسانية الذين يعتز بهم الأدب الرفيع ، ويصبح قراؤه في كل مكان٠

وفي مقدمة الترجمة الروسية لمنتخبات آثار « صادق هدايت » التي ترجمها كميسروف وروزن فيلد يقول صادق هدايت عن نفسه :

مهما يكن فليس في تاريخ حياتي ما يلفت النظر : لم يحدث فيها ماهو جدير بالانتباه ليس لي منصب هام ،

ولا أنا من حملة الشهادات العظيمة ، لم أكن أبداً طالباً بارزاً على عكس ذلك كان نصيبي دائماً هو عدم التوفيق ، ومهما كنت أعمل كنت أبقى خاملاً ورؤسائي غير راضين عني ، ربما لو استقلت لرضوا » ٠

ويقول «مجتبى منيوى» بشأن الأصول الفكرية لهدايت وجماعته الأدبية :

كنا نكافح باصرار ونجاهد من أجل الحصول على حريتنا ، وكان هدايت هو مركز دائرتنا ، كما أن الكاتب الايراني « برزج علوى » يضيء في مقال لـــه جانباً آخر من جوانب حياة هذا الكاتب الذي بلغ به التواضع أن يقول «فليس في تاريخ حياتي ما يلفت النظر »٠٠ يقــول « برزج علوى » : كان هدايت رجل مقاومة ومبارزة ، ويعلم أصدقاؤه المقربون ، أنــه في أيام الشدة حـين تغلبت قوى « أهريمن » « إله الظلام » كان يكافح في حماسة وإيثار من أجـل تسكين آلام المطالبين بالحرية ، زاجاً بنفسه في التهلكة ٠

والى جانب ذلك ٠٠ فان « هدايت» قام بجهد كبير في ترجمة الآداب العالمية الى لغة بلاده وكان أول مترجم لأعمال « تشيكوف » وترجـم لكافكا وسـارتر وجيرار دي نرفال وكان يعتبر الترجمة جانباً من نشاطاته الفنية ومن واجبـه القومي تجاه وطنه ، عبر نقل الآثــار الأدبية العالمية كي يقرأها ، يطلع عليها، يستوعبها الناس في بلاده ٠

ويقســم المستشــرق الســـوفييتي « كميسروف » أعمال هدايت الأدبيـة المئة التي كتبها خلال اثنتين وعشـرين سنة الى فترتين ، الفترة الأولى من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٤١ ، والثانية من سنة ١٩٤٢ الى سنة ١٩٥٠ ٠

ويبدو تأثـير آداب أوربا الغربيـة واضحاً في فن « هدايت » في فترته الاولى فأحداث قصصه تقع في العوالم الآخرى إذ تتناجى أرواح الموتى عن الحياة على وجه الأرض وتناقش ظهورها في الحياة الأخرى ، وثمة في تلك المرحلة قصصاً لــه تشمل إنعكاســات عن الوضع غير المستقر للروح ، وتتردد في قصص تلك الفترة تعبيرات السخط والرفض والعبث وعــدم جدوى الحياة ، واكثر أبطال قصصه إنهزاميون هاربون وجميع أبطاله يصارعون ويفشلون وفي النهاية تصيبهم خيبة أمل واحدة ، فينهارون ويتشردون أو يودعون الحياة منتحرين في الغالب٠٠ هذا في المرحلة الأولى من عطاءاته ٠٠ بينما تتجسد مواقفه الى جانب الشعب والحياة والانسان في مرحلته الثانية٠٠ ففي هذه المرحلة من عطاءاته نجد الميل الواضـح الى الواقعيـة ، فالمشـــاكل الاجتماعية الصارخة والصراعات المرتبطة بالناس والوطن كانت دعائم تيار القصة الواقعية في ذلك العصر ، وساعد تغير الحالة السياسية في إيران في تلك الآونة على نمو هذا التيار عند « هدايت » الذي بدأ في مرحلته الثانية هذه بالانفعال

جيداً مع الجماهير وبدأ يستمد أعماله منهم ، واكتسب بذلك مكانته وأهميته·

ولقد بحث الكثيرون عن السبب في إنتحار « هدايت » ، بعضهم يرده الى أسباب شخصية بحتة ، ومنهم من يقول أنه أصيب بيأس من الحياة بعد وفاة أحد أصدقائه ، وبعضهم يرد إنتحاره الى مصرع زوج أخته « رزم آرا » الذي كان رئيساً لوزراء إيران واغتيل ·· ومهما يكن فان فكرة عدم الرضا عن أوضاع وطنه في تلك السنوات البعيدة ترتبط في شكل ما بمسألة إنتحاره فقد كانت ايران في الخمسينات حيث غادرها «هدايت» ، قد ركنت الى يأس مرير·· وكما يقول هدايت نفسه عن تلك الفترة:

« لقد انزوى المثقفون ، وعادت الكعوب الحديدية تدق أمام أبوابهم في الليل ، ورأيت أن كل ما سأكتبه سيصبح غير ذي شأن » ·· وأمام ذلك الوضع النفسي أحرق أوراقه ومضى ، فقد كانت هناك فجوة واسعة تهدد بعدم وصول ما يكتبه الى من يكتب من أجلهم ·· ولا ريب أن هذا الموقف ·· مدان ·· ويشكل هروباً من الحياة ويجب أن يكون الكاتب أبعد ما يكون عن إتخاذ مثل هذا الموقف المدان ·· غير أن المسألة أن الكاتب رحل··واستطاع أن يستمر في الحياة عبر أعماله وعطاءاته الهامة·· وكما كان يقول « بوتيف » الشاعر البلغاري الشهيد :

« إن من يسقط في معارك الحرية والحياة

ومن أجل الشعب

لا يموت ··

لا يستطيع أن يموت أبداً ·

ويحتوي الكتاب « قصص من الأدب الفارسي المعاصر » لصادق هدايت على أربع عشرة قصة قصيرة تمثل الاتجاهات الفكرية المختلفة لهذا الكاتب وكما يقول د· ابراهيم الدسوقي في مقدمته لهذه المجموعة من القصص :

« ولما كان هذا الأديب العظيم لم يظفر بما يستحق من معرفة عند القراء العرب ، ولم يُترجم من أعماله الى العربية الا ما قدمه الدكتور « أمين عبد المجيد بدوي » من ترجمة لقصته « ثلاث قطرات من الدم ·· فاني أقدم الى قراء العربية أديباً تأخرت معرفتهم به ، أقدمه من خلال أربع عشرة قصة قصيرة ، حاولت قدر الامكان أن أجمع فيها كل اتجاهاته الانسانية والفلسفية ، واني آمل أن أكون قد وُفقت في نقل أدب هذا الأديب ذي الشهرة العالمية ، حتى يتم إلتقاء التيارين العظيمين للأدب الشرقي والأدب الغربي في بلادنا التي كانت وستظل دائماً ملتقى الحضارات»·

و ·· قد بذل الدكتور المترجم جهداً مشكوراً وواضحاً في ترجمة قصص المجموعة ·· مما يجعلها إضاءة لعالم هذا الكاتب الايراني الكبير ·· ومما يجعل بالتالي من هذه المجموعة إضافة لها حضورها وأهميتها في المكتبة العربية·

عادل أبو شنب :

صفحات مجهولة من تاريخ القصة السورية : دراسة ونماذج*

بقلم : ماريا خيوس بيغيرا
ترجمة: رفعت عطفـه

ماهي التأثيرات الاجتماعية ـ ابتداء من الروح وحتى الشكل الاجتماعي مارّين ب ٠٠٠ ـ للأقصوصة ؟ : « هذا الكتاب يحاول أن يجد جواباً » (ص٥) ٠

قليلة هي الدراسات التي كُرّست لهذا الموضوع ـ وهي لا تتعدى الكتابين وبعض الأطروحات الجامعية التي لم تنشر : ـ « هـذا الكتاب يحاول أن يسـد فراغاً » (ص ٦) ٠

هذان الغرضان : البحث عن أجوبة ـ وسدّ فراغات ، يميزان كثيراً مرحلة التحقيق عند عادل أبو شنب (المرحلة الأخرى هي مرحلة الابداع : أربع مجموعات قصصية ، خلال الأعوام ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ و ٧٣ ؛ ومسرحية للأطفال ، ٠٠٠ إلخ)٠ وقد حاول هذا الكاتب السوري في ثلاثة كتب أخرى تنظيم أعمال أدبية غير متناسقة، معتمداً على التحليل الذي لا مأخذ عليـه : **حياة الفنان عبد الوهاب أبـو سعود** (١٩٦٢) ،**ومسرح عربي قديم : « كركوز »** (١٩٦٤)**وكان ياما كان (١٩٧١)**٠

في الفصل الأول من كتابه هذا (ص ١١ ـ ٧٦) يحيي المؤلف من جديد ويحلل بعض الباكورات الواعدة ٠ إن دراسة شاكر مصطفى **(القصـة في سـورية حتى الحرب العالمية الثانية** ، دمشـق ١٩٥٨ ٥٨٣ ص) هي مرجـع « أبـو شنب »

(★) منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق : ١٩٧٤ ـ ٢٣١ صفحة ، ١٩ × ١٣٫٥ سم ؛ ٣٫٥ ليرة سورية ٠

لاستقصاء المواد (التي لم تؤخذ بعين الاعتبار حتى ذلك الحين) عن تلك الروائية المجهولة تماماً ، والتي تمثل فقط روائية الربع الأول من القرن العشرين (وقبلها ، ترى هل هـذا صحيح ؟ هاهم فرانسيس المرّاش ١٨٣٥ ـ ١٨٧٤ وفرح أنطون ١٨٧٤ ـ ١٩٢٢ ـ بين مجموعة من المترجمين والآخذين بتصرف والمبدعين لم تدرس حتى الآن بشكل فعال ، لا لشيء إلا لأنها تحمل في ظاهرة تاريخها ظاهرة تعريفها)٠

عادل أبو شنب يكشف النقاب عن خمسة نماذج من القصة الواعدة : **المخدر يبيح الأسـرار** (١٩٢٨) ، **عاطفة في نظر القانون جريمـة** (١٩٢٨) ، **الحب العصري الشريف** (١٩٢٧) ، **طارق بن زياد وفتح الأندلس** (١٩٢٨) ، **على مذبح الأنانية** (١٩٣٠) ، وكلها منشورة في المجلة الشهرية **العرفان** ٠

لقد رجع إلى الصحافة الدورية ، كبرنامج ومنهاج ، وكان مصيباً في هذا ؛ وهنا يكمن القسم الأول ٠ الصحف تبدأ بنشر الأقاصيص ٠ اجراءات كل منها تنسق ، كما هي متناغمة جِدّتها ، وانتصارها ، الخ ٠ إن الصحافة والأدب العربيين الجديدين يسيران معاً بشكل جذري : الأولى تنشر قصصاً وتخلق معجبين ـ هـذا التعاون الذي يصل الى أن يصبح متبادلاً ـ ؛ هناك مظهر آخر : الصحف أنعشت مبادرات كثيرة ، إدارات تحريرها أظهرت « شجاعات جماعية » في التطور لما هو جديد(١) (هذا الشيء ، الذي لم يكن سوى حدس خالص ، انتهيت الى تأكيده في رواية عراقية : **خمسة أصوات** لغائب طعمة فرمان (بيروت ١٩٦٧) : في بغداد عام١٩٥٠ إدارةتحرير صحيفةتخفي خمسة مفكرين يحملون ميولها الشخصيةللتكيف)٠

إن تحليل القصص المطروحة ، الذي يقوم به « أبو شنب » باسهاب ، يقدم لنا ملامح أصيلة : بعض الشخصيات تحمل أسماء أجنبية (هيلين ، روك) ، هكذا كانوا يستطيعون أن يأخذوا دور معالجة ما (شخصية ، واقعية ، وعاطفية) للحب ، الذي كان من المحرمّات لأنه يفهم بهذا الشكل : بمعنى أنه كان يتكلم عن الحب بشكل مثالي أو قبيح ، الشيء الذي كان يسمح به الشرع أو العرف ، بينما كان الغريب واللا مقبول هو التعبير الطبيعي (ميكل أنخل أستورياس قال ، وبشكل عام ، أن ألفاظ الحب في الأسبانية كانت إمّا صوفية وإمّا تُكّنية) ٠ إن موضوع الحب هو أحد الموضوعات الأساسية في الملامح الأصيلة للروائية العربية الجديدة ٠

---

(١) عندي في « فيشي » إشارة الى أن **مجلة العرفان** نفسها ، عام (١٩٢٥) عدد ١١٢ ص ٣١١ ، نشرت مقالاً بعنوان **الصحافة والأدب** ، إنني لـم أقرأه ، ولكن العنوان لوحـده ذو معنى بالنسبة لما أنا بصدده ٠

تهمنا من بين القصص المنتقاة وبشكل خاص قصة **طارق بن زياد :** « بصراحة إن دراسة موضوع الأندلس في الأدب العربي المعاصر هو ينبوع مضمون » هـذا ما يقولـه بدرو مارتينث مونتابث **في محاضر الحوار الثاني الاسباني التونسي للدراسات التاريخية** (مدريد عام ١٩٧٣ ص ٢٤٤ ، رقم ٢٣) • عدا عن كون هذه القصة هي أطول القصص فانها تحوي ملامح ذات معنى : فهي بتوقيع مستعار « ابن البادية » لا أكثر ولا أقل ، إنها تأكيد أهوية جماعية ، لا فردية ، تماماً مثل هيكل : « مصري فلاح » • « أبو شنب » يشير جيداً إلى أن هذه الموضوعات كانت تلقى إعجاب الجمهور ، لأسباب من بينها الدافع الوطني أو القومي (ص ٣٣) • ومن محصولي الخاص أضيف عاملاً آخر يمكن أن يكون هزيلا ومعوجاً : في ذروة الاختناق الاستعماري الغربي يمكن إفتراض نوع من « الانفلات » للتذكير بأنهم وضعوا رمحاً لهم في أوروبة • ومما يؤكد هذا أنّ الرواية تقول إن طارقاً عاد الى الأندلس ليتزوّج من ابنة دون خوليان ، وهكذا اختار الكاتب هذه النهاية ، التي يجهلها التاريخ •

شخصياً يؤسفني أن « أبو شنب » لم ينقل قصـة طارق بن زياد في ملحقه الأخير (ص ١٧١ ـ ٢٢٨) حيث يقتطف نماذج قصصية لربع قرن : **المخدّر يبيح الأسرار** (١٩٢٨) لمحمد أديب رهونجي ، **الضيف الثقيل** (١٩٣٣) لعلي خلقي ، التي لم تنشر قبـلاً ، **سرّ الهاربتين** لمحمد النجار ، **المرحلة الأولى** (١٩٤١) لوداد سكاكيني ، **ودرب إلى القمة** (١٩٥٢) لمواهب كيالي •

في الفصل الثاني يطرح أبو شنب موضـوع الواقعية في قصص علي خلقي (ص ٤٥ ـ ٧٦) وهو من مواليد عام ١٩١٠ وعرف وهو في العشرين من عمره بمجموعة يذكرها الكاتب : **ربيع وخريف** ، رغم أن « أبو شنب » يحلل في الواقع قصصاً أخرى متفرقة لهذا المؤلف ، « واحد من أوائل من فهموا أن القصة فن أدبي جديد (ص ٤٦) ، « إنه الأول تقريباً الذي كتب القصة وهو يعرف أنه يكتب قصة » (ص ٧٥) ويكتب أدباً ملتزماً ، « وطـرح دون أن يعلم ذلك ، الالتزام الروائي للخمسينيات » •

ويكرس لمحمد النجار ، صاحب مجموعتين قصصيتين ، (١٩٣٧ و ١٩٤٦) ، الفصل الثالث (ص ٧٩ ـ ١٠٠) ، وهنا يكرر النموذج : مقدمة عن سيرة المؤلف ، استدعاء بيئوي مسهب ثم تحليل لبعض القصص • النجار هو مؤلف آخر تم إنقاذه اذ مات يلفه النسيان في نهاية عقده السادس •

إن سنوات الحرب العالمية الثانية ، بشكل خاص ، كانت فارغة ـ بالطبع في حقل الأدب ـ ، إلا أن « أبو شنب اكتشف منجماً مـن القصص : مضمنة في مجلة **الصباح** الأسبوعية التي أسست في دمشق عام ١٩٤١ · ولشرح هذا يكرس الفصل الرابع (ص ١٠٣ ـ ١٥٤) : يقص علينا أولاً الظروف وأسماء كتاب وإشارة الى نظرية أدبية هامة لفؤاد الشايب (ص ١١٢ ـ ١١٥) ، وبدايات العجيلي ، الذي نال الجائزة الأولى التي أعلنت عنها عـام ١٩٤٢ المجلة · ثم تحليل للقصة الفائزة والأخيرة ·

يعالج الفصل الخامس (ص ١٥٧ ـ ١٦٨) موضوع جيل الاتهام : إنـه جيل الخمسينيات (هذا الجيل الذي عالجته على الأقل ثلاث روايات شهيرة لحسيب الكيالي ، ١٩٥٦ ، ومطاع صفدي ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦١) ·وقد شـهد هـذا العقد ولادة **رابطة الكتاب السوريين** ، التي أغلقت عام ٥٩ ، لأسباب سياسية · ويعتبر بيانها الذيأذاعته هاماً (ص ١٥٨) · ظهر في عام ١٩٥٢ كتابها العامالأول: **درب إلى القمـة** ، مجموعة قصصية · وهكذا : « **انتهى عهد البدايات** » ···· بهذا ينهي الكتاب ·

في الحقيقة ، قدم لنا المؤلف ، بهذا المشـروع المطرد ، والمصيب ، تاريـخ الروائية السورية لأربعة « عقود » (ويمكن تلخيصها في الحقيقة بربع قرن) واضعاً في الاعتبار رموزاً ضائعة ، ومجهولة (وربما لهذا حولها الى رموز زائدة عن الحد) جاعلاً إياها مطلقة ، على شـكل تمثيلي ، وقد همه « تجسيد الشخصيات كنماذج في الواقع » (ص ٧٥) من أجل استنتاجاته وتركيباته ·

إنه لمن الأهمية بمكان كيف وفّق أبو شنب بين نوع من التركيبية ونوع من التاريخية الحقة · إن مؤلفه هذا لمساهمة ذات قيمة لمن يكرس نفسه ، مثلنا هنا ، لموضوعات كهذه ·

---

(١) المقال عن مجلة « المنارة الاسبانية » العدد ٧ ـ ٨ عام ١٩٧٥ التي يصدرها الاستاذ مارتينث مونتابث في مدريد ·

الولايات المتحدة الأمريكية

شـارع جونز العظيم

تاليف : دون ديليللو
اعداد : محمد الظاهر ـ الاردن

قبل صدور هذه الرواية بعام واحد فقط ، أصدر دون ديليللو رواية « نهاية الدائرة » ، تلك الرواية التي استطاعت من خلال لغتها الهزلية ، ومضمونها الذي يفرض نفسه على القارىء • من خلال عمليتي الأخذ والعطاء ، أن تلفت نظر القراء والنقاد اليها ، محققة بذلك نجاحاً كبيراً للكاتب ، مثبتة وجوده على خارطة الرواية الامريكية • ومعلنة أن لديه الكثير مما يريد قوله •

وها هو بعد عام واحد ، فقط ، يطلع علينا بروايته « شارع جونز العظيم » مؤكداً الخط الذي سار عليه في روايته السابقة ، مضيفاً اليه بعداً نفسياً سيكولوجياً• من خلال وقوفه على حادثة انتحار بطل روايته « بكي وندرلك » ومن خلال تحليله للمواقف المتناقضة التي تتبلور من خلال عملية الرصد الواعية لتلك الحادثة •

فها هو « بكي وندرلك » يترك مجموعته ، ـ تاركاً بذلك حياة الصخب ـ في « هوستن استرودوم » ويعود الى شقته في « منهاتن » ، لينتحر هناك بصمت • وها نحن ندخل تلك الشقة التي كان يقيم فيهـا « وندرلك » لنجد أنفسنا أمـام موقفين متناقضين :

★ ذلك الجار الرغاء الهرم ، الذي يزعم انه كاتب كبير ، وانه يكتب تحت اسم « ادوارد بي فينغ » :

« لابد وانك سمعت بي ، لابد وانك سمعت شيئاً عني • لقد دعيت مرتين من أجل البت في جريمة « لاسزلو بياكوف » الغامضة ، كما انني قد تقدمت بأبحاث عظيمة لكلية الزراعة في « اركنساس » ••• انني أعرف كل مجمعات الكتاب ، وهذا الشيء لا يعرفه الا القليل من الناس ••

★ هذا هـو الموقف الأول أما الموقف الثاني ، فانه لا يخرج عن نطاق ذلك المكان ، بل في نفس الشقة في غرفة مجاورة ، حيث يرقد أحـد الاطفال المعوقين « اخرس » يتأوه ، وينظر الى سطح الغرفة وجدرانها ، مازجاً الجمال بالرعب ، محاولاً التعرف على تلك الأشياء المبهمة التي لا يدرك لها معنى ٠

بعد ذلك التناقض الغريب بين الشيخوخة والطفولة ، بين النطق والخرس ، يعبر بنا المؤلف الممر الطويل الى غرفة « بكي وندرلك » بطل قصته ، حيث نصطدم برزمة المخدرات ٠ تلك المخدرات التي عشعشت في عقل « بكي وندرلك » وقادته نحو المجهول ، حيث يصف لنا ديليللو بطريقة الايحاء النفسي المنظم والفعال كيف تسربت ذرات الرعب الحقيقي الى عقل « وندرلك » :

« ستكون معافى تماماً ، لن يكون بمقدورك التعامل مع الكلمات ٠ هذا هو كل شيء ، أن تتسرب الاشياء الى ذاكرتك بالطرق المتعارف عليهـا ، استسلم ، استسلم ونفذ كل ما أمليه عليك » ٠

هنا تظهر مقدرة « ديليللو » على التلاعب بالكلمات ، ذلك التلاعب الذي يعطيها سحرها ، ويوطد علاقتها وصلتها بالقاريء ٠

لكن هل استطاع « ديليللو » بالرغم من اضافاته ، أن يتجاوز روايته السابقة ٠ « نهاية الدائرة » ؟؟

في الحقيقة لا ٠٠ ذلك أن هذه الرواية تقع في مطبين كان من الواجب تجاوزهما ٠

أولاً ــ السوداوية والتشاؤم ، اللذان يفرضان نفسيهما على جو الرواية ، منذ البداية ، وحتى النهاية ٠

ثانياً : محاولة الكاتب ، فرض تصوراته الذاتية ، واقحامها في سياق الرواية ، من خلال اقحام عملية موت الفتاة ، تحت تأثير الصمت والرعب ، من خلال التركيز الشديد على بث الرعب والصمت في كافة خلايا الرواية ٠

هذان الخطان لم يقع فيهما « ديليللو » في روايته السابقة « نهاية الدائرة » ولكن بالرغم من ذلك ، فان هذه الرواية تبقى واحدة من الاعمال الناجحة التي تفرض نفسها على القاريء من خلال تفاعلها المباشر معه ٠

«الآداب الأجنبية»
من خلال المجلات والصحف والقراء

الآداب الأجنبية في سنتها الثانية

فاجاتنا مجلة الآداب الأجنبيـة الفصلية التي يصدرها اتحـاد الكتاب العرب بدمشق بنكهة جديدة وذات طعم خاص تسيطر علىهذا العدد من سنتها الثانية بعد أن غاب عنا العدد الاول لهذه السنة دون أن نعرف سببا لذلك•

نحن مبدئيا بعد قرائتنا للعدد الاول من هذه المجلة وكان ذلك لسنة مرت طالبنا بالحاح أن تكون شهرية أو قل مرة في كل شهرين ، لا ترفا بل ضرورة كنا نبحث عنها وجاءت هي لتحقق لنا شيئا هاما من تلك الفرحةالغامرة•

ان الآداب الاجنبية تضعنا عبر أعدادها في قلب العالم المتحرك شرقه وغربه وتطلعنا عـلى نماذج من آداب أممه وأنماط من تعابير أهله • ولعلهـا المنبر الادبي الوحيـد الذي استطاع ان يحقق لنا أمنية طال لهاثناوراءها• لا نقول ان الآداب الاجنبية حققت كل شـيء لكنها حققت أشياء مما نحلم ونتمنى ، خاصة بالنسبة للذين لا يجيدون من اللغات العالمية الا العربية •

ويأتي هذا العدد « الثاني ـ السنة الثانية » ليرسخ الفكرة ويضيء جوانبها • فينفرد عن الترجمـة مجرد الترجمة الى استحداث محاور هامة جدا عن بعض أدباء العالم • أو محاور هامة عن بعض آداب العالم •

في البداية يقدم لنا الدكتور أحمد سليمان الاحمد ـ رئيس التحرير ـ محوراً عن الشعر التشيكوسلوفاكي المعاصر•ويقـدم لنا مجموعة منهذا الشعر عبر أربعة من شعرائه المعاصرين مع نبذ مكثفة عن حيواتهم • ويطالعنا محـور ثان عن القصة البلغارية من خلال « نيقولاي خايتوف » ويترجم ميخائيل عيد أربع قصص كاملة عنه ، بينما يقدم الياس ندور محورا طويلا عـن الشاعر ميشال ديغي تحت عنوان « أعمال ١٩٦٦ » ونقرأ ديوان شعر كاملاً لهذا

الشاعر • ويقدم القاص جورج سالم محوراً ثالثاً عن القصص الايطالية فيترجم عن دينو بوتزاني خمس قصص كاملة بعد مقدمة نقدية وتاريخية ضافية • ويقدم الدكتور منير الاصبحي محوراً رابعاً عن القصة الانكليزية القصيرة عبر ثلاث أديبات •

هذه أهم المحاور الابداعية في العدد وهي تضع قراء المجلة أمام أربع موائد أدبية مختلفة الوانها • وفي مجال النقد والدراسة يترجم الدكتور أحمد الحمو بحثاً طويلا عن « منطق بريخت في المسرح » مع تقديم نقدي • ويقدم الناقد اللامع يوسف اليوسف ترجمة لقصة انكليزية لغابرييل جوزيفتشي ويعقبها بدراسة نقدية موازية لها • ثم يقدم الياس سعد غالي دراسة مقارنة بعنوان المعري ولوقيانوس السمسياطي •• ودراسة نقدية أخرى لـ « ف• شيربينا » عن الاغتراب والادب المعاصر يترجمها نزار عيون السود • وتظل في العدد قصة واحدة لآنا زيجرز يترجمها عبده عبود عن الالمانية •

واهم ما في هذا العدد هو أن كل مواده من الانتاج العالمي الجديد والمعاصر ، وهذا يضع تاكيداً على قدرة هذه المجلة على ملاحقة تطور الادب العالمي باستمرار •

مجلة « الرسالة » ـ الكويت

العدد ٦٩٥ السنة ١٥

الآداب الأجنبية (فصلية ـ سورية):

يصدرها اتحاد الكتاب العرب أيضاً • المجلة الاولى من نوعها في الوطن العربي تنحصر مهمتها في عرض آداب الأمم الاخرى أي أن الأعمال الأدبية المعربة عن اللغات الأجنبية تشكل لبنتها الأساسية • ونعتقد أن هذه المجلة سيكتب لها نجاح أكبر اذا أصبحت مجلة شهرية فالقارىء العربي قد ينتظر شهوراً ثلاثة حتى يقرأ مجلة اقتصادية أو تربوية أو طبية أو عسكرية ولكن ذلك يصعب عليه عندما يكون الأمر متعلقاً بالأدب فهو يتوق الى مطالعة المجلة الأدبية في مطلع كل شهر أو أسبوع •

ياسر الفهد

في كتابه « مواقف مع الصحافة العربية »

■ دخلت مجلة الآداب الأجنبية عامها الثاني ، وقد اكتسبت خلال هذه الفترة القصيرة ثقة القراء والأدباء العرب بما اعتمدته من نشر لترجمات الكتب والمقالات والبحوث والقصص والشعر العالمي •••• كما أنها خلال هذه الفترة الوجيزة أصبحت متميزة عن المجلات الأدبية العربية الأخرى باختصاصها واقتصارها على الآداب الأجنبية العالمية وخاصة ما يخدم قضايا الثورة العالمية داخل وطننا العربي •

جميل محمود أبو صبيح

مجلة « أفكار » ـ الاردن

العدد (٢٩) تشرين الاول ١٩٧٥

■ يسعدني أن يكون بمتناول أيدينا مثل مجلتكم القيمة تلك معتبراً إياها انجازاً أدبياً كبيراً لابد منه ٠

فوزي عطية شناق

الاردن

■ حقاً إن مجلة الآداب الأجنبية لدليل واضح على نماء المحاولات التثقيفية في وسطنا الحالي الفقير بكل المصادر الضرورية لتطوير الأفق والثقافة العربيين فشكراً لكم ٠٠٠ أعتقد أنها ظاهرة جديرة بالاهتمام من قبل مثقفينا وخاصة لأنها تتبنى الفكر التقدمي الثوري ٠ وأشكر أيضاً الفنانة سمر موسى باشا مصممة الأغلفة وأتمنى أن أحظى بعنوانها لأراسلها وأهنئها على رسومها الملونة بشكل جميل وعصري ٠ ولي طلبان صغيران هنا :

أولاً ـ أن تنشر في كل عدد صورة ملونة كبيرة لأحد مشاهير الأدب العالمي ليضعها المهتمون في غرفهم بدل صور الممثلين والممثلات ـ كما يفعل بعضنا ـ فهي تلوّن حياتنا بشعور مسؤول عن الأدب الحقيقي ٠

ثانياً ـ سرد مختصر لتاريخ تطور الأدب في البلد الذي تقدّمُ المجلة نماذج من عطاء أدبائه ٠ وحبذا لو تبينون ما نوع الأوزان الشعرية التي يكتب فيها شعراء تلك البلدان والتي تختلف عن الأوزان العربية كما نوهتم في كتابكم « هذا الشعر الحديث » ٠

مي منصور

اللاذقية

أقرأ كثيراً ٠٠ بالنسبة للمجلات أتصفح أغلبها وأقرأ بروية « الآداب الأجنبية » ٠ حبذا لو صدرت شهرياً ٠

أديبة معروف

مدينة الثورة (سد الفرات)

مجلة الثقافة الشهرية

تشرين الاول ـ ١٩٧٥

■ مجلتكم ٠٠ استطاعت أن تنقل للقارىء العربي خلال فترة قصيرة تغطية عريضة لأهم المساهمات في الأدب العالمي ٠ وانه لاتجاه ثمين أن يبادر اتحادكم لتوثيق علاقة المثقف العربي بانجازات وتطورات الثقافة في العالم خلال رصدها ومتابعة آفاقها ٠

صلاح عبد اللطيف

بغداد

■ لا نشك أن الحياة الأدبيـة في سورية نشيطة متوثبة والأدباء يخوضون جميع التجارب الفنية بعزم لا يعرف التردد ، واذا كانت نهضتنا الحديثـة قـد قامت على دعامتين : بعث تراثنـا القديم ، ونقـل التراث الاوروبي الى حياتنا الفكرية والوجدانية ، فانت أكثر الرواد حماسة للتراث المتقدم من الفكر الاوروبي ، عرفت أعلامه ، ونفذت الى لبابه وأصوله ، ثـم حملت بعد ذلك قلمك ورحت تكافح قوى الظلام ، من رجعية فكريـة واجتماعية وسياسية ، واستعمار باطش ينهب خيرات الشعب ويقف في طريق نهوضه وتطوره . لقد كنت منذ اللحظات الاولى التي حملت فيها القلم داعية الفكر العلمي ، والمبشر بالاتجاهات التقدمية ، مع رقة وعذوبة شديدة في الشعر والنفسية .

وكتاب « الآداب الأجنبيـة » الذي تقدمه من خير ما تقدمه على مائدة الفكر لشبابنا الذي يريد أن يعرف ويختبر ، وينتقي ويجدد لأنك لا تقدم الينامجرد ترجمة وانما تدلنا في دقة العالم وعمق الفيلسوف وحساسية الفنان الى القيم التي نمارسها اليوم في حياتنا ، والتي نتطلع الى ممارستها في غدنـا القريب والبعيد .

نرجو ونود لو نقرأ شيئاً عن شعر الشاعر العظيم شيللي .

دمشق ـ **ثريا مورهلي**

في العدد الرابع من « الآداب الأجنبية »

نقـرأ :

■ مختارات من الشعر اليوغوسلافي المعاصر

ترجمة : د. أحمد سليمان الأحمد

■ مختارات للشاعر الايطالي ايوجينيو مونتالي الحائز عـلى جائزة نوبل ١٩٧٥ .

ترجمة : عيسى الناعوري

ضيوف الاتحاد

■ زار دمشق بدعوة من اتحاد الكتاب العرب وفد من اتحاد الكتاب السوفييت مؤلف من : فلاديمير أملينسكي سكرتير الاتحاد ، القصصي وكاتب السيناريو المعروف ، وكذلك المستشرق السوفييتي ايغور يرماكوف مستشار اللجنة الخارجية للشؤون العربية في الاتحاد ، وقد اجتمع الوفد الى رئيس إتحاد الكتاب العرب الاستاذ حافظ الجمالي وأعضاء المكتب التنفيذي وجرى بحث التعاون بين الاتحادين كما تم تجديد الاتفاقية الى عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ـ وتنص الاتفاقية ـ فيما تنص ـ على تبادل المجلات والمنشورات الصادرة عن الاتحادين ، وتعريف شعوب الاتحاد السوفياتي على مؤلفات وأعمال الكتاب والأدباء العرب ، والعكس • وكذلك تبادل الوفود من أجل تدعيم الروابط الثقافية والاطلاع على أهم المنجزات •

ويعتبر فلاديمير أملينسكي واحداً من أبرز كتاب القصة والاقصوصة في الاتحاد السوفياتي • كان في الرابعة من عمره عندما بدأت الحرب الوطنية العظمى عام ١٩٤١ • هاجر مع أهله الى سيبيريا ، وعاد الى موسكو بعد النصر •

كَتَبَ أول عمل أدبي وهو قصة قصيرة للأطفال عندما كان في الثالثة عشرة من عمره • وبعد أن أنهى الثانوية انتسب الى المعهد السينمائي في موسكو وبدأ انتاجه الأدبي في النصف الثاني من الخمسينات حيث كان ينشر باستمرار في مجلة « الشباب » (يونيست) • وكان رئيس تحرير المجلة ، في تلك الفترة ، الكاتب السوفياتي الشهير فالنتين كاتاييف الذي يعتبر المعلم الروحي لأملينسكي • وقد رأى فيه كاتاييف شاباً مبدعاً مبشراً بمستقبل أدبي باهر •

عمل أملينسكي مراسلاً صحفياً للصحيفة الأدبية الصادرة عن اتحاد الادباء السوفييت ، وجال في مختلف أرجاء الاتحاد السوفييتي ، وعلى الأخص ، سيبيريا ، حيث كان يكتب عن التغيرات الجذرية فيها • وفي الوقت ذاته تابع نشر أعماله الأدبية في مختلف المجلات الأدبية ، وصدر له حتى الآن خمسة عشر مؤلفاً أدبياً منها قصة « حياة ارنست شاتالوف » وقد قررتها وزارة التربية للدراسة في الصفوف الثانوية •

وآخر مؤلفاته رواية « عودة الاخ » التي تقص مصير إنسان تمكن من إيجاد مكان له في المجتمع بعد أن قضى فترة طويلة في السجن • وقد ترجمت الى عدة لغات أجنبية وفازت بجائزة « أفضل كتاب لعام ١٩٧٤ » في بولونيا •

محتوى العـدد

	ص
■ كلمة المجلة	
رئيس التحرير	٣
■ لوسيان بيكر ـ شاعر من عصرنا	
ترجمة : د.أحمدسليمان الأحمد	٥
■ بابلو نيرودا عن شعري .. وعن حياتي	
ترجمة : هاشم حمادي	٢٥
■ جورج ماورر	
ترجمة : د. عادل قرشولي	٤١
■ يان نيرودا ـ أشباح منتزعة من يوميات محام متمرن	
ترجمة : ليان ديراني	٦٤
■ قصتان قصيرتان	
ترجمة : يوسف اليوسف	١٣٢
■ ركس وارنر ـ إ.م. فوستر	
تنقيح : جون موريس	
ترجمة : د. منير صلاحي الأصبحي	١٤٧

	ص
■ السيدة پلام	
بقلم : ايزيكيل مباهليلي	
ترجمة : نزار عيون السود	١٧١
■ مطاردو الوظيفة	
ترجمة : ميخائيل عيد	
وليد داوود	١٩٥
■ الواقعية والواقع	
بقلم : بوريس سوتشكوف	
ترجمة : حنا عبود	٢٤٦
■ في المكتبات	
أبو الفتح محمد أديب عزت	٢٨٨
ماريا خيوس بيغيرا	٢٩٢
دون ديليللو	٢٩٦
■ الآداب الأجنبية من خلال المجلات والصحف والقراء	٢٩٨
■ ضيوف الاتحاد	٣٠٢

الموزعون

سورية : مكتبة حسين نوري ـ دمشق

الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

تونس : الشركة التونسية للتوزيع

بقية الأقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع ـ بيروت

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :

- للأفراد ١٥ ل.س
- للدوائر الرسمية ٣٦ ل.س

في البلاد العربية :

- البريد العادي ٢٤ ل.س
- البريد المسجل ٤٨ ل.س

تضاف تكاليف الطائرة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي

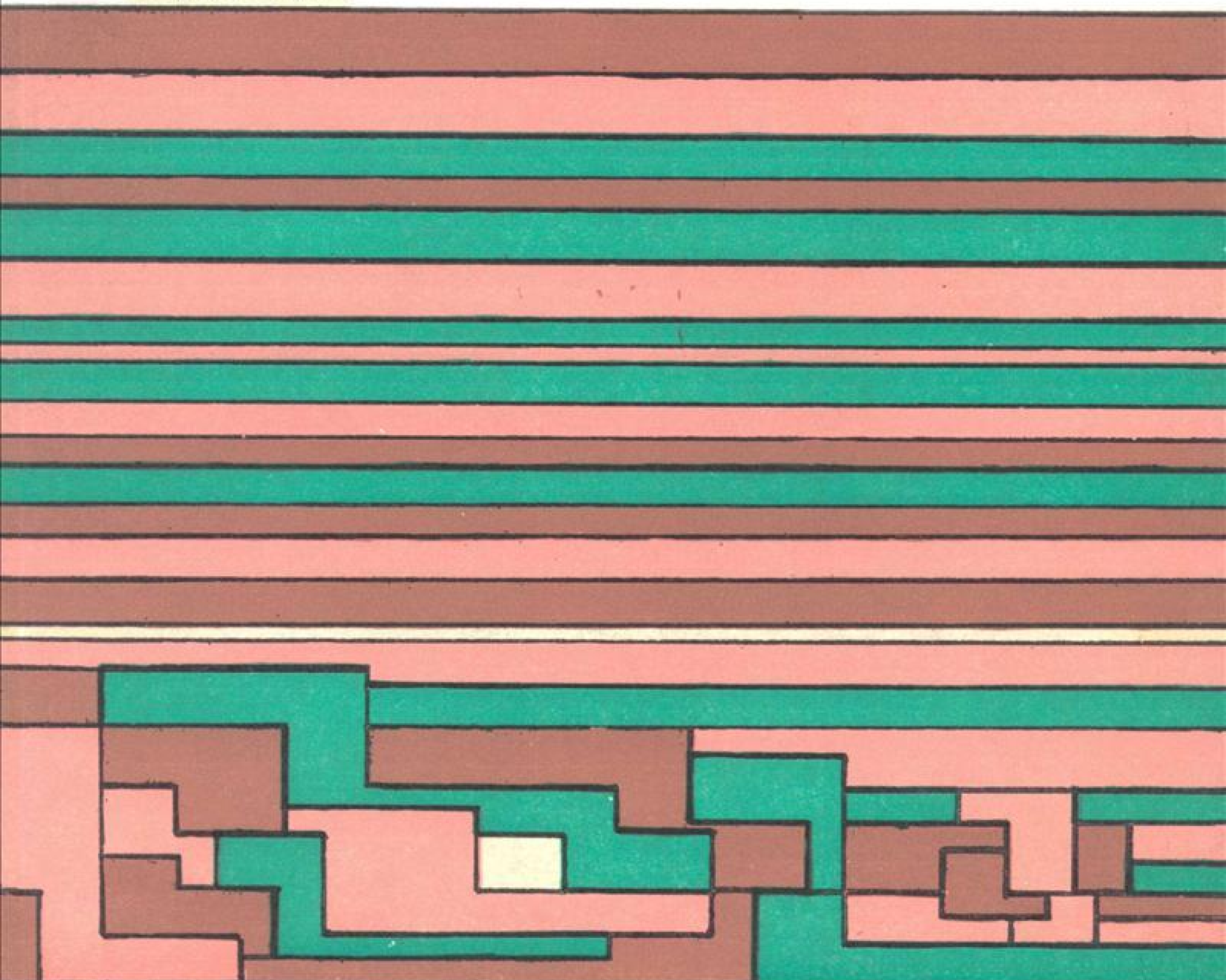
الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى محاسب اتحاد الكتّاب العرب

سعر العدد

سورية	٣٠٠	ق.س	عدن	٦٠٠	فلس
لبنان	٣٠٠	ق.ل	السعودية	٦	ريالات
الكويت	٤٥٠	فلس	ليبيا	٣٧٥	درهم
أبو ظبي	٩	دراهم	تونس	٧٠٠	مليم
دبي	٩	دراهم	المغرب	١٠	دراهم
الخليج العربي	٩	دراهم	الجزائر	٦	دنانير
الاردن	٤٠٠	فلس	السودان	٧٥٠	مليم
قطر	٦	ريالات	العراق	٤٠٠	فلس
البحرين	٦٠٠	فلس	مصر	٥٠٠	مليم

مطابع الف باء ـ الأديب ـ دمشق

تصميم : سمر موسى باشا



مطابع الف باء ـ الأديب ـ دمشق

السعر : ٣٠٠ ق.س